

على تخوم العالم الإسلامي

حقبة من تاريخ السّودان

(1822 ـ 1841م)

الترجمة من الإيطالية إلى الإنجليزية

ريتشارد هيل

الترجمة إلى العربية

عبد العظيم محمد أحمد عكاشة

ثريا الزين صغيرون





على تخوم
العالم الإسلامي

الكتاب: على تخوم العالم الإسلامي
حقبة من تاريخ السّودان
(١٨٢٢ ـ ١٨٤١م)

الكاتب: ريتشارد هيل
المترجم: عبد العظيم محمد أحمد عكاشة
ثريا الزين صغيرون

تاريخ النشر: الطبعة الثانية 2016م
رقم الإيداع: 2015/19905

الطبعة الأولى 1987م

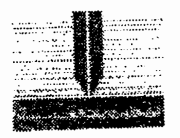
المدير المسؤول: أسامة عوض الريح
تصميم الغلاف: محمد الصادق الحاج

الناشر: دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع



الخرطوم غرب،
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت: 249912294714+
banaga1985@yahoo.com

المطبوعات العربية للتأليف والترجمة



المقرن، مربع ٣، عقار رقم ٥٦، مقابل عمارة الوحيد

على تخوم العالم الإسلامي

حقبة من تاريخ السّودان

(1822 ـ 1841م)

الترجمة من الإيطالية إلى الإنجليزية

ريتشارد هيل

ترجمة الجزء الأول إلى العربية

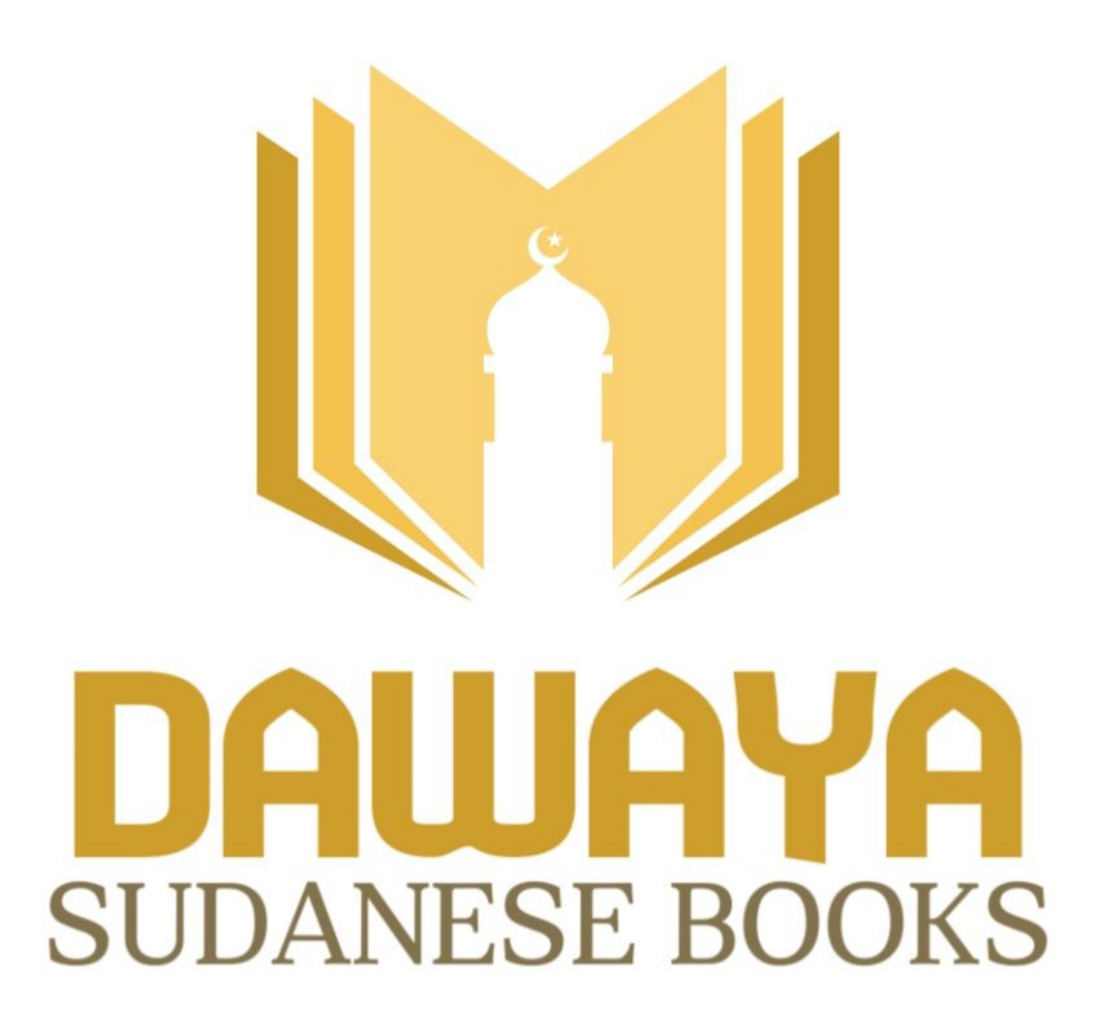
عبد العظيم محمد أحمد عكاشة

ترجمة الجزء الثاني إلى العربية

ثريا الزين صغيرون

نشر مشترك بين
دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع
و
المطبوعات العربية للتأليف والترجمة


على تخوم
العالم الإسلامي
(١)


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

الإهداء

إلى روح معلمي الأول . .

والدي عليه رحمة الله .

تصدير

كم أتمنى أن تكون هذه المحاولة إسهاماً متواضعاً في المجهود العظيم الذي يبذل لدفع حركة الترجمة والتعريب في أقسام جامعة الخرطوم.

شكري المقرون بالعرفان والوفاء للأستاذين الجليلين البروفسور علي المك والدكتور محمد سعيد القدال، فقد أعاناني على ترجمة هذا الكتاب الهام بوافر علمهما وصبرهما في الإشراف والمتابعة والملاحظة والنصح المستمر رغم زحمة العمل وضغوط المشاكل اليومية.

وشكري موصول لكل الأصدقاء الذين لم يبخلوا علي بنصائحهم الغالية وتشجيعهم لي طوال فترة إعداد هذا العمل، وللآنسة عوضية محمد عبيد على تحملها مصاعب الطباعة الشاقة.

وأسأل الله التوفيق

عبد العظيم محمد أحمد عكاشة
الخرطوم - ديسمبر ١٩٨٤ م



المقدمة

النافورة والجرة:

من أقوال ليونارد دافنشي «من يستطيع الوصول إلى النافورة لا يذهب إلى جرة الماء»(١). ولا شك أن الرسام العالمي يتحدث هنا عن فن الرسم الذي اشتهر به، وينصح الفنانين أن يستلهموا أشكالهم من الطبيعة الحية دون الالتجاء إلى القوالب الجاهزة الجامدة.

ويعلم المترجم ـ إذا كان صادقاً مع نفسه ـ أن قراءه هم الذين لا يستطيعون أن ينهلوا الماء عذباً من النافورة أو الينبوع، لا فرق. أما الذين يملكون حرية الاختيار فإنهم يفضلون الأصل دائماً. وهذا اعتراف عسير على المترجم، لأنه يعني ببساطة أن الأعمال المترجمة تأتي بالضرورة في المرتبة الثانية. ولكن ينبغي مع ذلك ألَّا نتشاءم فنقرر أن الترجمة بديل رديء للأصل في جميع الأحوال.

وتحظى الترجمة، دون شك، بسمعة سيئة عند العامة، بل وعند كثير من المثقفين. فما أيسر الإشارة إلى مواضع الخطأ والعيب في الأعمال المترجمة بينما تمر الترجمة الجيدة مروراً عابراً دون كلمة استحسان إلا فيما ندر.

على أن ما يستنبط من قول الفنان الشهير لا ينطبق على حركة الترجمة والنقل في جميع أوجهها وأنماطها وموضوعاتها. فالدارسون لنظريات الترجمة يعلمون أن الأساليب المتبعة في الترجمة تختلف باختلاف طبيعة المادة المراد ترجمتها. فالكتابة الأدبية مثلاً تتطلب ترجمة حرة، والمواضيع العلمية والسياسية والاقتصادية وما إليها لا بد أن نتبع في ترجمتها أسلوباً مقيداً وصارماً لا يقبل اللمسات الخاصة من المترجم إلَّا في أضيق

---

(١) Alan Duff, The Third language, Pergammon, 1981, p. 1.

الحدود. ويعتقد البعض في استحالة الترجمة في بعض مجـالات الآداب والفنون، خصوصاً تلك التي تجنح نحو الخيال مثل الشعر وبعض الأعمال الأدبية الأخرى التي تتسم بالذاتية والتجريد.

ومن حسن الحظ أن موضوعنا هذا لا ينطبق عليه ما أشرنا إليه من صعوبة الترجمة ولو أنه يجمع بعضاً من طرفي النقيض. وأعني بذلك أن لغة التاريخ، وإن كانت أقل صرامة، إلا أنها لا يمكن أن توصف بالتحلل من كل قيد كما في الكتابة الأدبية. فالتاريخ هو التاريخ بأي لغة على وجه الأرض، رغم أن بعض التفاصيل المتعلقة بالأحداث قد تتغير تبعاً لأسلوب من ينقلها من لغة إلى لغة أخرى، وكذلك باختلاف طبيعة اللغة نفسها. ولكن جوهر الأحداث والوقائع يبقى كما هو دون تبديل على مر العصور. والمؤرخ قد يطلع على ترجمة لكتاب من تأليفه فلا يضيف إلى الترجمة شيئاً لأن الناقل لا يملك غير صب المعلومات التي حواها كتابه في قالب لغة أخرى بأحداثها وشخصياتها وتواريخها. ولكن دعنا نتخيل أن قصيدة لأبي تمام أو شكسبير أو نزار قباني نقلت إلى إحدى اللغات. أكاد أجزم أن الشاعر قد لا يتعرف في كثير من الأحوال على قصيدته المترجمة على كثرة ما تبدل فيها إضافة وحذفاً وتحويراً للمواءمة مع قواعد اللغة الجديدة.

على أن ذلك كله لا يعني أن ترجمة الأحداث التاريخية تتم بصورة تلقائية دون معاناة، وبلا مجهود ابداعي أو ذهني. صحيح أن الأسلوب المتبع في ترجمة النصوص التاريخية يبدو واضح المعالم لا تعقيد فيه ولا تأويل،فالترجمة هنا أشبه ما تكون بالرسمية (Formal) التي تفرض نقلاً أميناً لكل معنى ـ ولا أقول كل كلمة ـ في النص الأصلي .ولكن حتى داخل هذا الإطار الضيق من حرية الترجمة، فإن على المترجم أن يحذرالوقوع تحت «سطوة» لغة المتن.

فالمعادلة الصعبة، إذن، تكمن في نقل النص نقلاً أميناً، ثم في نفس الوقت، صياغة الترجمة وكأنها كتبت أصلاً باللغة المنقول إليها. وهذا ما رميت إلى تحقيقه في هذه المحاولة قدر الإمكان، وأخال أن مترجم النص إلى الانجليزية قد فعل نفس الشيء عند ترجمته من الإيطالية. فالقارىء لا يشعر أثناء قراءته لفصول الكتاب أنه كتب بغير الإنجليزية، وذلك لسهولة اللغة وسلاستها وانسيابها. ولست أطمع، بطبيعة الحال، في مثل إجادة المؤرخ الضليع، ولكن يكفيني أن أوفق في ترجمة النص إلى لغة عربية لا يشوبها الكثير من الخشونة والركاكة مثل أغلب الأعمال المترجمة، لا سيما والترجمة هذه المرة تتناول عملاً منقولاً، فيما يعرف بالترجمة الثانية.

أهمية النص:

يشكل موضوع هذا النص الجزء الأول من كتاب رتشارد هيل «على تخوم العالم الإسلامي»[(١)]. أما الجزء الثاني فهو عبارة عن يوميات تتناول بعض الأحداث أثناء رحلة إلى سنار والحجاز في الفترة من ١٨٣٧ إلى ١٨٤٠ كتبها فرنسي عاش في السودان وعاصر أحداث تلك الفترة مثل زميله الإيطالي كاتب الرواية.

وقد ارتبطت فترة الحكم التركي ـ المصري في أذهان السودانيين بكثير من الأهوال والمفاسد. وبالرغم من بعض المآخذ على أول حكم وطني جاء بعد العهد التركي ـ المصري، ثم السياسات الاستعمارية التي اتسم بها الاحتلال البريطاني، إلا أن الأتراك خلفوا أسوأ الذكريات على أرض السودان. ومعلوم أن أي غزو خارجي لأي بلد يهدف في الأساس إلى فرض السيطرة على ذلك البلد ونهب موارده، غير أن هذا الهدف كان أوضح ما يكون عند ما زار محمد علي باشا السودان عام ١٨٣٨. فقد ظهر جلياً تبني الباشا لاستراتيجية ترمي إلى استغلال موارد البلاد عن طريق التنقيب عن الذهب والحديد، وتطوير المحاصيل السودانية بغرض تصديرها إلى مصر[(٢)].

وتتسم رواية مؤلف الكتاب بالصدق ودفء الشعور، ذلك لأنه، وإن كنا لا نعرف إلا النذر اليسير عن هويته، فقد عاش بين الناس بسيطاً، لا تحوم حوله شبهة التحيز على نظام الحكم أو الترويج له مثل كثير من الأوروبيين الذين كتبوا عن تلك الحقبة. وليس أدل على نزاهته ونبل مقصده فيما يروي عن تلك الفترة من إنصافه لبعض الحكام الأتراك مثل فرهاد وخورشيد اللذين يعترف بعدالة سياساتهما وأحكامهما في بعض الأحوال رغم ما يبدي من حنق وغضب على ممارسات الحكام الآخرين. ليس ذلك فحسب ولكنه ينتقد معظم الأوروبيين الذين عاصروه تحت سماء السودان في تلك الفترة على ما ظلوا يرتكبون من ظلم واستعباد لأبناء البلاد المغلوبين على أمرهم.

ولعله مما يشعر القارىء بثقة أكبر على صدق الرواية هو حماس شخص في وزن ريتشارد هيل لترجمتها إيماناً منه بأهميتها بالنسبة للمكتبة التاريخية. فالمترجم يعتبر من خبراء التاريخ السوداني عموماً وفترة الحكم التركي ـ المصري على وجه الخصوص، وقد كتب

---

(١) R. Hill, on the Frontiers of Islam, Clarendon Press, Oxford, 1970.

(٢) حسن أحمد إبراهيم، رحلة محمد علي باشا إلى السودان ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩، الخرطوم، ١٩٨٠، ص ١٤.

كثيراً عن السودان وعاش فيه طويلاً حيث عمل موظفاً في الخدمة المدنية على عهد الحكم الثنائي ومحاضراً بكلية غردون التذكارية. ولا بد أن ننظر إلى الكتاب من خلال هذا المفهوم لا على أساس ما في بعض صفحاته من تفاصيل أقرب إلى التسلية. فالرواية عبارة عن رصد أمين وتصوير حقيقي لواقع السودانيين في تلك الحقبة من صراعهم مع فئة تسلطت على مقدراتهم واستعبدتهم وأهانت إنسانيتهم في أسواق النخاسة.

ويستهل المؤلف كتابه بانتفاضة السودانيين، والتي يؤكد المترجم أنها لم تفصل في أي مكتوب كما فصلت في رواية هذا الكاتب الذي لا نكاد نعرف له اسماً. وأعترف أن تلك البداية المتفائلة كانت من دواعي اختياري للرواية من بين مجموعة لا بأس بها من الأعمال كنت استعرضها، وبعضها لا يقل عنها أهمية من الناحية العلمية في رأيي. والمدلول الواضح للاستهلال بالإنتفاضة هو أن الشعوب لا تستسلم للاستبداد والقهر إلا إلى حين قد يطول أو يقصر. فالسودانيون، رغم البطش والإرهاب والضرائب الباهظة والأتاوات التي أثقلت كاهلهم، هبوا في مواجهة الدخيل وكادوا أن يعصفوا به لولا غياب القيادة الواعية المنظمة. أما من كان يفترض فيهم صفات القيادة من زعماء ورجال دين ممن عرفوا بالعلماء فقد تخاذلوا وانضموا إلى زمرة الحكام سعياً وراء مصالحهم وخوفاً من بطش أسيادهم. ويعتقد رتشارد هيل أن الانتفاضة لم تكن غير هبة يائسة، دون قيادة ودون هدف[1]. وقد نتفق معه في افتقار الثوار إلى القيادة، ولكننا نتحفظ كثيراً على قوله ان الانتفاضة كانت مجرد خبط عشواء. كيف نفسر إذن اندلاع الثورة في جميع أرجاء البلاد في توقيت واحد إن لم يكن الهدف هو الخلاص من حكم الأتراك؟ ألم يقل المؤلف نفسه ان غرض السودانيين من تلك الهبة هو الإطاحة بالدخلاء؟

وعلى كل، فقد أخمدت الثورة في مهدها لتفوق العدو الواضح في العتاد وأساليب القمع. وكان على السودانيين الانتظار نحواً من ستين عاماً حتى ظهر من بين صفوفهم قائد تمكن من جمع شملهم والنهوض بهم من وهدتهم الطويلة لمواجهة الأعداء. وما كانت تلك السنوات السوداء كلها جموداً وخضوعاً كاملاً للحكام الجدد. فالرواية حافلة بومضات مشرقة من مقاومة القهر هنا وهناك من جماعات وأفراد لم يرضوا بحياة الذل في وطنهم. ولا يقلل من قيمة كفاح أولئك النفر من السودانيين بعض المواقف الشخصية التي دفعتهم إلى حمل السلاح في مواجهة المستعمر، إذ يكفي أنهم فعلوا ذلك رغم سيف الإرهاب

---

(١) R. Hill, Egypt in the Sudan, Oxford, 1958, p. 18.

المسلط على الرقاب على طول البلاد وعرضها[1]، ولسنا نملك إلا أن ننحني إجلالاً أمام رجال من أمثال رجب ود بشير الغول، والملك حمد، ومحمد دين، وعربان قبيلة رفاعة أبي روف، وأبي ريش شيخ العطيش وغيرهم...

أضواء على صفحات الكتاب:

وبعد السرد المشوق الشامل لأحداث الانتفاضة، يتناول الكاتب بأسلوبه البسيط بعض الشخصيات من الحكام الأتراك وطبيعة حكمهم الذي اتصف في مجمله بالظلم والقسوة والتسلط مثل الدفتردار، وعثمان بك جركس وغيرهما. ثم يخوض في تفاصيل غارات صيد العبيد لتجنيدهم في الجيش أو لبيعهم لدعم خزينة الدولة. ولا يخفي إعجابه في كثير من المواضع بشجاعة السودانيين وقوة تحملهم إزاء القسوة التي كانوا يعاملون بها أثناء تلك الحملات، فيصف أفراد قبيلة الدينكا والشلك والهدندوة مثلاً بالثبات في مواجهة جيوش المصريين في أغلب الأحوال. إلا أن الكاتب يعطي من خلال وصفه لأحداث العتمور وغارات صيد الرقيق نموذجاً آخر من السودانيين ظلوا يتكالبون على الزعامة وكسب المال بشتى الطرق حتى ولو بالقتل والنهب وممالأة الحكام. ففي الوقت الذي كانت فيه معظم القبائل السودانية، سيما الزنجية منها تدافع عن كيانها وإنسانيتها وأرضها ضد المعتدين، كان هؤلاء يسعون وراء المناصب والجاه، فاستغل الأتراك ما اتصفوا به من شجاعة في البطش بمواطنيهم واستعملوهم أدوات في صيد الرقيق بما لهم من خبرة بمناطق البلاد ونفوذ بين قبائلها.

في الفصل الثاني يقترب المؤلف إلى قلوبنا أكثر، ويخاطب عواطفنا دون أن يقصد، حين يخصص جزءاً كبيراً منه في وصف المعتقدات الدينية عند السودانيين في ذلك الحين، مثل توقير الأولياء «والفقراء» الذين ما زالوا موضع الاحترام عند قطاع كبير من أهل البلاد كالفكي الريح في طبية. كذلك يجد وصفه لعادات الزواج وطهارة البنات هوى في نفس القارىء رغم ما به من إسهاب ممل يدعو إلى الإعتقاد بأنه لم يكتب أصلاً للقارىء السوداني. ويعلل الأستاذ يوسف بدري هذا الاستغراق في وصف التفاصيل بكون الكاتب أجنبياً له القدرة على الإحاطة بأمور قد لا يلحظها المواطن الأصلي ولا يأبه

---

(١) صديق بشير محمد علي، المقاومة السودانية للحكم التركي ـ المصري ١٨٢١ ـ ١٨٨١ (بحث مقدم لنيل درجة الشرف. جامعة الخرطوم، ١٩٨٤).

بالحديث عنها[1]. من هنا جاءت عظمة الوصف وروعته حين يتحدث المؤلف عن ود مدني بمستشفاها وثكناتها وقبابها، والمسلمية بتجارتها ومجدها الآخذ في الأفول، ثم الزراعة وفنونها وضروبها في سنار.

ونأتي إلى الجزء الثاني من هذا الفصل فنقرأ قصصاً كأنها من نسج الخيال. يبدأ الكاتب بوصف صيد العبيد والتصرف فيهم سواء كان ذلك بتجنيدهم أو بيعهم أو استرقاقهم في سرد درامي قلما نجده في كتب التاريخ التقليدية. فالمؤلف لم يكن مؤرخاً بالمعنى الدقيق للكلمة، لذلك لم يشغل نفسه بتحليل ظاهرة الرق من الناحية السياسية أو التجارية، فاهتم بالجانب الإنساني في المسألة. ويركز الكاتب على سوء معاملة الأوروبيين من فرنسيين وإيطاليين واغريق لعبيدهم بصفة خاصة، فيفرد صفحات كاملة في ضرب الأمثال على ذلك في عناد شديد. ولعل إهماله للإشارة إلى قسوة غير الأوروبيين من أتراك ومصريين وسودانيين إلى عبيدهم يعزى إلى انطباع لدى الكاتب بأن ذلك أمر مفروغ منه من مثل هؤلاء. ونفترض ذلك لأننا نستبعد انحيازه على بني جنسه إلى هذه الدرجة.

وفي نهاية هذا الفصل يلمس الكاتب بعض الجوانب في نظام الحكم والهيكل الإداري للحكومة كتقسيم المديريات وتعيين الكشاف والشيوخ الخ.. ويسترعي انتباهنا أنه يكتفي بوصف ما يراه من إطار عام دون الخوض في فلسفة الحكم وطبيعته والأطوار التي بها جهاز الحكم التركي ـ المصري من تأرجح بين المركزية واللامركزية وفقاً لأهداف سياساتهم وأطماع الحكام الذين تعاقبوا على السودان. ثم يعدد مفاسد الحكم والطبقة الحاكمة وبطانتها من الكشاف والكتبة من الأقباط.

أما الفصل الثالث فيتضمن أهم أحداث الكتاب وأخطرها على الإطلاق وهو زيارة محمد علي باشا إلى السودان للوقوف على خطوات استخراج الذهب في فازوغلي. ويتابع المؤلف تحركات محمد علي من أجل الوصول إلى هدفه في إشفاق لا يخفى على فطنة القارىء، ثم يصور خيبة أمل الباشا وحنقه عندما لا يجد الذهب، فيجسد ذلك بإشارة ذكية إلى قرار محمد علي باشا بأن يحمل معه المبالغ التي جاء بها من القاهرة، فلا يترك منها بارا واحدة خلفه في السودان. وفي هذا الجزء أحداث متفرقات مثل غضبة

---

(١) يوسف بدري، عرض لكتاب «على تخوم العالم الاسلامي» السودان في رسائل ومدونات، المجلد (١١١)، ١٩٧١، ص (١١٩) بالانجليزية.

زعماء الشايقية وخروجهم عن طاعة أحمد باشا أبو ودان، وتمرد الملك حمد، ومصرع كمبال، وشنق شيخ الهلالية المأسوي، وصراع الجبابرة بين الشيخ بركة وسليمان أبي نمر. أحداث ومآسٍ وقصص بطولية برع في وصفها المؤلف بتفاصيلها الدقيقة وجوانبها الإنسانية المرهفة التي لا يقدر على كشفها إلا كاتب ذو شفافية وضمير حي، في ذلك الجو المشحون بالكبت والقهر وسيادة قانون الغاب.

وتتصل المواقف البطولية في انسياب عبر صفحات الكتاب، فنشهد الوقفة الأسطورية لأبناء الشرق من قبائل الهدندوة أمام القوة الغاشمة المسلحة من جيوش الترك بقيادة أحمد باشا الذي لجأ إلى أحط الأساليب وأخبثها لإخضاعهم. وتمرد عرب رفاعة أبي روف والشيخ أبي ريش مع شذرات من أخبار الحكام وبعض الأحداث الصغيرة ذات الدلات الكبيرة مثل مقتل فرهاد بك بالسم، والفيضان وانتشار وباء التيفوس في الخرطوم عام ١٢٥٦ هـ.

وفي خاتمة الرواية يستعرض المؤلف أنماطاً شتى من معتقدات السودانيين وعاداتهم، ويضرب الأمثلة على عمق إيمانهم في السحر والقوى الخارقة الخفية للسحرة. ولا ندري مدى صحة التعميم حين يزعم أن كافة السودانيين كانوا يعتقدون في السحر، لكننا نعلم أن أقساماً لا يستهان بها من قطاعات الشعب السوداني ما زالوا على اعتقادهم القديم حتى في المجتمعات المتحضرة إلى يومنا هذا.

ثم يتحدث عن فنون الطبخ وأشكال الطعام عند السودانيين وكرمهم، ويسهب في وصف ظاهرة التكسب من الدعارة التي انتشرت نتيجة للاسترقاق وأسواق النخاسة. وفي الصفحات الأخيرة تعود براعة الوصف وشاعريته مرة أخرى إلى قلم الكاتب كما رأينا في الفصل الثاني، وذلك في وصفه لبلاط الأميرة نصرة وغرامياتها، وحوريات مارنجان، ثم حفل العشاء الصاخب المرح الذي يبين حدة التفاوت بين المفاهيم والعادات والممارسات السودانية البسيطة ممثلة في الفكي طه والحضارة الغربية التي رضع من ثديها الأوروبيون الخمسة ضيوف الرجل الطيب.

وخلاصة القول إن هذه رواية فذة وشائقة، لم يتبع فيها مؤلفها المنحى الأكاديمي المنمق، ولا المنهج الجاد الحاذق كما هو شأن معظم المؤرخين والباحثين، فقد ترك قلمه على سجيته واستطاع تصوير واقع الحال، ونقل الأحداث بتفاصيلها الدقيقة دون أن يرهق القارىء بتعقيدات التصنيف وإقحام النظريات في المناقشة والتحليل. لم يحفل

كاتبنا حتى بوضع العناوين الجانبية للموضوعات التي تناولها دون ترتيب، فجلها من صنع المترجم ريتشارد هيل كما نوه إلى ذلك في تصدير الكتاب. ولعل في ذلك كله يكمن سر هذه العاطفة الجياشة التي تنتظم الرواية من أولها إلى آخرها، والأسلوب البسيط المعبر، والصدق في تناول الأحداث، والانحياز للمستضعفين، والثورة على الطغاة وتجار الرقيق.

تصدير مترجم
النص ومحققه ريتشارد هيل

استخدم محمد علي باشا، الوالي العثماني على مصر وتوابعها من عام ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨، أوروبيين في مرافق الدولة والمؤسسات الاقتصادية. وفي عام ١٨٢٠ بدأت قوات الباشا تغلغلها داخل الأراضي الشاسعة فيما وراء الحدود الجنوبية لمصر، فآثر نفر قليل من هؤلاء الأوروبيين، وقد كانوا من الاغريق والايطاليين في غالبيتهم، مصاحبة القوات إلى هناك لأسباب شتى. وبحلول منتصف الثلاثينات من القرن التاسع عشر كان يعيش فوق الأراضي السودانية عدد لا بأس به من الأوروبيين يعملون مدربين في الجيش، ومفتشين طبيين وتجاراً وصيادين.

ولهذا المجتمع الصغير ينتمي صاحبا المخطوطين المترجمتين في هذا الكتاب. لقد كان عملهما بسيطاً ومتواضعاً، وتشغلهما أمور ذات شأن ضئيل في زاوية مظلمة من تاريخ السودان. جاشدا لكسب لقمة العيش في الريف، وانغمسا في خضم الحياة بعيداً عن قشورها وبريقها. جاءا من ملكية يوليو بفرنسا، وجمعية كاربوناري السرية في ايطاليا، تماماً مثل بقية أفراد الطبقة الوسطى ـ الدنيا في أوروبا. وانفلت بعض شيوخهم من ركام جيش نابليون الأعظم، وبعضهم كانوا سانت سايمونيين انسلخوا من جماعة بيير أنفانتين الهندسية في قناطر القاهرة، وآخرون تمردوا من جماعة بيير المستقرة في أوروبا فهزموا. فاحت رائحة الثوم من أنفاسهم، فاستفزت سواح أوروبا المتعجرفين على ما كانوا يبدون من احتقار لهذا الطراز من البشر. «هؤلاء الطليان والفرنسيون انهم جهلة وغير متعلمين. . .». هكذا حكم عليهم والد أوسكار وايلد الطبيب[1].

على أن ضآلة شأنهم هذا تكسب ما كتبوه صفة الأهمية، فالصغار كثيراً ما يرون أشياء عظيمة في الحياة اليومية لا تدركها نظرة الكبار الشامخة: العادات المحلية

(١) Sir W. R. Wilde, Nararive of a Voyage to ... Egypt (etc.) 2nd. ed., Dublin and London, 1844, p. 188.

للسودانيين، حماقات الوجهاء والحكام الأتراك، تعسف رصفائهم من الأوروبيين، تذبذب قيمة النقد، أسعار الفتيات والغلال إلخ. . .

والوثيقتان أولاهما رواية والثانية يوميات أو مذكرات، وتضمان الرصد المفصل الأوحد للفترة المبكرة للحكم التركي ـ المصري للسودان. وهما مكملان للعمل السوداني الوحيد بالعربية (تاريخ ملوك السودان)، الرواية الموسوعة. ولكن بينما اكتفى الرواة السودانيون بتسجيل حركات وسكنات الحكام ورجال الدين دون غيرهم، وبينما كان مستخدمو الحكومة يهابون انتقاد النظام الذي يوفر لهم الأجور، تحرر كتاب الوثائق الأوروبية من هذه القيود تماماً. لذلك فإن سردهم يقدم تحليلاً لبعض الأحداث التاريخية الهامة مما لا يتوفر في المصادر الأخرى بما فيها الروايات الشفوية. وحتى إذا توفر هذا التحليل في مصادر أخرى، فهو لا يعدو أن يكون تلميحاً مقتضباً في بعض الآثار القليلة الموجودة حتى الآن.

ولكن ما مدى صحة هاتين الروايتين؟ إن كاتب الأحداث، وبكل المقاييس التعبيرية، مغرم بالإسهاب في وصفه، وأحياناً تتغلب عليه العاطفة فيهتز قلمه ويعجز عن السيطرة على ملكته الدرامية. أما كاتب المذكرات فلا غرابة في شعوره بالزهو والاعتداد بالنفس مثل أي شاب نشأ وترعرع في زمان الصحوة الرومانسية. غير أن الصدق عند الكاتبين كليهما يبقى أمراً فوق كل شبهة. ونستند في ذلك على اختبارات ثلاثة أجراها المترجم الذي لم يكن بعيداً عن مسرح الأحداث التي يصورانها قرابة واحد وعشرين عاماً: المقارنة مع الأحداث المشابهة إن وجدت، وزيارة المواقع التي يصورها الكاتبان، ومقابلات شخصية مع أحفاد من جاء ذكرهم في الوثيقتين.

والسودان الذي عني به الكاتبان كان يمر بفترة انتقالية من الغزو الدموي إلى الإدارة السلمية. وقد انتهت فترة حكم علي خورشيد باشا الطويلة عام ١٨٣٨ بنقله من الخرطوم إلى باشاليك أدانا، لأن المصريين في ذلك الحين كانوا يحكمون سوريا كلها حتى جبال توروس وحكم خلفه أحمد باشا أبو ودان حتى عام ١٨٤٣، ثم توفي في ظروف غامضة. ويستحوذ هذا الشركسي القوي القاسي على جل اهتمام الكاتبين.

ولكل كاتب طريقة مختلفة في رسم أسماء الأعلام تبعاً للهجته القومية وإدراكه الشخصي. ولقد تجنبنا وضع هذه الأسماء كما جاءت في النسخة الأصلية درأ لتعقيدات لا داعي لها. كذلك تفادينا شرح أو تصحيح زلات القلم من المؤلفين والنساخ معاً في

هوامش قد تكثر فتسبب الملل، فقمنا بتصحيحها دون حرج. وقد كانت المفردات العسكرية والإدارية لحظة كتابة الوثيقتين، خيطاً متنافراً من الكلمات العربية والتركية المصرية، والتركية الصرف. عليه فقد انتهجت في ترجمتي لها أسلوب نقل الكلمات بحروف عربية، ثم عاملت مفردات المجموعة الثالثة معاملة الكلمات التركية المعاصرة. أما فيما يتعلق بأسماء الأمكنة، فقد رأيت أن لا حاجة بي في الدوران حول الحلقة المفرغة لأسماء جغرافية غريبة من الناحية اللغوية وضعها رسامو خرائط من المشرقيين والمصريين والأوروبيين، وذلك لضعف علاقتها بالرسم العربي الصحيح. أما الإصرار على كلمة «خرطوم» بدلاً عن «الخرطوم» فلأنني تبنيت أسلوباً رومانياً في الهجاء وجد قبولاً حسناً عند كتابة أسماء الأمكنة العربية الأخرى. فثلاثة أسماء لمدن هي أسوان وبربر وشندي لم تكن عربية المنشأ، وإنما احتفظت بطابعها الروماني التقليدي. أما بقية الأسماء فقط طوعت لتواكب العربية الشائعة.

ومن المحتمل أن تستعمل هاتان الوثيقتان مرجعاً للمعلومات، وهذا ما دعاني لعدم تشذيبهما أو إعادة ترتيبهما لتصبحا قصة مشوقة. لذلك ينبغي على القارىء أن يتهيأ لقبول الخشونة مع النعومة. وقد بينت جميع الاسقاطات في حينها. أما العناوين والهوامش فهي من صنع مترجم النص ما لم ينوه إلى عكس ذلك. وغياب معلومات تتعلق بنشر الكتب بالإنجليزية والفرنسية يعني أن مكان النشر بالنسبة للأولى هو لندن وللثانية باريس.

ثم ان بعض المقالات المختارة من الجزء الأول نشرت في «مجلة السودان في رسائل ومدونات»، الخرطوم، المجلد ٣٧، ١٩٥٦ ص ٢ - ١٩، والمجلد ٣٨، ١٩٥٧ ص ١٣١ - ٤٦. وشكري موصول للناشر على تكرمه بالسماح بنشرها في هذا الكتاب.

وأخيراً، ومع إقراري الكامل بمسؤوليتي عن كل قصور في الترجمة والتعليق، فإنني أقدر بامتنان ما قدم لي من نقد ونصح من البروفسور ب. م هولت، وزميلي محمد أحمد الحاج مما كان له الأثر الكبير في التقليل من الهفوات والعيوب.

كلية عبد الله بايرنو
جامعة أحمدو بلو
كانو، نيجيريا

مقدمة مترجم
النص ومحققة ريتشارد هيل

الوثيقتان

كتبت هذه المخطوطة على خمس كراسات غير مجلدة، كل فصل في كراسة منفصلة، وعلى أحجام متباينة من الورق تبلغ في المتوسط ٣٣ × ٢٥,٥ سم. وقد عثر عليها الرحالة الإنجليزي مانسفيلد باركنز حين وصل الخرطوم من الحبشة[١] في ديسمبر ١٨٤٥. ومكث باركنز لأشهر في المدينة، ثم اتجه غرباً إلى كردفان. وفي يناير ١٨٤٨ غادر الأبيض، عاصمة المديرية قاصداً مصر. وقد فكر باركنز في كتابة تاريخ السودان، غير أنه عدل عن الفكرة فيما بعد. ولا ندري الظروف التي جعلت الوثيقة بين يديه، ولكن يبدو من حواشي المؤلف (ص ٢٠٧) أن باركنز حصل عليها مباشرة منه حيث يقول انه جمعها خصيصاً ليساعده على أداء مهمته.

وتمكن ج. و. وايتهيد المعلم بكلية دوفر بإنجلترا، والذي عرف بحبه الخاص للسودانيين وتاريخهم، من الحصول على المخطوطة من مسز باناتين (ابنة باركنز) من مدينة ميلفيل في وورسسترشير، ثم بدأ في ترجمتها إلى الانجليـزية عام ١٩٤٠. وكانت كتاباته وقتها تعبر عن غبطته لاكتشاف مادة جديدة تصلح أساساً لدراسة تاريخ السودان تحت الحكم التركي ـ المصري، لكنها كانت فرحة مشوبة بالشك في وجود ناشرين متحمسين لنشر شيء يتعلق بتاريخ السودان.

وكان وايتهيد قد أنجز ثلث العمل في مسودة الترجمة عندما قطعها عليه نشوب الحرب. وبعد وفاة وايتهيد عام ١٩٤٦، آلت المخطوطة مع غيرها إلى البروفسور إيفانز

---

(١) استبعدنا الاسم المعاصر أثيوبيا بصفة مطلقة.

برتشارد الذي أهداها إلى الجمعية الملكية بلندن. وقد تمكنت بفضلها من تكملة ما بدأ وايتهيد[٢].

ولم أستطع أن أتبين هوية المؤلف بشكل قاطع. ولكن في رسالة موجهة إلى وزير الخارجية الفرنسية من القنصل العام الفرنسي في الإسكندرية، الماركيز دي لا فالي، نجد وصفاً لحملة هائلة قادها الحكمدار أحمد باشا أبو ودان لصيد الرقيق في شتاء ١٨٤٢ - ١٨٤٣. وذكر القنصل أنه حصل على تلك المعلومات من طبيب أوروبي في خدمة المصريين شارك في مثل تلك الحملات[٣]. ونلاحظ تشابهاً ملحوظاً بين رواية القنصل العام وما جاء في المخطوطة من وصف للحملة.

أما الدليل الآخر، رغم ضعفه، فهو أن خبير المناجم جوزيف ريتر فون راسيقر التقى بصيدلي من الحامية عند مروره بود مدني في مهمة استكشافية كلفه بها محمد علي باشا عام ١٨٣٧. وكان الصيدلي شاباً إيطالياً يتمتع بنشاط وحيوية يدعى بارتولي. وقد حكى بارتولي هذا لخبير المناجم تجاربه خلال غارة على الرقيق نظمتها الحكومة في المنطقة الواقعة جنوب غرب الروصيرص، وهي نفس المنطقة التي ذكرها القنصل العام الفرنسي[٤] في تقريره. وقد أكد كاتب هذه الأحداث أن معرفته باقليم سنار، مسرح الحملة، كانت أوثق من أي جزء في السودان.

إذا صح أن المؤلف هو بارتولي هذا، فإننا نجده فيما بعد في الخرطوم، ضمن قائمة أسماء لأوروبيين في العاصمة السودانية في فبراير ١٨٣٨ حيث يسترعي نظر كاتب المذكرات تكسني يسمى بارتولي.

ومن يدري، ربما اعتقد راسيقر مخطئاً أنه طبيب. ثم نجد في مدونات رجل أعمال يدعى اقناز بالم، كان يقوم برحلة تجارية، اسم شخص يقال له بارتولو يمتهن الصّيد

---

(٢) هنالك قائمة بمخطوطات باركنز في ورقة وايتهد (Mansfield Parkyns and his projected History of the Sudan). مجلة السودان في رسائل ومدونات، الخرطوم، المجلد ٢٣، ١٩٤٠، ص ١٣٣ - ٤.

(٣) (Ministere des affaires etrangers, Paris, Correspondance politique des Consuls, Alexandrie et le Caire, Xvi, 1843 p. 37.

وقد نشرت رواية مشوهة في كتاب ف. سكوشر (L'Egypte en 1845, 1846, pp. 114 - 20) وبصورة أقل إسهاباً في كتاب: (A.A Paton, History of the Egyption Revolution, 1863, pp. 228 - 32)

(٤) (Reisen in... Africa, ii, pt. 2 Stuttgart, 1844, pp. 459 - 60)

والتجارة في المنطقة التي تسكنها قبائل الشلك في النيل الأبيض نحو عام ١٨٤٠(٥). ان كثيراً من الأطباء والصيادلة الأوروبيين اتجهوا صوب النيل والغابة بعد تقاعدهم، ولكن لا يمكن لمن كان يعمل صياداً في أعالي النيل أو الصعيد أن يروي أحداثاً وقعت في الخرطوم أو سنار. ومع هذا فإن بارتولي اسم شائع في تسكنى، وربما كان مؤلفنا من خريجي الصيدلة أو الطب من جامعة بيزا.

أما المرشح الثاني بجانب بارتولي لكتابة هذه الأحداث فهو الإيطالي الوحيد الذي ذكر باركنز أنه قابله في الخرطوم.. «مشرقي فقير ولد في نابولي ويعمل صيدلياً في المخازن المركزية»(٦). والملاحظ أنه كلما تحدث المؤ رخ عن السردانيين والتسكنيين فإنه يفعل ذلك في استخفاف كما تعود النابوليون. كذلك فإن ولع كاتبنا بمرادفة السكون كما في:

«doppo» «attrece» «abbitati» «Libbera»

يتفق تماماً مع طبيعة لهجة جنوب إيطاليا ويضعف الدليل على الأصل التسكني للمؤلف. وفي المقابل لا يفوتنا أن نذكر ميل المؤلف إلى استعمال كلمات مثل «assieme» «andiede» وهي من أصل تسكني. لذلك فمن المحتمل أن يكون كاتب هذه الأحداث إما بارتولي أو ذلك النابولي ولكن يبقى ذلك مجرد احتمال.

يستعمل الكاتب التقويم العربي أو الإسلامي باستمرار دون تحويل التواريخ إلى التقويم الغريغوري. هذا يعني إما أن يكون مصدره راوية مسلم أو مصادر عربية لم تكن منشورة أو مفقودة في ذلك الوقت. وقد يكون مصدره جريدة رسمية أو لعله قد اعتاد على استعمال التقويم الهجري بسبب بقائه طويلاً في بلاد المسلمين.

ويبدو أن المؤلف كان وثيق الصلة بموظفي الحكومة من الطبقتين الوسطى والدنيا. يتضح ذلك جلياً في اعتماده أثناء سرد الأحداث على أقوال بعض السودانيين والمصريين.

---

(٥) Travels in Kordofan, 1844, p. 149. أما الأمير هـ. ل. هـ فون بكلر ـ مسكاو (H. L. H. Von Puckler - Muskau) الذي كان في ود مدني في أبريل ١٨٣٧ فيطلق عليه «بارتولو» (Egypt under Mehemet Ali), Transt. H. E. Lioyd, ii, 1845, p. 338.

(٦) (Life in Abyssinia, ii 1853, P. 429) ومن الواضح أنه كان «اليهودي الصقلي ذلك المخلوق الحقير» الذي باع زجاجة خمر رديئة بثمانين قرشاً لبكلر ـ مسكاو في الخرطوم (Egypt under Mehemet Ali, ii, p. 297).

ومهما يكن اسم المؤلف أو جنسيته فإنه عاش في نفس المحيط الضيق مثل كاتب اليوميات التي تحتل الجزء الثاني من هذا الكتاب. أما محاولته إخفاء شخصيته، أو إحجامه عن مجرد التوقيع على الوثيقة فدلالة على تدبر للعواقب إذا كان موظفاً في الحكومة عند كتابته للأحداث.

وتبدأ الحكاية باستعراض لمقاومة السودانيين لاحتلال الجيش التركي المصري لأراضيهم بقيادة إسماعيل باشا كامل، ابن محمد علي باشا. ومع أن حادث مقتل إسماعيل باشا روي بصورة تقليدية كما تناقلته العامة، إلا أن سرد ما تبع ذلك من انتفاضة السودانيين جاء فذاً وفريداً.

السودان المعاصر

الحكام والرعية:

استحدث أخيراً اصطلاح الحكم التركي المصري (Turco - Egyptian) لوصف نظام الحكم الذي عاش تحت ظله وعمل في قبضته المؤلفان، وهو اصطلاح ملائم ولكنه لم يكن ليخطر على بال أي منهما في ذلك الحين. والمعنى بهذا الاسم المركب تركي - مصري هم الصفوة الذين يتحدثون التركية من الألبانيين والشركسيين والأكراد والأتراك الأصليين، وبعض المسلمين من غير المصريين الذين كانوا يتحكمون في مقاليد الأمور في مصر والسودان آنذاك. أما المصريون فقد اعتادوا على الحكم التركي لفترة طويلة حتى كان يخيل للمرء أنهم أصبحوا في تصالح مع سطوتهم وقهرهم. وكان خضوعهم هذا للأتراك مادة تناولها كثير من السواح الذين طافوا في أرجاء القطرين ومن بينهم فردناند ويرن الذي قال في حكمة انه سوف يمضي وقت طويل قبل أن يصير العربي تحت التبعية الحقيقية للعربي.

كان السودان في تلك الفترة ولاية ضمن اقليم مصر التي كانت بدورها جزءاً غير مؤثر في الامبراطورية العثمانية. ولم ينعم السودان بذاتية سياسية إلا لفترة تقدر بثلاثة عشر عاماً هي فترة الاستقلال في ظل حكم المهدية من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٨، ثم ظل بعدها خاضعاً للسيطرة الأجنبية حتى عام ١٩٥٦. وعندما رقي علي خورشيد بك عام ١٨٣٥ إلى رتبة باشا من الدرجة الرابعة (ميراميران) أطلق عليه لقب حاكم اقليم السودان التابع للأقاليم المصرية. ولقد أقرت هذه التبعية واعترفت بها الدول الكبرى التي بعثت بممثليها

القنصليين إلى مصر موفدين إلى «مصر وتوابعها». وانه لأمر عجيب يدعو إلى شيء أشبه بالصدمة أن يتجاهل المؤلف أول محاولة من حاكم تركي - مصري للفكاك من أسار التبعية لسيده في مصر، تلك المحاولة التي أدت إلى ما يمكن أن نسميه الاغتيال الدستوري للحكمدار أحمد باشا أبو ودان في أكتوبر ١٨٤٣، مع أنه يشير إلى من خلف أحمد باشا مثل أحمد باشا المنيكلي وخالد باشا خسرو. ربما يكون الكاتب قد أسقط هذه الواقعة عن طريق السهو لأن عدم إلمامه بها مستبعد تقريباً لما أثارتها من بلبلة في الدوائر القنصلية بمصر(٧).

لم تكن للمؤلفين فكرة واضحة عن السودان كوحدة جغرافية، وما كانا يعرفان بشكل قاطع أين تنتهي النوبة، أو بلاد السودان. أما القناصل فقد كانوا أسوأ حالاً، حيث ظلت «سنار» ترد في رسائلهم على أنها «السودان». ورغم أن الحكومة في القاهرة كانت تشير إلى «السودان» في مكاتباتها في فترات متقطعة، إلا أن من كانوا يتولون أمر القنصليات باتوا على ما هم عليه من جهل وتردد. وثمة مثال لـلاستعمالات الأولى والجلية لاصطلاح السودان ورد في رسالة للقنصل العام فردريك بروس للسفير البريطاني لدى الباب العالي بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٨٥٦ في تقريره عن رحلة الوالي محمد سعيد باشا «إلى السودان»(٨).

ولأن كيان الحكم في السودان اتسم بالتفرد وعدم الانسجام التام مع النمط التقليدي للحكم العثماني، فإن محمد علي لم يواجه هذا الموقف بخلق مفردات إدارية حديثة، وإنما لجأ إلى إعطاء المناصب والدرجات والأقاليم الإدارية الموجودة قيماً ومعاني جديدة. إضافة إلى ذلك فإن أسس اختيار الحكام في السودان ظلت تخضع للتعديلات من وقت لآخر كما هو الحال عند اجراء معظم التعيينات. فالحكام في السنوات الأولى للاحتلال كانوا قادة مناطق عسكرية مثل علي خورشيد الذي امتدت فترة حكمه من ١٨٢٦ إلى ١٨٣٨، وبذلك أصبح أول حاكم يتولى الأعباء العسكرية والمدنية في كل أرجاء المنطقة المحتلة إلى الجنوب من مصر بمعناها الدقيق. وكان خورشيد قد عين من قبل مديراً، وهو لقب يحمل في طياته دلالات أكبر من مجرد مدير حيث كان مسؤولاً بصورة مباشرة عن

---

(٧) ناقش ريتشارد هيل (Richard Hill) ظروف وفاة أحمد باشا في مقال (Death of a Governor - General) المنشور في (مجلة السودان في رسائل ومدونات، المجلد ٣٩، ١٩٥٨، ص ٨٣ - ٨٧).

(٨) (Public Record Office, London, Foreign Office Papers (below, passin P.R.O.F., F.O.) 522, pt.2).

حكم السودان لدى الإدارة في مصر. وفي عام ١٨٣٥ رؤي إعطاء المنصب مزيداً من الأهمية، فرفعت رتبة خورشيد ومعناها في التركية «المفوّض» أو «الموكل» أي المنتدب من شخص أعلى مرتبة. وبإخضاع الكلمة لمفهوم العصر يتبادر إلى الذهن مقابل غير دقيق هو المندوب الساميّ، أو الحاكم العام، والأخير أقرب إلى فهم الطلاب من المستعمرات السابقة. وكان مقر الحكمدار (وهو اللقب الذي سوف نصطلح عليه) في الخرطوم، وهي مدينة أرسى قواعدها قائد عسكري آخر هو عثمان بك جركس عام ١٨٢٥، ثم ظلت تتطور في عهد علي خورشيد باشا بداية بعام ١٨٢٦.

وقسم السودان بعد الاحتلال إلى خمسة أجزاء صغيرة تضخمت بسبب سوء استعمال الاصطلاحات لتصبح «أقاليم». وسوف نرجيء البت في هذا الموضوع الآن مكرهين لأن اللغة الإنجليزية تقف عاجزة عن وصف التقسيمات السياسية غير الإنجليزية بطبيعة الحال. كانت «الأقاليم» هي سنار وكردفان وبربر ودنقلا، ثم التاكا (التي تغير اسمها إلى كسلا حديثاً) بعد فتحها سنة ١٨٤٠. وكان من يكلف بإدارة اقليم من هذه الأقاليم يسمى مأموراً، بمعنى الذي يؤمر بعمل شيء، وتسمى المنطقة التي تقع تحت دائرة اختصاصه مأمورية. وعندما تغير اسم الحاكم العام في الخرطوم من مدير إلى حكمدار، تبع ذلك تغيير في لقب حاكم الاقليم فأصبح مديراً بدلاً من مأمور.

والمأمورية أو المديرية كما أطلق عليها فيما بعد، قسمت هي الأخرى إلى مساحات أقل عين على رأسها الكشاف، وسميت بالكاشفيات أو الأقسام حسب جنسية من يحكمها إن كان تركياً أو عربياً. وكان الكاشف يتعامل مباشرة مع الشيوخ السودانيين الذين كانوا يمثلون ـ إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير الرقيق ـ جباة الضرائب، وهم الذين حملوا على كاهلهم ذلك العبء الثقيل نيابة عن الحكومة. وقد عاصر الكاتبان زمناً كان فيه حكام السودان، بمن فيهم الحكمدار نفسه، ينتمون إلى تلك الطبقة ذات اللسان التركي. وينسحب ذلك أيضاً على معظم الكشاف وإن كان كاتب اليوميات يذكرنا بوجود واحد أو أثنين من السودانيين في منطقتي دنقلا والشايقية.

ولا ينبغي أن نستغرب اهتمام الروايتين بالموظفين المسيحيين من الأقباط. فقد عملوا سكرتيرين ومحاسبين وصيارفة للعرب، فلعبوا بذلك دوراً غاية في الأهمية في إدارة كان يتحكم فيها حكام مسلمون، أميون وأنصاف أميين في غالبيتهم. واشتهر الأقباط بأنهم أبغض الأجانب من غير المسلمين في السودان، فقد كرههم الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء. فهم عند أنصار المذهب الكاثوليكي كفار، وبالنسبة للبروتستانت من رواج

الخرافة والبدع. لذلك سعى أنصار المذهبين إلى تحويل الأقباط إلى دينهم. أما المسلمون فقد احتقروا الأقباط لكونهم مصريين من الدرجة الثانية، وزاد من هذا الاحتقار تقوقع الأقباط في مذهبهم، إلا أنهم مع ذلك ظلوا يتلطفون معهم لاعتمادهم على خبرتهم في الحسابات وأعمال السكرتارية.

على أن المؤلفين يميلان إلى معاملة الأقباط بنوع من العدالة والإنصاف. حتى استهجانهما لولع الأقباط بالتآمر مشوب بنظرة إعجاب بشجاعتهم في مواجهة ضروب الاضطهاد المستمر عليهم. وكلاهما يسهب في شرح تفاصيل معاناة رجال الحسابات من الأقباط على يد الحكمدار. ولكن هل كان للسودانيين ما يدعوهم للاعتراض على تعذيب أحمد باشا للمحاسبين والصيارفة الأقباط؟ كلا، فقد تضاعفت كراهيتهم للأقباط لأنهم كانوا الأداة البغيضة في جمع الضرائب حيث لعبوا الدور القذر نيابة عن الحكومة، فتولوا أمر دفاتر التقديرات وعائدات الضرائب، وأهم من ذلك كله، فإنهم كانوا على علم بديون الحكومة على كل فرد. ولا غرو إذا كان صمود القرون لتلك الأقلية الصلبة من المصريين ضد دين الأغلبية قد ترك شروخاً وبصمات على كبرياء أسيادهم.

ولعل القارىء قد شعر بهيمنة الشائعة وأهميتها في الوثيقتين معاً. هذه الحقيقة تؤكد دور الشائعة باعتبارها مصدراً للاستخبارات في عالم ما كان متاحاً للمرء الاطلاع على صحيفة ولا مراسلة صديق حميم. إن الإزدواجية الكامنة في سياسة الباب المفتوح عند ممارسة العمل الرسمي التي اتبعها الموظفون الأتراك ـ المصريون مع ولعهم الفطري بالترويج للشائعة قد أدت إلى نتيجة إيجابية واحدة على الأقل: لا سر يمكن كتمانه طويلاً. ومن الناحية الأخرى فإن القيود الرسمية التي فرضتها عوامل اللغة وتقاليد السكرتارية حالت دون التدفق السلس للمكاتبات شبه الرسمية والخاصة من ذلك النوع الذي كان يشكل شريان الحياة لصناع السياسة على بداية عهد الحكم الثنائي الإنجليزي ـ المصري. فالأتراك، لكونهم أميين في أغلب الأحوال، ما كان في وسعهم المشاركة في مثل تلك الممارسات التي اعتبروها غير كريمة في نظرهم. ومما يؤسف له أنه لا يوجد بين أيدينا مثال واحد مما خطه يراع أي من الحكمدارين الذين جاء ذكرهم في الترجمتين. بل ان المرء يمكنه أن يقرر في ثقة أن دارسي التاريخ لن يعثروا في المستقبل على أية آثار أدبية في دور الوثائق القومية في كل من مصر والسودان للزعماء السياسيين المعاصرين يمكن مقارنتها بالآثار التي خلفها كرومر وونجت وسلاطين في ثرائها وتنوعها وكشفها للأبعاد ـ الشخصية لكتابها.

على أن الحكم التركي ـ المصري كان له نقاط ضعف كسائر أنظمة الحكم على وجه الأرض. ومن مميزاته، التي لا تتناسب مع روح ذلك العصر، تحرره من الاعتماد على الأعمال المكتبية، وكسره لقيود الجمود والبيروقراطية. فالقوة البشرية لمكتب الحكمدارية في عهد أحمد باشا أبو ودان كانت عبارة عن خمسة سكرتيريين فقط، هم مصطفى أفندي (الذي كان يقرأ فولتير) المسؤول عن المراسلات التركية، وشيخي أفندي، الرزنامة، حافظ سجل الأحداث اليومية، ومعلم خليل الكاتب القبطي، وناسخان.

أما أهم نقاط الضعف فهي غياب الصلة المؤثرة بين الحكومة والرعية، حيث لم يشهد السودان إنشاء جهاز استشاري أثناء الاحتلال يضم مجالس للسودانيين لكي تمكن الحكومة، إذا رغبت في ذلك، من تلمس مشاعر دافعي الضرائب. ومع أن جرثومة الشورى هذه كانت قد بدأت لتوها في التسرب إلى الأقاليم الأخرى للامبراطورية العثمانية من خلال ما يسمى بقانون الولايات الذي استحدث عام ١٨٦٤، إلا أن محمد علي ومن جاءوا بعده مباشرة عملوا جاهدين على منع وصولها إلى مصر والأقاليم التابعة لها، كما كان الحال بالنسبة للإجراءات الإصلاحية الأخرى للدولة العثمانية. وعلى هذا أصبح مقدراً لكل من مصر والسودان سلوك طريق مختلف نحو التطور السياسي.

ومع ذلك، فإن الحكومة تبنت أسلوباً آخر، على سلبيته، لرصد نبض الجماهير، فقد كفلت حق الاستئناف ضد الأحكام الجائرة. ولم يكن حق الاستئناف أو رفع العرائض للحاكم منصوصاً عنه بصفة رسمية في الإجراءات البرلمانية للحكومة البريطانية، ولكنه نبع في السودان كتعبير تلقائي للسخط الجماهيري الطاغي. وقد رأينا كيف صور كاتب الرواية ما كان من أمر الإطاحة بحاكم بربر عباس آغا عن طريق العرائض. وهنا نواجه بهوة تفصل الحكم العثماني المسلم من المفهوم الأوروبي الغربي لطبيعة الحكومة. ولا يقلل من عمق هذه الهوة الحقيقة التي نعرفها من أن الحكم البريطاني في الهند في الأربعينات من ذلك القرن، وفي السودان الإنجليزي ـ المصري حتى عام ١٩٣٦، قام على أسس إسلامية أكثر منها أوروبية. فالمسلمون بطبعهم ميالون إلى الوحدة والتكاتف لتصحيح ما يعتقدون أنه تصرف خاطىء، أو للدفاع عن عقيدتهم ضد المخاطر، أو لإخماد صوت أقلية تشكل معتقداتها وأنشطتها تهديداً للإسلام. إلا أنهم لا يتحدون بنفس الحماس حول قضايا تتسم بالجدية والرتابة، سيما تلك التي تتطلب مواجهتها انضباطاً جماعياً متصلاً.

وفي حوض النيل استسلم السودانيون للحكم التركي ـ المصري بعد أن برهن القمع

الدموي لانتفاضة ١٨٢٢ ـ ١٨٢٥ على عدم جدوى المقاومة. فالحكومة أصبحت في نظرهم كياناً خارجياً غريباً يتسم بطبيعة استبدادية، ولكن ما لا يمكن تفاديه يتعيّن احتماله، كما يقولون. ومع ذلك فقد كانت حكومة إسلامية على الأقل مهما قصرت في واجبها، ولكن رجال الدين والتجار تعلموا استغلال الطغيان الجديد لمصلحتهم. ويستدل كاتب الرواية على ذلك بغارات صيد العبيد التي كان يشنها الشيوخ تحت حراسة الجيوش النظامية، وكذلك التجار الوطنيون وهم يصحبون القوات التركية ـ المصرية إلى أراض لم تكن خاضعة لسيطرتهم للبحث عن الرقيق والسلع الأخرى.

ويسخر كاتب الرواية من محاولة أحمد باشا إخضاع الهدندوة في التاكا عن طريق الدين، وذلك بدعوتهم للتسليم لجيش خليفة المسلمين. وكانت تلك حيلة سياسية قديمة استخدمها الحكام في السودان لتبرير محاربة المسلمين. وفي الواقع فإن أحمد كان يمارس نفس الأسلوب الدعائي الذي أتبعه محمد علي نفسه من قبل حين اختار ثلاثة من العلماء أرسلهم في صحبة الجيش الذي احتل سنار عام ١٨٢١. أما لماذا لم يستخدم مثل هذا الأسلوب في حملة الدفتردار إلى كردفان في نفس العام، فمرده إلى طبيعة السكان هناك حيث رؤي أن اللجوء إلى العنف أنجح من استمالتهم عن طريق الدين. وقد لا يكون من الحكمة أن نتساءل عن احتمال وجود بقية من الإحترام للسلطان خليفة المسلمين عند السودانيين في ذلك الحين، لكننا لا نملك استبعاد مثل هذا الاحتمال جملة وتفصيلاً. وقد جاء في الكتاب العاشر من «Seyahat - name» لمؤلفه أقليا صليبي الذي زعم أنه زار مدينة سنار حوالي عام(١٦٧١ ـ ٧٢) أنه سمع أسمي سلطان الفونج والسلطان العثماني يترددان سوياً أثناء صلاة الجمعة. وكتب وليم جورج راون، الذي زار دارفور بعد قرن كامل بعد ذلك، أن سلطان دار فور بعث بعد توليه مباشرة هدايا إلى القسطنطينية وكأنه يعبر عن ولائه لبيت عثمان.

وكان الأتراك يفهمون سلوك القبائل السودانية المستقرة على طول حوض النيل رغم الشقة التي تفصل بينهم من حيث التاريخ واللغة وطريقة التفكير والعادات والملبس والطعام. وبعض هذه القبائل، سيما الدناقلة والجعليين، استغلت الإمكانيات التجارية للوضع الجديد ولعبت دوراً هاماً في اكتشاف الجنوب الوثني.

أما بالنسبة للقبائل الرحل بعيداً عن النيل، مثل البجة في الشرق، أو البقارة والكبابيش في الغرب، فقد كان الوضع مختلفاً تماماً، حيث واجه الأتراك أكبر اخفاقاتهم.

كانت قواتهم تقبع فوق الآبار في زمن الجفاف ليرتوي الرحل أو يهلكوا دون ذلك، وعند ورودهم الماء مضطرين، يستولون على ماشيتهم عوضاً عن الضرائب. ولم تفعل الحكومة شيئاً لتشجيع الناس على تكاثر قطعانهم وتحسين نوعيتها. والعلوم البيطرية كما نعرفها الآن، كانت في طفولتها الأولى، والعدد القليل من المفتشين البياطرة في خدمة الجيش كان يكفي بالكاد لعلاج الدواب المستخدمة في نقل الجنود. أما علاقتهم بالعبابدة رعاة الإبل الذين كانوا يسيطرون على العتمور بين كروسكو وبربر، شريان النقل البري بين مصر والسودان، فقد ساءت بشكل خطير بعد فترة من الود المتبادل كما شرح المؤلف بالتفصيل. ولكن بينما كانت السياسة تقتضي عدم الدخول معهم في قطيعة، فإن طبيعة الوجود القبلي على المستنقعات الحبشية لم تهيء الجو الملائم لصلح دائم. وفيما يتعلق برفاعة أبي روف ورفاعة أبي جن، فرعي عربان أبي روف اللذين استحوذا على اهتمام الرواية كثيراً، فقد اتسمت علاقة الأتراك بهم بتوتر مستمر، لأن هؤلاء الرحل، مثلهم مثل رجال الحدود في أي مكان، ظلوا يركنون إلى الفرار عبر الحدود عند قدوم جباة الضرائب الأتراك. ولكن حتى ضمن هذه القاعدة العامة فإن مراعاة المصلحة الشخصية دفعت بالبعض إلى الهجرة العكسية كما فعل عرب أبي جن الذين هرعوا إلى أحضان الحكومة طلباً للجوء عندما أغار كاسا ثيودوراس (الامبراطور ثيودور الثاني فيما بعد) في شبابه على السودان، وطلب أتاوة حرب من رجال القبائل السودانيين على عهد الحكمدار خالد باشا خسرو (١٨٤٥ ـ ٥٠)(٩).

كانت مهمة حفظ الأمن، والجزء الأكبر من مسؤولية شن الحملات السنوية على الرقيق تقع على عاتق المشاة النظاميين، وهي قوة أنشأها محمد علي باشا في الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٢٤، وقام بالإشراف على تدريبها أوروبيون. وبمرور الزمن كثرت أعداد الزنوج في قوة المشاة حتى عام ١٨٣٧، تاريخ وصول كاتب اليوميات إلى السودان، حين صارت غالبية القوة في الفرقتين الأولى والثامنة من الزنوج، خصوصاً بين جنود الصف نتيجة لحملات صيد العبيد وتنازل دافعي الضرائب عن العبيد للحكومة بدلاً من الضرائب. أما الضباط فكان جلهم من الأتراك قبل بروز اتجاه جديد بتطعيمهم بنفر قليل

---

(٩) «بقايا مخطوطة لم تنشر عن أحداث السودان، ١٨٤٣ ـ ١٨٤٨» نشرها هيل في (مجلة السودان في رسائل ومدونات، المجلد ٣٦، ١٩٥٥، ص ١٠ ـ ١١) «'Nouvi documenti per la storia d'abissinia nel secole XIX', ed. C. Conti Rossini, REND. ACC. NAZ. DEI LINCEI, Rome, Ser. VIII,ii, 1947, p. 396)

من الشبان السودانيين المتفوقين من الصف بعد منحهم رتبة ضابط . ومع ذلك فلم يكن «للأحرار» من السودانيين، أي العرب، دور في الجيش النظامي.

جاءت الفرقة الثامنة، التي تحتل حيزاً كبيراً في اليوميات، إلى السودان عام ١٨٣٨ . وقبلها بنحو ثلاثة عشر عاماً كانت نفس الفرقة (أو أخرى تحمل نفس الرقم) تقوم بحملة في موريا ضد الأغاريق بقيادة إبراهيم باشا. وفي السودان عززت بها الفرقة الأولى التي ظلت هنا منذ ١٨٢٤ . وكان غرض محمد علي من وجود الفرقة الثامنة في السودان، أول الأمر، هو غزو الحبشة، إلا أنه احتفظ بها داخل السودان بعد زوال شبح الحرب. وقد تمركزت الفرقة في ود مدني مع كتائب متفرقة تتبع لها في سنار والخرطوم.

أما بالنسبة للتشكيلات غير النظامية فقد كانت تتكون من الخيالة في مجملها. وكانت هذه القوات تمثل نمط النظم العسكرية السائدة قبل استحداث محمد علي لنموذجه الحديث «النظام الجديد». وكان عصب هذه التشكيلات من أفراد من قبيلة الشايقية في السودان، وعرب الفزارة من صعيد مصر، ثم مجموعة المحاربين المرتزقة المعروفين بالاسم الفضفاض «المغاربة»، إشارة إلى الجهة التي أتوا منها، وقد ضمت صفوفهم جنوداً من كل بقعة تقع بين مصر والمحيط الأطلسي. وقوة فرسان أخرى كانت تسمى «دلي» (المجنونة) تتكون من أفراد يتحدثون بالتركية. وقد درج الأجانب في السودان على تسمية كافة القوات غير النظامية الباشبزك (باس بزوك بالتركية وتعني الجرة المشروخة) وهو اصطلاح يدل على الوحشية. من بين قوات الخيالة غير النظاميين الثلاث، لعب الشايقية أكبر الأدوار حسبما ورد في جزئي هذا الكتاب. وقد استمر ولاؤهم للحكم التركي - المصري طوال السنين حتى نهايته على يد الثورة المهدية، رغم الامتحان الصعب الذي تعرض له بسبب السياسة الضريبية التي اتبعها معهم أحمد باشا. وقد ذكر كاتب الرواية بعض ضباطهم، ومن بينهم أسلاف للفريق إبراهيم عبود رئيس الدولة الأسبق للسودان.

لم يتورع محمد علي باشا في أيامه العصيبة عن ارتكاب القتل خوفاً من ارتداد الخنجر إليه، غير أنه، وبعد أن تقدمت به السن اتجه نحو تطبيق حكم القانون على معاونيه. ولكن هؤلاء ما كانوا مستعدين، لكونهم أتراكاً، للاستجابة التلقائية لحكم القانون الذي لا يفرق بين الحاكم والمحكوم. ولو أن الأمر وقف عند حد الأحكام الصادرة من القضاة في أمور تتعلق بالقانون الإسلامي لهان الأمر، ولكن اعتراضهم انصب، بالدرجة الأولى، على القوانين والأوامر الصادرة من القاهرة والتي تلزمهم بمعاملة الجميع بمعيار واحد من العدالة بصرف النظر عن المكانة الاجتماعية أو الأقدمية أو الجنسية أو

الدين. غير أن تلك السنة لم تكن لها جذور داخل حدود السودان كما يؤكد الكاتبان. فكلما ارتفع التركي في مرتبته، قل اهتمامه بتفاصيل بنود القانون، فيطلق العنان لرغباته الشخصية.[٨] وفي القاهرة، ما كان على الوالي إذا أراد التخلص من أحد الرعايا المزعجين إلا مجرد الإشارة بذلك، فيقوم ضابط بوضع حد لحياته. وإذا صح أن أحمد باشا قد دبر إطلاق النار على قائد الشايقية كمبال بن شاويش كما ادعى كاتب الرواية، فإنه بلا ريب كان يقصد سرعة تطبيق العدالة. فقد كان أنصار تلك المدرسة المتهورة يؤمنون بأنه ما من قاض يراجع تصرفات الحاكم غير الحاكم نفسه. والحاكم الحق في نظرهم هو الذي يحكم ليشعر الناس أنه يحكم.

واختلاف مفهوم العدالة بين الفرنسيين والايطاليين من ناحية، والأتراك من ناحية أخرى، لا يعني بالضرورة أن الأتراك ما عرفوا العدالة. بل انهم بالعكس من ذلك تماماً كانوا غاية في الحساسية تجاه ما يظنون أنه حق أو باطل. والرواة السودانيون بدورهم لهم معايير خاصة للحكم على أولياء أمرهم من الأتراك - المصريين. فقد يثنون على حاكم أحياناً لفعل قد يعتبره المنظرون الغربيون ضد الأعراف الاجتماعية. ولقد قابلوا بالاستحسان مثلاً قراراً أصدره حكمدار بإعفاء رجل دين مرموق من الضرائب، مع أن الحاكم لم يراع في ذلك مصالح دافعي الضرائب الآخرين الذين وقع عليهم عبء النهوض بسد العجز، وإنما كان ينطلق من حبه للتظاهر بأعمال الخير.

هذا الإحساس الاعتباطي بالعدالة، لم يمنع الأتراك بأي حال، من تبني بعض الفضائل السياسية المستحسنة. فالاحترام المدروس من قبل الحكومة للأميرة نصرة بنت عدلان، سليلة حكام سلطنة الفونج السابقة في سنار، لا يمكن وصفه إلا بالذكاء والشهامة معاً. كذلك كان الحال مع كبار زعماء القبائل الذين ما ان يخضع أحد منهم للحكومة ويبدي استعداده لدفع الأتاوة حتى تهدى له الكسوة الرسمية، ويحترمه رجال الحكومة، بل ان بعضهم دعي لزيارة مصر ضيوفاً على الوالي.

دلت التجارب على أن رجال الدين (العلماء)، دون سائر القطاعات الأخرى في المجتمع السوداني، هم أول من كانوا يتصالحون مع الغزاة. وقبل دخول الأتراك إلى السودان، كانت البلاد تعيش تحت التأثير الديني والإجتماعي للجزيرة العربية ومصر، وكان سلاطين سنار يحتفلون بالعلماء الوافدين والعائدين من هناك ويضعونهم في المكانة اللائقة بهم. وفي العهد التركي نفسه ظلت هذه الروابط الدينية والاجتماعية مع

الحجاز قائمة، ولو أن حروب الوهابيين قد أضعفتها كثيراً، فأخذت أنظار السودانيين تتجه أكثر إلى الأزهر في القاهرة كهاد ودليل. ومنذ أن رافق الأئمة الثلاثة من الأزهر جيش محمد علي باشا الذي غزا السودان عام ١٨٢٠ ـ ٢١، ظلت البلاد تستقبل كبار علماء الأزهر من المصريين لجيل كامل. أما بقية العلماء فقد كانوا أيضاً ممن تلقوا تعليمهم بالأزهر. وانخرط كل هؤلاء العلماء الأزهريون في عمل منظم لاستمالة السودانيين لنظام الحكم. وشعرت الحكومة بأهميتهم فأجزلت لهم العطاء في وظائفهم الدينية والقضائية. فما كان من باب إطلاق القول على عواهنه ـ إذن ـ عندما وصف السودانيون أولئك النفر من العلماء بأذناب الطغاة، وذلك حين تهيأت لهم مناهضة الدخلاء أخيراً.

ولم يغب عن بال المؤلفين أمر المواصلات والتجارة، فالحكم التركي ـ المصري اعتمد في بقائه على شبكة المواصلات النهرية داخل البلاد. وما كانت القوارب بأشكالها الكبيرة المريحة معروفة في السودان. أما قوارب الركاب للمسافات البعيدة (الذهبية، والكانجا الأصغر والأسرع) فكانت كلها ملكاً للحكومة تصنع في مصر من الأخشاب الأوروبية، وبهياكل مجوفة، وأشرعة ثلاثية. وأنشأت الحكومة في السودان ورشاً لصناعة نوع من المراكب الضخمة بطريقة بدائية، ودون هياكل لتعمل في نقل البضائع عبر خطوط الملاحة الداخلية أو في التصدير شمالاً إلى الدلتا. ولم تشهد البلاد البواخر النيلية حتى عام ١٨٥٧ حين جاءت أول باخرة صغيرة ذات محركات للتجديف تمخر عبر الشلال الثاني.

وكانت من الأشكال الفظة القاسية لحركة النقل الحكومية طريقة السخرة. فقد كان الفلاحون السودانيون على ضفاف النيل يستخدمون قسراً في سحب القوارب عند سكون الهواء، أو رفعها إلى داخل الماء في الأماكن الضحلة. ويستفيد كاتب اليوميات من هذه الطريقة حين يحتاج لها، ثم يذرف عليها دموع التماسيح فيما بعد. ومن مظاهر القسوة أيضاً أسلوب احتكار الحكومة لتصدير السلع. فلم يكن مفروضاً على المزارعين زراعة محاصيل بعينها فحسب، لكن السلطات فرضت أسعاراً لشراء المنتجات منهم في السودان، كالصبغة والصمغ العربي، والريش والمواشي لبيعها بأسعار مجزية في أسواق الاسكندرية. ومع أن كاتب اليوميات مغرم بتسجيل أسعار المحاصيل، إلا أنه لا يحفل بالنظريات الاقتصادية السائدة في أوروبا..

الأوروبيون:

عاش كاتبا الوثيقتين حياة خشنة. فقد عملا في معسكرات ومستشفيات ومكاتب من الطين. وفي أوقات الاسترخاء كانا يأويان إلى منازل من الطين أيضاً، منازل ذات نوافذ من الشيش دون زجاج. أما الأرضية والسقف فمن القش وروث البهائم ليزيدهما متانة. ولم تكن هنالك ناموسيات تقيهما ويلات البعوض الذي افترسهما من السحر إلى الغسق خلال فصل الخريف وما بعده لأسابيع. وبطبيعة الحال، فإن أشياء مثل طب المناطق الحارة، والرعاية الصحية وغيرهما من العلوم الحديثة لم تكن قد بلغت شأواً يعتد به في ذلك الوقت. فالملاريا مثلاً ظلت تنسب إلى الهواء الفاسد والطبيعة، ناهيك عن طرق علاجها التي لم تكن معروفة. وقليلون وثقوا في لحاء شجر الكينا، مصدر الكوينين، لكن الغالبية العظمى لم تلق له بالاً. وقد كان الأوروبيون يعتمدون على البراندي في الحفاظ على صحتهم، إلى جانب عرق البلح بديلاً لمن لا يقدرون على شرائه. أما مؤلف اليوميات فقد كان رومانسياً يشرب لكي ينسى همومه.

وكانت الجواري يقمن بكافة الواجبات الزوجية بالنسبة للأجانب. اثنان منهم فقط أحضرا زوجتيهما من أوروبا، برون رولليث التاجر، وفيقورو المدرب بالجيش. وكان الأوروبيون والأتراك يلبسون رداء فضفاضاً يسمى «النظام»، أو الزي العسكري الرسمي إذا كانوا في الجيش. والمرتبات كانت ضئيلة، لكنها تكفي لمثل حياتهم البسيطة تلك، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار التعيينات والعلف للحيوانات. ولم يعرف المستخدمون منهم عطلات منتظمة، لأن عقود العمل لم تنص عليها، ولا على معاش محدد عند التقاعد. لذلك أصبحت لهذه المخصصات الإضافية أهمية خاصة عندهم. أما أصحاب المهن الطبية كالأطباء والصيادلة، فقد انخرطوا في العمل الخاص. وكما يوضح كاتب اليوميات، فإنهم كسبوا الكثير من عطايا المرضى الموسرين. والواقع أن مجال العمل الخاص كان متاحاً لكل من أراد الخوض فيه دون قيود. فالحياة، إذن، كانت ميسرة إلا لمن كان يتمتع بخيال خصب.

وقراءة متأنية للوثيقتين تكفي لمحو البقية الباقية من أي انطباع بأن الفرنجة في السودان عاشوا في مجتمع متضامن. بل بالعكس من ذلك اماماً سادت بينهم روح العداء والوشاية ببعضهم البعض لدى الحكام المسلمين، والتآمر والوقيعة. وتشهد على صحة ما يورد المؤلفان من وقائع روايات الرحالة. ومن ألذع ملاحظات الرحالة على الفرنجة ما نقرؤه لفردناند وين، رجل ذكي، ومتصلب في رأيه، ومغرور لكنه مع ذلك لا يخلو من

بعض اللطف أحياناً. وهذا الألماني الذي رافق الحملة إلى ألتاكا، له كتابات تضعه في مصاف كتَّاب من أمثال جون بيركهاردت وونستون تشرشل ممن عرفوا بعظمة كتاباتهم عن السودان.

ويجب أن نتحفظ على النقد المرير لويرن، فلا نسلم بكل إدانة ساقها على أولئك القوم. فالرجل باختصار لم يصادف أوروبيا في السودان إلا وكان فقيراً وبائساً، وخصص صفحتين من (جولات أفريقية) ذماً صرفاً للايطاليين كافة. حتى حسنتهم الوحيدة التي اعترف بها، وهي اعتدالهم في شرب الخمور القوية، عزاها ويرن إلى رائحتهم الكريهة التي اشتهروا بها من دون الأجناس. وطعامهم أيضاً كان منفراً تعافه النفس، «إنهم لا يكفون عن التهام ذلك العجين الذي يسمونه المكرونة... وما عرفوا قط صفات مثل الشرف والأمانة والشهامة». والفرنسيون، على قلتهم في السودان، لم يكونوا في رأيه غير مهرجين ودجالين ومتبجحين. أما الانجليز فقد كان عددهم قليلاً غير مؤثر يعمل معظمهم ميكانيكيين ومهندسين. ولم يجد ويرن ما يدعو إلى الاحترام حتى بين بني جلدته الألمان الذين عاشوا في وادي النيل. فهم في رأيه ميكانيكيون غير متعلمين أفسدتهم عادات الشرق فصاروا أوغاداً ولصوصاً، ونصابين، وسكارى وقتلة. ويمضي ويرن في هجائه المر قائلاً ان الايطاليين من بيدمونت كانوا قمة في الغدر والخيانة، علاوة على لهجتهم المستهجنة. ثم يضرب مثلاً بأحدهم كان يدعى لوميلو، وهو رائد صيدلي في الخرطوم، بدأ حياته العملية في مصر مسجلاً لنقاط البليارد في صالة غطس بالاسكندرية[١٠].

كان من الممكن أن يكون فهمنا أكثر تعاطفاً مع محتويات الوثيقتين إذا قدر لنا أن نلم ببعض الخلفيات عن المؤلفين: الوطن، والتعليم، والغرض من حضورهما إلى السودان. وعلى كل، فمن الواضح أن كليهما متعلم، ولو أن الفرنسي يبدو أكثر تعليماً من زميله الايطالي. وموقف الفرنسي أفضل من حيث سهولة اللغة وسلاستها، وغزارة المفردات، وعمق النظرة إلى الحياة. ولا فرق إذا كان وطن كاتب الأحداث، أو وطن أبويه في أواسط ايطاليا أو جنوبها، فليس هنالك، في جميع الأحوال ما يدفعه إلى شعور

---

(١٠) «جولات أفريقية، ص ١٤٧»، لاحظ عالم نبات بريطاني، زار الخرطوم عام ١٨٥٦ أن مجتمع الأوروبيين كان من نفس هذا النوع من البشر. ويقول ان الأوروبيين يعيشون حياة شبه متحضرة، تماماً مثل الأتراك، فتشكل نتيجة لذلك مجتمع منبوذ وجاهل كأشد ما تكون الجهالة، تسوده روح معنوية متدنية. فكل شيء خارج نطاق هذا الوسط الصغير يعتبر بربرية صرف، وفقراً وفاقة أو كبت، (Letters from Egypt and Syria, 1856. p. 140).

طاغ بالتفوق العرقي أو القومي. وجاء كاتب اليوميات من فرنسا في عهد لم تفسده موجات النعرة القومية العارمة، فلا نرى بادرة تنازل من الكاتبين لنزعات الحنين إلى الوطن أو التفاخر به. وهذا كاتب اليوميات يروي حدث سقوط القسطنطينية على يد جيش فرنسي دون أن يهتز حسه الوطني. أما موقفه من الدين فغاية في السلبية وعدم الاكتراث، ولا يخفي كراهيته لمواطنه سانت سايمون. من الناحية الأخرى نجدهما مفتونين بالإيمان الفطري للمسلمين السودانيين البسطاء.

ولم يرتكب أي من الكاتبين خطأ تقويم دوافع وأفعال حكام النظام التركي - المصري بالمعايير الأخلاقية والقانونية السائدة آنذاك في كل من فرنسا وإيطاليا. ولولا إنغماسه من رأسه إلى أخمص قدميه في الحياة البدائية البسيطة مَن حوله، لانزلق الفرنسي بسهولة إلى ترديد آخر صيحات الخطرفة في المجتمع الفرنسي الأنيق فوق الأراضي السودانية. وبالمثل كان يمكن للايطالي، نظراً لما تلقاه من تعليم نظامي أفضل، وربما لحداثة عهده بالحياة الطلابية في وطنه، أن يسوّد الصفحات بكلمات غريبة من إيطاليا السلفيوبلكونية التي كانت تموج بالمؤامرات، ولاختلط عليه الهابسبورغي بالتركي.

والمؤلفان فوق ذلك كله تبرأ من شبهة الرياء والنفاق. كتب بكلر -مسكاويقول «ان أمر بعض الأوروبيين، ومنهم الانجليز، لعجيب حقاً. فهم يستهجنون مجرد سماع كلمة الرق، ومع ذلك لا يجدون حرجاً في امتلاك الجواري عندما يأتون هنا». على أن هذا الأمير الحالم نفسه لا يختلف عن أبناء جنسه. وإلا فما سر انشراح قلبه عند رؤية تلك الفتاة الراقصة في القاهرة؟ بل ما تفسير أحلامه، وهو في طريقه من الاسكندرية إلى القاهرة ذات يوم، حين تمنى حدوث ما كان يسمع من هجوم حسان مصر على الذهبيات في عرض النيل للظفر بالعشاق المولهين من المسافرين؟ وقد وقع بعض الأوروبيين، للأسف، فريسة لأنواع شتى من النفاق الرومانسي الخالص مما كان سائداً في ذلك الزمان. فهناك النفاق في دنيا التجارة، وكان أقوى تأثيراً على مجموعة رجال المال الأوروبيين في الاسكندرية، حيث تدفقت منها المذكرات الغاضبة لتغمر دور الوثائق للقوى الأجنبية الكبرى وهي تحكي الصراع بين بؤر الاحتكار العثماني من ناحية، والأوروبيين المستنيرين المنافحين عن التجارة الحرة من ناحية أخرى. وطفا على السطح حديث عن مساوىء تجارة الرقيق ينضح بالنفاق، رغم نبل المقصد في الظاهر. وكان في جوهره حديثاً مشوباً بالعبارات الطنانة الجوفاء والجهل بالواقع، وإلا فكيف ترتفع الأصوات بالغاء تجارة الرقيق بضربة لازب، مع أنها كانت مؤسسة اقتصادية ارتكز عليها الاقتصاد

السوداني؟ ثم النفاق السياحي الذي تمثل في سبيل المجلات التي نشرها الرحالة على ضفاف النيل دون أن يتجرأ أحدهم على التوغل جنوب وادي حلفا. قصص عن المعابد القديمة الشامخة، تلميحات عن الكتاب المقدس، منظر غروب الشمس البهيج، جميعها موضوعات تناولها كاتب بعد آخر. . إلا مصر الحياة من حولهم، لم يفطن إليها أحد.

ومن الأشياء التي تحرر منها المؤلفان تماماً هو ذلك الشعور بالشبق الذي تميز به أدب كثير من الرحالة في وادي النيل حينذاك. أما الأوروبيون، فقد كان متاحاً لهم شراء الغواني - من غير المسلمات، وإلا تعرضوا للمشاكل مع القاضي. ولم يعرف السواح الانجليز والفرنسيون باقتناء الجواري لكنهم تزاحموا على أسواق القاهرة لمشاهدة الفتيات شبه العاريات في المزاد. وعند ضمور الأسواق عقب اضمحلال هذه التجارة في أواخر القرن، اقتصرت وكالات السياحة على تنظيم أسواق وهمية للرقيق لبعض الزوار من ذوي الميول الشهوانية. وداوم الفرنسيون على زيارة صعيد مصر طلباً للراقصات اللائي استبعدهن محمد علي باشا إلى هناك من باب الاحتشام.

أما موقف الكاتبين من ظاهرة استئجار التجار وكبار القوم من السودانيين للفتيات للتكسب من الدعارة، فلم يرق إلى ادانة قاطعة، بل نفور وعدم رضى. فكلاهما يسلم بأن تجارة الرقيق مؤسسة قائمة بذاتها، ومع أن كاتب الرواية يمتعض من القسوة التي تصاحب صيد العبيد إلا أنه لا يجد منها بداً، ولكنه مع ذلك لا يكف عن التنديد باخوانه الأوروبيين على تلك الوحشية تجاه الرقيق.

إن غياب الشعور الديني عند الفرنجة لم يثر لغطاً بين المسلمين، لأن المسلم بطبيعته لا يبالي كثيراً بالنواحي الدينية عند غير المسلمين، بل انهم لا يتطفلون عادة في الأمور اللاهوتية. في عام ١٨٤٢ حضر اثنان من القساوسة الفنسنتيين إلى الخرطوم قادمين من الحبشة، وبذلا جهدهما لانشاء إرسالية، ولكن جالية الرومان الكاثوليك اعترضت على الفكرة. ومع أن الاعتراض قد يكون نابعاً من بعض نقاط الضعف الشخصية في القسين، إلا أن المفارقة تكمن في أن نفس هؤلاء الأوروبيين الذين تنكروا لدينهم هللوا عند قدوم بعثة تبشيرية أخرى عام ١٨٤٨ بقيادة الأسقف أقنازكنو بليخر إلى الخرطوم حيث أنشأت مدرسة وكنيسة. قام هؤلاء الأوروبيون الماكرون المترددون، ومنهم عدد كبير ممن جاء ذكرهم في هذا الكتاب، باستقبال البعثة بحماس عظيم، وسارعوا فرحين في زواج جواريهم وتعميد أطفالهم غير الشرعيين. ويشهد بيت المعمودية في أبروشية الخرطوم على هذا الفصل المفجع من تكالب البشر.

الوثائق المقابلة:

القارىء الذي يبحث في مقارنة هاتين الوثيقتين بأخرى تماثلها من رسائل القناصل في مصر إلى سفراء دولهم في السودان، أو لممثليها لدى الباب العالي، سوف يصاب بصدمة عنيفة. فقد كان السودان يعتبر من الأصقاع البعيدة التي لا تمثل أهمية تذكر. هذا بالاضافة إلى عدم وجود نواب أو عملاء للقناصل في الخرطوم، الأمر الذي جعلهم يعتمدون في تلقي المعلومات على ما يسر بها مترجموهم من دواوين الحكومة في مصر نقلاً عن الرحالة القادمين لتوهم من الخرطوم، أو عن الثرثرة في المقاهي.

الأمر الآخر هو أن رسائل قنصليات الدول الكبرى الضالعة في مسألة الشرق كانت تتميز بالتحيز والغرض. وقد ظل السفير البريطاني في القسطنطينية، وممثل بريطانيا وقنصلها العام في مصر يرددان تهديدات اللورد بالمرستون لمحمد علي باشا بصوت أعلى من صوت سيدهما. أما القنصل الفرنسي العام فقد أضاع جل وقته في حزازات مع رصيفه البريطاني. ولم تنتعش المطامع النمسوية في السودان إلا بعد وصول البعثة الارسالية الكاثوليكية إلى الخرطوم عام ١٨٤٨. ومن الذين توخوا الحقيقة عند الكتابة عن السودان ممثلو الدول الأوروبية الصغيرة، خصوصاً ساردينيا ودوقية تسكنى العظمى ومملكة الصقليتين. ولكن الممثلين كانوا أنفسهم تجاراً عرفوا بالحذق، ولكنهم مع ذلك تعرضوا لأقسى ضروب التضليل أحياناً.

والرواية السودانية تحكي قصة سلطنة الفونج في سنار وما جاء بعدها من حكم تركي ـ مصري مما يكون مادة لهاتين الوثيقتين[١١]. والرواية نفسها من صنع أياد عدة نعرف منها خمس روايات متباينة، اثنتان منها فقط مطبوعتان (تاريخ ملوك السودان)، مكي شبيكة، الخرطوم، ١٩٤٧، ثم نص منقح آخر هو (مخطوطات كاتب الشونة)، الشاطر بصيلي عبد الجليل ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦١. وهنالك ملخص للرواية بالانجليزية في كتاب السير هـ. أ. ماكمايكل (History of the Arabs in the Sudan, ii, Cambridge, 1911, London, 1967). وليس لنا علم بوجود ترجمة كاملة لها بأية لغة.

والحقبة التاريخية التي تتناولها الرواية واليوميات عن السودان مسجلة بصورة متفرقة غير متوازنة في الأدب الأوروبي. فالإسهام القليل من الكتب لمؤلفين صحبوا إسماعيل باشا في حملته على سنار عام ١٨٢٠ ـ ٢١، أو ذهبوا هناك في أعقاب الحملة مباشرة، قد

---

(١١) يشرحها الدكتور يوسف فضل حسن في (العرب في السودان)، أدنبرة، ١٩٦٧، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

التزم الصمت المطبق حيال الفتح التركي ـ المصري لكردفان عام ١٨٢١، وانتفاضة السودانيين التي أعقبت مقتل إسماعيل باشا عام ١٨٢٢، مما يعتبر هذا الكتاب المصدر الوحيد لتفاصيلها. ولقد كانت حصيلة الأعمال المكتوبة للأوروبيين شحيحة جداً خلال معظم فترة حكم خورشيد باشا، ولكنه على أيامه الأخيرة في السودان، وخلال الأمد القصير لتولي خلفه أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٨ ـ ٤٣)، بدأ الاهتمام الأوروبي يتجدد قليلاً. ولقد لخص المؤلفان الأسباب التي أدت إلى عودة الاهتمام فيما يلي: رحلة محمد علي باشا إلى السودان في شتاء ١٨٣٨ ـ ٣٩، والرحلات الثلاث اللائي قام بهن سليم قبودان في الأعوام ١٨٣٩ ـ ٤٠ و ١٨٤٠ ـ ٤١، ثم في ١٨٤١ ـ ٤٢ لاكتشاف منابع النيل الأبيض، وأخيراً غزو التاكا عام ١٨٤٠.

سجلت الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) رحلة محمد علي باشا إلى السودان في عبارات ملطفة. وقد نشر أدمي فرنسوا جومارد ترجمة لها بالفرنسية تسلمها من مصر تحت عنوان:

(Etudes geographiques et historiques sur l'Arabie Suivies de la relation du voyage de Mohammed Aly dans le Fazoal, (etc)., 1839).

كذلك نشرت ترجمة فرنسية لمذكرات سليم قبودان (أو سليم بمباس ـ بكباش بالعربية حسب رتبته في البحرية المصرية) جمعت خلال رحلتيه الأوليين بواسطة جومارد في (Bull. de la Societe de Geog. de Paris, XVii, 1842, xx, 1843).

وهناك نسختان استنبطتا من الترجمة الفرنسية، الأولى لمحمد مسعود (سليم قبودان، الرحلة الأولى للبحث عن منابع النيل الأبيض «الخ»).، القاهرة ١٩٢٢، والثانية لنظيم مقار (البكباش المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل) بمقدمة من محمد شفيق غربال، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٦٠. وقد أتيحت فرصة عمل لفردناند ويرن على ظهر الأسطول الصغير لسليم في رحلته الثانية، فرصد أحداثها في كتاب بالألمانية نقله أوريللي إلى الانجليزية تحت عنوان (حملة لاكتشاف منابع النيل الأبيض) في مجلدين عام ١٨٤٩. وكان ما كتبه ج. ثيبوت عن رحلته مع سليم عام ١٨٣٩ ـ ٤٠ والذي نشر في (Bull, de la Societe de Geog. de Paris, XV, 1841, pp. 127 - 32). أقل شأناً من الناحية العلمية كيفاً وكماً.

لقد ظل الكاتبان يرقبان في شك وريبة مغامرة محمد علي لاكتشاف ما كان يتوقعه من ثروات هائلة، لكنهما مع ذلك يظهران اهتماماً مصطنعاً بها، ثم يواسيانه بعد أن خاب

ظنه في العثور على الذهب المزعوم في فازوغلي. وكان الجدل العلمي عن مكان منابع النيل على أشده بين الجغرافيين في العالم، الأمر الذي دعا محمد علي إلى تفسير هذا الاهتمام الأكاديمي لصالح تحقيق أطماعه الخاصة. ومن هنا بدأت هواجسه من أجل الوصول إلى جبال القمر قبل الآخرين، وبدأت محاولاته المدروسة في إخفاء هـذه الهواجس في أحاديثه مع الأوروبيين.

وبرهنت حملات سليم على أن منابع النيل الأبيض ربما تكون في الغالب الأعم على نفس المواقع التي حددها الجغرافيون البطالسة. وقد كان الكثيرون في أوروبا ومصر والسودان يعتقدون حتى ذلك الحين أن النيل ينحدر من الغرب وليس من الجنوب. وفي الأطلس المضمن في كتابي : (L'Egypte et la Turquie de 1829 a 1836, vol. i, Egypt et la Nubie, 2 pt., 1836). لمؤلفيه ادموندبيير - ماري كادالفين، مدير مكتب البريـد المصري بالاسكندرية، وج. دي بروفري، يظهر النيل الأبيض وكأنه ينبع من جنوبي جبل مرة منحدراً صوب الشرق، ثم شمالاً في اتجاه الخرطوم في شكل قوس كبير. وخارطة في نفس الكتاب توضح أنه ينبع من الغرب استناداً على شرح من السلطان تيمة ولد المسبعاوي حاكم كردفان الذي زعم أن للنيل منبعاً ثلاثياً إلى الجنوب من جبل مرة مباشرة. كذلك أمّن أقناز بالم، الذي كان في كردفان حتى عام ١٨٣٨، على هذا الاعتقاد القائل بأن أصل النيل في الغرب على أثر محادثة مع أحد الأهالي في دار رنقا، وهي حجة واهية تبناها ستتقارت وتوبنج في كتابهما بالالمانية والذي ترجم إلى (رحلات إلى كردفان. . الخ) ١٨٤٤.

والرصد الكامل الذي أورده كاتب الأحداث لحملة التاكا ينبغي قراءته مع النسخة الوحيدة المنشورة لشاهد العيان فردناند ويرن في سفره (Felzug von Sennaar nach Taka, Basa und Beni - Amer mit besonderem Hinblick auf die Volker von Bellad - Sudan (etc.), Stutgart, 1851) الذي نقله إلى الانجليزية ج. ر. جونستون تحت العنوان السمج (جولات أفريقية. . الخ. .) عام ١٨٥٢. ولا يحق للمؤلف التباهي برحلاته إلى الباسا وبني عامر لأنه لم يتوغل داخل أراضيهم. ان الجهل باللغة العربية، ثم بشؤون السودان أوقعا مترجم ويرن في مطبات صغيرة عدة، لكنها عموماً لا تحجب براعة الوصف عند ويرن. ويمكن أن نقرر باختصار أن الصور الوصفية عند ويرن تبقى شبحاً جديراً بالاعجاب لوصف كاتب الأحداث الذي يتمتع بقدر أكبر من الواقعية ومعايشة الأمور عن قرب[١٢].

(١٢) تضمنت دفنا الكتاب معلومات فهرسية أشمل.

الجزء الأول

حقبة من تاريخ السودان

١٨٢٢ ـ ١٨٤١

الفصل الأول

انتفاضة السودانيين: ١٨٢٢ - ١٨٢٥ م:

عاد إسماعيل باشا إلى سنار بعد أن دانت له النوبة العليا وأصبحت تحت سيطرته حتى فازوغلي. ومن هناك قاد بعض معاونيه وقلة من الجند قاصداً شندي عن طريق النيل. وبعد أيام قليلة وصل إلى شندي، ونزل مع ثلة من رجاله من المماليك في مقر الشيخ نمر زعيم المنطقة. ثم استدعى إسماعيل باشا الشيخ نمر وطلب منه ضريبة باهظة. وعندما احتج الشيخ بأن ما طلب منه فوق طاقته، أصر الباشا على طلبه بحجة أن رجال القبيلة يملكون ذهباً كثيراً وفي مقدورهم الوفاء بالضريبة، وأعطاه مهلة مقدارها أربع وعشرون ساعة.

وما استطاع نمر تدبير مطلب الباشا، ففكر سريعاً في طريقة للتخلص منه ولم يتبادر إلى ذهنه، بالطبع الدخول معه في معركة لأنه كان أدرى بقوته، لذلك لجأ إلى الحيلة والدهاء. أمر نمر رجاله بجمع كميات هائلة من حطب الحريق وأعواد الذرة في ساحة المنزل الذي كان يأوي إليه الأتراك. وعندما فطن بعض أعوان إسماعيل لما كان يجري، بادروا باخطار سيدهم بمخاوفهم، غير أنه لم يكترث لذلك، وطمأنهم على سلامتهم. ولكن الباشا، مع ذلك، سأل نمر عن الهدف من جمع الحطب، فأجاب بأنه يعد وقوداً للباشا ومرافقيه، فبدا ذلك رداً مقنعاً. وكان على الباشا أن يدفع ثمناً غالياً على غفلته، فما ان حل الظلام حتى أمر نمر بإشعال النار على الحطب المتراكم حول المنزل. وفي ثوان كانت ألسنة اللهب تلتهم كل من فيه. في نفس الوقت تماماً، هجم رجال القبيلة على الأتراك في المراكب، ففروا هاربين إلى بربر بعد أن عجزوا عن إنقاذ سيدهم من النيران.

وحين انتشرت الأخبار عن مصرع إسماعيل عمت الثورة أرجاء البلاد، واندلعت

الانتفاضات للاطاحة بالمعتدين الأجانب. ولم يتحقق للسودانيين ما أرادوا لأن سيوفهم وحرابهم لم تصمد كثيراً في مواجهة أسلحة عدوهم النارية المدمرة. على أن هذه الانتفاضة قد لاقت نصيباً من النجاح في مواقع كانت فيها القوات التركية هشة وضعيفة كالحلفاية، حيث التجأ الكاشف داخل سوره مع حفنة من الخيالة يقدرون بعشرين رجلاً، وظل يقاوم عدة أيام. وأخيراً استعان ببعض المراكب التي كانت تحمل جنوداً هاربين من كرري في طريقهم إلى ود مدني، وبمساعدتهم تمكن من رد هجوم الثوار. وبعدها، حمل خزينة الحامية وعتادها على ظهر مركب وسار بها في محاذاة المراكب الأخرى إلى العيلفون بهدف الانضمام إلى كاشف تلك القرية، ليواصلا معاً طريقهما إلى ود مدني.

غير أن كاشف العيلفون نفسه كان قد أجبره الثوار إلى العبور للضفة الشرقية للنيل الأزرق، وكان يسرع الخطى للانضمام للحامية الصغيرة بالكاملين. ثم واصلت الحاميتان الطريق إلى ود مدني، رغم ما لقيتا من مقاومة ووصلتا في سلام بعد ثلاثة أيام. أما كاشف الخرطوم، التي تقع بين النيلين الأبيض والأزرق (عاصمة النوبة العليا والسفلى الآن، وقد كانت حينذاك مجرد غابة كبيرة تتخللها أكواخ السكان) فإنه كان مهدداً أيضاً من السكان الأصليين وبعض القبائل العربية من غرب النيل الأبيض. وقد استطاعت هذه القبائل زحزحة الأتراك من كرري ثم عبرت النيل من موقع يبعد جنوب الخرطوم بساعتين، وهددت بمحاصرة القرية وجعلها بين قوات الحصار من جهة والنيل من الجهة الأخرى.

وما كان الكاشف يملك المراكب، فشرح لرجاله الموقف الحرج وكيفية وصولهم إلى ود مدني حيث الحامية ورجالها البالغ عددهم أربعمائة مع بعض الفلول الهاربة من الحاميات الأخرى. ولكن ولحسن حظهم، فإن سكان الجريف، وهي قرية تقع شرق الخرطوم لم يكونوا مناوئين للأتراك. بل ان شيخهم جبر الدار أتى يعرض خدماته لقيادة المجموعة إلى ود مدني. وكانت سمعة جبر الدار تكفي لحماية القافلة من الهجوم، وهذا ما حدث بالفعل خلال اليومين الأولين. ولكن وعند وصولهم إلى أبي عشر، هاجمهم القرويون وأفراد قبيلة الحلاوين. ثم واصلوا مسيرتهم بعدها إلى ود مدني دون صعاب. ولكن عند عودته واجه جبرالدار هجوماً من الأهالي في ود الشلعي والكلاكلة وجزيرة توتي غير أنه قاومهم وتغلب عليهم.

هكذا كانت الأحوال فيما كانت تعرف بمملكة سنار من قبل حينما وصل خبر مقتل إسماعيل باشا إلى محمد بك الدفتردار كردفان فقام على الفور بجمع قواته ومضى بها في اتجاه النيل للانتقام لمقتل صهره ولمساندة كتائب الجنود المنتشرة في جميع أنحاء

المملكة. ولكن وقبل متابعة سيره إلى هناك، علينا أن نبين للقارىء كيف أمكن له إخضاع كردفان.

عندما سمع المماليك في صعيد مصر بمذبحة عشيرتهم من المماليك في قلعة القاهرة[1] على يد محمد علي باشا، اجتمعوا للتفاكر في مصيرهم. وبما أنهم كانوا نفراً قليلاً لا يستطيع المقاومة، آثروا التقهقر جنوباً إلى صعيد النوبة لتأسيس كيان لهم هناك، أو الهلال دون ذلك. وقد نجحوا بالفعل في إخضاع دار المحس ودخلوا منها إلى دار دنقلا واحتلوها وبنوا حصناً على مسافة بضع ساعات جنوب قرية دنقلا، وهو الاسم الذي أطلق على الأقليم بأكمله[2].

ولما تقدم إسماعيل باشا ابن محمد علي فيما بعد بجيشه جنوباً في حوض النيل للسيطرة على المنطقة كلها حتى فازوغلي، لم تتوفر للمماليك الإمكانيات لمقاومته، فاضطروا لإخلاء المنطقة واللجوء إلى المقدوم[3] مسلم، وهو خصّي نصبه سلطان دارفور على كردفان، فسمح لهم المقدوم بدخول كردفان لاجئين.

وبعد زحف إسماعيل باشا إلى سنار بقليل، أرسل محمد علي جيشاً إلى كردفان بقيادة زوج ابنته محمد بك الدفتردار[4]. وتبع الدفتردار نفس خط سير إسماعيل حتى وصل إلى الدبة، وهي مدينة صغيرة على الضفة الغربية في النيل وتبعد نحواً من أربعة أيام سيراً على الأقدام من دنقلا، ومنها يبدأ الطريق الصحراوي إلى كردفان. ومكث الدفتردار في الدبة بعض الوقت لجمع المؤن والعتاد والجمال وغيرها من مستلزمات شق الطريق الصحراوي الطويل وغزو كردفان. وما أن أحس المقدوم بتحرك الدفتردار حتى شرع في تنظيم جيشه استعداداً للمقاومة رغم ضيق الوقت المتاح. جمع المقدوم قبائل الكبابيش والحسانية وبعض الزنوج من الجبال المجاورة، وبضع رجال كان قد أتى بهم

---

(١) حدثت المذبحة في أول مارس ١٨١١، وكانت هنالك مذبحة أقل منها في أسنا.

(٢) سمي الحصن «عرض المنفوخ» أي معسكر المنفوخ نسبة إلى قائد من المماليك اسمه محمد المنفوخ وهو أول من احتل المكان. والمنطقة التي تجاور الحصن. وتسمى دنقلا العرضى، لا تزال عاصمة للمركز حتى الآن.

(٣) المقدوم رتبة رفيعة في سلطنة دارفور، وتعني هنا الوالي الفوراوي على كردفان التي ظلت خاضعة لدارفور منذ نحو ١٧٩٩.

(٤) الدفتردار معناها في الأصل ماسك الدفاتر أو السجلات، أي الموظف المسؤول عن تسجيل المسوحات، أو كبير ضباط الإيرادات في الحكومة المصرية.

من دارفور[٥]. ثم أرسل بعض رجاله عيوناً لمعسكر الأتراك في الدبة بعد أن تنكروا في هيئة رجال صحراء من كردفان. ولكن عندما قدم هؤلاء أنفسهم للأتراك على أنهم خبراء للطريق الصحراوي، كشف العدو أمرهم، وقتلهم خارج المعسكر، وعرضت جثثهم على المزارعين في المنطقة.

وبعد أيام شد المصريون الرحال متجهين إلى كردفان. وكانت الرحلة شاقة، فقد عانوا من شح في الماء حتى وصلوا إلى جبل عبد الهادي، أو جبل حرازة وهي منطقة مأهولة على حافة الصحراء[٦]، فاستراحوا هناك ثلاثة أيام.

ولما سمع المقدوم بقدوم العدو، خرج إليه بجيش يتألف معظمه من الفرسان بالإضافة إلى بعض المشاة، وجميعهم مسلحون بالسيوف والحراب، لملاقاة العدو في سهول بارا.

وفي اليوم الثالث استأنف الأتراك الزحف بعد أن أخذوا قسطاً من الراحة. وفي اليوم التالي كانت القوتان تقفان وجهاً لوجه. وبدأت المعركة حوالي الساعة الثالثة صباحاً بعد أن بادر الطرفان بالهجوم في وقت واحد. وكانت الحرب سجالاً، فرجال كردفان تفوقوا على أعدائهم شجاعة وعدداً، أما الأتراك فقد تفوقوا بالمدفعية الثقيلة التي أبادوا بها أعداداً هائلة من رجال المقدوم. وبعد خمس ساعات من القتال، استسلم جيش كردفان بعد قصف متواصل من النيران وتساقط معظم الجنود صرعى. ولقد أبلى المقدوم، كقائد عام، بلاء حسناً وحاول الاحتفاظ بتماسك جيشه، ولكنه في النهاية قتل وهو لا يزال يدافع بشجاعة عن أرضه مع القلة الباقية من رجاله.

واستغل الجيش المنتصر هذه الفرصة إلى النهاية فطارد الهاربين حتى حلول المساء. ثم أسرع الدفتردار منتشياً إلى الأبيض ودخلها دخول الفاتحين، وأخضع أقليم كردفان حتى النيل الأبيض لسيطرته الكاملة. أما المماليك فقد هربوا إلى دارفور حيث

---

(٥) الكبابيش قبيلة تشتغل بالرعي وينتشر أفرادها على براري بيوضة غرباً حتى حدود دارفور. وقد وجد أدولف لينانت (Adolf Lenant) قطيعاً كبيراً من إبلهم في الحلفاية، بعد أن هرب أصحابه أمام الدفتردار إلى النيل طلباً للحماية من إسماعيل باشا الذي لم يمسسهم بسوء (Lenant, Journal d'un voyage a'Meroe... 1821 et 1822, ed. Shinnie, Khartoum, 1958 , entry for 10 Jan, 1822) وكان جنود المقدوم من محاربي كنجارا، وهم رأس الحربة لجيش الفور.

(٦) سميت المنطقة هكذا على زعيمها عبد الهادي الذي أخذه الدفتردار معه إلى الأبيض وألقاه سجيناً داخل بئر حسب التقليد.

استقبلهم السلطان خير استقبال، ولكنهم استأذنوه في المضي قدماً نحو تونس للانخراط في خدمة الباي.

وشرع الدفتردار في فرض ضرائب باهظة على البلاد، وتنظيم الحكم، وتعيين الكاشف على الأقاليم والشيوخ على القرى. وكان الدفتردار يمارس العدالة بطريقته الخاصة، حيث كان يسأل أطراف القضية إن كانوا يريدون الاحتكام إلى العدالة الإلهية وكانوا كمسلمين يردون بالإيجاب. عندئذ كان يسوقهم إلى «القاضي»، وهو الاسم الذي كان يطلقه على المدفع! وإليك مثالاً آخر على قسوته. لاحظ شيخ في طريقه إلى الدفرتدار في الأبيض، حقلاً من الذخن يملكه الدفتردار نفسه وقد استوى للحصاد، ولم يكن عليه من العمال أحد. ولما أتى الشيخ إلى حضرته ذكر في معرض حديثه أمر الحقل للدفتردار الذي انتفض قائلاً: «وما شأنك أنت بغلتي؟ أتتوق نفسك إلى أكل جزءٍ منها؟ ولكن، مهلاً، فإني أقسم أنك لن تذوق منها شيئاً» ثم أمر بخلع أسنان الرجل جميعها[٧].

وعندما صار على مسافة أربعة أيام من المتمة بدأ الدفتردار في تدمير القرى وتخريبها، ولم ينج من بطشه كبير أو صغير، رجل أو امرأة. ثم تقدم نحو المتمة وهزم مجموعة كبيرة من السكان تجمعوا لمقاومته. وبعد أن اختار منهم عدداً قليلاً لإرسالهم عبيداً إلى القاهرة[٨]، أدخل الباقين في سور بني خصيصاً لذلك، وجمع الحطب حوله وأشعل فيه النار[٩]. ثم عبر النيل إلى شندي، وعاث فيها فساداً. واتجه جنوباً وهو يخرب ويدمر القرى الآمنة. وفي العيلفون واجه بعض المقاومة بين السكّان، ولكنه قتل الكثير

---

(٧) كثرت الأقاصيص عن قسوة الدفتردار مع مرور الزمن، وقليلون هم الذين كانوا يسافرون إلى مصر والسودان دون أن يضيفوا شيئاً إليه، مثل ج. أ سانت جون (J.A.St. John) في كتابه (Egypt and Mohamed Ali,1824,ii, PP. 589 - 90) الذي أورد ما أسماها «طرائف الدفتردار بك». وبعض ممارسات الدفتردار الوحشية مثل قطع آذان الأسرى بعد معركة بارا صارت، رغم بشاعتها تقليداً عسكرياً في ذلك الوقت. ولكن مع ذلك تصعب معرفة الحقيقة من الخيال.

(٨) كانت غضبته مضرية إلى الدرجة التي لم يفكر فيها أن أفراد قبيلة الجعليين الذين استعبدهم كانوا مسلمين ويتحدثون العربية.

(٩) هنالك جانب آخر لهذه الرواية. في عام ١٨٣٧ أخبر كاشف المتمة (الذي أكد وجوده هناك منذ زمن الدفتردار) الرحالة بكلر ـ مسكاو (Puckler - Muskau) بأن الدفتردار بعد أن دمر شندي، أعلن عضواً عاماً. وبعد قليل، وفيما كان ينزل ضيفاً على شيخ المتمة، فاجأه زنجي بضربة من حربته، فانفجر غاضباً وقتل الشيخ وجميع أهل المتمة (H.L.H. von Puckler - Muskau, Egypt under Mohamed Ali. ii, 242 - 3).

منهم ووسم الباقين على أذرعهم بعلامة العبيد وأطلق سراحهم بعد ذلك.

عثمان بك جركس:

أرسل محمد علي الفرقة الأولى من المشاة[10] والتي كانت تضم خمس كتائب (أربعمائة رجل) تحت قيادة عثمان بك بالإضافة إلى بعض المجموعات من الخيالة الأتراك غير النظاميين. وانطلقت القوة من معسكرها في بني على (بني عدي؟) عام ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤ م) في طريقها إلى امدرمان. وذهبت كتيبتان إلى كردفان وعلى رأسهما البكباش، بينما عبرت الكتائب الثلاث الأخر النيل الأبيض وعسكرت في الخرطوم. ولدى عودة الدفتردار إلى القاهرة حل مكانه عثمان بك.

وكان عثمان بك خير خلف لمحمد بك الدفتردار، فقد كان أيضاً يتخذ المدفع قاضياً[11] وكان يطلق أيدي جنوده ليفعلوا بالناس ما شاءوا. وكان يسألهم مثلاً كم يساوي الرجل السوداني في نظرهم. وإذا أجاب الجندي بأنه لا يساوي غير طلقة واحدة عاقبه، أما إذا أجاب بأنه يساوي ربع طلقة فإنه كان يكافئه.

قسم عثمان بك قواته إلى ثلاث مجموعات: الكتيبة الخامسة وقد احتفظ بها لنفسه في الخرطوم، ثم أرسل كتيبة واحدة إلى كل من سنار وود مدني. ولم يلبث أن نظم حملة إلى القضارف تحت قيادة إبراهيم أفندي الذي قتل عدداً من السكان وأصطحب معه مجموعة من الشباب باعهم في الخرطوم لحساب الحكومة.

وعند وفاة عثمان بك في رمضان ١٢٤٠ هـ (مايو ١٨٢٥) خلفه عثمان آغا[12] الذي أطلق عليه الناس لقب «أبو سلب» لأنه اعتاد، عندما يغيب عثمان بك، على جلد الناس بحبل طويل. وأخفى عثمان آغا خبر موت عثمان بك خوفاً من اندلاع ثورة، لأنه كان يعرف مدى كراهية الناس له. ولإشاعة مزيد من الغموض والتمويه، أمر الأطباء بدخول

(١٠) النواة الأولى لجيش محمد علي «النظام الجديد» الذي انشىء على النمط الفرنسي بمدربين عسكريين من أوروبا. وكان الفرنسيان كايسون، كبير المدربين، وأندريه كاديان، المدرب قد التحقا بخدمة الفرقة الأولى بالسودان.

(١١) عبر مؤلف (تاريخ ملوك السودان، عن ٢٦ - ٢٧) عن الصدمة التي أصابته حيال بدعتين استحدثهما الأتراك: الخوزقة، وقتل الناس بالمدافع.

(١٢) آغا (آقا بالتركية) كان لقباً تشريفياً للعسكريين ورجال البحرية الذين هم دون رتبة بك، أي الجنود والبحارة ممن لم ينالوا حظاً من التعليم. وبالعكس منه تماماً كلمة أفندي التي كانت تطلق على المتعلمين. وكلا اللقبين لا يتم خلعهما على الأشخاص بصورة رسمية.

حجرة عثمان بك المسجى بالداخل عدة مرات في اليوم، وأمر الخدم بحمل التبغ والقهوة والطعام إلى داخل الحجرة. وحينما يطلب أحد الشيوخ مقابلة عثمان بك كان يقال له ان الدخول إليه ممنوع بأمر الأطباء. وفي نهاية المطاف دفنت الجثة داخل الحجرة نفسها.

واستمرت هذه المسرحية حتى بداية عام ١٢٤١ هـ (سبتمبر ١٨٢٥) حين وصل محو بك من بربر إلى الخرطوم. وقد اتسمت فترة حكمه القصيرة، التي امتدت لبضع أشهر، بالعدل والرحمة مما جعله موضوعاً للحديث بين الناس حتى يومنا هذا. وكان محو بك قد عاد لتوه من حملة لضم القضارف فوجد خورشيد آغا وقد أتى إلى الخرطوم يقود نحواً من أربعمائة جندي من غير النظاميين ليحل مكانه.

غارات خورشيد أغا ـ ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ م

قام خورشيد أغا بحملة على الشلك بعد عام واحد من تسلمه مقاليد الأمور، فكانت أقرب إلى نزهة انتهت بعودته عام ١٢٤٢ هـ ـ (شتاء ١٨٢٦ ـ ١٨٢٧ تقريباً). وفي نفس العام، وبعد موسم الأمطار، سار بقافلة صغيرة إلى أطراف أعالي النيل الأزرق وأخضع القبائل التي تقطن جنوب أبي العباس (تقرأ ود العباس) دون صعوبة تذكر، وأسر الكثيرين منهم وباعهم لحساب الحكومة، ثم عاد إلى الخرطوم(١٣).

وفي العام التالي، وبعد الخريف مباشرة، أي في عام ١٢٤٣ هـ (خريف ١٨٢٧) قاد خورشيد أغا حملة أخرى إلى الروصيرص قوامها ثلاث كتائب نظامية وتشكيلتان من الخيالة(١٤). ومن هناك فارق النيل الأزرق وتوجه إلى منطقة الدينكا على ضفاف النيل الأبيض ـ وكان في حملته تلك يصطحب معه حليفاً يسمى شيخ سليمان من قبيلة أبي روف ـ ومعه عدة مئات من أفراد قبيلة العرب(١٥). ويمتاز الدينكا عن غيرهم من القبائل المجاورة بسهامهم المسمومة برؤ وسها التي تمزق الجسد تماماً.

---

(١٣) وجهت هذه الحملة ضد حمدة أبي روف، وكان زعيمها ود عجبة يقيم قرب سيرو من نواحي سنار (تاريخ ملوك السودان، ص ٢٨).

(١٤) يشير (تاريخ ملوك السودان، ص ٢٨) إلى أن بداية الحملة كانت في محرم ١٢٣٤ هـ (يوليو/أغسطس ١٨٢٧). ثم يضيف أن موسى كاشف وهو «أحد المعاونين» مات في جبال الفونج غرب الروصيرص.

(١٥) سليمان أبو روف، أحد أفراد العائلة الحاكمة في الفرع الغربي لعرب رفاعة. وكان أهله، يعرفون بـ «ناس أبو روف» يتخذون الضفة الغربية للنيل الأزرق، بين سنار وفازوغلي، مرعى في موسم الجفاف (هـ. أ ماكمايكل، تاريخ العرب في السودان، ص ٢٤٠ ـ ٤١).

وتمكن خورشيد أثناء الحملة من القبض على بعض أفراد قبيلة الدينكا وهم يغطون في النوم في قراهم، ولكنه واجه فيما بعد مقاومة قوية منهم. فقد هجم الدينكا على المشاة بضراوة وهم يتصايحون ويصوبون السهام نحوهم، فولى المصريون الأدبار، ولكن الدينكا استداروا في خفة ورشاقة وطاردوهم وأوسعوهم ضرباً بالسهام وعصي من الأبنوس كانوا يحملونها. ولم يطلق المشاة النار عليهم خشية أن يصاب زملاؤهم، وأخيراً لم يجدوا غير الحراب للدفاع عن أنفسهم واستطاعوا صد هجوم الدينكا. وقد تكبد الجانبان قتلى كثيرين، ووقع مئتان من الدينكا في الأسر، مات معظمهم متأثراً بجراحه. ولقد وصف صول في الكتيبة الخامسة للمؤلف تفاصيل الوقفة الشجاعة للدينكا في تلك المعركة.

واصل خورشيد رحلته، بعد أن أعطى رجاله راحة مدة يومين متجهاً إلى نهر السوباط وهو يشق طريقه في صعوبة بالغة. ومن السوباط رجع إلى الروصيرص، ثم توجه عن طريق النيل إلى الخرطوم حيث وصل بعد غياب امتد لثلاثة أشهر كاملة. أما الكتيبة الخامسة فقد لحقت به بعد حين حاملة معها خمسمائة من الدينكا الذين تم توزيعهم على كبار رجال الحكومة والضباط، وبلغ ثمن الفرد منهم حوالي ثلاثمائة قرش[١٦].

خليفة ود الحاج محمد العبادي والطريق الصحراوي:

في وقت الحملة على الدينكا، تمرَّد الشيخ خليفة على الحكومة بسبب خلاف مع عباس أغا مأمور بربر[١٧]. وكان خليفة زعيماً للعبابدة، وهم قوم يقطنون في المنطقة التي تقع بين البحر الأحمر وقبيلة البشاريين، وقبائل الكنوز وحوض النيل شمالاً حتى قنا.

ولقد اتخذ خليفة دراو (شمال أسوان) مقراً له قبل الفتح التركي، حيث كان يتجمع فيها التجار في طريقهم إلى سنار، فيزودهم نيابة عن الحكومة بالجمال والأسلحة ثم يقوم بحراستهم حتى يعبروا الصحراء.

(١٦) القرش الفضي المصري، وكان أساس العملة المصرية في ذلك الوقت. وكان الجنيه الاسترليني يساوي سبعة وتسعين ونصف قرش عام ١٨٤٣ في الاسكندرية.

(١٧) أورد (تاريخ ملوك السودان) أن تمرد خليفة حدث عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ - ٢٨). ولأنه كان يميل إلى الحكومة، وصف الكاتب السوداني خليفة قائلاً: «ظهرت منه مخالفة وعصيان، وحضر ببربر وحارب العساكر الذين كانوا بها». وتذهب رواية أخرى إلى أن عباس هو البادىء بالعدوان، وهي مضمنة في كتاب (من زوايا التاريخ السوداني في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٤١، ص ٥) وهي نبذة موجزة عن تاريخ قبيلة العبابدة لحسن أحمد حسين خليفة العبادي، موظف سابق في الحكومة وحفيد خليفة.

وكانت الرحلة عن دراو إلى بربر، عبر ديار البشاريين، تستغرق أثني عشر يوماً. وفي بربر كان الشيخ يجمع الهدايا من التجار قسراً ويقدمها إلى ملك[١٨] سنار حتى يأذن لهم بالدخول إلى أراضيه بغرض التجارة. وكان الملك بدوره يرسل رهائن يحتفظ بهم خليفة حتى عودة التجار من سنار، وعندئذ يذهب معهم خليفة حتى شندي ثم يتركهم وشأنهم يكملون الطريق، ويبقى هناك في انتظارهم فيأخذهم مرة أخرى إلى دراو.

ولم يكن الطريق ممهداً أمام التجار، فقد تعود زعماء القبائل أثناء عبورهم ديار البشاريين وبربر والدامر أو حتى شندي على ابتزازهم فيضطرون إلى المقاومة دفاعاً عن النفس. وقد هاجم مرة شيخ أبي حمد، وكان يكنى «بالأسد» لشجاعته، قافلة تحت حماية الشيخ خليفة وسلب بعض الجمال المحملة بالبضائع. وصمم الشيخ خليفة على الفور على القيام بحملة تأديبية، ثأرية على «الأسد» فاختار ثلاثمائة من رجاله وسار بهم على ظهور الجمال إلى قرية الشيخ المعتدي ليلاً، فقتله وأشعل النار في القرية ثم عاد إلى دراو.

وابان فتح إسماعيل باشا للسودان، اقترح عليه الشيخ خليفة أن يكلفه بفتح طريق بين كروسكو وأبي حمد، فوافق إسماعيل باشا، وبدأ خليفة العمل بحفر الآبار على الطريق في واد ضيق بين سلسلتين من الجبال. ثم أحاط الآبار بكتل من الصخور حماية لها من الرمال. وهذه الآبار موجودة إلى يومنا هذا وتحتوي مياهها على سلفات المقنيزيا التي تعد من أقوى المسهلات.

بعدها عين خليفة شيخا على الصحراء بعد مفاوضات أجراها مع الحكومة، وأوكلت له مهمة تجهيز الجمال لنقل مستخدمي الحكومة وعامة الناس بأجور محددة تصل إلى تسعين قرشاً لكل جمل في الرحلة الواحدة من بربر إلى كروسكو، وثلاثين قرشاً لكل قنطار من البضائع.

وكان الشيخ يجني أرباحاً طائلة من عمله هذا. ويكفي للتدليل على ذلك أن تعلم أنه قد فرض رسوماً على كل جمل يستأجره من صاحبه بمقابل بخس قد يكون من العبيد من الدرجات الدنيا، أو جمال هزيلة لا تكاد تصمد لرحلتين أو ثلاث. أما من يستعمل دابته الخاصة، فعليه أيضاً دفع رسوم للمرور، على أن خليفة كان في بعض الحالات يقوم

---

(١٨) ملك (والجمع مكوك) وتعني ملك بالوراثة في سلطنة سنار القديمة. ويقصد الكاتب هنا، فيما يبدو، السلطان نفسه.

بنوع من التعويض. فالمفقودون نتيجة لموت الدواب تقع مسؤوليتهم على الشيخ، وكذلك البضائع المفقودة حيث يعوض أصحابها بعد نهاية الرحلة. والبشاريون الذين يستخدمهم الشيخ يطلبون أجورهم نقداً بعكس العبابدة. وإذا حدث خلاف بينهم وبين الحكومة، فإنهم سرعان ما يغيرون على القوافل. ولقد حدث أن انقض البشاريون على مجموعة من الخيالة الأتراك يقدر عددهم بنحو أربعمائة رجل في منطقة أبي حمد أثناء عودتهم من مصر. وإزاء ذلك هرب الجنود وضلوا طريقهم في الصحراء ومات منهم عدد كبير من العطش، ولم ينج غير عشرين رجلاً واصلوا طريقهم حتى وصلوا سالمين إلى بربر بصحبة دليلهم.

والطريق بين كرسكو وبربر عبر الصحراء هو في الواقع أقرب كثيراً من طريق دنقلا. ويصبح الطريق صحراوياً بحق جنوب قرية مرَّات، حيث تبدأ سلسلة من الآبار المالحة، وحيث الرحلة طويلة وشاقة تستمر أياماً ثمانية طوالاً. وفيما عدا أميال معدودة، فإن الطريق مطموس المعالم بفعل الرمال المتحركة باستمرار والتي تمحو أي أثر يرشد المسافرين. ولا يستطيع أحد عبور هذا الطريق بمفرده دون مخاطرة غير العبابدة فهم يعرفون بالممارسة دروبه ومسالكه، إنهم يتخذون النجم القطبي دليلاً في طريقهم من أبو أحمد إلى كرسكو، جاعلين النجم على الناحية الغربية دائماً. أما لدى العودة فإنهم يستدلون بنجوم أخرى غير معلومة لدينا. وأثناء النهار حين تختفي النجوم يعتمد العبابدة على الملاحظة الدقيقة لعلامات على السهل أو الجبال. والعبابدة لا يتوقفون عادة للراحة إلَّا مرتين كل أربع وعشرين ساعة، وتمتد كل فترة للراحة لأقل من ساعة واحدة، وذلك لعدم وجود ماء أو علف للحيوانات على الطريق، عدا كميات قليلة من الذرة تقدم للجمال في الليل.

أما الأمطار فنادراً ما تهطل هنا إلَّا في الأجزاء الجنوبية، فتنمو الأعشاب، ويجتمع الماء في فجوات الصخور في الجبال. وأكبر هذه الفجوات أو الأحواض موجودة في جبال «المدينة» حيث تبقى فيها المياه عدة سنوات. ورغم معرفة العبابدة بهذه الخزانات، إلا أنهم قلما يدلون عليها أي غريب.

في عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ ـ ١٨٣٢) كانت قوة مصرية من الخيالة قوامها مائتا رجل تتحرك من كرسكو عبر الصحراء بصحبة دليلين. وبينما هم في قلب الصحراء، بدأ أحد الدليلين في تعاطي الخمر بعد أن جاد به عليه قائد القوة الذي كان يحمل عدة قوارير. وقبل وصولهم إلى أبي حمد بمحطة واحدة، حطوا الرحال لقضاء الليل، وأرسلوا بعض الجنود ومعهم دليل إلى أبي حمد لاجراء ترتيبات الاستقبال. وأثناء الليل، دعا القائد

الدليل الآخر إلى خيمته وأخذ يغدق عليه البراندي حتى الثمالة.

واستأنفت المجموعة سيرها حوالي الثانية صباح اليوم التالي. وعند حلول منتصف النهار عرف الدليل أنه ضل الطريق، وتوغل في الصحراء بدلاً من السير في اتجاه النيل. فأوقف القافلة وذهب بناقته متفقداً الطريق. ثم قفل راجعاً، ولكنه لم يجد الشجاعة ليخبر الجماعة ما فعل بهم، بل أخذ قسطاً من الراحة واختفى بمفرده مرة أخرى. ولكنه هذه المرة لم يعد إليهم. وانتظر أفراد القوة حضور دليلهم حتى اليوم التالي، فأصابهم اليأس وتبينوا عندئذ مصيرهم المحتوم، وهاموا على وجوههم في الصحراء. وقد استطاع جندي واحد أن ينجو من الهلاك عندما وجد جملاً ضالاً في الصحراء، وصل إلى النيل بعد يوم كامل، ثم إلى أبي حمد بعد يوم آخر.

في هذه الأثناء أخذ الدليل الآخر يبحث عن القافلة، ولما بلغ به الإجهاد غايته عاد إلى أبي حمد قبل وصول الجندي بقليل. واستؤنف البحث فيما بعد من جديد، وكانت النتيجة أن وجدوا أن جميع أفراد المجموعة قد ماتوا. كان القائد في خيمته يفترش البساط واضعاً رأسه على الوسادة كالنائم. أما الدليل فقد عثر عليه وهو يتكىء على ركبة ناقته وكلاهما ميت أيضاً. وتم دفنهم جميعاً وبيعت ممتلكاتهم في مزاد علني وآلت قيمتها إلى خزينة الحكومة.

بنى خليفة حصناً في أبي حمد عقب توليه شياخة الصحراء. وكان الحصن مصمماً على هيئة مربع هائل ذي جدران سميكة وعالية من الطين المجفف. وكان جانبه الغربي يحمي النيل، بينما أطلت قلعة دائرية الشكل من الركن الشمالي الشرقي، عليها ثلاثة مدافع: أحدهما مصوب نحو الشرق وآخر نحو الشمال والثالث على الصحراء الممتدة. وهناك أيضاً قلعة أخرى تنتظم جميع جوانبها فتحات تقع في الركن الجنوبي الغربي. وفي منتصف الحائطين الجنوبي والشمالي بوابتان تواجه إحداهما الأخرى روعي في تصميمها من حيث العرض والارتفاع مرور جمل محمل بالبضائع إلى داخل الحصن. أما مأوى خليفة نفسه فقد احتل الجزء الشرقي من الفناء الواسع مع مجموعة كبيرة من الأكواخ لرجاله. وكان الغرض من بناء هذا الحصن هو حماية عمال الحكومة والتجار في وقت كانت فيه البلاد قد أصبحت تحت الاحتلال، إلى جانب الخطر الماثل دوماً في اعتداءات البشاريين[١٩].

---

(١٩) البشاريون الذين جاء ذكرهم من قبل في هذه الرواية هم من الحاميين، ويتحدثون مجموعة من اللغات البجاوية. ورغم أن العبابدة ينسبون أنفسهم إلى أصل عربي، إلا أنهم ينتمون عرقياً إلى =

وكانت المناطق التي تجاور أبي حمد حتى القنينيطة مجرد صحراء. أما الآن ونتيجة لاستكمال فتح السودان، فإن ظروف الأمن مهيأة للمسافرين. وكان لخليفة منزل آخر محصن على بعد نصف ساعة من بربر على طريق أبي حمد في مكان يعرف بالخور، وقد تم القبض عليه في هذا المكان حين تمرد عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨)[٢٠]، وأمرت الحكومة بهدمه فيما بعد. أما أسباب تمرد الشيخ خليفة فتعزى إلى (هنا نجد صفحتين ليست بهما كتابة).

حملة خورشيد على فازوغلي:

بعد نهاية فصل الخريف في ذلك العام ـ ربما منتصف أكتوبر ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨) ـ قاد خورشيد باشا حملة على فازوغلي. ولقد استعد لها بحشد الجنود في ود مدني، ثم قطع المسافة منها إلى سنار في ثلاثة أيام. ومن سنار أستأنف السير بعد تعزيز القوة بالكتيبة التي كانت هناك، فوصل إلى فازوغلي ماراً بالروصيرص. وتمت له السيطرة على المنطقة، ففرض ضرائب باهظة من الذهب والعبيد، ثم عاد إلى سلسلة جبال تابس الواقعة في الطريق بين الروصيرص وفازوغلي. وهنا نصب خيامه واستولى على مصادر الماء على أمل إجبار السكان على الخضوع التام.

وتجمع السكان وتدافعوا نحو الجنود لاجلائهم عن المنطقة، ولكنهم سرعان ما ردوا على أعقابهم، ففروا هاربين أمام جنود الباشا. وانتشى خورشيد بهذا الانتصار الخاطف فأطلق رجاله من ورائهم، غير أن طبيعة الأرض المشققة عاق تقدم الجنود فتوقفوا. ولقد كان هذا التوقف قبل الدخول في الأحراش في صالح الأتراك، إذ كان في انتظارهم جيوش من السكان في الجبال المجاورة، والغابات الكثيفة، والطرق الوعرة. وحيال هذا الطارىء الجديد، لجأ خورشيد مرة أخرى إلى فكرته القديمة ألا وهي الاستيلاء على منابع المياه. ولكن يبدو أن السكان كانت لهم مصادر أخرى للمياه في الجبال بدليل أنهم لم يتوقفوا عن صنع المريسة. لذلك انسحب خورشيد أغا من الروصيرص، وسلم القيادة للبكباش إبراهيم أفندي، ثم سافر بالمركب إلى الخرطوم.

= البشاريين. ويسرح البشاريون بإبلهم على الصحراء الشرقية في المنطقة الممتدة من شمال حدود جمهورية مصر العربية إلى نهر عطبرة، وحتى تلال البحر الأحمر شمال دوناب.

(٢٠) انظر صفحة (١٦٢) «هـ» أدناه.

حملة أخرى على الشلك:

بعد مضي عامين وعند نهاية موسم الأمطار عام ١٢٤٦ هـ (خريف ١٨٣٠) أعدت حملة بالمراكب الشراعية التي شقت عباب النهر حتى انتهت إلى ما يمكن أن نسميه الأرخبيل (مجموعة جزر) وهو موطن الشلك. غير أن القوة عند نزولها على إحدى هذه الجزر، لم تجد أثراً لأفراد قبيلة الشلك، فقد احتموا بعاصمتهم ديناب من الهجوم المتوقع[٢١]. وواصل الجيش طريقه إلى منابع نهر السوباط دون اعتراض من الشلك حتى وصل إلى ديناب. وهنا فوجئت القوة بوابل من السهام بمجرد نزولها من البواخر. ووقف الشلك موقفاً شجاعاً أمام النيران التي انصبت عليهم. ولدى شعوره بالعجز عن فك الحصار، أو حتى استرجاع أفراد القوة مرة أخرى إلى المراكب، أمر رخورشيد باطلاق المدفع من على ظهر المركب. وكانت النتيجة أمراً لم يكن متوقعاً حتى من خورشيد نفسه، فقد كانت القذيفة عنقودية، لذا فقد سببت أضراراً بالغة على الشلك، ففروا هاربين في ذعر فتبعهم الجنود وأسروا منهم من أسروا ونهبوا ممتلكاتهم وأحرقوا القرى.

وبعد حين استعاد الشلك شجاعتهم فعادوا إلى مهاجمة العدو وأجبروه على التقهقر إلى المراكب تحت غطاء من قذائف المدفع، تاركاً خلفه الأسلاب. أما الشلك فقد ارتفعت روحهم المعنوية، ولم يعد المدفع يخيفهم، الأمر الذي جعل خورشيد أغا، وقد شعر بضآلة جيشه، يفكر في العودة إلى الخرطوم مكتفياً بأسر مائتين من الرقيق. وقد كان الهدف من هذه الحملة هو عقاب الشلك على أعمال القرصنة التي ظلوا يمارسونها ضد جيرانهم العرب في الشمال بقواربهم الطويلة.

غارة على التاكا:

في عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١) شكل خورشيد آغا قوة قوامها ستة آلاف رجل لغزو منطقة التاكا، متخذاً قرية سبدرات هدفاً له. سار جيش خورشيد عن طريق قوز رجب، ثم عبر نهر عطبرة حتى انتهى إلى منطقة الغابات. في البداية طلب خورشيد من السكان إعلان الاستسلام، وحين شعر بميلهم نحو المقاومة، دخل جنوده الغابة التي لم تساعدهم كثيراً على التقدم. ودارت معركة بين الجانبين دحر فيها الخيالة وأبيدوا عن آخرهم تقريباً،

(٢١) أثناء وصفه لهذا الحدث، وقع المؤلف في خطأين: ديناب تقع إلى الداخل، ونزول القوات كان في أقرب نقطة على النيل الأبيض. إذن فهي فشودة على الأرجح وليست ديناب. أما الخطأ الثاني فهو أن الشلك لا يستعملون السهام.

كما اشتبك المشاة من بعدهم في معركة ضارية خسروا فيها الكثير. وأخيراً وجد خورشيد آغا، ومعه خمسمائة من جنده، نفسه في فضاء صغير بين الأحراش، فوقفوا يدافعون عن موقعهم في استماتة. أما بقية الجنود فقد تفرقوا بين ثنايا الأشجار في مجموعات صغيرة غير قادرة على أن تعين بعضها بعضاً. في هذه المعركة خسر جيش خورشيد اثنين من مدافع الميدان وحطم أعداؤه عجلات مدفع آخر في موقعة استمرت مدة ثمان وأربعين ساعة. ولم تتمكن القوة من شق طريقها خارج الغابة نحو المعسكر إلا بعد انضمام ثلث الرجال إليها. وفي الطريق وجدوا المدفعين بعد أن تركهما العدو لثقل وزنهما. وعاد خورشيد وجنوده إلى المعسكر بعد أن تكبدوا خسائر في الأرواح بلغت نحواً من ألف وخمسمائة رجل ماتوا متأثرين بالجراح والعطش.

وبعد هذا الدرس، قرر خورشيد آغا البقاء في المعسكر الذي أحسن تحصينه. غير أن العدو أراد استغلال نجاحه في المعركة إلى أبعد الحدود وبدأ يتحرك نحو المعسكر نفسه. وأخذ خورشيد يرقب تقدم عدوه حتى أصبح على بعد مائة وخمسين خطوة تقريباً من المعسكر، ثم أطلق القذائف العنقودية عليه، وكبده خسائر فادحة. وهرب من نجا من السكان نحو الغابة في هلع، فطاردهم أفراد قوة الخيالة الصغيرة وأسروا بعضهم، ولكنهم تحاشوا الدخول مرة أخرى إلى الغابة. وعاد خورشيد آغا بعد ثلاثة أشهر إلى الخرطوم مهزوماً أكثر منه منتصراً(٢٢).

حملات إلى فازوغلي وتفتيش في كردفان:

عاد خورشيد بجيشه عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢) إلى فازوغلي وتوغل حتى انتهى إلى قماميل. وكانت حصيلته عند عودته إلى الخرطوم مرة أخرى مجموعة كبيرة من العبيد وكميات ضخمة من الأتاوات. وفي نفس العام قام بجولة تفقدية إلى كردفان بعد أن منحته الادارة في القاهرة حق ضمها تحت سيطرته بناء على طلبه. ورجع خورشيد آغا إلى الخرطوم في صفر من العام التالي أي ١٢٤٩ (نهاية ١٨٣٣) ليعاود الكرَّة بقيادة حملة أخرى إلى فازوغلي.

---

(٢٢) يقول المؤلف السوداني المتملق إن خورشيد قد نجح في هزيمة الهدندوة (تاريخ ملوك السودان ص ٢٩).

ترقية خورشيد واستدعاؤه:

جاءت الأخبار من القاهرة في نهاية العام بأن مرسوماً قد صدر بترقية خورشيد إلى رتبة لواء[٢٣] وهي رتبة لا تقابلها زيادة في المرتب لأنه كان أصلاً يتقاضى ستمائة كيس[٢٤]، أي ضعف مرتب باشا في مصر. والسبب في ذلك هو أن الباب العالي كان قد خلع عليه، قبل ذهابه كحاكم للسودان، لقب (Kapici - basi) أي رئيس البوابين وهو منصب تشريفي يتمتع بموجبه بهذه المخصصات. أما من ينعم عليه محمد علي باشا بلقب الباشا فكان يتقاضى ثلاثمائة كيس. وكانت نية محمد علي تتجه نحو ترقية خورشيد ألى قائمقام برتبة بك، ثم إلى باشا فيما بعد.

في عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤) طلب خورشيد أذناً للذهاب إلى القاهرة للعلاج من مرض الناسور الذي كان يشكو منه منذ زمن طويل، كلف زوج أخته، وهو ألباني يدعى يوسف آغا، بتصريف شؤون الحكم. ويوسف آغا كان يحمل لقب الخازندار، أي الصراف الخاص، ولكنه في حقيقة الأمر كان يدير دفة الحكم بالنيابة عن خورشيد. ومع أنه عرف عموماً بعدم الأمانة إلا أنه كان يميل إلى العدالة في أحكامه. استقبل محمد علي خورشيد استقبالاً طيباً لدى وصوله القاهرة. وبعد حين أجرى له كلوت بك العملية في منزله[٢٥]. ثم قام بزيارة محمد علي مرة أخرى، فأنعم عليه بلقب الباشا وفوضه أن يحكم السودان وفقاً لسياساته الخاصة تفويضاً كاملاً. ولما جاءت أخبار هزيمة الجيش المصري في «رمال الماء» وهي ناحية من نواحي عسير في الحجاز في سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ - ١٨٣٦) أمر محمد علي باشا خورشيد أن يعد لدى عودته للسودان مباشرة فرقتين من الزنوج للخدمة في الحجاز.

تكوين فرقتين جديدتين:

أصبحت الحاجة ماسة إلى تجنيد الزنوج لهاتين الفرقتين وإرسالهما إلى الحجاز

---

(٢٣) مير اللوى. بما أن جيش مصر «النظام الجديد» كان على غرار النظام النابليوني فإن الرتبة هي (General de brigade) وتعادل لواء في النظام الإنجليزي الحديث.

(٢٤) ما يسمى كيس فضة، ويساوي خمسمائة قرش، وكان يعادل نحو خمسة جنيهات استرلينية. والكيس أينما يرد في هذا الكتاب يعني كيس فضة.

(٢٥) أنطوين ـ بارثليمي كلوت بك (١٧٩٦ ـ ١٨٦٨) مدير المستشفى ومدرسة الطب في أبي زعبل، وعمل فيما بعد في القصر العيني بالقاهرة حيث تم تدريب معظم صغار الأطباء الذين التحقوا بالجيش المصري في السودان.

على جناح السرعة عن طريق سواكن. وفي سبيل الحصول على الزنوج، تم الإعداد لغارتين، إحداهما إلى فازوغلي، والأخرى إلى كردفان. كما فرض على أهل السودان المساهمة عن طريق التبرع بالعبيد، ومن ضمن الذين أجبروا على المساهمة بنصيب كبير أبوروف[٢٦] وإدريس ودعدلان[٢٧]. وكان على ضباط الجيش التبرع بعدد من الزنوج كل حسب رتبته. ولم يستثن من هذه الضريبة حتى الموظفين المدنيين. وبعد أن استعد تماماً زحف خورشيد نحو الروصيرص.

ثورة رجب ود بشير الغول:

بينما كان خورشيد لا يزال في الروصيرص، نقل إليه أحمد كاشف[٢٨] أن رجب شيخ العطيش قد اتصل بـ «كنفو»، وكان حاكماً حبشياً في غندار، طالباً منه المساعدة وذلك بتأثير من كاتبه القبطي[٢٩]. وكان كنفو في تلك اللحظة يتحرك نحو العطيش على رأس ألف جندي. وفكر خورشيد في الذهاب لنجدة أحمد كاشف ولكنه تخلى عن الفكرة أمام إصرار محمد علي لكي يقوم بإعداد الفرقتين، فتوجه إلى فازوغلي للحصول على

---

(٢٦) هو سليمان أبو روف.

(٢٧) إدريس ود عدلان محمد أبو لكيلك، زعيم قبيلة الهمج في جبل قلي بين النيلين الأبيض والأزرق، والذي عينته الحكومة شيخاً على المشايخ. وقد خلق الأتراك المنصب ليخلعوه على الشيوخ العظام. وكان أبو لكيلك أحد الشخصيات المعروفة في قبيلة الهمج الذين تنازعوا حكم سلطنة سنار عشية الفتح التركي ليتعاقب على السلطة مجموعة من السلاطين الذيول للعائلة المالكة في الفونج. وقد تزوجت شقيقته نصرة من الأرباب محمد دفع الله من السوريبة بالقرب من ود مدني، وهو أيضاً أحد زعماء الهمج، وأبرم اتفاقية سلام مع الغزاة. وأرباب رتبة شرف كان يمنحها السلطان لشخصيات ذات وزن كبير في الحكم.

(٢٨) كان كاشف كل من القضارف وراشد.

(٢٩) رجب ود بشير الغول، شيخ من شيوخ الحمدة الذين كانوا يعرفون باسم «ناس أبو جن» وهم فرع شرقي لعرب رفاعة الذين كانوا يرعون في العطيش وجنوب البطانة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة. وخصصت الحكومة كاتباً وعدداً من الدفاتر لكل شيخ قبيلة لأغراض جمع الضرائب. وكان كنفو دجاج «كوارا» (وهو مركز على الحدود الحبشية) وعم ثيودور الثاني الذي صار امبراطوراً فيما بعد. وقد ذكر القنصل البريطاني العام في مصر أن رجب كان شقيقاً لأبي ريش الذي وصفنا أحداث تمرده على الحكومة في الصفحات (١٨٦ ـ ٩). وقد غضب رجب بعد تعيين الحكومة لأبي ريش، فهرب إلى الحبشة ثم عاد بعد أربعة أشهر مع جيش يقوده كنفو. وبعد أن سلب من أبي ريش نساءه وعبيده وقطعانه، انسحب نحو الحدود. وقام خورشيد باشا برشوة أحد رجال كنفو لتسليم رجب ففعل، ووضع رجب في السجن بعد خمسة أشهر من هروبه (ب. كامبل إلى اللورد بالمرستون، اكتوبر ١٨٣٧، (P. R. O., F. O., 1 - 3).

العبيد. على أن خورشيد، مع ذلك، تمكن من إرسال بعض جنوده إلى أحمد كاشف، ثم عاد إلى الخرطوم بعدد كبير من الرقيق بعد نجاح عمليته في فازوغلي.

وقد عززت قوات أحمد كاشف بإمدادات عسكرية تألفت من كتيبة نظامية ومائتين من الخيالة، بالإضافة ألى مدفع ميدان، الأمر الذي شجعه على الخروج لملاقاة الشيخ رجب وحليفه الحبشي بنحو ألف وأربعمائة من المحاربين. والتحم الجانبان في معركة تكبد فيها الأحباش، رغم تفوقهم العددي، خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات. وبعد المعركة طاردهم أحمد كاشف وذبح بعض من وقع في قبضته وأسر البعض الآخر. ولجأ الشيخ رجب إلى الحبشة مع الأحباش الهاربين تاركاً خلفه كاتبه القبطي الذي وقع في الأسر.

في غرة عام ١٢٥٢ هـ (ربيع ١٨٣٦) سلم كنفو الشيخ رجب إلى المصريين مقابل مبلغ من المال تلقاه نظير خيانته لصديقه، فجيء به إلى الخرطوم، حيث أمر خورشيد بقتله على الخازوق(٣٠). أما كاتبه ومستشاره فقد تقرر أن يشنق لكونه قبطياً لا يستحق هذا الشرف. ولقد كان رجب رجلاً في مواجهة مصيره، حيث ودع أهله في هدوء وشجاعة وأظهر ثباتاً منقطع النظير أمام جمهرة النساء، ثم اتجه في خطوات واثقة نحو الخازوق، ومن هناك ناشد الناس الاطاحة بحكم الأتراك البغيض. وقام أقاربه بدفنه. أما الكاتب فقد شنق في اليوم التالي، وحمل أقرباؤه جثمانه.

الحملة الخاسرة على الأحباش:

كان أحمد كاشف متشوقاً للقيام بحملة تأديبية على الأحباش لوقف عصاباتهم التي تخصصت في النهب عبر الحدود وأقلقت راحة السكان. ومضى في مهمته ومعه قليل من الجند، فاكتسح قرية صغيرة ودمرها، ولكنه وجد مقاومة من السكان في القرية التالية وكانوا على أتم الاستعداد بعد أن تلقوا تحذيراً من الذين هربوا من القرية الأولى. ومع ذلك تغلب عليهم رجال أحمد بعد لأي، وآثروا الانسحاب مكتفين بعدد من الأسرى

---

(٣٠) نعوم بك شقير (تاريخ السودان القديم والحديث، ص ٢٢)، الذي أعقب (تاريخ ملوك السودان، ص ٣٠ - ٣١) يورد رواية مختلفة عن كيفية القبض عليه. عين خورشبد باشا أحمد أبا جن شيخاً بدلاً عن رجب وأعدَّ منطقة لاستقرار قبيلته على نهر الدندر حول دباركي. وكتب باركنز Mansfield) (Parkyns أثناء وجوده بالقضارف نحو نهاية ١٨٤٥ يقول ان أحمد أبا جن كان شيخ المشايخ في ذلك الحين. ثم ذكر مخطئاً أنه زعيم الدافيناس «الضبانية» (Idfo in Abyssinia, ii, p. 405)

أرسلوا للخرطوم وكان من بينهم أحد القساوسة. هذه الواقعة مهدت للحربين الأولى والثانية مع الأحباش.

فقد أرسل كِنفو في سرية تامة جيشاً للثأر من أحمد كاشف. وكانت المخابرات الخاصة بخورشيد باشا قد أعطت معلومات غير دقيقة فيما يتعلق بالقوة الحقيقية بجيش كنفو، فاعتقد خورشيد أنه جيش صغير الحجم. لذلك أرسل خورشيد ستمائة رجل تحت قيادة قائد الكتيبة الخامسة، ومعهم أربعمائة من الخيالة المغاربة[٣١] ومائتان من الفرسان الشايقية[٣٢]. وإذا أخذنا في الاعتبار القوات المرابطة في العطيش فإن جملة الجنود تحت قيادة أحمد كاشف تصل إلى ألف وخمسمائة رجل.

ما أن عبر أحمد الحدود الحبشية حتى تقدم كنفو على رأس ألفي رجل وأحاط بقواته جيش المصريين، وأخذ يكيل له الضربات من كل ناحية[٣٣]. هنا لجأ أحمد إلى سالم أفندي قائد الكتيبة الخامسة وطلب مشورته فيما ينبغي عمله بما له من اختصاص وخبرة، ولكن سالم، وقد أغضبه تولي أحمد للقيادة العليا في وجوده، رفض الادلاء بأي رأي، واكتفى بالقول بأنه مستعد لتنفيذ أوامر أحمد كقائد دون أي إبطاء. وفي هذه الأثناء كان جيش الأحباش يتقدم والوقت يمضي سريعاً في غير صالح قوات أحمد كاشف. وما كان أحمد جباناً قط، ولكنه كان يجهل العلوم العسكرية، فاحتار في أمره. وفي نهاية الأمر وجه هجمة على الأعداء بسلاح الفرسان بمعاضدة من سالم أفندي الذي قام بدوره بشن هجمات متفرقة. واستمرت المعركة لساعة من الوقت، وبنهايتها وقع جميع الخيالة في أيدي الأحباش، وانسحب الجيش النظامي، وفر أحمد كاشف ومعه نفر قليل من أتباعه على صهوات جيادهم.

---

(٣١) المغاربة (الغربيون) تعبير عام لتعريف المتطوعين من شواطىء البربر وما بعدها غرباً، ومن أواسط أفريقيا وصعيد مصر. وتلك المجموعة من المغاربة التي هزموا في الحرب كانوا في الواقع من الهوارة، وهم من جنس البربر كانوا يعيشون في صعيد مصر. وعندما جاء أحمد باشا أبو ودان بعد خورشيد باشا، استغنى عن المغاربة وأرسلهم إلى مصر، واعتمد في تكوين الفرسان غير النظاميين على الشايقية بصورة مطلقة.

(٣٢) يسكن الشايقية في منحنى النيل بين الشلال الرابع ودنقلا. وبعد وقفتهم ضد الأتراك، صاروا حلفاء لهم يعملون فرساناً غير نظاميين في جيوشهم ليصطادوا لهم العبيد ويجبوا الضرائب.

(٣٣) ذكر أنطوين د، أبادي (Antoine d'Abbadi) في معرض خطاب له موجه إلى بي. ف. جومارد، وهو يعلن موت كنفو بأن المعركة كانت في المتمة (أي القلابات) على الحدود السودانية الأثيوبية الحالية. أما مؤلف (تاريخ ملوك السودان) فيزعم أنها وقعت في ودكلتابو بالقرب من راشد (ص ٣١).

في هذه المعركة أسر كنفو ثلاثة رجال من ذوي المكانة هم سالم أفندي[٣٤]، وعلي آغا الصاحبي[٣٥] قائد فرقة الخيالة المغاربة، والذي افتدته أمه فيما بعد، وقائد الشايقية، وقد افتداه أقرباؤه[٣٦].

وعاد كنفو بعد الموقعة مزهواً إلى غندار[٣٧]. أما أحمد كاشف فقد كتب إلى خورشيد وهو يتهم سالم أفندي بما حدث، ومرجحاً عودة كنفو للحرب من جديد.

ولعل خورشيد باشا كان يتهيب الأحباش حقاً، أو ربما أراد المداراة على أخطاء أحمد كاشف[٣٨]، فقد كتب إلى القاهرة محذراً من خطرهم ومنوهاً لاحتمال فقدان

---

(٣٤) كتب خورشيد باشا إلى القاهرة يصف الهزيمة قائلاً: «حتى إذا نجح سالم في النجاة من قبضة الأعداء، فإنه لن يستعيد رتبته في الجيش بسبب فشله في المعركة. أرجو الموافقة على تعيين بمباش جديد لأن موسم عمل الكتيبة قد حان، وموسم صيد الرقيق على الأبواب» (من خورشيد إلى مدير ديوان خديوي مصر، وثائق عابدين، القاهرة، الملف ٢٦٢، ٢٣/ صفر ١٢٥٣ هـ - ٢٩/ مايو ١٨٣٧).

(٣٥) واسترسل خورشيد في تقريره «وقتل معظم جنوده. ولأنه كان يعاني من جراح خطيرة، وفرصته في الهروب من الأسر ضعيفة، إضافة إلى أنه مثقل بالديون من التجار السودانيين، فقد رأيت أن من الحكمة تحويل رجاله إلى قيادة أحد أقربائه». غير أن هذا الضابط قد تمكن من الفرار، أو ربما أفندي لأن ويرن أكد وجوده أثناء الحملة على التاكا عام ١٨٤٠ وهو يقود ثلاثمائة من الفرسان المغاربة غير النظاميين وعلى رأسه آثار جرح غائر قديم (جولات أفريقية، ص ١٤٤). ثم يورد ويرن نبذة تاريخية موجزة ووصفاً لفرقة المغاربة: كيف أن معظمهم أتوا من طرابلس في بربري مع عائلة الأدغم عام ١٨١٠، وقد تسلح كل منهم ببندقية طويلة وحزام من المسدسات، وحمل الضباط منهم سيوفاً.

(٣٦) الملك سعد. وكان من بين الموتى ميري، شيخ التكارير في القلابات، وأحمد ود عبود قائد السواراب وهم فرع من الشايقية (تاريخ ملوك السودان، ص ٣١).

(٣٧) يصف مؤرخ البلاط الحبشي المعركة في كلمات بطولية. إذ يقول بعد وصف عدالة منفو «لقد قطع أيدي وأرجل اللصوص»، إنه عندما جاء الأتراك لأخذ الأتاوة من العرب، وعسكروا في المتمة بالقرب من موقع القلابات حالياً، خرج إليهم كنفو للمعركة في المتمة. وكان عدد الأتراك أربعمائة رجل قتلهم كنفو جميعاً مع حلفائهم العرب. ولقد غاب قائدهم عن ساحة المعركة حيث بقي في سنار. والإشارة هنا لخورشيد باشا. وعندما سمع الفرنسيون بالحدث، أنذروا محمد علي باشا على الفور وأبدوا استياءهم. (Cronica reale ambissina.... all anno 1840, ed. C. Conti Rossini, «Rend. R. Accad. dei Lincei, Ser. V, XXV, 1916, P. 913, Cited in S. Rubenson, King of Kings, Tewodros of Ethiopia, Addis Abeba and Nairobi, 1966).

(٣٨) لم يتستر خورشيد باشا على أحمد كاشف في تقريره: «ذهب أحمد كاشف مع أربعمائة من النظاميين ومائتين من الفرسان لجمع الضرائب. وكان قد وزع القوات لهذا الغرض عندما جاء كنفو (سر =

السودان نهائياً على أيديهم[٣٩]. ثم ألحق ذلك كله بإرسال تقرير عن هزيمة جيشه والنقص الذي كان يعاني منه في حالتي الهجوم والدفاع. وأعلن عن استعداده لهزيمة كنفو في غندار إذا ما وضعتْ فرقة من المشاة أو الفرسان تحت تصرفه. وعندما أطلع محمد علي باشا على هذا التقرير، راوده بعض الأمل في غزو الحبشة، فتضمن رده وعداً بإرسال قوة كبيرة قريباً تحت قيادة أحمد باشا أبو ودان، وخيره بين القبول بها وإلاّ فليرسلها مرة أخرى إلى القاهرة إن كان لا يحتاج إليها. كانت هزيمة أحمد كاشف هذه في ١٥ محرم ١٢٥٣ هـ (٢٢ ابريل ١٨٣٧)[٤٠].

مصير الفرقتين الجديدتين:

في عام ١٢٥١ هـ (شتاء ١٨٣٥ - ٣٦)، وفي أثناء وجود خورشيد باشا في فازوغلي، وصل أفراد إحدى الفرقتين إلى بربر قادمين من القاهرة، بينما رؤي تكوين الفرقة الثانية من أفراد الكتيبة الأولى الموجودة في السودان[٤١]. وعين سليمان باشا - قائداً للفرقة الأولى. أما قائد الفرقة الثانية فكان محمد المرابط. عند اكتمال عملية التجنيد نقل الرجال إلى سواكن، ومنها إلى جدة[٤٢]. ولقد تسببت رداءة الطقس وسوء الطعام في موت

= عسكر) قائد الأحباش الكفار من فوق القلابات وهزم القوات الأمامية لأحمد، وأجبرها على الانسحاب إلى «سرف الرحيم». وبعد هنيهة تلقى جيش أحمد هزيمة أخرى وفقد كثيراً من رجاله ما بين أسير وقتيل. وقد قوبل طلب العدو للفدية بالرفض، لأن هؤلاء الضباط تسببوا في الهزيمة بإهمالهم في تطبيق القوانين العسكرية المناسبة في تشكيل صفوفهم والسيطرة على إطلاق النار. إن هدف الكفار هو استعادة العطيش، والقلابات، وقدبي، وأياتي التي كسبناها عام ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩)». وقد نصح خورشيد بشن هجوم مضاد خوفاً من أن تكون تلك المناطق ملجأً للهاربين من الضرائب في سنار إذا بقيت في قبضة كنفو (تقرير خورشيد المشار إليه أعلاه).

(٣٩) سجل بكلر - مسكاو سير أحمد كاشف إلى الخرطوم عن طريق ود مدني لشرح أسباب هزيمته للحاكم العام. وقد عزى الرحالة الألماني (الذي من المحتمل أن يكون قد جمع معلوماته في ود مدني من كاتب هذه الرواية نفسه) أسباب هزيمة الأتراك إلى القسوة المتناهية لأحمد كاشف في صيد الرقيق على الحدود الحبشية وذلك عندما حمل معه قسيساً كان يمت لكنفو بصلة الرحم (Egypt under Mohemed Ali, Pt 2, P. 373).

(٤٠) هنالك رواية عن هذه الحملة تستند أساساً على المصادر الدبلوماسية البريطانية والفرنسية، ومعلومات من الرحالة فيما كتبه م. أبير (M. Abir) أصول مشكلة الحدود الحبشية - المصرية في القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية، المجلد رقم (٨)، ١٩٦٧، ص ٤٤٣ - ٦١)

(٤١) جيش محمد علي باشا الذي أسماه «النظام الجديد» كان على النمط النابليوني، وكانت القوة المعتادة لمشاة النظام الجديد تبلغ ثلاثة آلاف وأربعمائة رجل.

(٤٢) في أوائل صيف ١٨٣٧ استعرض بكلر - مسكاو في شندي مائة من المجندين للحجاز يرتدون =

الكثيرين منهم، ولم يثمر ما بذل من جهد في التجنيد المستمر لسد النقص، وما أرسل من طعام خاص لهم، مما اضطر الحكومة أخيراً لاستدعاء القوة إلى مصر. وضمت فلولها التي وصلت القاهرة إلى الفرق الأخرى.

وكان هؤلاء الجنود قد غادروا بربر في النصف الأول من عام ١٢٥٢ هـ (ابريل / مايو ١٨٣٦). وقد تمت ترقية محمد أفندي المرابط من قائد للكتيبة الخامسة إلى قائمقام وحل محله سالم أفندي الذي أسره الأحباش فيما بعد. وفي نهاية ١٢٥٢ هـ (فبراير / مارس ١٨٣٦) عين محمد أفندي قائداً للكتيبة الأولى ومأموراً على كردفان بعد مصطفى بك الذي ترقى إلى رتبة لواء وعين مديراً لسنار. أما الرئاسة فكانت في الخرطوم لأن حدود اقليم سنار امتدت حتى الحدود الحبشية. ووصل محمد أفندي إلى الخرطوم حوالي نهاية ١٢٥٣ هـ (مايو ١٨٣٦) لتسلم مهام منصبه.

خورشيد باشا يتأهب لغزو الحبشة:

استدعى خورشيد باشا كتيبة قوامها ألف وخمسمائة رجل (وهي القوة العادية للكتيبة) من كردفان إلى ود مدني التي كانت نقطة التجمع كذلك جاءت كتيبة أخرى من دنقلا وهو الأقليم الذي وضع تحت سيطرته منذ زيارته إلى القاهرة، فبلغت قوته نحو سبعة آلاف محارب غير التعزيزات التي ظل يتوقعها من القاهرة. عند وصول خورشيد باشا إلى ود مدني عين مصطفى بك لقيادة قوة من ثلاثة آلاف جندي وأمره بالتوجه إلى فازوغلي. أما خورشيد نفسه فقد قاد بقية القوة إلى القلابات وبقي هناك دون أن يواصل تقدمه. ووضح فيما بعد أن توقف خورشيد كان سببه إشارة من القنصل البريطاني العام في الاسكندرية مفادها أن حكومة صاحبة الجلالة لن توافق على غزو محمد علي باشا للأراضي الحبشية، فاضطر الأخير إلى التراجع(٤٣).

في ٢٩ ذي القعدة ١٢٥٣ هـ (١٥ فبراير ١٨٣٨) وصل أحمد باشا مع الكتيبة الثامنة

= ملابس قطنية بيضاء. وكانوا يحتفظون بهم داخل سور القلعة خوفاً من هروبهم ليلاً (Egypt under Mehemed Ali, ii, P. 121).

(٤٣) ظل القنصل العام باتريك كامبل يرسل النصائح الأخوية المتكررة للباشا خلال شهر أكتوبر ١٨٣٧ ويرفع بها تقارير إلى اللورد بالمرستون (P. R. O., F. O., 1 - 3). وقد رد عليه محمد علي في عناد بأنه لا يضمر شراً للأحباش. وفي عام ١٨٣٣ أكد لكامبل جنوحه نحو السلم بالرغم من تعيين ابنه إبراهيم باشا والياً على الحجاز التي كان الباب العالي يضع الحبشة تحت نفوذه في العادة (Campel to Palmerston, P. R. O., F. O., 1 - 3)

وخمسمائة من الخيالة المغاربة بقيادة محمد آغا الأدغم، وأربعمائة من الفرسان الأتراك بقيادة عابدين بك، ومعهم اثنان من مدافع الميدان. وقد عبرت القوة الطريق الصحراوي من كرسكو، وعند وصولها نصبت الخيام في قبة خوجلي(٤٤). لدى دخوله الخرطوم، وجد أحمد باشا تعليمات من خورشيد باشا بأن يتوجه إلى ود مدني لانتظاره هناك. والتقى الرجلان في ود مدني في أواخر ذي الحجة (آخر مارس ١٨٣٨).

أصدرت الإدارة التركية قراراً ببناء ثكنات في الخرطوم، ففرض على كل شيخ في مديرية سنار إرسال عدد معين من الرجال لصناعة الطوب الأحمر. وشرع الرجال في العمل على الطرف الشرقي من المدينة. وبعد عمل استمر زهاء شهر ونصف، غير المسؤولون رأيهم حول تشييد الثكنات، فسرحوا العمال وقرروا ترك الفرقة حيث كانت في ود مدني، باستثناء كتيبة واحدة حولت إلى الخرطوم وتم ايواؤها في مساكن خاصة على نفس موقع الثكنات التي لم تكتمل.

عاصفة غير عادية في سماء الخرطوم:

في تمام الساعة الثانية والنصف مساء يوم ٢٦ من شهر محرم ١٢٥٣ هـ (٢١ أبريل ١٨٣٨) كانت سحابة داكنة ذات أشكال وألوان غريبة تزحف من الجبهة الجنوبية الشرقية للخرطوم نحو الشمال الشرقي. وبعد ربع ساعة فقط أحاطت المدينة عاصفة رملية من كل جانب، فخيم ظلام شامل رهيب. ولم ينقشع هذا الظلام إلا بعد خمس عشرة دقيقة، هبت على أثره رياح عنيفة. وفي الشهر التالي أيضاً، أي في صفر (أبريل / مايو ١٨٣٨) تكررت هذه «الهبوب» مرتين في بداية الشهر.

راشد أفندي، القبطي الذي اعتنق الإسلام:

كان لخورشيد باشا سكرتير يدعى راشد (٤٥) عرف بعدم أمانته، ولكنه رغم ذلك كان مقرباً للباشا إلى الحد الذي يمكن اعتباره الحاكم الحقيقي. وكان راشد غنياً جداً، ويمتلك منزلاً أفخم من منزل الحاكم نفسه زيادة على عدد ضخم من الخدم والحشم من الجنسين. وكانت من بين هؤلاء الخدم جارية شركسية ابتاعها راشد سراً لأن الحاكم وهو

---

(٤٤) من ضواحي الخرطوم، وجزء من الخرطوم بحري الآن. ومن أشهر معالمها قبة الصوفي خوجلي بن عبد الرحيم بن إبراهيم.

(٤٥) ظهر الاسم «رشيف». ورشيد كما يذكر ك. ر. ليبسياس كان قبطياً كاثوليكياً (Letters from Egypt, 1853, P. 163) وسلالة هذا الموظف القديم، ويعرفون «بأولاد الأفندي» لا زالوا يعيشون في منطقة الكاملين.

شركسي لم يكن ليسمح لمسيحي أن يشتري شركسياً. وازدادت مخاوف راشد حين ضرب خورشيد مثلاً رادعاً للذين يرتكبون مثل هذه الأفعال، فقد حرر جارية شركسية أخرى اشتراها صراف الحكومة. ولم يكتف بذلك بل عاقبه بخمسمائة جلدة وألقاه في النيل. إذن فإن لراشد العذر في إخفاء أمر الجارية عن خورشيد رغم صداقتهما.

وكان راشد يمتلك عدداً كبيراً من المراكب والسواقي، وثروة من المال الذي كان يستثمره عن طريق بعض أقربائه. كان يعطي الواحد منهم مبلغاً من المال ليعمل في التجارة على حسابه في المناطق المجاورة، رغم أنه حين قدم إلى سنار لم يكن يملك من متاع الدنيا سوى ما عليه من رداء. وبعد أن اشتهر في سنار اشترى منزلاً بالدين. وخلال سنوات، استطاع تسديد قيمة المنزل وتوفير بعض المال، ثم فكر في إعادة بناء المنزل على طراز جديد. وبينما هو منهمك في عملية البناء، عثر على جرة مليئة بالذهب، ولكنه لم يفكر في اخطار الحكومة بهذا الاكتشاف كما جرت العادة. وبمرور الزمن ارتفعت أسهمه بين زملائه من الكتبة حتى عين سكرتيراً لخورشيد باشا. وبعد أن توسعت أعماله، أرسل يطلب ابنه، وقد كان يافعاً لم يتعد الخامسة عشرة من العمر، ليقوم بمساعدته. غير أن الصبي خيب آماله فيه وفشل فيما عهد إليه.

وذات مرة صحب راشد سيده خورشيد إلى القلابات وترك أمر منزله لشخص يثق فيه، وأوصاه بألاّ يدع الشركسية تبارح المنزل تحت أي ظرف من الظروف. وفي يوم من الأيام، قررت الجارية، التي ظلت تعيش مع راشد المسيحي مكرهة، الهرب من المنزل والاحتماء بنساء الباشا. وبينما هي تحاول تسلق الجدران، هرع إليها الخصيون الذين كانوا معها في المنزل، فاستنجدت وهي تصرخ بأعلى صوتها، وتوسلت بأنها تريد الخلاص من قبضة المسيحي الكافر. ولم ينس الوصي بالطبع أن يخبر راشد عند وصوله ما حدث من جاريته، فقرر إشهار إسلامه لسببين: الأول أنه كان يحبها، أما الثاني فهو أن الشركسية كانت حبلى. وذهب راشد بنفسه إلى خورشيد مدعياً أن وحياً قد نزل عليه من السماء بترك دينه الذي ظل يؤمن به مخطئاً طوال حياته. كان ذلك حوالي نهاية ذي القعدة ١٢٥٣ هـ (النصف الأخير من فبراير ١٨٣٨).

ولما كان خورشيد نفسه يعد من المسلمين المتمسكين بأهداب دينهم فقد اغتبط بهذا الحدث أيما اغتباط، وأمر بالاحتفال بالمناسبة الدينية في موكب كبير. وصار اسم راشد منذ ذلك اليوم محمد نور الدين، وعند ختانه انهمرت عليه الهدايا والهبات من علية القوم. ولقد قاوم ابنه رغبة والده في البداية، ولكنه رضخ أخيراً بعد أن واجه وقفة

صارمة منه، فأسلم هو أيضاً وصار اسمه عليًا.

أحمد يخلف خورشيد حكمدار للسودان:

عاد خورشيد إلى الخرطوم ومعه أحمد أبو وِدان. وقد اشتد عليه مرض الناسور، رغم العملية حتى أنه لم يعد قادراً على ركوب الخيل. وكانت هذه سانحة لأحمد الذي نصح خورشيد للاستئذان في العودة إلى القاهرة على أن يقوم هو مقامه في حكم الخرطوم. فعمل خورشيد بنصيحته، ووافق محمد علي. ثم بدأ خورشيد يتشكك في نوايا أحمد، فجمع كل الدفاتر الحسابية وأمر بمراجعتها، ثم وضعها بعد ذلك أمام أحمد للتوقيع عليها في حضوره(٤٦).

وأخيراً سافر خورشيد، وأعقبه في التقاعد نور الدين أفندي، وكاشف العطيش أحمد. وخيم حزن عميق بسبب سفر خورشيد وأسرته، فقد ـ حكم السودان على نهج أبوي. ومع أن الرجل كان سريع الغضب، إلا أنه كان ينسى غضبه بنفس السرعة أيضاً.

أزمة نور الدين المالية:

لم يكن نور الدين معفياً من الالتزامات تجاه الحكومة، فقد كان مديناً للدولة بنحو ألف وأربعمائة وثلاثين كيساً. وصار في حرج شديد حيال تهديدات أحمد باشا له في هذا الشأن. ولكن وهو في قمة أزمته المالية، وصل جناب الباشا محمد علي إلى الخرطوم ومعه قنصل عام موريا (The Morea) وكان يدعى توستزا (Tossitza)(٤٧) فوجد راشد فرصته في عرض قضيته على الباشا بواسطة شخص يسمى لاسكاري (Lascari) كان يعمل كبيراً للصيادلة في الحكومة(٤٨). ونجح الأخير في استصدار أمر منه يقضي بأن يدفع راشد المبلغ على أقساط خلال عدد من السنين. ثم قدم نور الدين استرحاماً لمراجعة حساباته بطريقة أكثر حيدة، ولكن طلبه لم يجد القبول.

---

(٤٦) نوع من الحصافة والدهاء تحت نظام حكم سادت فيه عملية إلقاء تبعات المفاسد على من يتولى مقاليد الحكم من بعدك.

(٤٧) ميشيل توستزا (١٧٨٧ ـ ١٨٥٦) صديق الطفولة لجناب محمد علي باشا في كافلا، وقد صار ممثلاً دبلوماسياً في القاهرة لأول مملكة هيلينية أنشئت. وكان القنصل العام البريطاني يحتقره ويقول «إن السيد توستزا جاسوس لصانعه وولي نعمته محمد علي». (كامبل للورد بالمرستون، ٩ أكتوبر ١٨٣٧، (P. R. O., F. O., 78 - 320).

(٤٨) الأغريقي السمريونوتي لاسكارس الذي جاء ذكره عدة مرات في المخطوطة الثانية.

الفصل الثاني

الفكي الريح في طيبة:

تقع على اتجاه الغرب من مدني، في منتصف الطريق بينها وبين المسلمية قرية طيبة، وهي من القرى الكبيرة. وجميع سكان طيبة من «الفقراء»[1] (جمع فكي) لأنهم، في واقع الأمر، من أتباع زعيمهم الفكي الريح المعروف كأسلافه قاطبة بأنه ولي من أولياء الله الصالحين[2]. ويعتقد مريدو هذا الشيخ أنه يزور مكة كل يوم لأداء فريضة الصلاة. وفي الليل، عندما يخرج الشيخ من منزله، أو يبارح القرية، يتجمهر الناس حوله، ويتزاحمون لتقبيل يده، ومن يظفر منهم بهذا الشرف يرى نفسه قد تطهر من جميع الأدران والذنوب.

ويقولون أيضاً أن لحية والد الشيخ، مع أنه قد توفى منذ سنين عدة، قد نمت في قبره حتى أنني سمعت منهم أن شعيرات منها يمكن رؤيتها خارج القبر[3]. وعند مرور محمد علي باشا بود مدني عام ١٢٥٤ هـ (ديسمبر ١٨٣٨) في طريقه إلى زيارة مناجم الذهب في فازوغلي، التقى به الفكي الريح واستصدر منه أمراً للحكمدار بإعفائه هو وجميع سكان القرية من ضرائب الأطيان وغيرها. كان الفكي يجمع بين صفات الكرم والعزم في المعاملات في آن واحد، فقد كان يتكفل بإعاشة وإيواء كثير من الأسر الفقيرة

(١) «فكي» كلمة دارجة مستمدة من الكلمة الفصحى «فقيه» (متبحر في علوم الشريعة).

(٢) أحمد الريح بن يوسف أبو شرا، شيخ العركيين الذين يدعون الانتساب إلى بيت الرسول. قاد أفراد قبيلته عام ١٨٢٦ جنوباً إلى مجاهل العطيش هرباً من جباة الضرائب المصريين، لكنه عاد بهم إلى أراضيهم حول طيبة وأبي حراز وود مدني بعد أن تم العفو عنه عام ١٨٣٠. وقد دونت عودتهم تلك في (تاريخ ملوك السودان، ص ٢٩).

(٣) ضريح والده الشريف يوسف أبو شرا في أبي حراز تلجأ إليه النساء طلباً للانجاب.

في القرية. ولعل هذا هو السبب في الثقة التي أولوها إياه، والنفوذ الذي تمتع به، الأمر الذي دفع الحكام إلى الحفاوة به واحترامه.

عادات غريبة في الزواج:

تعرف قبيلة الحسانية، التي تعيش بين النيل الأبيض وكردفان، بعاداتها الغريبة المنصوص عنها في صلب عقد الزواج. فلا بد أن يبين في العقد، وذلك قبل دخول الزواج على شريكة حياته، على أن الزوج لا يملك سوى ثلاثة أرباع الزوجة، فالربع الباقي ملك خاص للزوجة يعني هذا، بكلمات أكثر وضوحاً، أن الزوجة، وقد مكثت ثلاثة أيام مع زوجها، لها مطلق الحرية في قضاء اليوم الرابع في خدمة عشيقها أو زبون آخر.

طهارة البنات:

يمارس جميع السودانيين، عدا البقارة وبعض الزنوج في الجبال، نوعاً شاذاً من الطهارة. فما أن تبلغ الفتاة منهم الثانية عشرة حتى تجري لها عملية جراحية يستأصل فيها الفرج والبظر. وبعد الفراغ من هذه العملية تثبت قناة خشبية يقدر طولها بحوالي ثلاثة أضعاف ريش الأوز من الأسفل. ثم يضم الجزآن المقطوعان إلى بعضهما ما عدا الجزء الذي أدخلت فيه القناة، ويوثق الفخذان لمنع الحركة حتى يساعد على اندمال الجرح. وبعد فترة من الزمن يتم فك الرباط واستخراج القناة، فلا يبقى في مكانها غير ثقب صغير لا يكفي إلا لخروج السائل، وبذلك وحده يضمن عدم حدوث أي جماع غير شرعي.

وعند زواج الفتاة تأتي امرأة خبيرة وتفتح عضوها التناسلي بموس حادة ليتمكن الزوج من الاتصال بها، ثم توضع قناة ذات حجم مناسب على الجرح حتى يلتئم. وتتلقى العروس قبل إجراء هذه العملية الأخيرة هدايا من العريس عبارة عن ذهب وأشياء أخرى ثمينة. أما إذا امتنع الزوج عن تقديم الهدايا، فإنها ترفض العملية أيضاً. وبهذا يكون الرجل قد ظفر بامرأة لن يستطيع الاستمتاع بها.

في عام ١٢٦١ هـ (١٨٤٥) استجاب حاكم الخرطوم(٤) لموجة من الاستنكار لهذه

---

(٤) هوية هذا الحاكم المصلح غير مؤكدة. وقد ظهر اسمه حمزة باشا في سطور من رواية مجهولة بالفرنسية بين أوراق باركنز. وجاء في مصادر أخرى أنه يدعى محمد الأمين باشا. ووجه خطاب من مجلس الوزراء مدير مكتب الشؤون الحربية في القاهرة بأن يجرد حمزة بك من نياشينه ووضعه في الاستيداع بنصف المرتب لرفضه أمر النقل إلى السودان بحجة اعتلال صحته (وثائق عابدين، المعية السنية، المكتب التركي، كتاب المراسلات ٩٦٣، رقم ١٧٤٥، ٥ نوفمبر ١٨٤٣). وبعد هذا العقاب =

العادة، فأصدر قانوناً منع بموجبه هذا الأسلوب من الطهارة، ولكن القانون لم يشمل ما كانت تعرف بالطريقة المصرية لأنها تقضي بإزالة البظر فقط . كما نص القانون نفسه على منع الزوجات من المطالبة بالهدايا قبل إجراء عملية ما بعد الزواج. وحرص الحاكم على إرسال بعض رجاله للمرور على المديريات للتأكد من سريان القانون خشية أن يخالفه البعض سراً. وبعد استدعاء الحاكم إلى مصر، الغى خلفه القانون، ليعود الناس من جديد إلى ممارستهم القديمة.

ولقد سألت أحد الأشخاص عن أصل هذه العادة البربرية التي تبيح إزالة الأطراف الخارجية، فأفاد بأنها عادة قديمة يرجع تاريخها إلى أحد الفراعنة الذي فرضها شرطاً دونه القتل(٥). ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف الناس عن ممارستها، غير أن محدثي ما كان يعرف اسم ذلك الفرعون ولا العصر الذي عاش فيه.

ود مدني:

تقع مدينة ود مدني في شبه جزيرة سنار، على مسيرة يومين بالحمير من مدينة سنار، على الضفة الغربية للنيل الأزرق. والضفة عند ود مدني منخفضة ومتآكلة يتعذر رؤيتها على القادم إليها بسبب الغابات الكثيفة. وشيدت المباني هنا دون تخطيط ، ولا نكاد نعثر على مبنى يسترعي الانتباه عدا ثكنات الجيش، وهي عبارة عن صرح ضخم مربع الشكل تحيط به الأحياء السكنية، ويقع على بعد أربعين خطوة من النيل. على الواجهة المطلة على النهر للثكنات، ألحق مبنى آخر، أو على الأصح منزل آخر، أحسن شكلاً وارتفع عن بقية المباني، وهو منزل الضابط المسؤول.

أما المستشفى العسكري، ويقع على بعد حوالي مائة خطوة من هذا المربوع، فقد أعيد بناؤه حديثاً على ذات الموقع القديم. ندخل المستشفى لنجد ساحة واسعة تكاد تغطيها أشجار السنط . حول الساحة حجرات بعضها مخازن وبعضها الآخر مساكن

= الصارم يرجح أن يكون الموظف قد ندم على فعلته وذهب إلى السودان.

(٥) هذه العادة التي تعرف بالطهارة الفرعونية لا زالت تمارس في أوساط معظم السودانيين مع أنها لا تلقى التأييد من بعض الأقليات باعتبارها إثماً اجتماعياً يتنافى مع أحكام الدين الإسلامي. وفي أعقاب فتوى من الشيخ أحمد الطاهر مفتي السودان عام ١٩٤٦، ومذكرة أصدرتها لجنة منبثقة من الخدمات الطبية السودانية، أقر المجلس الاستشاري لشمال السودان منع الطهارة الفرعونية. وتضمن كل من قانوني الإجراءات الجنائية والعقوبات أحكاماً ضد من يمارسون هذه العادة، رغم الاعتراف باستحالة القضاء عليها بقوة القانون.

الممرضين، وحجرات أخرى للجراح البوبتجي، والكاتب، ومدير المستشفى، واجزخانة بمعملها، ثم المطبخ. وفي الجانب المقابل للساحة، في مواجهة باب المدخل تماماً يوجد باب آخر يقود إلى فسحة ثانية أكبر من الأولى. وفي منتصف هذه الساحة الكبيرة نلمح مبنى مربع الشكل به باب يؤدي إلى غرفة متوسطة الحجم تستعمل مستودعاً للجثث. هنا تغسل جثث الأموات وتكفن ثم تؤخذ للدفن في المقابر خلف آخر منزل في المدينة. تجاور هذه الغرفة في نفس المبنى، غرفة أخرى ضخمة حفرت على جدرانها نوافذ من جميع الجهات ليعبر منها تيار الهواء من الساحة لتبريد الماء في الأزيار المصطفة على طول الغرفة وعرضها. نعبر هذه الساحة، فتواجهنا ثلاث حجرات كبيرة، تقع واحدة منها قبالة البوابة التي تقود إلى الساحة الأولى. وبعد العبور بالمدخل الثاني هذا، نجد حجرات عدداً، وجناحاً مخصص للمرضى المتماثلين للشفاء. تحتوي واحدة من هذه الحجرات على معدات العمليات الجراحية، وأخرى هي عبارة عن مدرج لإجراء العمليات، أما باقي الحجرات فلايواء المرضى في حالة امتلاء بقية الأجنحة بالمرضى. وفي الطرف الجنوبي من واجهة المبنى نجد باباً يؤدي إلى ساحة صغيرة أنتظمت حوافها حجرات ضيقة تستعمل كمراحيض.

هكذا حال المستشفى. وواضح أنه لا بأس به مقارنة بانعدام الدراية والجهل النسبي لدى من يقومون بإدارته(٦).

على بعد نحو أربعمائة خطوة شمال الثكنات يطل على النهر منزل أمين بك قائد الفرقة الثامنة التي تمثل العمود الفقري للحامية. هذا المنزل لا يضاهيه حسناً أي منزل في المدينة، فقد بني من طابقين بجدران صلبة. وبلكونة تطل على النيل لتكشف المنطقة الممتدة أمامها بما فيها النهر والغابات على الضفتين. ولا تتمتع باقي المنازل بمثل هذه الميزة لأنها من طابق واحد ويكاد السهل، الذي يلف المدينة نفسها من ثلاث جهات، أن يغطيها.

وفي منتصف المدينة قبة مرتفعة من الطوب الأحمر على خلاف سائر المنشآت والمنازل التي شيدت بالطوب الأخضر ما عدا الثكنات التي بناها إسماعيل باشا بالحجر

---

(٦) لا أثر الآن للثكنات ولا للمستشفى في موقعهما بالقرب من الجامع الحكومي، في المنطقة الواقعة بين حي المدنيين والمدينة الحديثة، ولا يزال هنالك منخفض على الشاطىء الصخري يعرف حتى اليوم بحمام الجيش.

الخشن المغطى بالطين، إلا أنه ومنذ ذلك التاريخ ظلت الاصلاحيات تجري عليها بالطوب كلما دعت الحاجة لذلك. وتضم تلك القبة في جوفها ضريح الفكي مدني، وهو الذي تحمل المدينة اسمه، والذي يجله الأهالي ويحترمونه لكونه من الأولياء(٧). وبالقرب من هذا الضريح الضخم مسجد يغطى أرضيته الطوب الأحمر، وقد بني حديثاً بأمر من الحكمدار خالد باشا(٨). وبعد أن استكمل بناؤه، فوجيء الناس ذات يوم بالجزء الأعلى من المئذنة جاثماً على الأرض. وكان يخيل للناظر إلى ما تبقى منتصباً من المئذنة أن ذلك الجزء الذي هوى قد اقتطع منها بعناية فائقة. أدى ذلك إلى اعتقاد الناس بأن نية الحكمدار لم تكن خالصة لوجه الله عند بناء المسجد، وإنما كان الأمر كله خداعاً وتملقاً لعواطف الناس.

أما السوق، إذا صحت الكلمة، فهو عبارة عن مجموعة من الأكواخ أخذت مكانها على خطين متوازيين، خلا دكاناً أو دكانين - لو جازت لنا تسمية الدكان لمجرد وجود أبواب تفتح وتغلق. ولا نجد في السوق غير بعض الأقمشة ذات الألوان الباهتة، الشيت كما تسمى، والأحذية والخرز، والسكر، والبن، والبهارات وما شاكل ذلك. وأفضل «دكان» هو ذلك المقهى الذي يحتل ركناً من مربوع عند نهاية الأكواخ. في هذا المربوع تباع الذرة، والذرة الشامية، والقمح، وغيرها مما يجلب السكان من المناطق المجاورة.

والمدينة بصفة عامة قذرة إلى حد البشاعة، وتكثر فيها الأمراض والأوبئة. فبحكم موقعها في منخفض تمتلىء طرقاتها بالحفر التي تطفح بالمياه في فصل الخريف. وتظل هذه المياه الآسنة باقية حتى في زمن الجفاف حيث لا يوجد نظام للمجاري، فتتعفن تحت أشعة الشمس مسببة أنواعاً مهلكة من الحمى. ويزيد الأمر سوءاً عدم وجود دورات للمياه ولا مراحيض في المنازل، فيضطر السكان بما فيهم الرقيق والجنود إلى قضاء الحاجة على ضفاف النيل، فيستحيل الاقتراب من الشاطىء، خصوصاً في الأمسيات. ولولا ذلك لكان

---

(٧) محمد مدني دشين (متوفى ١٦٨٠)، الولي الذي يعتبر عميد عائلة المدنيين والذي أسس نواة القرية التي نمت حول ضريحه، فأصبحت الآن عاصمة للأقليم يسكنها ٤٥,٠٠٠ نسمة. ونجد جانباً من سيرته في (طبقات ود ضيف الله، إبراهيم صديق، القاهرة، ١٩٣٠، ص ١٥٥ - ٥٨).

(٨) خالد باشا خسرو - حاكم عام السودان (١٨٤٥ - ٥٠)، عرف بالسماجة والبلاهة. وقد كان لهثه خلف الذهب في السودان بأمر الوالي مصدراً لسخرية شخص مجهول عثرت أجزاء من مخطوطة له بالفرنسية مع بعض أوراق باركنز في وثائق الجمعية الجغرافية الملكية بلندن. وترجمت المخطوطة إلى اللغة الانجليزية تحت عنوان (جانب من مخطوطة لم تنشر حول أحداث السودان، ١٨٤٣ - ١٨٤٨، السودان في رسائل ومدونات، المجلد ٣٦، ١٩٥٥، ص ١ - ١١).

التجول على النيل متعة لا تدانيها متعة. ويبلغ عدد سكان ود مدني ما بين أربعة آلاف وخمسمائة نسمة.

المسلميـة:

المسلمية قرية كبيرة، أو مدينة إن شئت أن تسميها، يقطنها تجار المركز. في الواقع فإن المسلمية هي المركز التجاري للسلع التي تتدفق من الحبشة ومصر والجزيرة العربية عن طريق سواكن ومصوع، ثم من دار فور والجبال التي يسكنها الزنوج. على أنها الآن، ومع تطور الخرطوم في الآونة الأخيرة، فقدت كثيراً من أهميتها التجارية. فالخرطوم عاصمة جميع المديريات في السودان حيث تغمرها بمنتجاتها، فتوزع من هناك على بقية أنحاء القطر. ولكن رغم ذلك فللمسلمية أهمية خاصة.

ويقام سوق في المدينة كل ثلاثاء تعرض فيه سلع شتى مثل الأقمشة كالموصلين الهندي، والعقاقير الهندية والسلع المصنعة الواردة من أوروبا ومصر عبر الجزيرة العربية، والمصنوعات العربية والسودانية، والمنتجات الحبشية، بالإضافة إلى منتجات من مناطق الزنوج في عمق القطر. بجانب كل هذا فهنالك الخيول والحمير والأبقار والإبل والبغال وغيرها مما توفرها المنطقة نفسها. أما الذهب فيمكن الحصول عليه من التجار الذين يشترونه من الزنوج في الجبال بالمقايضة مقابل الملابس الشعبية والذرة والخرز. فهذا إذن، مركز تجمع لخلق كثير يأتون للحصول على حاجياتهم، بينما يأتي آخرون لعرض بعض الحيوانات للبيع مثل النعاج والخراف.

ومعظم سكان المسلمية يعملون بالتجارة، ويسمونهم «الجلابة» بلغتهم. وجميعهم تقريباً يمتلكون أراضي بعضها يروى بالمطر بعيداً عن النيل (تبعد المسلمية مسافة ساعتين من النيل)، والبعض الآخر يروى بماء النيل بآلات رافعة كما في مصر، والتي ظهرت في السودان بعد الفتح التركي.

الزراعة في سنار:

يمتلك أثرياء القوم مساحات شاسعة من الأراضي على بعد مسافات من النيل، يقوم بفلاحتها العبيد في فصل الخريف. ويسكن هؤلاء الرقيق في قرى آمنة مع أسرهم، ويتكاثرون تحت رعاية إنسانية من أسيادهم الذين لا يحرمونهم من أطفالهم عن طريق البيع. والعبيد فوق نهوضهم بأمور الزراعة يهتمون أيضاً بالأغنام والجمال، ويحلبونها ثم يستخرجون الزبدة «والرواب» من ألبانها، ويعنون بتهيئة الأرض للزراعة قبل حلول

الخريف بحرثها ومساواتها، وعمل الأحواض حتى تمكث المياه فيها فتتشرب الأرض. بعدها يستخدمون آلة مبسطة، وهي عبارة عن عصا يبلغ طولها حوالي ثلاثة أو أربعة أقدام، تشبه مؤخرتها قعر المكواة ومثبتة في نهاية العصا بشكل عمودي. يحمل الرجل منهم هذه الآلة ويمشي حول رقعة الأرض محدثاً حفراً يبلغ عمقها الإبهام تقريباً، وتقدر المسافة بين حفرة وأخرى بحوالي قدم واحدة ويتبعه رجل آخر يحمل البذرة ليلقيها على كل حفرة. ثم يأتي خلفهما ثالث يهيل طبقة رقيقة من التراب على البذور. هذه هي الطريقة المتبعة في زراعة الذرة والدخن والقطن.

وهنالك أنواع عدة من الذرة تزرع في فصل الخريف، وأشهرها هي أقلها جودة حيث تنتج حبوباً دقيقة، ولا يتعدى طول ساقها ثلاثة أقدام، وتعرف بالفترية. وثمة نوع آخر يسمى العقد، وينقسم إلى صنفين: أبيض ناصع، وأصفر، ويبلغ طول ساقه من ثمانية إلى عشرة أقدام، أما الحبوب فأكبر حجماً وأغزر من التفريتة. وصنف ثالث يسمى العنكوليب، طول سيقانه مثل المقد، ولكنه ينتج حبوباً أقل وذات مذاق حلو لاحتوائها على نسبة عالية من السكر. ويمتص الأهالي قصب العنكوليب الذي لا يوازي قصب السكر حلاوة بأي حال. ويستخرج الناس في الكاملين عصيراً من العنكوليب ويصنعون منه شراباً يماثل عرق البلح بعد تخميره وتقطيره[٩]. ولا يسع المجال لذكر أصناف الذرة الأخرى.

ولا يعود المزارع عادة إلى الحقل مرة أخرى بعد بذر البذور حتى يبلغ طول الأعواد مقدار قدم. حينئذ تبدأ عملية تنظيف الأعشاب والعناية بالزرع كقلع النبات الكثيف حتى يساعد على اكتمال عملية التغذية، وبالتالي ضمان إنتاج وفير. ثم يقطع القندول في أعلى القصب عند نضوجه، وهو مخروطي الشكل كالصنوبر، ويؤخذ إلى مكان مخصص للدرس بواسطة العصي. وبعد إزالة القشر من الحبوب، تنشف وتنقل إلى داخل آبار عميقة ويغطى بحصائر لتأمينها ضد الرطوبة واللصوص، وتقطع السيقان من بداية الجذور وتخزن علفاً للحيوانات. تسمى هذه الآبار التي تخزن فيها الحبوب «المطامير».

ويشترك في عملية لقيط القطن جميع النساء والأولاد والبنات بصندوق يحمله كل

---

(٩) كان يدير المصنع في الكاملين ألماني يدعى بوير. وكان من منتجاته أيضاً صابون أوروبي الشكل. وقد أوكل أمر الإشراف على المشروع الذي اقتصر على زراعة الحبوب والنيلة علاوة على المصنع نفسه إلى نور الدين أفندي نيابة عن الحكومة.

منهم. ويزرع القطن بعيداً عن النيل في الغالب حيث تكثر الأمطار، وكذلك على جانبي النيل بعد انحسار مياه الفيضان.

وفي أوقات الفراغ يقضي الأهالي ساعات في عمل مصنوعات من أشجار الدليب(١٠)، تعينهم على حياتهم، مثل السلال والقفاف والعناقريب(١١) التي يستعملونها للنوم والجلوس عليها داخل الأكواخ. كذلك ينسج الأهالي ملابسهم الخاصة وأشياء أخرى نافعة كأبسطة النوم ذات الأشكال والألوان من أوراق الأشجار، ومن أصواف البهائم لأغراض البيع. وقد نجح منهم كثيرون فأصبحوا موسرين بفضل براعتهم في هذه الصنعة.

تناولت في هذا الوصف العبيد الذين كانوا يكلفون من قبل أسيادهم بالقيام بالمهام التي ذكرناها، وهم في واقع الأمر، الفئة المحظوظة من الرقيق. أما أسلوب الزراعة الذي تحدثت عنه فهو الأسلوب السائد في جميع أنحاء السودان.

قتل المسافرين في المسلمية:

لا ينبغي للقارىء أن يفترض الأمانة في هؤلاء التجار الأثرياء في المسلمية. فقد اكتشف عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣)، على أثر سرقات وأعمال نهب في أنحاء مختلفة من السودان، إلى جانب اختفاء بعض التجار أنفسهم، أن كثيراً من العبيد يعملون لحساب نفر من تجار المسلمية في قطع الطريق على العابرين وقتل الأثرياء منهم لنهب أموالهم وتسليمها لأسيادهم. وحدث ذات مرة في تلك الفترة نفسها، أن ضيوفاً من التجار نزلوا على أحد تجار المسلمية، ولكنهم اختفوا بعد قضاء ليلتهم عنده. لقد كان صاحب المنزل يقتل ضيفه ليلاً إذا كان من ذوي المال، فيستولي على ثروته ويدفن القتيل ليخفي آثار الجريمة.

وأخيراً سمع الحكمدار أحمد باشا بما كان يجري من أحداث، فأمر باعتقال عدد كبير من المتهمين لتقديمهم للمحاكمة، غير أنه توفي في هذه الأثناء ليطلق خلفه سراحهم جميعاً. ويقال أن شمبول شيخ المنطقة(١٢) والقاضي وكثيرين آخرين كانوا بين المتهمين.

---

(١٠) نوع من الشجر تؤكل ثماره.

(١١) سرير محلي ذو هيكل خشبي منسوج بالحبال والجلود.

(١٢) كان الشيخ مدني شمبول زعيماً لقبيلة صغيرة تقيم حول المسلمية تسمى الشنابلة، ويعتقد أنها في الأصل من الحداربة، وهم قوم كانوا في حضرموت لكنهم استقروا في سواكن منذ فترة طويلة. وشنابلة المسلمية يختلفون عن شنابلة شرق كردفان الرحل، حيث يقال أنهم من كمالاب الكواهلة. =

ولو أن الحكومة ثابرت على متابعة الأمر لاكتشفت مزيداً من الضالعين.

صيد الرقيق والتصرف فيهم:

يجدر بنا، وقد تطرق الحديث إلى تجارة الرقيق، أن نوضح كيفية الحصول على الرقيق أنفسهم. اعتاد خورشيد باشا، عندما كان يحكم السودان، أن يرسل قوات إلى أرض الزنوج في فصل الجفاف بحجة جمع الجزية. وكان بعض هؤلاء الزنوج مسالمين لا يبدون أية مقاومة، فيفرض عليهم تقديم ذهب وعدد معين من الرقيق. وكانوا يبالغون في العطاء خوفاً من غضب الباشا، للدرجة التي كانوا يضحون فيها بأصدقائهم وأقربائهم إذا نقص عدد الزنوج الذين اصطادوهم من الجبال المجاورة عن العدد المعين لهم. أما الذين يجنحون نحو المقاومة فكانوا يخضعون بالقوة ويقضون حياتهم عبيداً. كان خورشيد يمكث أربعة أو خمسة أشهر في المنطقة، ثم يعود إلى عاصمة الأقليم حيث يصنف الرقيق إلى أنواع ودرجات فيستأثر هو بأحسنها ويجند من هم في الدرجة الوسطى في القوة ذاتها لتجديد فعاليتها، ويؤخذ الباقون إلى الخرطوم وإلى بعض الحاميات الأخرى لتوزيعهم على الجنود بدلاً عن المرتبات. كان كل عبد سواء كان كبيراً أو صغيراً، ضخماً أو هزيلاً، سليماً أو عليلاً لا تتعدى قيمته ثلاثمائة قرش. وما كان في وسع الجنود أو الضباط الاحتفاظ بهذه الأعداد الضخمة من الرقيق، فسعوا إلى عرضهم للبيع لسكان المنطقة نفسها في معظم الأحوال بالخسارة أحياناً، وبالقيم ذاتها تارة، وبالربح تارة أخرى.

أراد أحمد باشا، بعد تسلمه مقاليد الحكم بعد خورشيد، أن يدفع للجنود رواتبهم نقداً كل ستة أشهر خلافاً لما كان يفعل خورشيد الذي اعتاد على منحهم الرواتب كل عام على النحو التالي: الثلث من الرقيق والملابس والمواشي والدواب الأخرى، والثلثين نقداً. ومع ذلك لم تتوقف غارات صيد الرقيق في عهد أحمد باشا، ولا اختلف مصير العبيد عن مصير زملائهم في السابق. الفارق الوحيد هو أن الرقيق من أقل الدرجات ما عادوا يوزعون على الجنود لكنهم أصبحوا يعرضون في مزاد علني ليفوز بهم من يدفع أكثر، أما إذا فاض بعضهم عن الحاجة، فيرسلهم الباشا إلى بعض الشيوخ مقابل قيمة يحددها هو.

= ولم يعثر ماك مايكل في المسلمية إلا على علاقات قبلية غامضة مع الحداربة في تلال البحر الأحمر (History of the Arabs in the Sudan, i, P. 266 n.) ويؤكد كاتب اليوميات في صفحة ١٦٨ على أصلهم الحضرمي. وقد أبرم شيخ شمبول اتفاقية سلام مع الحكومة عام ١٨٢٤ (تاريخ ملوك السودان، ص ٢٦).

ولم يقف سوء حظ هؤلاء العبيد عند هذا الحد فقد كانت الغارات لاصطيادهم تشنها قوة تتألف من مجموعات مختلفة من الفرسان بجانب قوات المشاة النظامية. وكان من بين هؤلاء الفرسان غير النظاميين، بصفة دائمة، بعض أفراد قبيلة الشايقية، وهم سكان الأقليم بين دنقلا وبربر، قوم عرفوا بميلهم للقتال. ولأنهم يعشقون الجندية، فقد جندت الحكومة أعداداً كبيرة منهم بمختلف مجموعات الخيالة. ويستفيد الشايقية فائدة عظيمة من هذه الغارات حيث يصطحبون معهم كثيراً من أقربائهم من غير المجندين إلى أماكن الصيد لينقلوا لهم الرقيق إلى بلادهم عبر طرق بعيدة أو ليبيعوهم في الطريق. ويختار الجنود من الشايقية أفضل أنواع الرقيق، ويقدمون الباقي للباشا أو من ينوب عنه في قيادة الحملة. ويحذو أفراد المجموعات الأخرى حذو الشايقية، إلّا أنهم لا يحققون مثل أرباحهم لأنهم ليسوا من سكان البلاد وليس لهم من ينقل لهم صيدهم من الرقيق حيث يريدون.

وثمة أسلوب آخر يشجع انتشار هذه التجارة البشعة، ويحط من قدر هؤلاء الناس، ولا يفرق بينهم وبين الحيوانات. يمارس تجار هذا الأقليم أسلوباً من التجارة عرف منذ القدم، حيث يتحينون أوقات تصلح للسفر إلى أماكن الزنوج النائية ليبتاعوا منهم أسرى الحروب القبلية. ثم يستخدمهم التجار عندهم مستغلين جهلهم، فإذا أراد منهم أحد زيادة دخله دفع له التاجر أجره عيناً من بضاعته لعلمه بأنه لا يدرك أهمية النقود، ولا قبل له بالتعامل بها. ويستوعب هذا النوع من التجارة عدة آلاف (في العام؟) من هؤلاء العبيد التعساء.

وإلى جانب الغارات الحكومية التي قمت بشرحها، هنالك أيضاً غارتان منتظمتان كل عام. غارة يقودها الأمير إدريس ود عدلان الذي يبدأ سيره من مقره في جبل قلى لجمع الجزية من جبل تابي، ثم يعود لأهله بعد شهرين تقريباً حاملاً معه عدداً من الرقيق وكميات ضخمة من الذهب. ويدفع بعض الناس الجزية في استسلام، والبعض الآخر يقاوم مما يدفع الأمير ألى استعمال القوة واستعباد من يقع في قبضته، زيادة على ما يطلبه من رقيق حتى بعد الاستسلام. يحدث ذلك في حالة انتصاره، ولكنه في أحيان كثيرة قد يخسر المعركة، فيعود للانتقام في العام التالي بعد تعزيز قوته بالأتراك ويجبرهم على دفع الضريبة المفروضة عليهم ثلاث أو أربع مرات في العام الواحد. ولا يجد الزنوج المساكين مناصاً من دفع الضرائب الباهظة في رضى تام، فذلك خير لهم من غارات الأجانب الأتراك، وهذه مصيبة يجب تفاديها حتى ولو وهبوا أطفالهم ليصبحوا أرقاء مدى الحياة.

أما الغارة الثانية فيقودها أبو روف، زعيم القبيلة التي تحمل نفس الاسم. «وناس أبو روف» رعاة رحل في الجزء الآخر (يعني الجنوبي) من سنار حتى الروصيرص. وعند هطول الأمطار يسرح هؤلاء الرعاة وراء قطعانهم حتى مشارف الخرطوم، فيقدمون ما يفرض عليهم من ضريبة، ثم يعودون أدراجهم إلى منطقتهم. وقد اعتاد رجال هذه القبيلة بقيادة زعيمهم الإغارة على الدينكا حول ضفاف النيل الأبيض بغرض اصطياد الرقيق، ولكن الظفر بأفراد من قبيلة الدينكا ليس بالأمر اليسير. فهم قوم أقوياء ومحاربون، وسبق أن تغلبوا كثيراً على العرب الأمر الذي يضطر معه أبوروف إلى استعمال القوة.

لذلك فإن العرب كثيراً ما يلجأون إلى الحيلة في اصطياد الدينكا، حيث يترجلون عن جمالهم على بعد خطوات من قراهم، ويزحفون عليهم ليلاً. ثم يأخذونهم على حين غرة وهم نيام، فيقتلون من يقاوم ويخطفون الرجال والنساء والأطفال موثقين بالحبال إلى مكان الجمال. ويربط الأطفال على ظهور الجمال، ويهرول الكبار أمام القافلة بعد وضع القيود على أيديهم لتبدأ رحلة العودة.

على أن الأمر ليس دائماً بالسهولة التي نتصورها. ففي أحيان كثيرة يسمع رجال القبيلة ما فعل العرب بذويهم فيسرعون في تعقب القافلة. وقد يتمكنون في الغالب، بما لديهم من موهبة في سرعة العدو، من اللحاق بالقافلة وتخليص إخوانهم، وتلقين العرب درساً لا ينسى على اعتدائهم. ويقوم العرب ببيع الرقيق المستجلب من الدينكا للتجار في سنار. وقد تحدث أحياناً غارات عكسية حين يغير أفراد قبيلة الدينكا على العرب شمالاً حتى الروصيرص، بل وحتى المناطق المتاخمة لسنار في بعض الأحوال. وتحدث هذه الغارات كوارث حقيقية حيث يدمر الدينكا كل شيء أمامهم، ثم يلوذون بالفرار بعد اختطاف قطعان من الأبقار وبعض الأفراد العاجزين عن الهروب ليتخذوهم رهائن لا يطلقون سراحهم إلا مقابل فدية من الأبقار. يشن الدينكا هذه الغارات انتقاماً لأعمال السلب والنهب التي يمارسها العرب عليهم بصورة مستمرة.

وفي عام ١٢٥٤ هـ (شتاء ١٨٣٨ - ١٨٣٩) وعندما كان محمد علي باشا في فازوغلي لزيارة موقع مناجم الذهب، قامت حملتان لصيد الرقيق، إحداهما بقيادة أحمد باشا إلى جبل تابي بمنطقة فازوغلي، والثانية بقيادة مصطفى بك إلى جبال تقلى ودابر في أقليم كردفان. ولقد حققت الحملتان أغراضهما حيث كانت حصيلة الغارة على جبل تابي خمسمائة من الرقيق تم أسرهم بعد أن قاوموا بشجاعة. أما مصطفى بك فقد واجه مقاومة

عنيفة في جبال تقلي وداير ولكنه حصل في النهاية على نحو ألفين من الرقيق من مختلف الأعمار.

وخابت آمال محمد علي في العثور على الذهب في منطقة فازوغلي، فصرف النظر عن إنشاء المستوطنات على موقع المناجم كما كان يخطط. ولقد كان هدفه الأكبر من جلب الرقيق هو توفير العمالة في مناجم الذهب. وعند زوال الحاجة إلى الزنوج بعد الحملات التي نظمها والرقيق الذي استجلبه، أراد أن يستغل ذلك في موقف مشرف أمام الأوروبيين الذين كانوا معه، فأصدر أمراً أوحى للضيوف أنه بصدد إلغاء تجارة الرقيق. كان الأمر هو إطلاق سراح الرقيق والسماح لهم بالعودة إلى جبالهم، ثم الكف عن شن الغارات عليهم مستقبلاً. وأطلق سراح الزنوج بالفعل عدا قلة منهم استبقاهم علية القوم لخدمتهم. ولكن غالبيتهم لم يتمكنوا من الوصول إلى ديارهم، فقد ضلوا الطريق وتفرقوا أيدي سبأ، وفتكت القبائل المعادية ببعضهم ومات البعض الآخر من الجوع في الصحاري والأحراش.

وقد اتضح زيف ذلك الموقف النبيل الذي ادعاه محمد علي بعد أن كتب إلى أحمد باشا، عند عودته لمصر مباشرة، يطلب منه إرسال مزيد من الرقيق إلى القاهرة. وكان إبراهيم باشا وآخرون غيره يمنون النفس باستخدام الخدم والحشم من الزنوج في قصورهم ضمن مظاهر الأبهة والعظمة إلى جانب استغلالهم في زراعة أراضيهم. وبذلك تستمر الغارات على الرقيق كما كانت في السابق، ولم يتحقق بعد إلغاء التجارة في الزنوج.

بدأ أحمد باشا في العام التالي إجراءات تكوين قوة جديدة لم تكتمل إلا بعد مضي عام كامل. وكان عصب القوة زنوجاً تم أسرهم من الجبال بجانب الرقيق الذين أخذوا عنوة من المواطنين ومستخدمي الحكومة من عسكريين ومدنيين. وقد فرض على حملة الرتب العسكرية وما يعادلها من الوظائف المدنية المساهمة بالرقيق بطريقة نسبية على النحو التالي:

ملازم ثاني (أو أول)	١
نقيب	٢
رائد[١٣]	٣

(١٣) قول أقاشي، وكانت تنقسم في ذلك الوقت إلى نوعين: صاغ قول أقاشي (وتعني حرفياً =

قائد كتيبة	٤
مقدم	١٦
عميد	٣٠
لواء	٤٠
الحكمدار	٥٠

ولم يستثن من هذه الضريبة حتى التجار. أما قواد القوات غير النظامية ففرض على كل منهم إمداد القوة بأربعين عبداً. وقد تم رفع الضريبة عن المستخدمين العسكريين والمدنيين بعد وفاة أحمد باشا، لكنها لا تزال سارية على السكان في كل مديريات السودان.

القسوة في معاملة الرقيق:

يتضح مما تقدم مدى انتشار تجارة الرقيق في السودان. ذلك أنه بالاضافة لما يجري داخل البلاد، فإن أعداداً من الرقيق تجلب من الحبشة ودار فور، ثم يصدر معظمهم فيما بعد إلى مصر داخل إطار المحور التجاري للامبراطورية العثمانية(١٤). ثم يرسل عدد آخر من الرقيق إلى الحجاز عن طريق سواكن ليتم بيعهم هناك.

ويتعرض هؤلاء الزنوج التعساء لشتى أنواع التعذيب، ومختلف ضروب السخرة والهوان وذلك منذ اللحظات الأولى للقبض عليهم. إذ تهجم قوات الحكومة عليهم وتعكر عليهم الحياة الوادعة في الجبال، فيخرجون منها موثوقي الأيدي. وفي بعض الأحيان يتحوط الجنود من هروب أسراهم بأن يأتوا بجذع شجرة ضخم يبلغ طوله حوالي أربعة أو خمسة أمتار، على أن يكون طرفه متشعباً لكي يستقر على الكتفين. ثم تثبت قطعة خشبية على فتحة الشعبة بشريط من الجلد اللين حتى يتم استحكام الربط عندما ينشف الجلد. عندئذ لا يجد الزنجي طريقة لازاحة الجذع من كتفيه لضيق الفتحة التي لا تسمح بخروج الرأس. ولا يقدر الزنجي، وهو يحمل هذه الكتلة على كاهله، على السير إلا بمساعدة زميله الذي يسير أمامه حاملاً الجذع الآخر والذي لا يجد أمامه من يخفف عنه الحمل، فيلقي بثقل الجذع على من يسير خلفه. هكذا يمضون كثيران الساقية وهم يتبعون

= ضابط الجناح الأيمن، وتقابل «أدجودنت» النابليوني)، وصول قول أقاشي (وتعني ضابط الجناح الأيسر، وتطابق الرتبة الفرنسية المعاصرة «أدجودنت ـ ميجور»).

(١٤) كان الرقيق يذهب إلى القسطنطينية ولكن بأعداد قليلة ومتناقصة نسبياً.

الجيش. وفي أثناء هذا المشوار المضني لا يتناولون إلا القليل من الطعام، وتهلك منهم أعداد كبيرة بفعل العطش.

ولدى وصولهم يكشف عليهم طبيب الجيش فيختار الأصحاء منهم للتجنيد، فيرفع عنهم النيّر ويقدم لهم طعاماً وملبساً أفضل، أما الباقون فيعرضون للبيع. والواقع هو أن هؤلاء أسعد حظاً ممن يقبلون للتجنيد، ذلك لأن أسيادهم يعتنون بطعامهم أكثر باعتبارهم سلعة يجب المحافظة عليها، بعكس ما تفعل الحكومة بالمجندين. ومع ذلك فهنالك عقبات في الطريق تسبب المتاعب للرقيق بعد أن يتم شراؤهم. فهم يقطعون الصحارى والفيافي سيراً على الأقدام، إلا الصغار والمرضى، فيموت معظمهم من الجوع والعطش، خصوصاً الضعفاء منهم. وبعد أن يموت الرقيق تحت هذه الظروف القاسية فإنه لا يحظى بشرف دفن جثمانه لأن الشريعة الإسلامية لا تفرض دفن العبد المملوك[١٥]. فتأمل كيف يعامل إنسان أخاه الإنسان.

والفظائع التي ترتكب في حق الرقيق لا تحصى ولا تعد. وإذا أقدم أمرؤ على قتل أحد عبيده لأتفه الأسباب فلا يعاقب على جرمه لأنه يعتبر جزءاً من ممتلكاته ويحق له التصرف فيه كيفما شاء. ولقد كنت شخصياً شاهد عيان على شيء من ذلك.

كان هنالك تركي يدعى حسن أفندي، وكنيته «سكران ديمة (دائماً)». واشتهر في الماضي على أثر قتله لعدد هائل من عبيده. وذات مساء اعتدى بالضرب على إحدى جواريه حتى فارقت الحياة لمجرد أنها لم تسمعه حين استدعاها. والأدهى من ذلك أنه سحب جثتها على الأرض وألقاها في خور خلف منزلي. وتملكني الفزع من هول المنظر، فمضيت على الفور وأبلغت الحاكم بما حدث، ولكنه لم يحرك ساكناً، فأفلت القاتل من الجزاء الذي يستحقه. على أن ما يثير الدهشة والاستغراب أكثر، هو موقف الأوروبيين الذين ظلوا يوهمون الناس بأنهم إنسانيون ومتحضرون ومع ذلك يرتكبون أفعالاً غاية في الوحشية[١٦].

---

(١٥) ربما كان امتناع هؤلاء الناس عن دفن موتى الرقيق يعزى إلى الكسل، وليس مراعاة لأحكام الإسلام التي تنص على وجوب دفن الموتى أياً كانوا.

(١٦) كتب الرحالة الأمريكي بيارد تيلور الذي كان بالخرطوم في شتاء ١٨٥١ ـ ٥٢، أن الأوروبيين المقيمين في السودان صاروا يعاملون الرقيق في وحشية مما دعا الحكومة إلى إصدار قوانين تمنع الفرنجة من ضرب عبيدهم، فأصبحوا ملزمين بتقديمهم إلى القضاء إن أخطأوا (Ajourney to Central Africa New York, 1864, p. 300).

حدث ذات يوم أن صيدلياً فرنسياً يقيم بدنقلا غضب من عبد له (أسميه عبداً لأن الأوروبيين يعتبرونهم عبيداً مع أن قوانيننا لا تسمح بذلك) لا لسبب غير أنه ذهب للالتقاء بمحبوبته. وأثناء فورة الغضب، كتب الفرنسي لطبيب المنطقة يطلب منه المعدات لاخصاء العبد. وما كان من الطبيب إلا أن أرسل له المعدات فعلاً وهو يعبر عن ثقته بأن الصيدلي سوف يغير رأيه بمجرد أن تقع عيناه على بشاعتها، فتعود إليه إنسانيته. ولكن الطبيب في الحقيقة قد أخطأ التقدير، فقد نفذ الفرنسي خطته دون مساءلة من أحد.

في كردفان كرر فرنسي آخر نفس المأساة، حيث أخصى أحد عبيده لمجرد الاشتباه في علاقة بينه وبين إحدى خادمات المنزل. وليت الأمر وقف عند هذا الحد، ولكنه عاقب المتهمة بحشر قطعة من الحديد الساخن في مهبلها.

وفي كردفان أيضاً عاش طبيب من تسكنى له عبيد كثر. وفي يوم من الأيام مل أحدهم الحياة في كنف سيده، فأراد أن يتخلص من تلك المعاملة الفظة على يديه كل مطلع فجر. وأخيراً هداه تفكيره إلى الإرتماء في جوف بئر عميقة، ولكنه، لسوء حظه، لم يمت وإنما أصيب بكسر في قدمه قبل أن ينتشله خدم المنزل ويضعوه على سرير. وعلم السيد ما حدث فجاء يسأله عن أسباب ما أقدم عليه. ورد العبد بأنه كان يبغي الخلاص من التعذيب اليومي على يدي سيده، فالموت أهون وأفضل بكثير. وغضب الرجل وصاح قائلاً أنه قد اشتراه بماله، ولا يحق لأحد غيره التصرف في حياته لأنها ملكه، ولكن لا بأس، مع ذلك من الاستجابة لطلبه. وأمر على الفور بحبل ولفه حول عنق الرجل المريض، وأشار على بقية العبيد بشده حتى يموت خنقاً. وانصاع العبيد لأمر سيدهم، ولكنهم ظلوا يشدون الحبل في رفق، فقد صعب عليهم قتل أخيهم. وهنا تولى السيد الأمر بنفسه، فتناول الحبل وخنق الرجل المسكين، واضعاً كلتا رجليه على كتفيه، حتى لفظ أنفاسه[١٧].

وابتدع رجل آخر من تسكنى أساليب لا يصدّقها العقل في تعذيب عبيده. فقد كان يأمر أحداً أن يضربهم بمطرقة على الرأس أو أجزاء الجسم الحساسة أو يقودهم إلى هجير الشمس في منتصف النهار، فيتركهم هناك مقيدين. وما أن ينتهي هذا من دوره حتى يكلف أحداً بأن يعلقهم من القدمين على فرع شجرة، فيظلون هكذا لمدة نصف ساعة.

---

(١٧) أورد ي. كومبس في (Voyage en Egypte, 1846, ii PP. 38 - 9) رواية مطابقة تقريباً إلا أن بطلها تركي.

ولكن الله لم يغفر له ما اغترف من ظلم وقسوة فسخّر عليه عبداً قتله ذات ليلة وهو نائم في بقعة لا تبعد أكثر من ثلاثة أيام من الخرطوم، أثناء رحلة كان يقوم بها. ثم ركب القاتل جملاً وفر هارباً. »

وتجرأ رجل سرداني الجنسية على بيع زنجي حر تحت خدمته مع أن الزنجي كان في الأصل عبداً لعالم معادن[١٨] فرنسي في فازوغلي قبل أن يعتقه. وقتل هذا السرداني نفسه كثيراً من عبيده ضرباً. ليس ذلك فحسب ولكنه كان يسرف في تجارة الرقيق تماماً مثل شخص آخر من بني جنسه حول منزله إلى قصر للدعارة كقصور السلطان. يدخل المرء منزله فيسمع صخباً وضجيجاً من الزنوج، رجالاً ونساء. وفي بعض الأحيان يصك الأذن رنين السلاسل الحديدية يجرها العبيد خلفهم كنوع من العقاب لا يعرف الرحمة. أما أدوات كالعصي والسياط فكانت أشياء مألوفة في هذا المنزل.

وتاجر فرنسي عاش طويلاً في هذه البلاد تورط كثيراً في تجارة الرقيق. وذات مرة شحن مركباً بالرقيق من الخرطوم واتجه بها صوب القاهرة، رافعاً عليها العلم الفرنسي. وهناك عرض الزنوج جميعهم للبيع، وما فكر الرجل ولو للحظة أن يحترم ذلك العلم الذي كان يرفرف في ثورة وغضب فوق رؤوس الرقيق طوال الرحلة.

ورجل من كورسيكا عاش في الخرطوم لفترة طويلة، كان معروفاً بطباعه الحادة. وأثناء فورة من فورات غضبه أباد مجموعة من عبيده ودفنهم في حديقة منزله. وشنق تركي فتاة من الرقيق إشباعاً لرغبة زوجته التي كانت تغار منها.

أما الآن فهناك قصة تعد مثلاً فاق كل تصور في القسوة والإجرام. إنها قصة تكشف حجم الفظاعة والوحشية كما يمارسها الأوروبيون في هذه المنطقة، خصوصاً أولئك الذين يتفاخرون بأنهم أكثر الأمم تقدماً وحضارة. إن بطلها أغريقي يسمى لامبيدورو قضى فترة طويلة في كردفان. كان الأغريقي يمتلك مجموعة ضخمة من الرقيق، لكنه ظل يعاملهم معاملة حسنة. وكان من بينهم غلام خصه الرجل برعايته فنشأ كأحد أبنائه. ولما شب عن الطوق أعتقه وزوجه بفتاة زنجية محررة، فعاشا سوياً في منزل سيدهما.

أخطأ لامبيدورو ذات ليلة فشرب كثيراً من الخمر، مع أنه لم يعرف بالإسراف في الشرب. وكان ليلتها يستضيف عدداً من الأوروبيين والأتراك في منزله على طعام العشاء.

---

(١٨) لويس ليفبر (١٧٩٠ ـ ١٨٣٨) خريج معهد أيكول الذي حضر إلى السودان ضمن حاشية محمد علي باشا.

وبعد أن فرغ من الشراب والأكل زين له ما كان فيه من مرح ونشوة أن يمسك الزنجي من يديه ويصفعه مازحاً أمام الضيوف، قائلاً أنه معجب به غاية الإعجاب.

وفسر الزنجي هذه الدعابة تفسيراً لم يخطر على بال سيده. فنظر إلى لامبيرورو نظرة توحي بأنه لن يغفر له ما فعل، لأنه لم يعد صغيراً. فما كان من الرجل، وقد شعر بأنه أهين، إلا أن صفعه، بظاهر كفه هذه المرة، صفعة موجعة. وهاج الزنجي وانطلق خارجاً وهو يتوعد سيده الذي كان يجري خلفه في حنق. وعند وصولهما ألى فناء المنزل، توقف الزنجي فجأة وطوق الأغريقي بيديه، وأغمد خنجراً كان يحمله في ظهره. صرخ الرجل وهو يهوي على الأرض، فخرج الضيوف ووجدوه يسبح في بركة من الدماء. وحمله الرجال إلى الداخل في محاولة لعلاجه، ولكنه مات بعد ساعتين.

وولى القاتل الأدبار بعد أن وقع سيده صريعاً، وباءت محاولات العثور عليه بالفشل. وبعد فترة طويلة نما إلى علم مصطفى[١٩]، قائد الفرقة الأولى في كردفان، وحاكم الأقليم أيضاً، أن قاتل لامبيدور موجود داخل أقليمه. وكتب البك في الحال إلى شيخ الجبال التي لاذ بها الزنجي القاتل يطلب منه تسليمه وإلا فإنه سيرسل جيشاً كاملاً لعقابه. وخشي الشيخ انتقام البك فأرسل له الزنجي تحت حراسة مشددة.

وجمع مصطفى بك الأوروبيين ليروا القاتل، ثم سألهم أن يقترحوا عليه العقوبة التي يودون تطبيقها عليه، فأشاروا جميعاً بضرورة قتله. على أن فرنسياً واحداً خالفهم الرأي وقال إن المتهم جاحد وناكر لجميل سيده، لذلك فإنه لا ينبغي أن يموت سريعاً، بل يجب أن يعذب طويلاً قبل أن يرتاح إلى الأبد. وفي سبيل تحقيق تلك الغاية، اقترح الفرنسي أن يعلق الزنجي بكلابتين تغرزان في جنبيه عند الأضلاع، يربطهما حبلان بالمشنقة. وتحقق للفرنسي ما أراد وعلق القاتل البائس. وفي غمرة عذابه وهول مأساته خاطب الفتى أناساً تجمهروا من تحته وهو يصف ما يحدث له بأنه ضد شرائع الإسلام وعدالته ورحمته، ذلك لأنه لم يقتل غير مسيحي. ثم ناشدهم أن يحثوا البك على إطلاق سراحه أو قتله فوراً.

سمع الفرنسي نفسه ما قاله الزنجي الشقي، فأسرع إلى البك شاكياً ومدعياً أن

---

(١٩) حاكم كردفان في الفترة ١٨٣٣ ـ ٣٧.

القاتل يحرض الناس على الأوروبيين ويؤلبهم عليهم من على المشنقة. ثم حذر الفرنسي البك من مغبة مثل هذا التحريض. وحلاً للمعضلة اقترح الفرنسي قطع لسان الزنجي ليخرس صوته إلى الأبد. وافق مصطفى على العقوبة الجديدة، وبعد قليل كان الدم ينفجر من فم الزنجي. وظل هكذا ليومين في حالة من العذاب لا يوصف، ابتدعه أحد الأوروبيين، فرنسي بالتحديد. ولقد كان الزنجي خليقاً بالموت حقاً، ولكن الرحمة نفسها تتوارى خجلاً وترتجف خوفاً من مثل هذه النهاية المفجعة.

أصدرت الإدارة على عهد أحمد باشا أوامر صارمة لمنع ارتكاب مثل هذه الجرائم البشعة، ولكن رغم أن حدتها قد خفت كثيراً، إلا أنها لم تقتلع من جذورها، وذلك لضعف جهاز البوليس. وهكذا استمرأ بعض الأشرار إيذاء الرقيق غير مبالين بردع القانون. من هؤلاء نذكر عريفاً من الاحتياطي يدعى إسماعيل قتل زنجية لأنها تقاعست عن اعداد المريسة له لارتباطها بواجبات أخرى في المنزل. وعند رفع الأمر للحاكم اعتقل العريف وخفضت رتبته، ثم جلد خمسين جلدة، وحكم عليه بالسجن لمدة عام مع الأشغال الشاقة. نكتفي بهذا للتدليل على سوء المعاملة لبشر مثلنا في ظل العبودية.

ويرجع الفضل إلى أحمد باشا في صدور الأوامر بوجوب دفن جثث الموتى من العبيد، حيث لم يكن ذلك مسموحاً به قبل حكمه. كانت جثث الرقيق سواء كانوا تابعين للأفراد أو للحكومة تلقى في العراء نهباً للوحوش الجائعة[٢٠]، أما المجندون في الجيش فقد كانوا يدفنون باعتبارهم أحراراً.

تجنيد الرقيق في الجيش:

دعنا الآن نتناول بعض الإجراءات المتعلقة بضم الرقيق إلى الجيش. إلى جانب الزنوج الذين تحصل عليهم الحكومة من غاراتها على الجبال سنوياً، فإن زعماء البلاد

---

(٢٠) عثر أ ـ ت هولرويد الذي كان بالأبيض في ابريل ١٨٣٧، على ترجمة لهذه القصة وأرسلها إلى سير جون باورنج الذي ضمنها في كتابه (Report on Egypt and Candia, 1840, p. 210). وقد علم هولرويد أن من بين الخطوات الأولى لمحمد بك المرابط، الذي خلف مصطفى بك في حكم كردفان، هي الأمر بجمع وحرق بقايا الجثث الآدمية الملقاة حول المدينة، ثم الاشارة إلى دفن العبيد مثل المسلمين مستقبلاً (Egypt and Mohamed Ali Bacha, 1838, Jour. Roy. Geog. Soc. IX, 1839, p. 177).

البارزين من أمثال إدريس ودعدلان، وأبي روف، وأبي سن[٢١]، وأبي جن[٢٢] وآخرين كانوا يساهمون بأعداد معينة من الرقيق. كان أحدهم يعود من الغارة السنوية بالغنائم، فيختار أجود أصناف الرقيق لبيعهم في سنار، ثم يذهب بالباقي إلى الباشا في الخرطوم، فيتخير هذا بدوره أحسنهم لنفسه، ويرسل الباقين للكشف الطبي الذي يجريه عليهم المفتش الطبي أو مساعده.

ولنفترض الآن أن طبيباً لم يجد العدد الكافي من الرقيق الأصحاء للجيش بعد سلسلة الاختبارات الطبية التي أجراها لهم من قبل. ليس هذا بالقطع في مصلحة من يمدون الجيش بالرقيق لأنهم يصبحون مدينين للحكومة في حالة فشلهم في إمداد القوات بالرقيق، كل حسب قدرته المحددة،وهكذا تتراكم عليهم الديون مع مرور الزمن. ولتفادي هذا الموقف الحرج، يتوجه متعهد الرقيق إلى المفتش الطبي قبل بداية الكشف للتفاوض معه على أسس اختيار المجندين. وإذا كان الطبيب ممن يتحلون بالطيبة واللطف عقدت معه صفقة على الفور مقابل مبلغ من المال. عندئذ يجيز الطبيب جميع الحالات فيما عدا العاهات الواضحة. وشكلت هذه الممارسات مصدراً للثراء لا ينضب للأطباء الضالعين فيها علماً بأن من عف عنها كان نفراً قليلاً جداً.

وقد عرف في عهد أحمد باشا طبيب من هؤلاء يدعى زوبيتو[٢٣] عمل مفتشاً طبياً لمدة عام ونصف جمع خلالها ثروة ضخمة من ابتزاز المكلفين بمد الجيش بالرقيق. عين هذا الطبيب رجلاً يرتب له الصفقات مع زبائنه لكي يحصل منهم على مبالغ معينة قبل الشروع في الكشف الطبي على الزنوج. ولكن، وكما يقولون، فلقد كثر نزول الدلو إلى البئر حتى تمزق[٢٤]. انكشف أمر الرجل ذات مرة، فاستدعاه الباشا للمثول أمام حضرته. وتصنع الباشا التسامح حتى استدرجه إلى الاعتراف بحصوله على هدايا غير مشروعة بلغت مائة وستون خيرية (نقود مصرية تعادل ثلاثمائة فرنك)[٢٥]. غير أنه أخفى عن الباشا آلافاً

---

(٢١) العائلة المالكة لعرب الشكرية وكان يمثلهم أحمد بك عوض الكريم أبو سن (متوفى ١٨٧٠) وأخوه علي. ظهر اسم أحمد عدة مرات في هذه الرواية، وقد حظي بتقدير كبير من الحكومة المصرية حتى عين حاكماً للخرطوم في الفترة ١٨٦٠ ـ ٧٠. وعين علي ناظراً للشكرية عام ١٨٧٢ حتى وفاته عام ١٨٧٤. ولقد ساهم الأخوان بنشاط في صيد الرقيق في الفترة التي جرت فيها أحداث هذه الرواية.

(٢٢) هو الشيخ أحمد أبو جن من رفاعة الشرق.

(٢٣) وفي رواية أخرى بابتّا.

(٢٤) ترجمة للمثل التركي «Su testisi su yolu Kirilir».

(٢٥) الخيرية كانت عملة غير محببة برغم اسمها الذي يدل على التفاؤل. وقد كانت قيمتها الاسمية تعادل =

أخرى استولى عليها عن طريق الابتزاز، فلم يكن يجتاز كشفه الطبي حتى الأصحاء من الرقيق إلا نظير رشوة من المال. ثم طلب منه الباشا في لطف رد المال الذي اعترف بحيازته لكي يسلمه لأصحابه.

واقتنع الطبيب بحديث أحمد باشا وجاء بالمال في اليوم التالي وتسلم الباشا المال، فاستغل ذلك بينة ضده، وأمر بتشكيل مجلس لمحاكمته. وقضى الحكم بفصله من الخدمة وطرده من البلاد لأنه خان الأمانة التي وضعها الحاكم في شخصه. أما عميله فقد أودع غياهب السجن حيث ظل فيه حبيساً حتى وفاة أحمد باشا.

الهيكل الإداري للحكم المحلي:

مع أنني قد تحدثت طويلاً عن الضرائب وابتزاز الناس في هذه البلاد، إلا أن الإسهاب في هذا الصدد يظل أمراً ذا أهمية بالغة. ولكن وقبل الخوض في هذا الموضوع لا بد من كلمات قليلة عن الكيانات السياسية في البلاد.

فالسودان مثل مصر تماماً، مقسم إلى مديريات، وهذه المديريات إلى كاشفيات، والتي بدورها تنقسم إلى مناطق تدار كل منها بواسطة شيخ مشايخ(٢٦). ومقر المأمور، وهو نائب الحاكم في الأقليم، يكون عادة المدينة الثانية في الأقليم. وعلى كل كاشف أن يعد أربعين جندياً من الخيالة غير النظاميين، يجندهم ويدفع لهم المرتبات، ويزودهم بالكساء في حالات أخرى كثيرة. ويخصم الكاشف تكاليف إعاشة هؤلاء الجنود من مرتباتهم ويعوض خسائره من خزينة الحكومة. ثم يوزع الكاشف جنوده في قريتين أو ثلاث لجمع الضريبة أو لأي أمر آخر تكلفه بها الحكومة حيال المزارعين. كان علي أن أذكر أن كل قرية يحكمها شيخ بينما هنالك شيخ مشايخ على رأس كل إحدى عشرة قرية(٢٧).

= تسعة قروش مصرية، وتتكون من خليط من ذهب ممتاز وبعض المعادن الأخرى بنسبة ٣: ٢/١ ١ قيراط (J. Bowring, Report on Egypt and Candia, 1 ;40. P. 82). وفي عام ١٨٤٢ قومت الخيرية رسمياً بثمانية قروش، أي اثنين وثلاثين بارة (C. Lambert, Tarif des monnaies en Egypte, dated 29 Mareh 1842, in the Bibliotheque de l'Arsenal, Paris, Ponds Enfantin, No. 7748)

(٢٦) المصريون هم أول من استحدثوا هذا الاسم، لكنه اختفى من الاستعمال بعد جلائهم عن البلاد.

(٢٧) لم يكن هذا التسلسل الرقمي الصارم متبعاً دائماً. فشيخ المشايخ في قبيلة كبيرة مستقرة كالجعليين مثلاً، قد يكون مسؤولاً عن أضعاف مضاعفة من القرى للرقم ١١. وفي خطاب موجه لديوان الخديوي في القاهرة يقول الحكمدار علي خورشيد باشا: «لأنني مريض لا أقدر على السفر، فقد دعيت لاجتماع يضم حكام (كشاف) الأقسام (كاشفيات)، وشيوخ المشايخ، وشيوخ =

مفاسد الحكومة:

قامت الحكومة باختراع وحدة للقياس تسمى الجدعة[٢٨] تستند على علاقة الأرض بضريبة الرؤوس. وليس مهماً أن يكون الشخص من ملاك الأراضي حتى تفرض عليه هذه الضريبة، فقد نجد أحداً لا يملك شيئاً على الإطلاق ولكنه مضطر لدفع الوحدات المسجلة أمام اسمه بعد التقويم. وبذلك فإن معظم المزارعين يتحملون أكثر من طاقتهم. وتقدر الجدعة الواحدة بثلاثين قرشاً وعشرين بارة، ولكنها قد تبلغ في أحيان كثيرة مائة أو حتى مائتي قرش. ما السبب في ذلك يا ترى؟

دعنا نتأمل ما يحدث في كاشفية تضم ثلاثاً وثلاثين قرية ذات أحجام متساوية. يتلقى أحد الكشاف أوامر من المأمور باستخلاص تسعمائة وتسعين كيساً من قراه. يستدعي الكاشف عندئذ شيوخ المشايخ الثلاثة ويبلغهم الأوامر، غير أنه بدلاً من أن يذكر لهم الرقم الصحيح الذي طولب به، يكلفهم بجمع ألف وستة وخمسين كيساً من القرى التابعة له وعددها إحدى عشرة قرية، ولكنه لا يتقيد بالرقم تماماً، فهو أيضاً يريد أن يغنم، فيستدعي الشيوخ ويطلب جمع ثلاثمائة وأربعة وسبعين كيساً. لا بد أنك قد لاحظت أن ما يطلبه كل شيخ مشايخ يزيد عما حدده الكاشف بنحو اثنين وعشرين كيساً. ويذهب كل شيخ إلى قريته ويجمع أهلها في حشد يضم كاتب القرية ويعلن عليهم أنه يريد منهم خمسة وثلاثين كيساً بأمر من الحكومة.

في النهاية تبلغ الزيادة في الضريبة بدءً بالكاشف وانتهاءً بشيخ القرية خمسة أكياس، أي بمعدل سدس إجمالي الضريبة. ولكن الشيخ لا يكفيه كيس واحد، فيلجأ إلى حيلة أخرى لكسب المزيد بالتواطؤ مع كاتب السجلات الذي يقتسم معه الغنيمة. وللوصول إلى هدفه هذا يتبع الأسلوب التالي:

إذا كان المزارع غير قادر على الوفاء بمساهمته كاملة، يسمح له بتسديدها على

= الخطوط (والخط مجموعة من قرى قليلة داخل نطاق القسم). وبعد توزيع الضرائب الأقليمية عليهم، صرفتهم إلى مراكزهم». (وثائق عابدين، الملف ٢٦٢، (ملف السودان) (دون رقم)، ٢١ صفر ١٢٥٣ هـ (٢٩ مايو ١٨٣٧)). وقد خلط الراوي شيخ المشايخ مع شيخ الخط الأقل أهمية.

(٢٨) الجدعة مساحة تقدر بنحو خمسة وثلث أفدنة، وهو قياس تربيعي لم «تخترعه» الحكومة المصرية، وإنما هي وحدة ابتدعها الأهالي لقياس الأراضي المطرية. وقد كتبها الراوي هكذا «Ghiadaa» في محاول شجاعة «لطلينة» النطق السوداني للحرف العربي «جيم».

أقساط بسيطة يدفعها للشيخ ويأخذ إيصالاً كلما سدد قسطاً. وهنا يستغل الكاتب جهل المزارعين البسطاء، فيزور الإيصال، كأن يسجل فيه مثلاً مبلغ ثمانية قروش في حين أن المبلغ المدفوع فعلاً هو عشرة قروش. ثم أنه لا ينسى أن يدون في دفتر السجلات نفسه مبلغاً أقل مما دفع. وبعد أن يسدد المزارع كل ما عليه، يكتشف أنه ما زال مديناً، فيحصر للمسؤولين جملة ما دفع من الذاكرة محتجاً. وعندئذ يواجه المسكين بالدفتر وبالإيصالات التي يحملها هو نفسه دون أن يدري محتواها. ولا يبقى له غير الاذغان وتسديد ما عليه وهو ينعي سوء حظه، ويلعن جهله الشديد، مع اقتناعه الكامل بسلامة موقفه.

هنالك أيضاً ضريبة على الذرة والسمن والملابس التي يصنعونها من خيوط القطن المجدولة، وذلك للصرف على الجنود والمستخدمين المدنيين. كما أن أصنافاً أخرى من المنتجات المحلية تخضع للضريبة مثل القطن الخام والقطران، وجرائد النخيل والصوف والجلود وغيرها. وفي مناطق الغابات يضطر السكان إلى جمع الصمّغ من أشجار السنط لبيعه. ولكن حتى هذا المحصول تفرض عليه الضريبة، أي الجدعة. وتجمع هذه الضرائب كلها وتودع المبالغ خزينة الكاشف، وتنقل المنتجات إلى شونته، أي مخزنه، قبل ترحيلها إلى عاصمة الأقليم.

وتمتد هذه الأيدي الملوثة حتى إلى محصول المزارع بعد ترحيله إلى المخزن للتقدير حيث يقيّم بعضه بالوزن والبعض الآخر بالكيل. واللصوص الذين أشرت إليهم يحتفظون بوحدتين مختلفتين من الوزن والكيل، فيستعملون الأكبر عند الاستلام، والأصغر عند التوزيع. بهذه الطريقة الدنيئة يسرقون قوت المزارعين لعلمهم التام بأنهم لن يرفعوا أصواتهم أمام العصي الغليظة التي حكم الأتراك بها البلاد.

وبعض الأهالي، ممن يعيشون في مناطق السيول التي تجرف التراب المخلوط بالذهب في موسم الأمطار، يساهمون بالذهب أيضاً بعد تصفيته من الطين حين تحسر السيول. هؤلاء أيضاً لا يسلمون من خبث ومكر عملاء الإدارة التركية من تقدير ظالم للضرائب من قبل الشيوخ، ووزن للذهب بموازين مغشوشة فيجني اللصوص أرباحاً طائلة.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، فقد ابتدع بعض الكشاف طريقة غريبة لتحقيق المزيد من الكسب الحرام، حيث يجلس الكاشف على فروة غزيرة الشعر، ذات ألوان

زاهية. وعندما يأتي دافع الضرائب بالكيس الذي يحتوي على ذرات الذهب، ينشرها الكاشف على الفروة بحجة الكشف عن المعادن الغريبة فيها. عندها تنتشر بعض الذرات بين ثنايا الشعر، فيجمع الصراف(٢٩) ما يبقى من الذهب فوق سطح الفروة لوزنه. وإذا أخذنا في الاعتبار سوء حال الموازين، فضلاً عما علق بالفروة من ذهب يمكن لنا أن نتخيل فداحة الخسائر التي تقع على كاهل هؤلاء البشر، ومن يتذمر منهم على هذا الابتزاز يجد العصا في انتظاره بدلاً من الإنصاف، بل ويتوعدونه بالمزيد من الضرب إذا لم يدبر النقص في ضريبته فوراً. وإزاء هذه المعاملة اللطيفة من سيده المحترم، يبادر فوراً بتسديد ما عليه من دين حتى يطلق سراحه.

ولا يكفي العرب الرحل أنهم يدفعون الضرائب العينية ويقدمون العبيد، ولكن عليهم أيضاً توفير الجمال لنقل الجنود في أوقات الحروب. وتوزع هذه الجمال على الجنود والضباط ويستقطع مبلغ مائة وخمسة وعشرين قرشاً من مرتب كل ضابط نظير استعماله للدابة. وعند وصول الجيش إلى مقصده تباع الجمال التي لا تزال على قيد الحياة وتودع قيمتها خزينة الحكومة.

وأهم قبيلتين تشتهران بإنتاج الجمال هما قبيلتا أبي سن، بالقرب من سنار، والمسيرية في كردفان(٣٠). ولا يدفع أصحاب الجمال من رجال هاتين القبيلتين الضرائب المفروضة عليهم فحسب، ولكنهم أيضاً يرغمون على إرسال آلاف من الجمال عند الطلب لبيعها في مصر لحساب الخزينة في مطلع كل عام.

قياساً على ما سبق ذكره، قد يبدو أن المديرين الذين يتمتعون بقدر أكبر من الإنسانية بعيدون عن مثل هذه الممارسات المخالفة للقانون. ولكنهم ليسوا كذلك. بل أنهم في واقع الأمر يجنون أرباحاً طائلة بطرق سوف أشرحها الآن.

للمدير سلطة مطلقة في الحكم يستطيع بموجبها فصل الكشاف والشيوخ وكل من يندرج تحت سلطته. لذلك يمكنه فصل أحدهم وبيع وظيفته سراً لغيره على أن يقدم

---

(٢٩) محاسب.

(٣٠) اشتهرت قبائل أخرى بتربية الإبل، من أهمها الكبابيش. ويبدو أن الراوي يقصد القبائل الرئيسية التي تربي الإبل داخل نطاق جباية الضرائب الحكومية. وقبيلة أبي سن هم شكرية البطانة في حين أن المسيرية في كردفان ولو أنهم لم يشتهروا بالإبل كثيراً، إلا أنهم فرع من قبائل البقارة الرحل الذين يسرحون بين الأرضية والقمم الغربية من جبال النوبة.

الأخير مبلغاً معيناً كل عام، وذلك بجانب ما يعطيه من سمن وشياة وقمح وذرة وخلافها متى ما طلب منه المدير ذلك في أية لحظة (ناهيك عن الهدايا كالإبل وغيره)[٣١]. أما إذا نقض أحد منهم الاتفاق فقد وجب عليه انتقام المدير، فيجرده من منصبه في الحال ولا يترك له شيئاً غير الملابس التي على جسده، وفي أحيان أخرى يحكم عليه بالأشغال الشاقة.

وبعد الانتهاء من جباية الضرائب مباشرة يفرض المدير على الأهالي دفع جزء من أقساط العام التالي مقدماً واهماً إياهم أنه سوف يسجل لهم. وعندما يهل العام الجديد ويحين وقت الضريبة الجديدة لا يجدون في حسابهم شيئاً لأن كل ما دفعوه يذهب في جوف خزينة المدير الخاصة. وللمدير جولة كل عام في أنحاء مديريته بدعوى تفقد أحوال المزارعين والاستماع إلى ظلاماتهم، غير أنه في حقيقة الأمر لا يستمع إلى الشكاوي ليضع لها الحلول، ولكن ليهدد بها الشيوخ الذين يهرعون إليه في ذعر وفزع، فتمتلىء خزينته بالمال.

لا بد من الحديث الآن عن الباشا أو الحاكم العام. انه أيضاً يسعى للكسب الشخصي، خصوصاً وأن كل السلطات الإدارية محصورة في قبضته، والفرص المواتية للثراء متوفرة لديه. ويعين الباشا المديرين، ولو أن هذا الأمر قد صار مؤخراً من سلطات صاحب السمو في القاهرة، أو بالأحرى فقد بدأ إرسال المدير من مصر منذ وفاة أحمد باشا أبو ودان بهدف إضعاف نفوذ الحاكم العام. ففي عهد أحمد باشا كان مدير الخرطوم هو الوحيد الذي كان يتم تعيينه بواسطة الديوان[٣٢] في القاهرة بترشيح من باشا السودان، الذي غالباً ما يختار أحد أصدقائه.

ومن مسؤوليات الحاكم العام قيادة الجيش، ورئاسة جميع زعماء القبائل والعشائر الذين يأتمرون بأمره. كذلك يباشر الحاكم العام فرض العوائد على الأراضي. ولتحقيق فوائد شخصية، يوكل أمرها إلى شخص يثق فيه بموجب اتفاق خاص بينهما. لذلك فإن المفاسد التي تتعلق بجمع العوائد تتم هنا تحت الحصانة الكاملة لمن يقومون به. هذا إلى جانب امتيازات عديدة يتمتع بها الحكمدار الذي يطوف على الأقاليم باستمرار تحت

---

(٣١) الجزء الذي وضع بين قوسين كتب بخط مختلف.

(٣٢) كانت براءة التعيين في الأصل لدى مجلس نائب الملك (المعية السنية) إلا أنها في الواقع كانت في يد الوالي.

ستار الوقوف على أحوال المواطنين. ولكن عينه دائماً على ما يحمله له الشيوخ من هدايا كثيرة بدافع الخوف وطلباً لإرضائه. وعند قيامه بغزواته على الجبال لجلب الزنوج يطلب الباشا ذهباً من الشيوخ فوق مساهمتهم بالعبيد كما ذكرت آنفاً. وبعودته من الحملة يحصل على عائدة لا تقل عن ستمائة أو سبعمائة أوقية من هذا المعدن النفيس يحوله إلى صناديقه في عملية احتيال فاضحة.

ولا نكاد نجد باشا واحداً حكم السودان دون أن يسعى إلى الثراء الحرام. وحدث أن أحداً منهم ويدعى منيكلي(٣٣) تولى السلطة لمدة عشرين شهراً فقط، ولكنه عاد إلى مصر بأكثر من ألفي أوقية من الذهب، ومركبين كبيرتين، غير الخيل والعبيد. هكذا يحكم السودان إذن. الأرض الغنية المعطاءة صارت جدباء وقاحلة بعد أن أصبحت نهباً لمصاصي الدماء الذين لا يرتوون من دمائها مهما سفكت.

وعند أيام الفتح، كان السودان غزير السكان. فتقلص عددهم الآن إلى أقل من الثلث(٣٤). فقد هاجر الناس إلى دار فور والحبشة وأواسط البلاد ليعيشوا مع الزنوج الذين، وإن كانوا أكثر منهم تخلفاً إلا أنهم قطعاً أكثر إنسانية وأرق شعوراً من الأتراك. واستوطنوا هناك في مساكن منفصلة عن الزنوج، ولكن في انسجام تام معهم، بعيداً عن الأتراك الذين دفعوهم دفعاً إلى الهروب من جحيم السلب والنهب والبطش. لقد عمت البلاد عاصفة من الخوف والذعر هذه الأيام فأصبح ميسوراً لأي إنسان أبيض مهما كانت درجته، أو حتى خادم لرجل أبيض، أن يرتكب من الآثام والجرائم ما شاء ضد الأهالي دون أن تصدر منهم أدنى مقاومة.

وما أكثر ما زار الزعماء السودانيون القاهرة ليبثوا شكاواهم لجناب الوالي لما ارتكبه عملاؤه من فظائع في البلاد. ولكن يشاء حظهم السيىء أن يكون من يحيطون بالوالي كلهم مرتشين أحكم حكام السودان قبضتهم عليهم. لذلك فإنهم إما يحجبون هذه الشكاوي عن محمد علي باشا مرة واحدة، أو ينقلونها مخففة في أفضل الأحوال فلا يفعل

(٣٣) أحمد باشا منيكلي، الحكمدار (١٨٤٣ ـ ٤٥)، خلف شهرة واسعة في القسوة والابتزاز. وقد اكتسب سمعة خارج السودان كقائد من قواد الفرسان النابهين في معركة كونيا ضد جيش السلطان العثماني عام ١٨٣٢، وكقائد محنك أيضاً أثناء انسحاب الجيش المصري من سوريا في نباير ١٨٤١. وكان على رأس قسم من الفرقة العسكرية التي شاركت في حرب القرم عام ١٨٥٣ ـ ٥٥.

(٣٤) أشيع حدوث تقلص في سكان السودان في أوساط الدوائر البريطانية المصرية ابان المهدية وبعدها. وليست هنالك ثمة معلومات في كلتا الحالتين تؤيد مثل هذا القول.

الباشا بشأنها شيئاً. ويلوذ الزعماء بالصمت، ويصيبهم الإحباط ، ولا يتجرأون على معاودة الشكوى في القاهرة خوفاً من بطش الحاكم لدى عودتهم إلى السودان، فله عيون مبثوثة في المحاكم المصرية.

إن من يتحكمون فعلاً في جهاز الحكومة جنس من البشر عرفوا بالمكر والغدر، ألا وهم الأقباط [٣٥]. وقد ارتقى كل هؤلاء البشوات والمديرون دست الحكم عن طريق نفاق أسيادهم من الرؤساء، لكنهم غير جديرين بالمسؤولية. وعلى النقيض من ذلك تماماً، فإن الأقباط قد دربوا منذ الصغر على أساليب النكاية والدهاء، الأمر الذي جعل الحكام قاطبة، من أكبرهم إلى أصغرهم يعتمدون على الكتبة من الأقباط . والأقباط بدورهم يجيدون استخدام ثقة الحكام فيهم لمصلحتهم الخاصة، تساعدهم على ذلك معرفتهم بنقاط الضعف في الحكام. أضف إلى ذلك أن اللغة العربية لغة ذات مفردات كثيرة وتتسم بالغموض لأن النهاية المحددة لصيغة من صيغ الأفعال فيها قد تغير المعنى تماماً، ويستفيد الأقباط من هذا الغموض في تحقيق ما يناسب أغراضهم سلباً أو إيجاباً.

ويقصد الناس من ذوي المعاملات التجارية مع الديوان[٣٦] رئيس الكتبة ويتفقون معه على مبلغ يدفعونه له شخصياً، وإلا فإن أي شخص لا يسلك هذا السبيل لن يجد اسمه ضمن القائمة. ويتميز هؤلاء القوم بقدر كبير من التضامن والتآزر في سبيل تحقيق مكاسبهم. فإذا تجرأ شخص بدخول مكتب رئيس الكتبة، وتحدث إلى من تعرف عليه من مساعديه، فإن مساعده هذا يذهب أولاً إلى رئيسه ويستشيره قبل عقد الصفقة. ويجب في هذه الحالة أن يضاعف الرجل العمولة، لأن الوسيط أيضاً يريد نصيبه. فالأقباط ، إذن لا يحجمون عن فعل أي شيء يعن لهم تحت مظلة الحصانة لأن معظم الحكام يجهلون القراءة والكتابة. ويبلغ الكسل والخمول ببعضهم حد الاستماع ألى كاتبه وهو يقرأ وثيقة قبل أن تختم، فيضيف الكاتب في بعض الأحيان أشياء لا وجود لها في الوثيقة. وبمجرد انتهاء الكاتب من القراءة يختمها الحاكم فوراً أو يسلمها للكاتب نفسه ليختمها.

---

(٣٥) لعب الأقباط دوراً هاماً في الإدارة المصرية في السودان، وكذلك خلال السنوات الأولى للحكم الثنائي، وفي أواخر الحكم المصري، أنشأت الجالية القبطية الأرثوذكسية كنيسة على موقع الكاتدرائية القبطية الحالية في الخرطوم. وقد ساعدت سياسة محمد علي في إعادة تنظيم الإدارة في مصر على ازدياد الوظائف المالية والحسابية في دواوين الحكومة بشكل كبير. وكان الأقباط أجدر الناس بشغل هذه الوظائف بما عرفوا من خبرة في التجارة والإئتمان. وقد عرضهم هذا الدور الذي ظلوا يلعبونه في الحكم إلى كثير من النقد الجائر من مراقبين كانوا يجهلون تاريخهم ونقاط ضعفهم.

(٣٦) يقصد بها في هذه الحالة، أي مرفق من مرافق الحكومة.

وهنالك حيلة أخرى من حيل الأقباط هي تكديس الأوراق أمام المحاكم: أوراق تضم الردود والأوامر والطلبات والحسابات الخ. . . تكدس كل هذه الأوراق أمامه دفعة واحدة ليقرأها أو ليستمع إلى الكاتب وهو يقرؤها ثم يقوم بختمها. ويصاب الحاكم بالإرهاق والسأم من مجرد منظر هذا الكم الهائل من الورق، فيوكل المهمة إلى الكاتب فوراً. وينهمك الكاتب في عمله جالساً القرفصاء على الأرض أمام الحاكم، ولا ينتهي من عملية الختم إلا بعد مضي ساعة أو أكثر. والغرض من هذه العملية واضح حيث أن الكاتب يستطيع مساعدة من يشاء من أصحاب هذه الطلبات دون خوف أو وجل، بل أن بمقدوره أن يختم وثيقة كتبها بنفسه. هذا بالطبع علاوة على أن للكتبة نصيبـاً في عائدات الحكومة. ولا يفقه الحاكم شيئاً في تعقيدات السجلات، ولذلك يعتمد كلياً على رئيس الكتبة ـ ويسمونه «المباشر»(٣٧) أي الذي يوجه الحاكم كما يدل الاسم إلى طرق وأساليب الربح ـ فهو إذن يتحكم في السجلات كيفما شاء.

يعمل الكتبة سكرتيرين ومستشارين وإداريين ومشرعين ومحاسبين، ويخشاهم الناس أكثر من الحكام أنفسهم لما لهم من قدرة على البطش والانتقام فكم من أبرياء سجنوا، وكم منهم ظل يرسف في أغلاله حتى اضطر إلى شراء حريته بمبالغ طائلة. بل أن هؤلاء الأقباط ينهبون ممتلكات الأهالي جهاراً نهاراً، وأحياناً يحكمون على بعضهم بالشنق حتى الموت إذا ثبت أنهم قد أخفوا عنهم جانباً من ممتلكاتهم.

كان رئيس الكتبة في كردفان يدعى هاريون(٣٨) إلا أن الناس قد اعتادوا على مخاطبته هاريون بك، ثم بعد سنوات هاريون باشا. ولقد بطش هاريون هذا بسكان تلك المنطقة حتى فروا إلى دار فور وغيرها. ورغم ذلك لم يتدخل الحاكم لمصلحة الناس لأنه كان شريكاً لهذا الظالم في جميع عائدات مفاسده. ومما يحكى عنه أنه عندما يسمع بشخص غني، كان يكتب له طالباً منه قرضاً من المال، فيستجيب لطلبه ذلك الثري وأنفه راغم. ثم لا يفكر هاريون في رد الدين ولا يطمع صاحبه في استرداده فينتهي الأمر عند

---

(٣٧) تعني في الأصل من يشرع في عملية تجارية أو يهيء الجو لها، فهي بالتالي تعني العميل. وكان يطلق على الكاتب من الأقباط، بصفة عامة، لقب المعلم، أي المدرس، وهو لقب كان يطلق أيضاً على المحاسبين ورؤساء العمال من الحرفيين.

(٣٨) جاء في مذكرات يوسف ميخائيل (نسخة غير مطبوعة من أطروحة حول مذكرات يوسف ميخائيل للدكتور صالح محمد نور، جامعة الخرطوم) أن معلماً يدعى هاريون كان يرأس أكثر من عشرين كاتباً أوفدوا من القاهرة للعمل في السودان عام ١٨٣٩. ويعتقد الدكتور نور أن الاسم تحريف لهارون.

هذا الحد. وحين يلمح رقيقاً وسيماً، ذكراً كان أو أنثى، أو حصاناً جميلاً، أو أي شيء من هذا القبيل يستولي عليه هاريون دون تردد. وجأر الناس بالشكوى وتذمروا من تصرفاته دون أن يحرك ذلك كله ساكناً في الحاكم، وسارت الأمور على حالها كما كانت في معظم مديريات السودان.

في عهد منيكلي باشا، اغتصب مدير سنار ابنة أحد الكشاف وكانت عذراء. وقد داهمه الأبوان متلبساً بالجريمة وذهبا إلى الحكمدار منيكلي طلباً للعدالة. هل يمكن لأحد أن يتصور ماذا كانت نتيجة الشكوى؟ لقد أودع الكاشف وزوجته غياهب السجن. أما الفتاة فقد عاملوها معاملة البغايا، وهددوا بإلقائها في النيل. ولم يخرجوا جميعاً من هذا المأزق إلا بعد مجهودات مضنية وهدايا ثمينة أرسلوها لمنيكلي فأطلق سراحهم.

الفصل الثالث

نظام الحكم في عهد محو بك وخورشيد باشا:

كانت بلاد السودان غنية بالموارد الطبيعية التي حال سوء الإدارة دون استغلالها. فمنذ أيام الفتح وحتى وصول محو بك عاشت البلاد في حالة سيئة من الفوضى، إما بفعل الغزاة الذين أرادوا تثبيت دعائم حكمهم بالارهاب، أو بمحاولات المواطنين في جهادهم المستمر من أجل الانعتاق والتحرر. وقد عم السلام والطمأنينة أثناء فترة حكم محو بك، وافتقده الناس كثيراً عندما غادر البلاد.

وخلف محو بك في الحكم خورشيد آغا (باشا فيما بعد). ولم يكن خورشيد أقل عدلاً وكفاءة من سلفه حيث أقام العدل والنظام في مديريته. ومنذ الفتح كانت بلاد السودان تعرف بالمديرية، ثم بعدها، بالتحديد في عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ - ٣٨)[١] استبدل الاسم بالحكمدارية، وأطلق على الحاكم العام لقب الحكمدار[٢]. وقسمت البلاد إلى مديريات ومأموريات، فأصبحت كردفان وبربر وسنار ودنقلا مأموريات[٣]. وقد ضمت دنقلا إلى السودان عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥)، فأصبحت تابعة رسمياً للقاهرة، بينما ظلت سنار وبقية المأموريات تحكم مباشرة بواسطة الحاكم العام.

عمل خورشيد جاهداً في تقدير الضرائب وتقنين الرسوم الجمركية، وكفل الحماية

---

(١) عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥) بشكل أكثر تحديداً.

(٢) قبيل نهاية الحكم المصري تغير اللقب إلى حكمدار عموم السودان. وتحت الحكم الثنائي ظل التردد لبضعة شهور حتى استقر الاسم أخيراً على «الحاكم العام».

(٣) كانت الأقاليم تسمى مأموريات حتى عام ١٨٣٣ حين تغير الاصطلاح إلى مديريات لتزيد من هيبة الحكام.

اللازمة للتجارة بتأمين الطرق. وركز كل شؤون الحكم والإدارة والتجارة في الخرطوم حتى صارت مدينة. وقام بالإشراف على قطع الأخشاب وتوفير العمال واللوازم لتشجيع الناس على عملية بناء المنازل. في نفس الوقت خصص خورشيد الامتيازات لمن يرغبون الهجرة إلى الخرطوم. لذلك فقد برزت الخرطوم، عاصمة البلاد الآن، إلى الوجود خلال سنوات قليلة، وهي وحدها التي تستحق كلمة مدينة من جملة المناطق الأخرى الآهلة بالسكان. وبنى خورشيد جامعاً كبيراً بالطوب الأحمر(٤)، وترسانة لبناء المراكب المستعملة في المواصلات عبر النيلين. وقد ركزت هذه الحركة والنشاط التجارة في الخرطوم، واضعفت بالتالي مركز المسلمية في هذا المجال، كما نوهت سابقاً.

واتسمت سياسة الحاكم العام بالعطف والأريحية مما كان له أكبر الأثر على انتعاش الأحوال في السودان، فقد عارض في قوة سياسة تحويل عائدات السودان لحساب الخزينة في القاهرة. وكتب مرة لجناب الباشا محمد علي يؤكد أن الضرائب ينبغي لها أن تنفق فيما يعود على السودان بالنفع، ولا مجال للتفريط في بارا واحدة تذهب إلى القاهرة. كذلك احتج خورشيد عندما طلبت الادارة المصرية في القاهرة الذهب والصمغ والسنامكة والجلود الخام وسن الفيل والماشية والإبل وغيرها(وجميعها سلع تحتكرها الحكومة)(٥)، ورفض إرسالها ما لم تسدد قيمتها نقداً للتجار لأنه لا يستطيع اعتبارها ضرائب عليهم.

وتحقق لخورشيد ما أراد فحولت المبالغ لشراء المنتجات، فحدد سعر البيع لكل صنف وأمر المزارعين ببيعها للحكومة حيث لم يكن في وسعهم تصديرها إلى أسواق القاهرة لأنها كانت حكراً للحكومة في السودان. وأرضت الأرباح القليلة طموح المنتجين، فانتعشت الزراعة وتوسعت. ومن نتائج سياسات خورشيد الإنسانية هذه استحداث الكمبيالات في المعاملات بدلاً من النقود دون أن يصحب ذلك أي خصم، فقد وضعت ضمانات لكل من يحمل كمبيالة من موظفي الحكومة من المدنيين والعسكريين. ولتسهيل عملية التسليف أمر خورشيد بقبول الكمبيالات في الخزينة بقيمتها الاسمية عند دفع

---

(٤) يبعد موقع جامع خورشيد بثلاثمائة ياردة جنوب مكاتب الحكمدارية في الخرطوم. وكانت قواعد الأعمدة الضخمة من الطوب ما تزال موجودة حتى عام ١٩٤٨.

(٥) بدأ الاحتكار التجاري للدولة عام ١٨٢٤، وكان ينحصر في بدايته على الصمغ العربي وسن الفيل وريش النعام، ثم أضيفت إليها مؤخراً النيلة وبعض منتجات البلاد الأخرى.

الضرائب أو تسديد الديون. وبعد رسوخ هذه التدابير أصبحت التجارة في مجملها ترتكز على العمليات الائتمانية لمصلحة بعض صغار التجار الذين استفادوا فائدة عظيمة.

كذلك يرجع الفضل لخورشيد في التشجيع على عملية الزراعة. فقد أعد حديقة ضخمة حول القصر، وحدائق أخرى خارج المدينة حيث كانت تروى بالسواقي كما في مصر. أما قبل ظهور السواقي فقد كان المحصول يحصد مرة واحدة في العام لاعتماد المزارعين على فصل الخريف، لكنهم الآن يزرعون طول فصول السنة. وخورشيد هو أول من استجلب النباتات الغربية وأشجار الفواكه والخضراوات وغيرها. كذلك أحضر الضأن والأغنام ذوات الأصواف الكثيفة من مصر ووزعها على المزارعين، إلا أن حرارة الطقس تسببت في انحطاط تلك السلالات حتى صارت أقل فائدة من السلالات المحلية نفسها(٦).

وسمح للمزارعين الذين يعجزون عن دفع الضريبة بتأجيلها إلى العام التالي. وتجلت سماحة خورشيد في زمن المجاعات على وجه الخصوص، وكانت أيام حكمه دليلاً على ما ذهبت إليه بحق. فقد اجتاحت البلاد مجاعة ذات عام، فصار المزارعون زرافات إلى المدينة، وفاضت أرواح بعضهم جوعاً في الطريق. أصبح سعر أردب الذرة(٧) مائتي قرش بعد أن كانت ستة قروش فقط، وباع سكان العطيش أطفالهم حتى لا تبيدهم المجاعة. في هذا الوقت، أصدر خورشيد أوامره بأن تفتح مخازن الذرة الحكومية، فوزعت الذرة على الناس بواقع ربع(٨) واحد للفرد يومياً، وأرسلت قطعان البهائم إلى القضارف والعطيش. وفي الخرطوم فتحت أبواب مخازن الحكومة لتوزيع الذرة كل مساء. وفجأة نفدت جميع الإمدادات، فهرعت الجموع إلى القصر وهي تصرخ بأعلى صوتها من فرط الجوع. وخرج عليهم خورشيد وطمأنهم على قرب وصول مخازن كاملة عن طريق المراكب في اليوم التالي. ولكن طال الانتظار ولم تصل الإمدادات. ومع تزايد صراخ الجوعى وتذمرهم اضطر خورشيد إلى توزيع العلف المخصص لخيوله على الناس حتى يهدأوا إلى حين وصول المراكب.

ولقد اشتهرت الفترة من ١٢٥١ هـ إلى ١٢٥٣ هـ بانتشار المجاعات، وشهد عام

---

(٦) بتوصية من خورشيد زود السودان بمائة وخمسين كبشاً من إسبانيا. وعند فشل تجربة خورشيد، أوصى خلفه باستيراد سلالة أخرى من خراف المرينو الأسبانية لتربيتها.

(٧) نوع من الكيل تبلغ سعته حوالي مائتي لتر.

(٨) ١/٢ ٤ من الأردب.

١٢٥٢ هـ وباء الكوليرا في البلاد، فاقترن المرض مع الجوع وقضيا على أعداد كبيرة من السكان.

في بداية حكم خورشيد امتدت حدود أقاليمه من أبي حمد إلى الروصيرص على النيل الأزرق والى ود الشلعي على النيل الأبيض، وغرباً إلى القضارف والعطيش. أما دنقلا فقد كانت تحكم مباشرة من القاهرة، وكان يحكم كردفان رستم بك قائد الفرقة الأولى الذي خلف عثمان بك بعد وفاته على قيادة الفرقة إلى أن جاءت الأوامر من القاهرة ليتحرك إلى كردفان لمباشرة حكم الأقليم. ومنذ ذلك التاريخ استمر قائد الفرقة الأولى يحكم كردفان حتى نهاية عام ١٢٥٠ هـ (١٨٤٣). على أن استقلال كردفان عن الخرطوم لم يدم طويلاً، فقد ظل خورشيد يلتمس من محمد علي باشا ويلح عليه حتى استجاب لرغبته في ضم الاقليم إلى بقية الأقاليم التي كان يحكمها، ثم تمكن بعد ذلك من ضم دونقلا كما ذكرت.

صدرت في القاهرة أوامر تقضي بأن يتم قياس الأراضي في السودان بالفدان كما في مصر. ولم يكن تطبيق مثل هذه الأوامر ميسوراً لأسباب مختلفة: وأولها يتعلق بشكل وموقع المساحات المزروعة حيث أن كل شبر من الأراضي الصالحة للزراعة كان يتبع لمالك معين، رغم أنه قد لا يزرع المساحة كلها. ومن ناحية أخرى نجد أن الرقع المزروعة عبارة عن شرائط طويلة على ضفة النيل، تبلغ مساحة ستة أو سبعة شرائط منها فداناً واحداً. أما المناطق المرتفعة التي تجاور هذه الرقع فتغطيها الغابات، فيضطر المزارعون إلى قطع الأشجار لإقامة السواقي مكانها. والسبب الثاني هو أن فكرة القياس بالأفدنة نفسها قد استعصت على فهم الناس، فما عرفوا غير الجدعة منذ بداية عهدهم بالزراعة. وتذهب مجموعات من المزارعين تتألف من خمسة أو ستة في موسم الأمطار إلى ادخل البلاد حيث الأمطار غزيرة بحثاً عن أراضٍ غير مملوكة، فيزرعونها ويقتسمون المحصول بينهم بالتساوي. وبعدها تهجر هذه الأراضي، وربما لا تزرع مرة ثانية على الاطلاق. ولا يعني ذلك أن هذه المساحات من الأرض غير مملوكة حقيقة فهي لها من يملكها في الغالب الأعم، ولكن السؤال يبقى: كيف يحتفظ المزارعون بهذه الأراضي التي لا تزرع إلا في وجود الأمطار لبعدها عن النيل؟ بل ما فائدة الزراعة نفسها والمحصول قد لا يشكل فائدة تذكر لقلة الأمطار؟ أضف ذلك كله المنازعات التي تنشب كل عام بين سكان القرى على ملكية الأراضي. وتصل هذه الخلافات أحياناً حد إشهار السلاح بين الأهالي حتى يتدخل الكاشف ويضع حداً للمعركة بالقوة، وحتى تدخل

الكاشف لا يعني حسم المسألة في جميع الأحوال.

وقد حدث في عهد خورشيد أن سكان قرية ود العباس(٩) تجاه سنار، اختلفوا مع سكان قرية أخرى. وعند تدخل الكاشف لفض النزاع، خرَّ صريعاً بسهم طائش. وجاء الأتراك ودمروا القريتين. ولا يكاد يمر عام دون حدوث شيء كهذا، خصوصاً بين المزارعين من أفراد قبيلة الحلاوين(١٠). لذلك، فالحاكم منهمك في سلسلة من المحاكمات المستمرة لمثل هذه القضايا، فالممتلكات يتداولها عدة ملاك، وتغيير حاكم بآخر باستئناف المؤامرات من جديد.

مما تقدم يتضح أن القياس بالأفدنة لم تكن تجربة ناجحة فأعيدت طريقة البحث عن المالك الحقيقي لهذه القطعة أو تلك. وقد قدر خورشيد الجدعة بمبلغ واحد وعشرين قرشاً، ثم رفع أحمد باشا القيمة إلى ثلاثين قرشاً ونصف قرش.

بالنظر إلى حجم الجيش في عهد خورشيد، والذي انخفض إلى أقل من الثلث تحت حكم أحمد باشا (ولا يزال كذلك حتى الآن)، يبدو أن الضرائب كانت باهظة أثناء فترة حكم خورشيد. ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أن إرسال الأموال من خزينة القاهرة لشراء السلع المحتكرة للحكومة قد أوقف تماماً في عهد أحمد باشا. ومع ذلك ظلت هذه السلع تتدفق إلى أسواق مصر، وبكميات أكبر من ذي قبل، لأنها تؤخذ الآن من المزارعين في شكل ضرائب، علاوة على الجدعة نفسها.

ولم يمض وقت طويل حتى قرر أحمد باشا تحديد سعر الصمغ بثماني بارات فقط للرطل. فاستاء المزارعون وامتنعوا عن جمعه لأن ذلك يعني أن المحصول لن يغطي تكاليف معيشتهم بعد خصم الضريبة منه كل عام، علماً بأن المحصول يسلم للحكومة كاملاً، كما ذكرت في مكان آخر. ليس ذلك فحسب ولكنهم كانوا ملزمين بمد الجيش بعدد كبير من الرقيق. وكان الوضع جد مختلف على عهد خورشيد لأن الناس كانوا يدفعون واحداً وعشرين قرشاً عن الجدعة، ويمدون الجيش بمستلزمات الإعاشة، والمستخدمين المدنيين والعسكريين بجانب من مرتباتهم، ولكنهم مع ذلك كله كانوا يربحون مما يبيعون للحكومة من سلع.

---

(٩) يورد الكاتب الاسم «أبو العباس» كما كان ينطقها ليسياس.

(١٠) لم يكف الحلاوين عن المنازعات حتى تحت الحكم الثنائي. فقد أدى نزاع على قطعة أرض إلى قيام ثورة محدودة عام ١٩٠٨ حين قام حلاوي يسمى عبد القادر إمام ود حبوبة وأتباعه بقتل مفتش بريطاني وعدد كبير من الأفراد والموظفين المصريين.

القاهرة تطلب مساهمة خاصة:

في عام ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ ـ ٤٢) طلبت الخزينة في القاهرة من أحمد باشا إرسال عشرة آلاف أوقية من الذهب من خزينة الخرطوم. وكان ثمن الأوقية الواحدة آنذاك ثلاثمائة وخمسين قرشاً. وقد فرض على كل فرد، من أغناهم إلى أفقرهم نصيباً معيناً حتى يتمكن من جمع هذه الكمية الضخمة ثم أمر كل شيخ قرية أن يسلمه كمية معينة من الذهب، كما كلف رؤساء المجموعات والجاليات التجارية وكانوا ثلاثة يمثلون الأتراك والمصريين والسودانيين[١١]، بجمع نصيب محدد. وساهم بالتبرع حتى صغار التجار وتجار القطاعي الذين لا تكاد تصل رؤوس أموالهم مائة قرش، مما أدى إلى إفلاسهم الكامل، فقد ارتفع سعر الذهب نتيجة للطلب المتزايد إلى سبعمائة قرش للأوقية مع أن الخزينة ظلت تحاسبهم بالسعر الرسمي وهو ثلاثمائة وخمسون قرشاً للأوقية. إلا أن هذا الإجراء من الخزينة لم يكن مصدر قلق لأحمد باشا فقد ابتدع طريقة بارعة لسد العجز بأن فرض غرامة على من يفشل في تسليم حصته من الذهب قدرها سبعمائة قرش، وليس ثلاثمائة. وفي النهاية تم جمع كمية تفوق عشرة آلاف أوقية، بل انها في حقيقة الأمر قد قدرت بحوالي ثلاثين ألف أوقية جمعت من السكان المنتشرين في جميع أنحاء السودان رغم ارتفاع أسعار الذهب، ووصل الأمر حد اقتياد بعض الناس إلى السجون لعجزهم عن شراء مساهمتهم.

البحث عن ذهب السودان:

طلبت الحكومة المصرية معلومات عن الكمية الموجودة من الذهب في فازوغلي توطئه لإقامة مصنع لاستخراجه. ورد خورشيد بأن العائد لن يغطي تكاليف التعدين. ولم يثق محمد علي في تقارير خورشيد، فطلب من الحكومة النمسوية خبيراً في التعدين يقدم له تقريراً دقيقاً عن إمكانيات حقول الذهب في فازوغلي وكردفان. واستجابة لهذا الطلب جاء راسيقر (Russegger) وآخرون[١٢] في نهاية عام ١٨٣٦ م (حوالي ١٢٥٢ هـ). ثم غادروا القاهرة في رمضان ١٢٥٢ هـ (ديسمبر ١٨٣٦ ـ يناير ١٨٣٧) وحلوا بالخرطوم في غرة محرم ١٢٥٣ هـ (نهاية مارس أو بداية أبريل ١٨٣٧).

---

(١١) كان رئيس كل مجموعة من التجار يسمى «سارتجار»، وهو تعبير مستمد من اللغتين البروسية والتركية «سار / سر» (رئيس) زائداً الكلمة العربية تجار. وقد نطقها السودانيون «سر» على نسق «سر عسكر» بمعنى قائد عسكري... إلخ..

(١٢) من ضمن مرافقي راسيقر كان عالم النبات النمسوي ثيودور فون كوتسكي (١٨١٣ ـ ٦٦).

وبعد بضعة أيام، تزودوا بالتعليمات اللازمة من الحكمدار وتوجهوا إلى كردفان[١٣]، حيث قدموا أوراقهم إلى مصطفى بك قائد الفرقة الأولى وحاكم الاقليم. وهناك مكثوا أياماً ثم توجهوا إلى الجبال ومعهم الحاكم نفسه تحت حراسة كتيبة نظامية قوامها ألف ومائتا رجل وقوة أخرى من الفرسان غير النظاميين. وساروا في اتجاه جبال تقلى، ومنها عرجوا يساراً وهم يتابعون الجبال وسفوح السيول حتى وصلوا أطراف النيل الأبيض. وكان يقع بينهم وبين النيل جبل اعتلوا قمته وتمتعوا بمنظر النهر المهيب. وأخيراً قفلوا راجعين إلى الأبيض بعد غياب دام خمسة وثلاثين يوماً لم يتمكنوا خلالها من اكتشاف منطقة تصلح لإنشاء منجم عليها، فاحتمال وجود ذهب يغطي تكاليف التعدين كان بعيداً[١٤].

ثم ما لبث راسيقر أن عاد إلى الخرطوم، فصادف خبيراً في المعادن يدعى بورياني[١٥] (Boreani) كان محمد علي قد عينه منذ فترة لينضم إلى راسيقرفي التنقيب عن الذهب ومراقبة تصرفات راسيقر في ذات الوقت[١٦]. وبعد أيام وصل مصطفى بك من كردفان مترقياً إلى رتبة قائمقام ليعمل مديراً لشبه جزيرة سنار، مع أن مقر إقامته كان في الخرطوم.

ولم تتمكن القوات من القيام بمهمتها نظراً لهطول الأمطار، فاضطر خبراء التنقيب إلى البقاء في الخرطوم حتى منتصف أكتوبر ١٨٣٧. وتحركو أخيراً مع مصطفى بك وكتيبتين من الجنود النظاميين ومجموعتين من الفرسان غير النظاميين ومدفع ميدان. توجهوا أولاً إلى جبال فازوغلي، ومنها إلى جبل دول عبر جبل كماميل وجبل آخر لا أذكر اسمه. ولكنهم لم يكملوا مهمتهم لكثرة ما اعترض طريقهم من تحرشات ولخوفهم من نفاد الإمدادات، فعادوا إلى الخرطوم من حيث أتوا، ثم سافر الخبراء إلى القاهرة بعد قليل[١٧].

---

(١٣) يطلق الأهالي اسم كردفان على الأقليم بأكمله، وعلى الأبيض، المركز الإداري أيضاً.

(١٤) تتركز مستودعات الذهب في جبال النوبة في تيراماندي، ودنقر، وأتورو. وكان الذهب ينقل إلى جبل شيبون لبيعه، ومن ذلك جاء تعبير «ذهب شيبون». ويقال ان كميات الذهب في المستودعات قد نفذت الآن.

(١٥) مدير الترسانة في بولاق، وهو سرداني.

(١٦) لاحظ الحكمدار الود المفقود بين بورياني والمجموعة النمسوية، فرفع تقريراً بذلك إلى محمد علي في القاهرة فوراً.

(١٧) دوّن راسيقر نتائج أبحاثه الميدانية في سوريا ومصر والسودان في مجلده الضخم: (Reisen in Afrika «Stutgart, 1841 - 49) وهو من أربعة أجزاء من بينها أطلس. وتوجد تقارير في علم المعادن =

وأعد راسيقر تقريراً رفعه إلى الجناب العالي يفيد بأن لا طائل من مناجم كردفان، وأن منطقة فازوغلي غنية بالذهب. وأضاف بأن شخصاً لا يستعمل غير يديه في الحفر يمكنه الحصوُل على ما قيمته أربعة دولارات من الذهب في اليوم الواحد. ولكي يدعم حجته، عرض عليه عينات من الصخور التي تحتوي على الذهب. وأظهر محمد علي لهفة إلى المزيد من المعلومات عن الموضوع، خصوصاً من بورياني الذي كان يحرص على مصالحه الخاصة أكثر من مصلحة سيده في هذا الخصوص.

وأكد بورياني بدوره وجود الذهب في الجبال ومناطق السيول إلا أنه خالف راسيقر في الكمية التي قدرها حيث قال ان شخصاً واحداً لا يمكن له الحصول على ذهب يساوي أكثر من دولارين في اليوم. ثم عرض قطعة من الصخر مشيراً إلى شعيرات الذهب فيها، وأخرج قطعة صغيرة من الذهب في حجم نصف الصلدي مثالاً لما تحتوي عليه كتلة الصخر من الذهب. بعدها جاء بورياني بزجاجة بها حبات من الرمل مخلوطة بذرات دقيقة جداً من الذهب قال انه عثر عليها في قاع مجرى السيول. وعند سماعه لهذه الأنباء السارة، كافأ الباشا العجوز راسيقر بسخاء، وأذن له بالعودة إلى وطنه. ثم استدعى محمد علي مصطفى بك من السودان لاستشارته في الأمر، ولكن مصطفى بك لم يزد شيئاً على ما سمعه من المختصين. ومع ذلك أمره محمد علي بالتوجه فوراً إلى كردفان لإعداد قوة لاصطياد خمسمائة رجل للعمل في المنجم الذي تقرر إنشاؤه هناك.

وأعد بورياني تقريراً بأمر من الباشا ضمنه طلب عدد من الأشياء اللازمة في عملية التنقيب مثل معدات العلوم الفلكية والطبيعية والكرونومترات وما إليها. ولم يكن محمد علي يعرف شيئاً عن هذه المعدات، فأمر خير الدين بك[١٨]، وهو قائد بحري متقاعد عين فيما بعد مديراً للمناجم، ببذل أقصى الجهود في توفيرها بالسرعة المطلوبة. كذلك وفر الباشا القوى العاملة من طلب ونجارين وميكانيكيين وغيرهم، ثم توج ذلك كله بتعيين مهندس[١٩] فرنسي لبناء مدينة جديدة تحمل اسمه. على أن خطة بناء هذه المدينة قد

= لكل من راسيقر، وبورياني، وس. لامبرت، وج. ب. د. أرنود ضمن أوراق (Hekekyan) في المتحف البريطاني (Addit. Miss. No. 37466, XIX)

(١٨) عند عودته من السودان عين خير الدين بك مديراً لادارة العبور البري، وهي جهاز حكومي كان يضطلع بمهمة ترحيل المسافرين والبضائع بين الاسكندرية والسويس. وقد جرت العادة أن تستوعب الرتب البحرية في الجيشين المصري والتركي ضمن الرتب العسكرية. لذلك فإن الكولونيل البحري ترجمة للأمير الاي البحري، وهي تعادل نقيب بحري في الأسطول.

(١٩) كانت النية تتجه إلى أن يتولى د. أرنود أمر إنشاء المباني والماكينات، وليفبفر التفتيش والبحوث، =

تقلصت فصارت مجرد مقر للحكومة. أما الاسم فقد أطلق على قرية صغيرة لم تحتفظ هي الأخرى باسم محمد علي طويلاً حيث عاد الناس إلى اسمها القديم «كيري».

وقرر الباشا زيارة هذه المنطقة الغنية بالذهب، وأصدر أوامره بإرسال جميع التلاميذ الذين لم يكونوا متفوقين في دروسهم في ذلك الوقت (بلغ عددهم أكثر من مائة وخمسين صبياً) إلى فازوغلي للعمل في بناء المنجم.

وقد حضر في تلك الفترة من فرنسا خبير يدعى ليفبفر (Lefebvre)، عرف بالكفاءة في ميدان علم المعادن، وبحث عنه محمد علي حتى عثر عليه فأغراه بالذهاب إلى فازوغلي بمؤن ومرتب شهري قدره ألفان وخمسمائة قرش.

أسلوب أحمد باشا القاسي مع رجال الحسابات:

اضطر خورشيد إلى مغادرة السودان لاعتلال صحته في الربع الأخير من عام ١٢٥٤ هـ (يونيو / يوليو ١٨٣٨). وجاء بعده أحمد باشا أبو ودان وهو يخطط لكي يصبح حكمداراً. وكان أبو ودان فوق ذلك مصمماً على الحط من قدر من سبقوه في حكم السودان في نظر محمد علي.

وما ان تسلم مقاليد الحكم حتى استولى أبو ودان على جميع دفاتر حسابات الإدارة، واستدعى ضباط الفرقة الثامنة، وقد كانت لهم دراية بمسك الدفاتر، ثم واجه كل من ارتكب مخالفة مالية من رجال الإدارة فأودعهم الحراسة. وما لبث أن أنشأ مكتباً للمراجعة والفحص، أو ما شابه ذلك على الأصح، فقد كانت تصادر ممتلكات أي شخص يقبض عليه في الحال، سواء كانت في منزله أو خارجه. ولم تراع في هذه الحملات حتى حرمات النساء حيث انتزعت الحلي من أجسادهن لبيعها مع بقية الممتلكات في مزاد علني. وامتدت المصادرة إلى العبيد أيضاً فتم بيعهم مع أطفالهم وأودع ثمنهم الخزينة.

صحيح أن هؤلاء الموظفين قد أساءوا استعمال سلطاتهم، إلا أن ذلك لا ينفي أن المراجعة قد تمت دون أدنى مراعاة لأحكام القانون، ووفقاً للنزوات الشريرة لمن أشرفوا عليها. تعرض الناس إلى التعذيب والضرب بالعصي الغليظة، والحبس في سجون تزكم رائحتها الأنوف وهم مقيدون بالسلاسل تحت دعوى انتزاع الاعتراف بثروات مخفية.

= وبورياني الاستخراج الروتيني. (Lettres inedites de Charles Lambert, Acropole, Paris, VI, 1931, p. 58).

وخيم على البلاد نوع من الوحشية والبربرية لإشباع طموح رجل كان يتطلع إلى منصب حكمدار السودان، ولم يتورع في سبيل ذلك من الوشاية لسيده بزملاء له غمروه بالحب والعطف.

وبادر أحمد باشا بإرسال أربعة آلاف كيس إلى محمد علي باشا وهو يندد بسوء الإدارة على عهد خورشيد باشا الذي وضع أموالاً كان يفترض إرسالها إلى الخزينة في القاهرة نهباً تحت أيدي رجال الإدارة المفسدين. ومضى أحمد باشا في قوله أنه ومنذ تسلمه مقاليد الأمور، قام بمعاقبة كل من أساء استعمال سلطانه من الموظفين، وأكد أن السودان قد أصبح الآن في وضع يسمح له بإرسال مبلغ معلوم إلى القاهرة كل عام. ثم أرسل أحمد مرة أخرى ستة آلاف كيس إلى الباشا بعد مضي شهرين فقط، إمعاناً في كسب ثقته. واقتنع محمد علي فعلاً بأنه أكثر كفاءة من سلفه خورشيد فسارع بترقيته إلى حكمدار. أما خورشيد فقد عين باشا على أدانا على أن يباشر عمله عند اكتمال شفائه.

رحلة محمد علي باشا إلى السودان:

في شهر جمادى الآخر ١٢٥٤ هـ (أغسطس / سبتمبر ١٨٣٨)، استعد الجميع للرحلة، وأصدر محمد علي باشا أوامره لبدء إقلاع الحملة بالمراكب تحت أمرة خير الدين بك. وعين بورياني رائداً بمرتب شهري قدره ثلاثة آلاف قرش، مع مؤ ن تناسب رتبته، ووعد بترقيته إلى بك مع أول بادرة لنجاح التجارب في فازوغلي، وهذا ما لم يحدث[٢٠]. وهكذا انتظم الجميع في الحملة ما عدا ليفبڤر الذي أبقاه الباشا معه.

في نفس الوقت أرسلت ثلاث ذهبيات كبيرة عليها رجال من الأسطول تحت قائدهم ويدعى سليم قبودان[٢١] ومساعد رائد من الأسطول أيضاً يسمى أحمد قبودان كان سويدي الأصل لكنه ارتد عن دينه وغير اسمه. وكان الغرض من تعيين أحمد قبودان[٢٢] هو الاهتمام بالجانب العلمي للحملة لأن هدفها هو اكتشاف منابع النيل الأبيض. وصحبهم

---

(٢٠) يقصد الكاتب أنه لم تكن هنالك ثمة تجارب ناجحة على الذهب، ومع ذلك حاز بورياني على البكوية.

(٢١) قاد سليم الحملات المصرية الثلاث عن طريق النهر في سبيل اكتشاف منابع النيل الأبيض، ١٨٣٩ - ٤٢.

(٢٢) كان اسمه بومقارتنر، ومات في الخرطوم لدى عودته من رحلة استكشاف أولى للنيل الأبيض.

في الحملة أيضاً نقيب بحري يدعى فيض الله قبودان[٢٣]، تلقى تعليمه في انجلترا، ولكن كل ما عاد به زهاء سبع سنوات هناك هو الإسراف في شرب الخمر.

وكان الطريق إلى الخرطوم شاقاً يصعب على المراكب تخطي جميع الشلالات ما بين أسوان وبربر، ناهيك عن ذهبيات محمد علي باشا الثلاث التي أرسلها مع الحملة لاستعماله الخاص في الخرطوم. وبعد إقلاع القافلة بقي الباشا في القاهرة لترتيب بعض أمور الدولة فقد كان يستعد في ذلك الحين لشن حرب على السلطان في سوريا[٢٤]. وخلال شهري رجب وشعبان (اكتوبر ونوفمبر ١٨٣٨) كان الباشا يشق طريقه إلى السودان يصحبه توستزا[٢٥]، القنصل العام لموريا، ولامبرت (Lambert)[٢٦]، مهندس ورياضي فرنسي برتبة كولونيل، وليفبڤر، وقايتاني بك[٢٧] (Gaetani) طبيبه الخاص، ورستم بك،

(٢٣) لا أجد سبيلاً لتمييز هذا الرجل في (البعثة العلمية) لعمر طوسون، الاسكندرية، ١٩٣٤. وقد يكون أحمد فايد الذي جاء ذكره في كتاب ج. هيوبرث ـ ديون (مقدمة لتاريخ التربية في مصر الحديثة، ١٩٣٨، ص ١٧١)، وكان في الأصل من اسطمبول ويحمل رتبة مساعد نقيب بحري.

(٢٤) لم تبدأ الحرب مع السلطان العثماني إلا بعد عبور الأتراك الفرات عام ١٨٣٩، بعد شهر واحد من عودة محمد علي من السودان.

(٢٥) قبل مغادرته الاسكندرية لصحبة محمد علي إلى السودان، كتب توستزا إلى حكومته أن محمد علي ينوي إصدار عملات معدنية تحمل اسمه على جانب واسم فازوغلي على الجانب الآخر. وذلك بمجرد شحن الذهب المستخرج من فازوغلي، «لأن تلك البلاد لم تكن تابعة للسلطان» وهي عبارة خاضعة للنقاش (Tossitza to the Foreign minister, Athens from Alexandria, 4 - 16 August 1838, in A.G. Politis, Le conflit turco - egyptien de 1838 - 1841, Le Caire, 1931, P. 42).

(٢٦) شارل لامبرت بك (١٨٠٤ ـ ٦٤)، أعظم رجال مستعمرة سانت سايمون في مصر محمد علي. ومن ضمن أوراقه في مكتبة الأرسنال، باريس، ـ قسم «Fonds Enfantin» خطابات كتبها خلال جولته في السودان، نشر بعضها أوريانت. ومثل أغلب الفرنسيين الذين خدموا في السودان المصري فإنه قد تخرج من معهد المكول في باريس. وهناك تمثال نصفي له من البرونز في مكتبة الأرسنال، يبدو فيه بلحيته وطربوشه، ونقشت على قاعدته العبارات التالية:

«A (Sic) Chacun Selon sa Capacite»

«A Chacum Selon ses Oeuvres»

(٢٧) خريج كلية الطب في بيزا. ذهب إلى مصر عام ١٨٢٥، وعمل أستاذاً في علم التشريح بمدرسة كلوت بك الطبية في أبي زعبل، ثم عين عضواً في المجلس العام للصحة وطبيباً خاصاً لمحمد علي. ولقد أشاد به كلوت (تقرير عن الطاعون في مصر، ١٨٤٠، ص ٢٠ ـ ٢١) لكنه تضايق منه فيما بعد لجنوحه للتآمر (من كلوت إلى لامبرت بك، ٦ يوليو ١٨٤٤، وثائق عابدين، التصنيف الحديث، عصر محمد علي، الصندوق (١٥)، ١٨٤٦ ـ ٤٩).

ويعقوب بك وكلاهما سكرتير[٢٨]، ثم خسرو أفندي[٢٩]، واستيفان أفندي[٣٠] المترجمين، أما البقية فلفيف صغير من الموظفين والخدم. واتجهت القافلة عن طريق دنقلا جنوباً، وكان محمد علي يحمل معه خمسة آلاف كيس.

تسلم أحمد باشا اخطاراً بالاستعداد لمصاحبة القوة والآلات لموقع المنجم في فازوغلي، ووضع حامية قوية هناك، فأمر مجموعات من الفرسان للتحرك إلى ود مدني. ثم شرع في إرسال المدافع والذخيرة والإمدادات والجمال لنقلها إلى ود مدني. وحوالي نهاية شعبان (منتصف نوفمبر ١٨٣٨) ذهب أحمد باشا بنفسه للوقوف على الاستعدادات والإسراع بها، وأخطر قائد الكتيبة الخامسة المرابطة في الخرطوم للانضمام إليه بجنوده. غير أن ذلك الضابط حين علم بقدوم محمد علي باشا إلى الخرطوم بدأ يتلكأ ويماطل في التحرك بمختلف الأسباب لكسب الوقت حتى وصول الباشا لينال منه حظوة نتيجة ذكائه. ولكن الأقدار كانت ترتب له أمراً آخر عقاباً على تصرفه الخاطىء.

كان أحمد باشا قد وضع في السجن ضابطاً برتبة رائد في الكتيبة نفسها يدعى علي آغا لاتهامات باطلة ساقها إليه قائد الكتيبة هذا. فقد اتهمه بتحويل مؤن خاصة بجنود الكتيبة لمنفعته، والتزوير في تقدير المرتبات وأمتعة الموتى من الجنود. وتمادى في إدانته ظلماً باستدعاء شهود زور ضده ومنع علي آغا من الدفاع عن نفسه. والسر في ذلك كله هو أن قائد الكتيبة حسن أفندي المشهور بـ «زوك» كان تركياً[٣١] كأحمد باشا وصديقاً له، فضلاً عن عداوة قديمة جمعت بين قائد الكتيبة وعلي آغا منذ أن كانا مملوكين سوياً. وفجأة أرسل أحمد باشا تعليمات من ود مدني لإطلاق سراح علي آغا خوفاً من أن يشكوه إلى محمد علي باشا لما وقع عليه من ظلم وتجن.

---

(٢٨) السكرتيرون والمرافقون العسكريون.

(٢٩) خسرو أفندي (بك فيما بعد) سيكياس الأرمني (توفي ١٨٧٣) شقيق أرتين سيكياس الذي جاء ذكره على صفحة ١٧٧. تلقى تعليمه في أوروبا على نفقة محمد علي، وعاد إلى مصر عام ١٨٣١. وكان السكرتير الثاني (ثم الأول) لمحمد علي، وعمل مع إبراهيم وعباس الأول بعد ذلك، ثم توفي بعد تقاعده (البعثة، عمر طوسون، ص ٣٩).

(٣٠) استيفان أفندي الأرمني (توفي ١٨٥٩)، وهو أرمني آخر تعلم على حساب الحكومة في أوروبا، وعاد منها مع خسرو أفندي عام ١٨٣١. وعمل لبعض الوقت مديراً للمدرسة المصرية في باريس، ثم مديراً لمكتب الديون الخارجية عام ١٨٥٠. تقاعد عن الخدمة عام ١٨٥٧.

(٣١) قد تكون «زوك» محاولة من الكاتب لتصغير الكلمة التركية (Cik)، أي (Hasancik)، حسن الصغير، وقد تكون مقابلة للكلمة التركية (Zevk) وتعني الذي يختال في مشيته.

وبعد أيام من وصول الحكمدار، أو قائد السودان، إلى ود مدني، بدأ وصول طاقم العاملين بالمنجم ومن بينهم المدير خير الدين بك، وبوريـاني وبقية المستخـدمين الأوروبيين وذلك في السادس من رمضان (٢٣ نوفمبر ١٨٣٨).

وفي نفس اليوم علم نائب الحكمدار بوصول محمد علي صحراء بيوضة، وتوقع نزوله إلى النيل قرب الرويان ذلك المساء أو اليوم التالي على أكثر تقدير. لذلك رؤي الإسراع بإرسال مراكب إلى هناك تحسباً لمجيئه عن طريق النيل، فتم على الفور إعداد أحسن ذهبيتين. وكان خير الدين بك على رأس المستقبلين حيث استقل احـد المركبين، وبدأ الرحلة قبل منتصف النهار بقليل، ووصل إلى هناك، لحسن الحظ، قبل منتصف الليل في نفس اللحظة التي وصل فيها ركب الباشا. نزل محمد علي من ناقته وتوجه مسرعاً إلى المركب تحف به حاشيته، وأمر بالتحرك دون إبطاء. ولكن سوء أحوال الرياح حال دون وصولهم إلى الخرطوم إلا في الثامن من رمضان (٢٥ نوفمبر ١٨٣٨).

وتجمهر الناس من جميع الأنحاء والأرجاء على ضفتي النيل في الطريق من الرويان إلى الخرطوم. وتابعوا المراكب وهم يصيحون بأعلى الأصوات يتوسلون إلى الباشا، كل بطريقته الخاصة، لرفع ضيم معين عنهم. أما الباشا فلم يخرج من كابينته حتى أدرك الخرطوم، فنزل في قصر الحاكم العام الذي أعد خصيصاً للمناسبة. وكان منشرحاً غاية الانشراح أمام من يدخلون عليه لزيارته حيث تحدث معهم عن المناجم حديثاً ينم عن اعتقاده بأنها أغنى مناجم العالم ذهباً. ويعقب زائروه بدورهم على هذا الحديث، طلباً لكسب رضائه، بما يؤجج تفاؤله فتستبد به الأفكار عن الذهب المزعوم أكثر فأكثر.

ـند وصول محمد علي باشا، عزم علي آغا على مقابلة يعقوب بك الذي كان يصحب الباشا ليروي له ما ظل يعانيه من مؤامرات القائد حسن أفندي وطغيان أحمد باشا الذي فاق الحدود. وكان يعلم أن يعقوب بك سوف يقف بجانبه لصداقة تولدت بينهما منذ زمن، فقد كانا من نفس المنطقة ومملوكين في فترة واحدة. وبدأ يعقوب بك يشعر القائد بأهميته ضمن محاولاته لحماية صديقه علي آغا، ثم أوعز للباشا أن يعتقد بتفاهة حسن أفندي وروحه التآمرية. زاد الأمر سوء مخالفة حسن أفندي لأوامر أحمد باشا حين طلب منه اللحاق به في ود مدني، فبقي في الخرطوم للتمتع بحريمه. ولما ترامت هذه الواقعة الى مسامع محمد علي باشا، استدعى حسن أفندي ذات مساء ووبخه، ثم أمره بالتوجه إلى ود مدني مع جنوده فوراً وأصدر التعليمات بأن يقوم يعقوب بك بجلده خمسمائة جلدة. واقتيد الرجل إلى مقر يعقوب بك، ونفذت فيه عقوبة الجلد، مائتان وخمسون

سوطاً في أسفل القدم والنصف الباقي على أصابع يديه في حضور البك. وبعد تنفيذ الحكم، حمل القائد على يد رجلين من الأرض كالميت، ولم يستطع الوقوف على قدميه من تأثير الضرب المبرح. ثم يشاء حظه العاثر أن تكون الجمال لنقله وجنوده في مرعى بعيد، فتأجل رحيله إلى اليوم التالي. ولما علم يعقوب بذلك أسرع إلى الباشا يقول له ان حسن أفندي لم يرتدع بالعقوبة بدليل أنه لم يتحرك بعد إلى ود مدني، فهو إذن يعصي أوامر الباشا. وجيء به للمرة الثانية ليعاقب بالجلد، وهدده الباشا بإلقائه في النيل إذا تقاعس مرة أخرى عن تنفيد التعليمات. حينئذ شعر حسن أفندي، وقد عذب مرتين، أنه ليس مهيأ لمحنة ثالثة فركب حماراً وأخذ طريقه مباشرة إلى المعسكر، مسنوداً من الجانبين باثنين من خدمه. وفي المعسكر أبقى بعض الضباط والجنود لانتظار وصول الجمال لينقلوا عليها الامتعة والعتاد، ثم انطلق بقواته على أن يلحق به الباقون في الكاملين.

هكذا أخذ علي آغا جانباً من ثأره، لكنه لم ينل من أحمد باشا لأنه استطاع كسب ثقة الباشا لدرجة ما وجد معها يعقوب بك طريقة للثأر لصديقه، إلا أنه استصدر أمراً من محمد علي باسترداد جميع ممتلكات علي آغا المصادرة. على أن أحمد باشا صعَّد قضية علي آغا بعد مغادرة محمد علي باشا حيث حكم عليه بثلاث سنوات سجناً مع العمل في التجديف على السفن الشراعية في ميناء الاسكندرية. ولكنه كان على موعد مع الحظ بعد وصول محمد علي بقليل حيث أطلق الباشا سراحه ومن كانوا معه، وذلك في مناسبة تنصيب عبد الحميد على عرش القسطنطينية.

محمد علي في طريقه إلى المناجم:

بعد أيام قلائل من وصول الباشا الكبير الخرطوم، حضر الحكمدار من ود مدني. وكان هذا اللص يعلم أحلام سيده وجنونه بالذهب دون غيره. فأدخل في روعه أن الذهب موجود في كل ذرة من تراب فازوغلي. وتدعيماً لهذا الزعم جمع أمام جنابه بعض تجار المنطقة، ومن بينهم تاجر يدعى ود شندي كان قد لقن كيف يجيب على أسئلة الباشا.

وروى ود شندي أمام الباشا أنه كان يسافر مرة بمنطقة فازوغلي في فصل الخريف، فهطلت أمطار غزيرة أرغمته على السير حافي القدمين حتى المساء عندما وجد كوخاً لأحد الأهالي. وهنا طلب من أهل الدار وعاء كبيراً به ماء ليغسل قدميه من الطين. وحين فرغ من الغسيل وجد قيراطين، أي ثماني ذرات من الذهب في قعر الوعاء. وعندما انتهى

ود شندي، أضاف أحمد باشا أن هنالك منجماً للفضة أيضاً بالقرب من سنار[٣٢]. وذهب ليفبڤر إلى هناك لفحص الموقع، لكنه لم يجد أثراً للفضة. وفي السابع والعشرين من رمضان (١٤ ديسمبر ١٨٣٨)، وصلت المراكب وتوجه الباشا إلى الروصيرص بعد أن أرسل الأمتعة والعاملين المختصين إلى فازوغلي.

وأرسل محمد علي فرنسياً يدعى تيبو[٣٣] (Thibaut) إلى النيل الأبيض. وكان ثيبوت قد تجول كثيراً داخل السودان ولسنوات عديدة، لاسيما في منطقة الشلك لصيد فرس البحر وبيعه حيـاً للانجليز، رغم أنه لم يصادف نجاحاً في تجارته تلك. وقبل سنتين استطاع أن يصدر زرافاً إلى لندن. وفي غرور عرف به الفرنسيون، وعد هذا الرجل الباشا بإقناع الملك عبد الرحمن ملك الشلك بالحضور لمقابلته. وكان مقر الملك عبد الرحمن في ديناب عاصمة مملكته. وخاب ظن الفرنسي فقد استقبله ملك الشلك بكثير من الشك والريبة ورفض الذهاب معه.

أودع الباشا المبلغ الذي كان يحمله ومقداره خمسة آلاف كيس الخزينـة في الخرطوم. وعند بلوغه الروصيرص وجد الجيش بانتظاره لأن أحمد باشا كان هناك قبل عودته إلى الخرطوم. وقد بلغ العدد الكلي للرجال سبعة آلاف رجل. وبعد أن مكث على الشاطىء لمدة يومين، أمر الباشا برفع المعسكر واستئناف الزحف بقواته. وفي الطريق اخضعوا تابي، كما نوهت من قبل، ودخلوا أخيراً بالمكان الذي طالما تمنوا الوصول إليه. فأجروا الاستعدادات اللازمة ثم شـرعوا في الاختبارات، ومعهم الباشا نفسه، رغم كبر سنه، فقد حمل إناء كبيراً بين يديه وشارك أفراد الطاقم في عملية غسل الرمال في قاع مجرى السيول.

ولكن هيهات، فلم تكن محاولاتهم سوى قبض الريح، لأنهم لم يستخرجوا سوى أربع وثلاثين ذرة من الذهب بعد تصفية حوالي ستة وتسعين قنطاراً[٣٤] من الرمال. وحاولوا جمع الرمال من أماكن متفرقة ومتباعدة، ولكن النتيجة كانت واحدة. حينئذ نفذ

---

(٣٢) ربما في جبل شندي على بعد ثلاثين ميلاً غربي مدينة سنار.

(٣٣) جورج ثيبوت (١٧٩٥ ـ ١٨٦٩)، خدم في الجيش مدرباً، وكان قد أتى إلى السودان أول مرة ليعمل كاتباً لدى ج. ف. فايسيري عام ١٨٢٦. ثم انخرط مؤخراً في التجارة وجمع مادة ضخمة لحدائق الحيوان في أوروبا.

(٣٤) القنطار المصري زنة مائة رطل انجليزي تقريباً.

صبر محمد علي واشتاط غضباً، فقد كان ضحية تضليل بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة[٣٥]. وكان سوء الطقس قد أصاب الباشا وصحبه بحمى انهكت أجسادهم. لذلك، وخوفاً من كوارث أكبر، عاد محمد علي إلى الخرطوم بعد غياب نيف وشهرين، لم يستفد خلالها شيئاً، بل على العكس تماماً فقد خسر وأصحابه صحتهم نتيجة للمرض ومشاق السفر.

الباشا ووعده للأوروبيين:

قصد الأوروبيون العاملون في السودان محمد علي أثناء زيارته للبلاد على سبيل المجاملة. وفي معرض حديثه معهم عبر عن تعاطفه معهم لتحملهم طقس السودان القاسي والذي عاشه هو شخصياً عن كثب خلال زيارته القصيرة. وفي نهاية المقابلة وعدهم بالتعويض فور عودته إلى القاهرة وذلك بتوجيه وزارة الشؤون الحربية بترقية كل منهم درجة أعلى من رتبته الحالية. ولكنه لم يوف بوعده هذا.

احتكار النيلة:

كان هنالك تاجر فرنسي يسمى فايسيري[٣٦] (Vaissiere) أقام مدة طويلة في السودان. طلب هذا التاجر من محمد علي أن يأذن له بصناعة النيلة في السودان. وكان في وسع الباشا مساعدته في الحصول على الأراضي والمعدات اللازمة لاستخراج الصبغة من المصانع المتوقفة عن الانتاج. وعلى القارىء أن يعلم أن صناعة النيلة كانت حكراً حكومياً حيث أقامت عدة مصانع ما بين دنقلا وبربر. وأذعن المزارعون على زراعتها مكرهين في سواقيهم لأنها تحتاج إلى ماء كثير، فيعانون في ريّها حتى تثمر. ومن النتائج السلبية الأخرى لزراعة النيلة أن المزارعين فقدوا عدداً من ثيرانهم التي أرهقها دوران السواقي المستمر إلى جانب حرمانهم من زراعة الحبوب فأصيبوا بأضرار جسيمة.

---

(٣٥) ذكر شارل لامبرت أن حماس الباشا لذهب فازوغلي اكتنفه الفتور حين اكتشف أن الحصول عليه يتطلب جهداً كبيراً ومضنياً في غسله، حبة بعد حبة من الرمال المستعصية (Letters inedites de Charles Lambert, Arcopole, pp. 18, 59).

(٣٦) ويضيف الكاتب هنا: «لا بد أن أبحث في هذا». أما التاجر المعني هنا فهو جوزيف ـ ماري ـ فرانسوا فايسيري (١٧٨٦ ـ ١٨٤١)، الذي لا ينبغي خلط اسمه مع جاك بسيرز الذي يظهر في الجزء الثاني من هذا الكتاب، أو مع جين الكساندر فايسيري (١٨١٧ ـ ١٨٦١)، وثلاثتهم كانوا تجاراً في السودان.

وأثناء مرور محمد علي باشا بدنقلا في طريقه إلى الخرطوم، تقاطرت عليه جموع المزارعين ورفعوا إليه العرائض لكي يعفيهم من زراعة النيلة. واستشار الباشا حاكم الاقليم الذي أكد عدم جدوى هذه الزراعة وشرح له المعاناة التي يلاقيها المزارعون بسببها. وكان الباشا يعلم أن مصانع الصبغة لم تحقق ربحاً منذ إنشائها، فقرر وضع حد لزراعة أشجار النيلة. وأنهى الباشا في نفس الوقت احتكار الحكومة وجعل الباب مفتوحاً لمن يشاء لزراعة النيلة والمتاجرة فيها مهما بلغت أرباحه.

وافق فايسيري على جميع الشروط والمواصفات الموضوعة، وأمر محمد علي بوضع الأوعية وكافة مستلزمات الانتاج تحت تصرفه بما فيها العاملون والأراضي الزراعية. على أن حضور أحمد باشا بعد مغادرة محمد علي باشا مباشرة تسبب في انهيار المشروع. وأشاع فايسيري أنه عند مراجعة الحسابات مع رئيس عماله اتضح له أن الأرباح لم تكن كما توقع، ولكن الحقيقة هي أن أحمد باشا نفسه كان يطمع في الحصول على الامتياز بدلاً من الفرنسي. ولما كان فايسيري حريصاً على صداقة الحكمدار ويتحاشى غضبه عليه خوفاً على مصالحه، فقد رضخ إلى رغبته وتخلى عن المشروع. ولم يشأ التاجر الفرنسي بعد ذلك أن يثير الشكوك حول هذا السبب الحقيقي الذي أدى إلى إفلات الفرصة منه.

عودة محمد علي باشا إلى مصر:

بعد وصول الباشا من فازوغلي بثلاثة أيام، توفى عامل القهوة الخاص به متأثراً بمرض أصابه من قبل. وعندما أبلغ محمد علي النبأ ظل متكدر المزاج طوال اليوم لسببين، الأول أنه كان يستلطفه، أما الثاني فإنه لم يكن قد عوفي تماماً من حمى أصابته في فازوغلي. وفي المساء استدعى قائد الذهبية وأمره بالاستعداد للإقلاع عند الفجر، ولكنه غير فكرته أثناء الليل وأجل السفر ليوم آخر. وتشاء الأقدار أن يصاب قائد المركب نفسه تلك الليلة بنزيف في الدماغ، فتوفى هو أيضاً رغم محاولات إسعافه.

هنا بلغ الهلع بالباشا غايته، فأمر بشحن المركب وأسرع إليها نافذاً بجلده من أرض، كما وصفها، ليس فيها غير رائحة الموت! ولكن يبدو أنه كان على موعد مع قدر كبير من الكدر وتعكير المزاج ذلك الصباح. فقد هبت رياح عاتية على المدينة من الشمال، فتسمرت المراكب على الشاطىء بسبب الأمواج. وبالرغم من الجهد الذي بذله طاقم المركب إلا أنهم لم يتمكنوا من دفعها بعيداً عن الشاطىء إلا بعد مضي ساعتين كاملتين. غير أن التقدم عكس الرياح أصبح مستحيلاً، فاضطروا إلى البقاء في جزيرة

توتي حتى حلول الظلام حين هدأت الرياح فاستأنفوا الرحلة إلى بربر. وفي اليوم التالي لحقت به حاشيته ومعهم صراف الخرطوم وهو يحمل معه الخمسة آلاف كيس، لأن الباشا وقد حز في نفسه عودته بدون ذهب، قرر ألا يترك خلفه قطعة نقود واحدة من المبالغ التي جاء بها إلى السودان.

غادر محمد علي الخرطوم في السادس من ذي الحجة ١٢٥٤ هـ (٢٠ فبراير ١٨٣٩) ووصل بربر سالماً في الحادي عشر من نفس الشهر. مكث فيها ثلاثة أيام في انتظار رجاله، وبعدها واصل سيره عبر الصحراء إلى القاهرة. أما ذهبياته، فقد أرسلت إحداها لتستخدم في حملة لاكتشاف منابع النيل الأبيض، بينما شقت الأخريان طريقهما إلى مصر عبر الشلالات. ويحكى أن الباشا قد أجرى اختبارات على الرمال التي تحتوي على الذهب كما ادعى بورياني عندما جاء بها إليه داخل زجاجة كما أسلفت. وقيل أيضاً ان عربياً يدعى أحمد أفندي[٣٧] درس في فرنسا اكتشف أن الذهب قد استخرج من خيرية (عملة مصرية تعادل تسعة قروش)، فانطلت حيلة بورياني على الباشا. وكان محمد علي محقا حين ثار على هذا الدجال، وربما كان ذلك سبباً لطرده له مهاناً كما سوف أفصل فيما بعد[٣٨].

وحوالي أواخر ذي الحجة (مارس ١٨٣٩)، وبعد مغادرة محمد علي باسا بقليل وصل أحمد باشا بجيشه وترك قوة من أربعمائة رجل في فازوغلي لحراسة المستوطن الذي تم إنشاؤه هناك. وكان قوامَ تلك القوة مائتان من مشاة الفرقتين الأولى والثانية ومائتان من الفرسان غير النظاميين، ومدفعان من مدافع الميدان، يقودها جميعاً عمر أفندي قائد الكتيبة الرابعة للفرقة الثامنة.

تمرد الشايقية:

بدأ أحمد باشا في إعادة تنظيم الإدارة على طريقته الخاصة منذ أن وطئت أقدامه أرض السودان. وكان أول أمر يصدره في هذا الصدد يقضي بأن يقوم كل من يملك أرضاً

---

(٣٧) ولد أحمد أفندي يوسف في القاهرة، وبعث إلى فرنسا لدراسة الكيمياء. وعند عودته عين في دار القاهرة لسك النقود، وصار في النهاية مديراً لها. وصحب س. لامبرت إلى السودان عام ١٨٣٨ حيث عمل خبيراً للمعادن في فازوغلي.

(٣٨) يبدو أن الكاتب قد نسي الإشارة إلى القصة مرة أخرى كما وعد.

على النيل بتنظيفها وزراعتها وتوفير المعدات لريها. وأعطى إنذاراً بذلك يسري مفعوله لمدة عام، وبعدها يحق لأي شخص الاستيلاء على المساحات المهملة وتركيب معدات الري عليها، فتؤول ملكية الأرض لصاحبها الجديد ويفقد المالك الأصلي وورثته حق المطالبة بها نهائياً. ولكي يشجع الناس على تلك الممارسة، وعد بأن يعفي جميع الأراضي البور التي يتم استصلاحها من الضرائب لثلاثة أعوام على التوالي، ليفرض عليها الجدعة بعد ذلك كما نوهت من قبل.

في المناطق التي تقع خارج العاصمة مثل المتمة وشندي توجد مساحات شاسعة من الأراضي يقوم بالزراعة فيها الشايقية الذين يسكنون في قرى شيدوها لأنفسهم. ولا تفرض الحكومة ضرائب على هؤلاء المزارعين من الشايقية لأنهم يعملون فرساناً في الجيش كما ذكرت سابقاً(٣٩). كذلك توفر لهم الحكومة حصة شهرية من الذرة علفاً لخيولهم. ولقد حصل الشايقية على هذه الأراضي المنخفضة المهجورة في عهد خورشيد باشا واشترطوا عدم دفع الضرائب عند زراعتها. ونص الاتفاق أيضاً على منحهم العلف مقابل أتعابهم على أن يستمروا في زراعة الأراضي دون توقف.

ورأى خورشيد باشا أنه من المصلحة النزول عند رغبة الشايقية لأن الأراضي لم تكن خاضعة للبيع، علاوة على أن منحها للشايقية يوفر للحكومة نحو عشرة آلاف أردب من الذرة. وقد بذل هؤلاء القوم جهداً كبيراً في نظافة المكان من الغابات الكثيفة وأحالوا البقعة المهجورة الموحشة أرضاً زراعية منتجة آهلة بالسكان.

وعندما جاء أحمد باشا إلى الحكم، طالبهم بدفع الضرائب مثل سائر المزارعين، فتصدى له زعماء المجموعات المختلفة من الشايقية وأصروا على التمسك بالحقوق التي تم الاتفاق عليها مع خورشيد. غير أن أحمد، بما عرف عنه من صلابة في الرأي، لم يشأ أن يسمع شيئاً عن الحقوق. وما لبث ملوك الشايقية وزعماؤها أن اجتمعوا بقيادة الملك كمبال وذهبوا إلى أحمد باشا عارضين عليه الوثيقة التي تسلموها من سلفه باعتبارها مستنداً يثبت حقهم في الإفادة من الأرض.

على أن ذلك كله ما زاد أحمد إلا تشدداً على موقفه وتمسكاً برأيه، فأصر على

(٣٩) استولى الشايقية على أراض بين الخرطوم وشندي بعد أن طرد منها العبدلات والقبائل الأخرى في أعقاب انتفاضة السودانيين عام ١٨٢٢ ـ ٢٥. وكان احتلالهم هذا ضرباً من الحيازة العسكرية لأنهم كانوا يعملون فرساناً في الجيش التركي.

دفعهم للضريبة ابتداء من تاريخ تسلمهم للأراضي موضحاً لهم عدم استعداده لأي أخذ ورد. وهنا وعد زعماء الشايقية بالتخلي عن الأرض مع الوفاء بما عليهم من متأخرات الضرائب منذ أن تسلموها، ولكنهم طالبوا أحمد بالتنازل عن موقفه ومنحهم علفاً من الذرة لخيولهم بأثر رجعي منذ منعه عنهم.

وانتفض أحمد باشا واقفاً بعد هذا الحديث وقال في عبارات لا تقبل التأويل بأن قراره نهائي، وأنه يجب أن يطاع. وأضاف بأن عليهم أن يبقوا في أراضيهم لا يبارحونها، وعليهم أن يدفعوا الضرائب، ولا شيء غير الأنصياع للأوامر. ومضى في قوله ان الحكومة غير ملزمة بتوفير الذرة للخيول لأنهم يستطيعون زراعتها بأنفسهم إن شاءوا، وهددهم بالسجن إن لم يستجيبوا لتعلمياته. على أن أحمد، مع ذلك، كان يعلم أن القوم يخالفون أوامره ويضمرون شيئاً. وأمام تشدد أحمد باشا، نهض الزعماء في استياء وعادوا إلى أراضيهم.

الملك حمد يتحدى الحكومة:

أغضب قرار أحمد باشا أحد زعماء الشايقية، وهو الملك حمد الذي صمم على الانتقام إذا فرضه عليهم بالقوة. وقام حمد على رأس مائتين من الفرسان بتخريب الزرع كله، وأمر رجاله بحمل متاعهم ونسائهم وأطفالهم على الخيول. وانطلقوا جميعاً، وهم مسلحون أحسن تسليح، من شندي سالكين الطريق بين نهر عطبرة والنيل الأزرق في اتجاه الحبشة. وبعد يومين ونصف انتهت القافلة إلى إحدى قبائل عرب أبي سن[٤٠] حيث ارتاحوا لمدة يوم، ونزلوا عند شيوخ هؤلاء العرب جميعاً، وهو الشيخ أحمد أبو سن. وتحدث أبو سن مع الملك حمد، قائد القوة، وأقنعه بالتوقف عند ذلك الحد، ووعده بمساعدته ان لحق به أحمد باشا فهو أيضاً مستاء من دكتاتوريته. وانشغل حمد في جمع شتات رجاله من قبيلة الشايقية، ولم يتخذ ترتيبات للدفاع عن نفسه ضد الطوارىء لأنه وثق بأحمد أبي سن. وعندما بلغت قوته نحو ستمائة رجل استعد لصدّ أي هجوم عليه في روح معنوية عالية. وقد زاد من ثقته أمله في عون من أفراد قبيلة أبي سن الكثر.

على أن أبا سن كان يضمر أمراً مختلفاً عما أوهم به حمد، فقد خدع الملك ليسلمه إلى أحمد باشا جرياً وراء ود الباشا واحترامه. وكتب أحمد أبو سن للحكمدار يخطره بأن الملك حمد يعسكر مطمئناً في مكان قريب.

---

(٤٠) يقصد الشكرية.

وبمجرد أن بارح حمد شندي، أرسل أحمد باشا أوامره إلى كل مكان لتحري وجهته. ولدى وصول الأخبار من أبي سن، أمر الكتيبة الأولى للتوجه فوراً من الخرطوم عن طريق النيل إلى شندي ومعها مدفع ميدان. ووجه مأمور بربر أيضاً بالتحرك في الحال بصحبة مائتين من الفرسان المغاربة. وبعد مضي يومين، ترك أحمد باشا نفسه الخرطوم، ولكنه قبل الوصول إلى شندي، أصدر التعليمات للملك كمبال[41] لحشد أربعمائة من رجال قبيلته الشايقية والانضمام إليه. وسار أحمد باشا بالكتيبة والمغاربة الذين أتوا مع بربر ومائتين من فرسان قوات عابدين آغا التي كانت ترابط هناك[42]. سمع حمد الأنباء عن وصول أحمد باشا وقواته إلى شندي فانزعج! ولكنه سرعان ما خلد إلى السكينة حين أكد له الشيخ أحمد عدم وجود أي خطر عليه. وبعد ساعات ذهب أحمد أبو سن إلى الملك حمد وأخبره بأن أحمد باشا غادر بربر على رأس قوة من الجيش لردع البشاريين الذين هددوا بقفل طريق سواكن. ولم يكن ما ذكره أحمد مجافياً للحقيقة تماماً لأن البشاريين قاموا بالفعل بنهب قافلة في طريقها من سواكن إلى بربر، أما بقية القصة فكانت محض خيال لأن الباشا لم يكن ليجرؤ على المغامرة بقيادة جيش إلى مجاهل تلك الصحراء حيث لا ماء ولا حياة، وفي ذلك الفصل الجاف من العام، ليعرض نفسه وجيشه للتهلكة.

قضى الباشا الليل في منطقة قريبة من معسكر الملك حمد، وهجم عليه في الصباح الباكر. وبوغت حمد ورجاله بالهجوم وفروا صوب الصحراء. وأسر أحمد معظم النساء والأطفال، بما فيهم عائلة الملك حمد حيث لم يكن هنالك متسع من الوقت أمامهم للهروب، فكان سيد يومه كما يقولون. وغنم أحمد عدداً كبيراً من الجمال والخيول وجميع الأمتعة التي تركها الشايقية خلفهم.

عرف الملك حمد بقوة العزيمة فلم تدفعه مكيدة الشيخ أحمد إلى اليأس، مع أن ما تبقى له من الخيل لم يكن يتعدى المائة. وبرغم الكمين الذي نصبه له أبو سن، إلا أنه لم يكن في وضع يسمح له بالدخول معه في حرب. ثم كتب حمد إلى أحمد باشا يذكره

---

(٤١) كمبال بن شاوس (كما جاء في تقارير كثير من الرحالة الأوروبيين) ـ ولكن الاسم الصحيح هو شاويش بإجماع الشايقية الذين استجوبهم المترجم. ويحتمل أن يكون الاسمان قد تفرعا من (Cavus) التركية وهي رتبة في الجيش قبل إعادة تشكيله. وكان كمبال أحد أبناء عائلة الملوك الذين قاوموا إسماعيل باشا في زحفه إلى سنار عام ١٨٢٠ ـ ٢١.

(٤٢) عابدين آغا، أرنؤوطي منتفخ كبرياء (ف. ويرن، جولات أفريقية الجزء الأول، ص ٤٨).

بحسن معاملة الأسرى من النساء والأطفال بصفته حكمداراً.

ومع أن عدداً كبيراً من رجاله فقدوا أسلحتهم النارية في الهجوم، فقد صمم حمد على القيام بهجوم مضاد بما تبقى من رجال مسلحين وعددهم مائتان بمساندة مائة رجل مسلحين بالحراب. وبينما كان مجموع جنوده ثلاثمائة جندي، إلا أن مائة فقط كانوا على ظهور الخيول، أما الباقون فقد ساروا على الأقدام. وتقدمت القوة إلى شندي عن طريق درب مهجور، ووصلت هناك بعد منتصف الليل بقليل. ومكث رجال حمد في مكان بعيد حتى قبل الفجر بساعتين، ثم تدافعوا نحو معسكر أحمد بعنف وهم يصيحون في صخب أشاع الذعر في كل مكان. وفي غياهب الظلام لا فرق بين العدو والصديق، وشلت قدرة الجيش النظامي في المناورة أثناء ساعات الفوضى تلك، وسقط كثيرون من بينهم الأتراك والمغاربة في جوف النيل.

ولم يدع حمد الفرصة تفلت من يديه، فاستولى في لحظة الانتصار على بعض الخيول والجمال والأسلحة النارية سلمها جميعاً لرجاله وأمرهم بالتقدم أمامه، وسار هو خلف القافلة مع بقية رجاله المسلحين، وكانوا لحظتها على صهوات الخيول، ليحمي قواته من أي هجوم مضاد من الخلف.

وصار أحمد باشا في حيرة من أمره، إذ من أين لحمد القوة والشجاعة لشن تلك الغارة التي كبدته الخسائر وجلبت عليه العار؟ وبدأ يشك مخطئاً في مؤامرة بين حمد والملك كمبال، وقرر على الفور قتل كمبال في ذلك اليوم. ثم أمر بفض المعسكر وتعقب الثوار على أن يصحبهم الشيخ كمبال ورجاله أيضاً. وقبل منتصف النهار كانت القوة بأكملها تسرع الخطى في أعقاب الثوار.

وعند حلول الظلام بقليل أبصروا الثوار من بعيد، فأصدر الباشا تعليماته بتقدم الفرسان نحوهم بسرعة بغرض مناوشتهم حتى تلحق بهم بقية القوات. وفي نفس الوقت أمر كمبال أن ينفصل عن القوة لضرب العدو من الأطراف. وأدرك حمد ألاَّ مناص من المعركة، فاستدار ليواجه العدو بغية عرقلة تقدمه، إن أمكن، حتى يمكِّن رجاله الذين يحملون السلاح والذخيرة على الجمال من التقدم، وحتى تستطيع الخيول التي استولى عليها ليلاً الإفلات من قبضة العدو.

غير أن قوات الباشا لحقت به مع ذلك، ونشبت المعركة، وواجه حمد العدو في شجاعة ورد على أعقابه كلما اقترب منه مهاجماً. وفي نهاية الأمر اقتنع حمد باستحالة

صموده أمام القوة الضخمة بفئته القليلة فاضطر إلى وقف القتال. ومن حسن الطالع أن الحدود كانت قريبة عند انهيار مقاومتهم، فاغتنموا فرصة توجيه الباشا لكمبال بعدم متابعتهم. ولحق حمد برجاله المتقدمين أمامه، واستراحوا قليلاً، واقسموا الغنائم، ثم توجهوا جميعاً صوب نهر عطبرة.

مقتل الملك كمبال:

منع أحمد باشا كمبال ورجاله من تعقب حمد خوفاً من انضمامه إلى قوات حمد، فقد كان القوم من قبيلة واحدة بل إنهم كانوا جميعاً أقرباء. ومضى أحمد في تنفيذ خطته للتخلص من كمبال فأمر جندياً مغربياً يجيد الرماية بالاختباء في مكان لاطلاق النار عليه. ففعل المغربي ما أراد من خلف شجر كثيف كان يمر من خلاله كمبال فأصاب منه مقتلاً من مسافة قريبة. وقد اخترقت الرصاصة ضلوعه حتى هوى من فوق فرسه وأفلت القاتل من أقرباء كمبال الذين هرعوا إليه فوجدوه يحتضر، ثم توفى بعد ساعتين(٤٣).

لم يكن في وسع أحمد باشا مطاردة الملك حمد بعد هذا الحادث لأنه لم يعد يثق في ولاء رجال كمبال. فأقام معسكراً، وتصنع الأسى والحزن على صديقه، كما وصفه، ثم أمر بدفنه. وفي المساء وجه رجال القائد الراحل البالغ عددهم أربعمائة أن يتفرقوا إلى ذويهم، وبقي هو في موقعه حتى وقت متأخر من اليوم التالي حتى يتأكد من أن الرجال قد قطعوا شوطاً كبيراً في الطريق قبل أن يستأنف السير.

حمد يقترب من الحدود:

كان حمد في سباق مع الزمن، فتقدم في سرعة مذهلة. وعند نهر عطبرة وجد إبل أبي سن كلها ترعى ومعها ابن الشيخ أبي سن. وحاول حمد قتل الابن ليثأر لنفسه من

---

(٤٣) يذكر المؤلف السوداني صاحب (تاريخ ملوك السودان، ص ٣٣) أن كمبال قتل عام ١٢٥٥ هـ (شتاء ١٨٣٩ ـ ٤٠ تقريباً) دون ذكر التفاصيل. أما ويرن فلم يكن في حاجة إلى مثل ذلك الحذر، حيث سجل كل ما دار في المعسكر من ثرثرة إلى حد القول بأنه قد طعن من الخلف، في الغالب على يد مشاة أحمد باشا الذين كانوا يغارون من الشايقية (جولات أفريقية، الجزء الثاني، ص ١٧٧) وقد تولى أحمد باشا تربية بشير، ابن كمبال علي نفقة الحكومة كما كان الحال مع والده كمبال نفسه حين توفي أبوه. وصار بشير، الذي توفي عام ١٩١٩ معاوناً للعرب في كردفان تحت الحكم الثنائي بعد نيله لقب البكوية. ويعتقد ويرن أن حزن أحمد باشا على كمبال كان صادقاً (المصدر السابق، ص ١٧٩).

غدر والده الذي ما ان سمع بفشل الباشا في حربه مع حمد حتى التجأ إلى معسكر أحمد باشا خوفاً من انتقام حمد. ولكن الابن كان ملماً بكل ما حدث، فاختار بعيراً سريعاً عند رؤيته لرجال حمد من بعيد وانطلق في اتجاه أبي حراز. وفشل حمد في اللحاق به ومضى في طريقه إلى العطيش ليعبر منها الحدود الى الحبشة بعد أن سلب أعداداً كبيرة من إبل أبي سن. وكان يتحاشى أثناء سيره المناطق الآهلة بالسكان حتى لا يعترض أحد طريقه فيلحق به أحمد باشا. وأخيراً وصل حمد الحدود بعد مشوار امتد لعدة أيام. وهناك أقام معسكره، وقرر للمرة الأخيرة قبل عبور الحدود إلى الحبشة، أن يجرب حظه بالسلاح.

شيخ الهلالية يشنق خطأ:

تتبع أحمد باشا آثار حمد، ولما فشل في اللحاق به، فقد الأمل نهائياً في النيل منه. وذات يوم بينما كان أحمد باشا والشيخ أبو سن يمران بقرية كبيرة إلى الشمال من أبي حراز، أراد أبو سن الوقيعة بين الباشا وشيخ تلك القرية لضغائن قديمة بينهما.

قال الشيخ ابو سن ان السكان يتداولون حديثاً مفاده أن ذلك الشيخ خرج لاستقبال الملك حمد عند مروره بالقرب من القرية؛ ليس ذلك فحسب ولكنه شوهد أيضاً يتحدث إليه حديثاً طويلاً في الخفاء. وأضاف الشيخ أبو سن أن لشيخ القرية نفوذاً كبيراً في قريته والمناطق المجاورة الأمر الذي مكنه من تحريض الأهالي على الثورة على الحكومة بمجرد ابتعاد الجيش عن المنطقة. وختم الشيخ أحمد حديثه بأن طلب من الباشا اعتقال الشيخ حماية للأمن العام.

ولم يشك أحمد باشا فيما قاله الشيخ أبو سن، فقد كان يعده من أخلص الناس وأكثرهم ولاء حتى خصه بتلك المكانة الرفيعة بين قومه. واعتقل الباشا شيخ القرية استجابة لنصح أبي سن وأرسله مقيداً إلى فرهاد بك في ود مدني بخطاب يبين جريمته، ومعه أمر بمحاكمته بالشنق فوراً. ثم استأنف طريقه خلف الثوار.

تسلم فرهاد السجين والتعليمات بشنقه فاستغرب الأمر لأنه عرف مما تناقله الناس أن حمد تفادى المرور بالمنطقة فاتخذ طريقاً محاذياً لنهر عطبرة وليس النيل الأزرق. غير أنه كان يعلم بوجود عداء قديم بين الرجلين، أبي سن وشيخ القرية. ثم أن فرهاد كان يؤمن بأن الشيخ أبا سن رجل ماكر ومخادع. لهذه الأسباب مجتمعة اقتنع فرهاد ببراءة الشيخ المسكين. ولإتاحة مزيد من الوقت للتحري في هذه القضية حرر فرهاد خطاباً للباشا يفيده بأنه لم يتمكن من محاكمة الشيخ لأن الأمر بمحاكمته قد فقد، فهو وبالتالي لا يعرف

ظروف التهمة، ثم طلب منه أمراً آخر باحتجاز الشيخ. وانتهز هذه الفرصة ليعبر عن رأيه الخاص في القضية مشيراً إلى اعتقاده في براءة الشيخ، وطالب الباشا بمزيد من المعلومات عن القضية.

وأعاد الباشا كتابة الأمر من جديد، وضمنه توجيهاته بأن يشرع فرهاد بك في شنق الشيخ بمجرد استلامه للأمر، وأكد أن جميع جوانب القضية واضحة لا لبس فيها. وشعر فرهاد بإحباط شديد، وعز عليه شنق رجل لا يشك لحظة واحدة في براءته. وإزاء هذا الموقف الصعب، اختار أن يواجه غضب الباشا، فذلك أهون من قتل الرجل ظلماً. وعليه كتب للباشا مجدداً صباح اليوم التالي معتذراً عن عدم تنفيذه للأوامر فقد تسلم مكتوبه داخل المركب وهو يتأهب لرحلة إلى أبي حراز. ومضى في روايته قائلاً انه لدى تسلمه الرسالة، ألقى عليها نظرة ثم وضعها بجانبه على البساط ومد يده لتناول وثيقة أحضرها له الكاتب لختمه. وهنا جاءت نفحة من الهواء ألقتها في النهر. وتوسل إلى الباشا بإعادة كتابة الأمر لأنه لم يتبين محتواه تماماً.

وللمرة الثالثة أرسل أحمد باشا أمر الإعدام لفرهاد مع رسالة عتاب هذه المرة على تأخيره، وحثه على شنق الشيخ فوراً دون إبداء مزيد من مسوغات التأجيل. كانت الرسالة مصدراً لارتباك فرهاد واضطرابه، على أن الأمر لم يعد بيده. ومع ذلك انتظر ليومين آخرين لعل أحمد يثوب إلى رشده. وفي اليوم الثالث فقد الأمل في رسالة من أحمد باشا، وخشي أن تضعف إرادته في تنفيذ أمر الإعدام كلما بقي الرجل على قيد الحياة، فوجه بتنفيذ الحكم فوراً(٤٤). وفي اليوم التالي لشنق الشيخ جاءت الرسالة من الباشا يأمر فيها فرهاد بإطلاق سراحه، إن لم يكن قد أعدم، لأنه استوثق الآن من براءته، ولكن بعد فوات الأوان.

فانظر كيف أزهقت روح إنسان بريء بفعل افتراءات رجل شرير! وتعجب كيف يكون حاكم عام بهذا القدر من الهبل والبلاهة!

العفو عن الملك حمد:

دعنا الآن نعود إلى أحمد باشا في مطاردته للملك حمد. سار الباشا خلف عدوه في

---

(٤٤) هنالك رواية أكثر اقتضاباً لنفس الحدث لكاتب اليوميات على الصفحات ١٩٧ - ٩٨ من هذا الكتاب. (المذكرات).

خطى حثيثة ولكنه، كما أسلفت، لم يمسك به مع أنه لم يكن يبعد عنه كثيراً. فقد نصب حمد معسكره على الحدود بين الساعة الرابعة والنصف والخامسة والنصف مساء، بينما عسكر أحمد باشا بعد مضي ست ساعات من مغيب الشمس على مسيرة أربع ساعات من معسكر حمد.

عندما علم الباشا بوجود حمد على الحدود، أيقن أنه لن يقع في قبضته فتجاذبته مشاعر الغضب والإهانة معاً. ذلك لأنه أثناء تلك الفترة القصيرة التي تولى فيها المسؤولية حكمداراً للسودان، لم يجد بعد سانحة لتحقيق مفخرة يعتز بها في المعارك. وكان يعلم في ذات الوقت مدى الكراهية التي يكنها له سكان تلك المنطقة بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم مما دفع الكثيرين منهم إلى الفرار لتنظيم وقيادة الانتفاضات ضده. وكان هاجسه الأكبر هو إخماد هذه الثورات في مهدها حتى لا تسري في جسد البلاد بأسرها. لذلك استدعى أبا سن والشيخ عبد القادر[٤٥]، الذي انضم إليه في الطريق، وأبا ريش[٤٦] شيخ العطيش المرموق للاستنارة برأيهم في أنجع السبل لمنع الثوار من عبور الحدود إلى الحبشة. فأقنعه الشيوخ باستحالة ذلك، وألحوا عليه في إصدار عفو عام عنهم من المحتمل أن يقبلوا به نظراً لأنهم قد تركوا خلفهم آباءهم وأخوانهم وأطفالهم وجميع ذويهم.

ولم يكن هنالك خيار آخر أمام أحمد باشا غير الاقتناع بهذا الرأي، فكلف الشيخ أبا ريش بالذهاب إلى معسكر حمد ليعرض عليه العفو العام نيابة عنه. وتوجه أبو ريش في الحال إلى الملك حمد ووعده بترتيب إجراءات السلم بينه وبين الباشا إذا وافق على مبدأ العفو. ولم ينس أبو ريش أن يغري حمد بقبول العفو حتى يعود إلى زوجاته وأطفاله بدلاً من أن يتركهم تحت رحمة الأتراك.

وفكر حمد برهة، ثم سأل عن شروط العفو. فرد عليه أبو ريش بأن ليست هنالك ثمة شروط غير أن يبقى هو ورجاله المئتان في الخدمة العسكرية واعتبار ما حدث كأن لم يكن. ووافق حمد، ولكنه اشترط أن يعفى ورجاله من ضريبة الأرض، وعلى الباشا أن يبعث له بشال يرمز للسلام حسب عادتهم في حالة قبوله بهذا الشرط. أضاف حمد أنه

---

(٤٥) عبد القادر ود شيخ الزين (توفي ١٨٥٧)، شيخ مشايخ عموم أقليم سنار، من قبيلة اليعقوباب قرب مدينة سنار.

(٤٦) أبو ريش ود بشير الغول، شقيق رجب (ص ـ ٧١) وشيخ من شيوخ فرع الحمدة لعرب أبي روف.

حينئذ سوف يتوجه إلى الباشا طالباً الصفح لما بدر منه. وعاد أبو ريش وأخبر الباشا بما دار بينه وبين حمد، فوافق الباشا على كل شيء إلاّ الإعفاء من الضرائب، ثم أعطى أبا ريش قطعة حمراء من القماش رمزاً للسلام.

وحمل أبو ريش إلى حمد موافقة الباشا على الاتفاق ما عدا إلغاء الضرائب، وقطعة القماش التي أرسلها له الباشا. وما ان رآها حمد حتى هب واقفاً وهو يحتج بأعلى صوته على تصرف الباشا الذي يعامله معاملة الأطفال، وإلا فما معنى أن يبعث له بقطعة حمراء غير النية المبيتة في خداعه والغدر به؟ فاللون الأحمر عنده لا يعني غير الدم. وطلب من أبي ريش أن يعيدها إلى الباشا مبيناً إصراره على موقفه بأن تجاب جميع الشروط لكي يتحقق السلام. ثم اشترط أن يرسل له الباشا شالاً أبيض اللون دليلاً على رغبته في السلام ويقسم على المصحف والسيف بأن يطوي صفحات الماضي ولا يعود ثانية لإيذائه في المستقبل. وعندما يتم ذلك كله سيذهب حمد إلى أحمد باشا ويقسم هو أيضاً على الكتاب الكريم والسيف ليعلن الولاء له شخصياً وللحكومة. أما إذا رفض الباشا ذلك، فالبقاء داخل الحدود الحبشية أفضل ألف مرة حيث أن المسيحيين أكثر إنسانية وأحسن معاملة من بعض المسلمين من أمثاله.

وعاود أبو ريش الكرة فأطلع الباشا بما حدث، فواجه أحمد حرجاً شديداً أمام شروط الملك حمد، وشعر أن الرجل يريد عرقلة الاتفاق بإثارة أمور مثل لون الشال وغيره. وفي النهاية، وبعد أن أعيته الحيلة إلى جانب إلحاح الشيوخ، وافق أحمد باشا على جميع الشروط ما عدا الإعفاء من الضريبة أو تخفيضها. وكفلت الشروط الجديدة حق جميع الجنود من الشايقية وقوادهم في التنازل عن الأراضي التي ظلوا يزرعونها بإذن من خورشيد. أما من أراد منهم الاستمرار في زراعتها فعليه دفع ضريبة سنوية معينة. ونص الاتفاق كذلك على عدم التزام الحكومة بصرف علف للخيول، وعدم جواز مطالبة الحكومة بضريبة الأرض بأثر رجعي من الذين تخلوا عنها أو الذين شغلوها من بعدهم نيابة عنهم، وذلك منذ اليوم الذي تم فيه الاستلام وحتى بداية ذلك العام الجديد، ١٢٥٥ هـ (مارس ١٨٣٩).

توجه حمد في صحبة شيخ العطيش إلى معسكر الباشا بعد أن وافق على الشروط وتسلم الشال الأبيض وكلمة الأمان من أبي ريش. وعند وصوله إلى خيمة الباشا، ترجل عند المدخل ثم شق طريقه إلى داخل الخيمة، وارتمى على قدمي الباشا، وأخذ يقبلهما طلباً للمغفرة على أخطائه. ومد الباشا يديه يعاونه على النهوض وأجلسه بجانبه

وأخذ يعامله مثل الصديق حيث أمر له بالقهوة والغليون. وأثناء حديثهما تساءل حمد باشا ما إذا كان حمد قد اتصل بالشيخ الذي شنق في ود مدني. فنفى حمد ذلك وأفاد بأنه كان يتفادى الاقتراب من القرى في رحلته إلى الحدود خوفاً من المكائد، فيكفي ما فعل به أبو سن ليفقد الثقة بالآخرين. ثم أثبت حمد أنه حرص على الابتعاد من تلك القرية بالذات بما يقدر بمسيرة يوم كامل. إذن فإنه، بالطبع، لم يلتق بالشيخ. وأدرك أحمد أنه وقع في فخ أعد له، فغضب من أحمد أبي سن الذي ادعى، فيما بعد، أنه لم يقل إلا ما سمعه من الناس. وقد ترتب على هذا الاعتراف من أحمد أبي سن العفو عن الشيخ والذي أرسله أحمد باشا إلى فرهاد بك بالبريد المستعجل، إلا أنه وصل بعد تنفيذ الحكم.

مكث حمد عند الباشا قليلاً، ثم استأذن ومضى إلى معسكره. وفي اليوم التالي حضر مع رجاله ونصبوا الخيام بجوار معسكر الباشا. وبعد يومين تحرك الركب كله إلى الخرطوم. وفي أبي حراز، أمر الباشا حمد بالتقدم معاً ليلتقيا معاً في العاصمة. وبعد عدة أيام وصل حمد قبة خوجلي، على الضفة الشرقية للنيل الأزرق في مواجهة الخرطوم وأقام معسكره هناك. ثم توجه إلى داخل مدينة الخرطوم لزيارة أصدقائه. ولك الآن أن تتخيل مدى دهشة الناس عند رؤية حمد في الخرطوم. فقد كانوا يتصورون أنه سوف يأتي مقيداً بالسلاسل، فإذا هو حر طليق لا يزال يقود جنوده. وكان الاعتقاد أنه سوف يشنق لا محالة، فقد أعلن أحمد باشا في جميع المدن الكبرى أنه اشتبك مع حمد في معركة بالعطيش، فهزمه وقبض عليه، فاهتزت تلك المدن بطلقات النصر.

وبعد أيام قليلة كان أحمد باشا في العاصمة، فأرسل المراكب لنقل الكتيبة الخامسة من أبي حراز حيث تركها هناك، فوصلت إلى الخرطوم بعد غياب دام أكثر من شهرين. ولم يمض غير أيام قلائل حين استجاب أحمد باشا إلى طلب من حمد للرجوع إلى أهله لمعاودة الزراعة على ذات الأراضي. وظل حمد يعيش في سلام، فقد صان كلا الطرفين العهد، حتى أمره أحمد باشا بعد ستة أشهر بالانتقال إلى دنقلا، فتوفى هناك بعد عامين لأسباب طبيعية عن عمر ناهز السبعين. وترك حمد وراءه اثنين من الأبناء وعدداً من البنات.

حاكم بربر يفصل، ثم يقتل:

في ذات اللحظة التي كان فيها أحمد باشا يحاول اللحاق بالملك حمد، حدث في الصحراء ما بين أبي حمد وكروسكو أمر لم يكن أقل أهمية. ولكن ينبغي علينا قبل سرد

الواقعة، الرجوع إلى خلفيتها لكي يتيسر لنا الفهم. كان يحكم بربر، طوال فترة حكم خورشيد باشا، تركي يدعى عباس. وما كان هذا الحاكم يختلف عن بقية الأتراك في ارتكاب الظلم أو الإقدام على الانتقام كما رأينا في حادثة خليفة(٤٧). ومثل كافة الحكام الأتراك من أمثاله أثرى عباس ثراء فاحشاً على حساب عامة الناس، فعانوا وتعذبوا حتى أصبحوا غير قادرين على تحمل المزيد من المعاناة والعذاب. وفي شهر رمضان ١٢٥٤ هـ (مارس/ ابريل ١٨٣٨) توالت الشكاوى ضده، فأمر خورشيد بالتحقيق الفوري معه. إلا أن التحري في القضية أجل لشعور خورشيد بأعراض مرض مزمن كان يعاني منه في نفس الشهر وسفره إلى القاهرة للعلاج.

وحل مكانه أحمد باشا الذي أمر بمراجعة جميع حسابات الدواوين الحكومية سواء كانت سابقة أو لاحقة لتسلمه مسؤولية الحكم. وما أن صدر هذا الأمر حتى انهمرت الشكاوى ضد عباس، فاستوثق أحمد باشا من فساد ذمته، ووضعه في السجن، ثم عرض منزله للبيع مع الأثاث والخدم.

على أن عباس كان رجلاً ذا ثراء عظيم حيث ظل يحتفظ بقدر من المال يكفيه للعيش على مستوى رفيع لعدة شهور في شندي رغماً من مصادرة الحكومة لكل ما ثبت أنه استولى عليه قبل إطلاق سراحه، ذلك لأن أحمد منعه من مغادرة البلاد إلى مصر كما طلب. ولعل مضاعفات المعاملة السيئة في السجن أو القلق الذي صاحب منعه من السفر إلى مصر هي التي أدت إلى مرضه ثم وفاته بعد أيام من نقله هو وأفراد أسرته إلى شندي(٤٨). وترك عباس وصية بأن يتولى شقيقه التاجر في القاهرة أمر أبنائه وزوجاته.

بركة يقتل شقيق الحاكم الراحل:

سمع سليمان آغا بوفاة شقيقه عباس فاتجه إلى السودان لتنفيذ وصية المأمور الراحل الذي أوكله على ممتلكاته وأفراد أسرته. وقد صادف وصوله إلى بربر وجود محمد علي في فازوغلي. وعند مرور الباشا ببربر في رحلة العودة إلى القاهرة طلب منه سليمان آغا أن يوجه أحمد باشا ليمده بثلاثين من الفرسان لحراسته عبر العتمور من بربر إلى كروسكو.

---

(٤٧) نجد وصفاً لها على صفحة (١٦٢ ـ ١٦٣).

(٤٨) يورد ويرن ادعاء غير مقنع بأنه قد سمم على يد سكرتيره القبطي خليل أفندي الذي اعتنق الإسلام فيما بعد (جولات أفريقية، الجزء الأول، ص ٨٠).

لقد كان الرجل يخشى من غارات البشاريين في الصحراء، خصوصاً إذا علموا بحضوره من مصر لينقل أسرة وأمتعة عباس إلى هناك.

وعندما وصل أحمد باشا إلى شندي عقب هروب الملك حمد، سعى إليه شقيق عباس من بربر وسلمه أمر محمد علي باشا. وقرأ أحمد الرسالة وعلق بقوله أن الجيوش إنما تعد للحروب، لا لحراسة التجار، ثم عبر عن اعتذاره لأنه لم يكن لديه فائض من الرجال وقتئذ. وأضاف أحمد بأن السفر ممكن في أي وقت، فليس ثمة لصوص في الصحراء، على أي حال. وأعرب سليمان عن مخاوفه من نتائج العداء بين بركة وشقيقه الراحل بسبب ظروف مقتل خليفة شقيق بركة(٤٩). فمن الطبيعي أن تتجه أحقاد بركة إلى

(٤٩) جاء في (من زوايا التاريخ السوداني في القرن التاسع عشر، ص ٥ ـ ٦) للراوية العبادي حسن أحمد حسين خليفة العبادي أن الحركة عبر الطريق الصحراوي قبل الاحتلال التركي كانت في أيدي الفقرا والمليكاب، وهما فرعان من قبيلة العبابدة، حيث فرضا ضريبة تبلغ ١٠٪ من قيمة البضائع المنقولة بموافقة إسماعيل باشا. وقد رأى عباس الجندي، حاكم بربر، تلك الضريبة باهظة فطلب من خليفة ود الحاج محمد العبادي أن يكتفي بثلاثة دولارات (ريالات) عن كل جمل محمل. ورفض خليفة ذلك وأصر على تلك النسبة حداً أدنى، ثم أغلق الطريق فساء الأمر بينهما. ثم ما لبث الحاكم أن اقترح على الشيخ الحضور إلى بربر للتفاوض. وحضر خليفة وبطانته حيث آواهم الحاكم في مخزن بالمخيريف (بربر). وبعد المفاوضات، وصلت الأمور إلى طريق مسدود.

وزاد المشكلة تعقيداً شخص يدعى بطران ود همارا من فرع بطران في قبيلة البشاريين لارتكابه بعض الجرائم، فمنحه خليفة حق اللجوء كما تقتضي كلمة الشرف عند العرب. وعندما كان خليفة ورجاله نائمين داخل المخزن، أمر الحاكم جنوده بوضع أكوام من القش المشبع بالزيت حول المخزن، ثم أشار عليهم بإشعال النار فيها. ومات خليفة ومائة واثنان وثلاثون رجلاً من مختلف القبائل. وكان عباس قد استعان بتعزيزات من الحكمدار خورشيد الذي قاد القوة بنفسه إلى بربر، ثم عاد بعدها إلى العاصمة. حدث ذلك عام ١٢٤٣ هـ (١٨٣٨).

ولقد عاش خليفة لفترة من الوقت رجلاً مشبوهاً. ففي عام ١٨٢٦ شكاه حاكم أسنا لدى الإدارة في القاهرة ووصفه بالنفاق والسرقة لأنه اتهم بغش العرب في إيجار الجمال، وباع السلع القطنية بأكثر من قيمتها المحددة (وثائق عابدين، مأمور ديوان الخديوي إلى خورشيد ـ حاكم سنار آنذاك ـ، ٢٠ ربيع الأول ١٢٤٢ هـ «٢٣ أكتوبر ١٨٢٦»).

وأرسل خورشيد تقريراً إلى القاهرة ضمنه قوله أن رجال القبائل يريدون بركة شيخاً للطريق الصحراوي خلفاً لخليفة (وثائق عابدين، العلية السنية، «قرارات المجلس»، فايل (٥) رقم ٤، ٨ ذو القعدة ١٣٤٣ هـ ٢٢ مايو ١٨٢٨). وقد وافقت القاهرة على ذلك وبعثت شالاً وربما من الكشمير لبركة (المصدر السابق، ديوان الخديوي «المكتب التركي»، سجل الرسائل رقم ٧٤٤، رقم ١٩٧ في ٢٠ ذي القعدة ١٢٤٣ هـ ـ «٣ يونية، ١٨٢٨»).

سليمان بعد وفاة شقيقه عباس، فيحاول الانتقام منه بشتى الطرق. وزاد من مخاوف سليمان كون بركة شيخاً للصحراء، وبالتالي قائداً للجمالة والمرشدين إلى جانب أنه من دمهم ولحمهم. ورغم ذلك كله لم يجد سليمان أذناً صاغية، فعاد إلى بربر. ومن هناك بدأ الرحلة إلى مصر مع أسرة عباس، وثلة من الأتراك صحبوه في رحلته صدفة، إلى جانب بعض المماليك، فتألفت القافلة في مجملها من تسعة أفراد مسلحين أحسن تسليح. ولم يحدث ما يعكر صفوهم على الطريق منذ مغادرتهم بربر وحتى بلوغهم بقعة تبعد عن الآبار في منتصف الصحراء مسافة يوم واحد على الأقدام. هناك وجدوا بركة وجهاً لوجه ومعه تسعون من رجاله المدججين بالسلاح. وتصنّع سليمان عدم المبالاة أول الأمر، حيث تقدم نحو بركة وحياه في أدب جم، ثم سأله عن وجهته. ورد عليه الشيخ بركة في مثل أدبه أنه ينظف الطريق من والي كروسكو من غارات البشاريين. وأردف قائلاً أنه يقوم بمثل هذه الرحلة دائماً، أما وقد التقيا صدفة فيسعده كثيراً أن يواصل معه الطريق إلى كروسكو.

واستمرت القافلة في سيرها حتى حطت الرحال عند الآبار(٥٠)، فقدم الشيخ بركة لحماً طازجاً اشتراه خصيصاً من البشاريين لسليمان. وفي اليوم الثالث استؤنفت الرحلة. وعند مغيب الشمس كانوا في المدينة، وسميت هكذا لأنها محاطة بالجبال من كل ناحية. وتنمو هنا بعض الأشجار السنط والدوم(٥١)، بينما تتجمع كمية لا بأس بها من مياه الأمطار في بركة على سطح أحد الجبال. وتزودت القافلة بالماء وواصلت السير. وبعد مضي نصف ساعة، وبينما كان الرجلان على ناقتيهما يسيران جنباً إلى جنب، وجه بركة سؤالاً لسليمان:

«هب أن لفلان دين على علان، من يا ترى يقوم بواجب سداد الدين إذا توفى علان؟»

فرد سليمان على الفور:

«ورثته بالطبع».

ولكن سحابة من الشك طافت أمام سليمان في تلك اللحظة. هل كان لسليمان دين على أخيه حقاً؟ هذا ما يبدو من سؤال بركة. لذلك أبدى استعداده لرد أي مبلغ أقرضه بركة لأخيه على أن يقيم عليه الدليل.

---

(٥٠) آبار مرّات.

(٥١) كانت الأزرار تصنع من لب ثمارها. ويوجد منخفض في نمم جبال المدينة تتجمع فيه المياه.

ورد بركة:

«بما أنك لا تمانع في رد الدين، فاعلم بأن ثأراً بيني وبين أخيك. ولأنه الآن في عداد الموتى، فعليك به».

وبهذه الكلمات أطلق بركة طلقات من مسدسه على سليمان الذي هوى من ناقته صريعاً.

وفي نفس اللحظة التي أطلقت فيها النار على سليمان، هجم أعوان بركة على رجال القتيل قبل أن يستعدوا للدفاع عن أنفسهم، ليس لأنهم صعقوا بما كان يحدث أمامهم فحسب، ولكنهم كانوا أيضاً قد أفرغوا أسلحتهم من الذخيرة لهطول أمطار خفيفة في الليلة السابقة. وكان الخبير قد تآمر مع بركة ونصحهم بضرورة إفراغ السلاح وطمأنهم بألا خطر على حياتهم لأن القافلة كبيرة، كما قال. ووافق الشيخ بركة على حديث الدليل وكان أول من فعل ذلك بغية تضليل الرجال، وتبعه في ذلك مرافقوه. هكذا أخذ رجال عباس على حين غرة، فذبحوا ذبح الشياة. وبعد أن أجهزوا على الرجال، سلب أعوان بركة الحلي من النساء، وأشبعوا فيهن رغباتهم الحيوانية، ثم حملوهن إلى أبي حمد حيث لفظن شبه عاريات[٥٢] وهربوا إلى الصحراء بكامل متاع وثروة سليمان. وعانت أسرة عباس المنكوبة حتى حلت ببربر حيث تقيم حتى يومنا هذا.

وما أوردته هنا يطابق ما جاء في التقرير الذي رفع إلى أحمد باشا. ولكن البعض يروي قصة مختلفة لا بأس من روايتها:

عندما صادف سليمان آغا الشيخ بركة عند الآبار، لم يكن مع الأخير غير أربعة رجال. وجلس الرجلان يتسامران ويأكلان في ود والفة. ثم تحركا إلى المدينة حيث تزودوا بالماء من هناك لبقية الرحلة. ولكن بينما واصل سليمان، بقي بركة في المدينة لأنه اتفق مع دليل قافلة سليمان على مكان ينتظرون فيه مقدمه في الليلة التالية، وسليمان ورجاله نائمون. وأثناء سيرهم أمطرت السماء، فآثر سليمان التوقف فأفرغ السلاح ونصب الخيام. وفي المساء انطلق الدليل بناقته إلى بركة ليعلمه بالمكان الجديد. فتحرك الشيخ سريعاً من المدينة وأقام بالقرب من سليمان.

(٥٢) ينكر العبابدة هذه الواقعة. ففي خطاب إلى المترجم في ٢٨ أبريل ١٩٤٠، ذكر السيد أحمد حسن خليفة العبادي أن بركة وزع مال سليمان وثروته على رجاله. غير أنه عامل النساء باحترام وأرسلهن إلى مصر تحت حراسة من بعض زعماء العبابدة الموثوق بهم.

انتظر بركة حتى منتصف الليل وتأكد من أن ضحاياه قد استسلموا للنوم، ثم هجم عليهم فقتل الرجال وسلب واغتصب النساء، وحملهن رجاله إلى أبي حمد بينما اتجه بركة إلى كروسكو. ولكنه عندما وصل نقطة تبعد قليلاً من كروسكو توقف عند جبل وبعث أحد رجاله برسالة إلى كبير الركبان في كروسكو ـ ويقال انه كان من أقربائه ـ يطلب منه إرسال كل من معه من رجال مسلحين. ولدى وصول ثمانين من الرجال صفى حساباته مع قريبه وكاشفه بما فعل مع سليمان واتجه ثانية صوب الصحراء خلف أسوان مع الرجال الذين انضموا إليه(٥٣).

سليمان أبو نمر يتعقب بركة ويقتله:

أحيط الحاكم علماً بما حدث، فأرسل في الحال قوة تتألف من مائة فارس من المغاربة إلى أبي حمد. وظل الرجال يجوبون الصحراء لمدة يومين بحثاً عن المجرمين، ولكن شح مياه الشرب وضع حداً لاستمرارهم في البحث. وعندما نقل الخبر إلى أحمد باشا لم يكترث له كثيراً لأنه كان مشغولاً بمسائل أخرى أكثر من موضوع القتلة. أضف إلى ذلك أنه كان يعلم خطورة الزج بقوات في تلك الصحراء القاحلة الخالية من مظاهر الحياة، ففكر في التريث حتى حلول فصل أكثر ملاءمة.

غير أن القدر لم يشأ أن يبقى الجناة طويلاً دون عقاب. فقد كان هنالك شيخ يدعى سليمان من قبيلة العبابدة تربطه صلة قرابة بالشيخ بركة، رغم عداء مستحكم قديم بين عائلتيهما بسبب دماء سفكت من الطرفين. وبلغت الكراهية والبغضاء بينهما حد الشروع في الثأر لولا تدخل الحكومة، ولكنهما ظلا يتبادلان الدسائس والمؤامرات حتى أصبحت الدواوين الحكومية مسرحاً لها، فاغتنم الموظفون الفرصة واستفادوا من الخلافات بين العائلتين.

---

(٥٣) وهنالك رواية ـ للراوية العبادي. كان بركة في أبي حمد عندما قتل أخوه خليفة. وعند علمه بما حدث، توجه إلى حدق أيروب في الصحراء قرب آبار مرات، وظل هناك في انتظار الثأر. أما سليمان آغا فقد بارح بربر مع حرس من خمسين جندياً زوده بهم محمد علي باشا أثناء عبوره ببربر.

وكانت القافلة تتألف من مائة جمل بقيادة ثلاثة من العبابدة من فرعي الجهيماب والهمج. وبإيعاز من بركة انحرف المرشدون بالقافلة خلسة إلى بقعة تسمى القلوباوية ؛وتسمى أيضاً طلعت الجندي، حيث انقض عليهم بركة ورجاله. ولقد تمكن أربعة عشر رجلاً منهم من الفرار إلى جبل رأفت، إلا أن بركة استطاع إعادتهم إلى مكان المجزرة وقتلهم. وأحرقت جثثهم بنيران حطب الأشجار (المصدر السابق، ص ١٠).

فكر الشيخ سليمان ملياً في جريمة بركة، وأدرك أن لحظة الانتقام قد حانت تحت حماية من السلطات الرسمية. وذات يوم صحو جميل، قدم سليمان نفسه إلى الباشا وطلب منه إذناً بقتل بركة وإحضار رأسه إليه. وما كان أحمد يطمع في عرض أفضل من ذلك فقد بدأ يخشى من انقضاض رجال بركة على كل من يعبر الطريق الصحراوي مسببين أضراراً بالغة على مصالح الحكومة والأفراد إذا اضطروا إلى نقل بضائعهم عن طريق دنقلا الطويل المكلف. كذلك كان أحمد باشا يدرك صعوبة اضطلاع الحكومة بإرسال قوة إلى الصحراء على غير الحال مع سليمان الذي نشأ فيها وخبر خباياها. لما تقدم من أسباب، استجاب الباشا لطلب سليمان ووعد بتزويده ببعض الجنود المغاربة. ولم يكن الباشا متأكداً بصورة قاطعة من قبول سليمان لهذا العون لأن الروايات عن قوته من الرجال كانت متضاربة، فالبعض قال انها تألفت من أربعين من الجمالة، والبعض الآخر ذهب إلى أنه كان على رأس نحو مائة وخمسين رجلاً على الجمال مزودين بالبنادق، وجميعهم من قبيلته العبابدة. وأخذ سليمان الاشارة وتوجه إلى بربر حيث رحب بكل من أراد الانضمام إليه، ثم انطلق إلى أبي حمد، ومنها إلى الصحراء للبحث عن بركة.

وكان بركة قد أنهى مهمته في حمل نساء وأطفال عباس إلى أبي حمد، ومضى مسرعاً نحو كروسكو. وعند وصوله إلى جبل يبعد من كروسكو مسافة يوم، بعث برسالة مع أحد رجاله إلى شيخ الركبان يطلب منه إرسال الأموال التي تخصه قانوناً، لأنه كان يتقاضى مبلغاً معيناً على كل جمل محمل بصفته رئيساً للركبان، فينفق منه جزءاً على الخبراء الذين يدلون القوافل إلى بربر. وبالمثل كان في بربر شيخ له مثل نصيبه نظير الإشراف على انتقال القوافل من بربر إلى كروسكو. وقام الشيخ من كروسكو بنفسه وسلم الأموال لبركة الذي أطلعه على ما حدث في الصحراء. وتوجه بركة إلى الصحراء وأقام معسكراً بين البشاريين بالقرب من أسوان ليرقب ما يحدث بعيداً عن الأنظار.

ولما سمع بقدوم سليمان إليه على رأس قوة كبيرة من الرجال، بنى حصناً فوق تل صغير كان عبارة عن حائط بداخله خندق. ثم عدل عن فكرته عندما علم أن سليمان قد طلب تعزيزات من مصر، وأيضاً لشعوره بأن البشاريين الذين كان يأمل في الاعتماد عليهم لم يكونوا متحمسين له. وعليه قرر ترك موقعه وتحرك في اتجاه القصير بغرض الإبحار إلى الحجاز(٥٤). وعلم سليمان بكل ذلك فغير اتجاهه سريعاً وتبعه. ومضى بركة نحو الميناء

---

(٥٤) يزعم العبابدة أن بركة لم يفكر في الهروب إلى القصير، وإنما بقي في «الجزء الذي يخصه» من الصحراء (خطاب أحمد حسن خليفة العبادي إلى المترجم، ٢٨ أبريل ١٩٤٠).

بكامل سرعته، وسليمان يسرع الخطى في أعقابه. وبعد أيام بلغ بقعة تبعد نحو تسع أو عشر ساعات بالجمال من القصير.

وعندما أدرك بركة أن سليمان يكاد أن يلحق به، أيقن أنه لن يحقق غايته في الوصول إلى الحجاز، فقرر أن يصمد ويواجه العدو، لعله يفلت من الهزيمة رغم أن العدو يفوقه عدداً وعتاداً. ووقف في شجاعة وهو يشحذ همة رجاله على القتال، ويمنيهم، إذا انتصروا بمكافأتهم وتخليصهم من سطوة الأتراك.

وتحرك سليمان ورجاله حيث كان بركة في انتظارهم منتصب القامة. ولعلع الرصاص من الجانبين في معركة استمرت عدة ساعات. وفي نهاية الأمر سقط بركة جريحاً، فركن رجاله إلى الهروب عندما رأوا ذلك. وحين ظفر سليمان بالشيخ بركة لم يأبه بأمر رجاله، فتركهم وشأنهم.

في تلك المعركة، تكبد الجانبان خسائر فادحة بحيث لم ينعم المنتصر بنصره، غير أن سليمان وجد ضالته في رأس بركة فقام بفصله عن جسمه ولما يفارق الحياة بعد، ثم سلخه وحشى الجلد بالتبن. وخلد سليمان ورجاله إلى الراحة لبعض الوقت ودفنوا موتاهم (تركت جثث الأعداء في العراء) وجمعوا الغنائم القليلة. أما عن ثروة بركة فقد ذكر سليمان أنه لم يعثر عليها، والأرجح أن يكون قد أخفاها بركة في مكان قصي في الصحراء، أو سلمها لأحد أصدقائه، أو دفنها تحت الأرض قبيل الهجوم عليه. وترك سليمان رجاله في بربر وشق طريقه إلى الخرطوم مباشرة حيث وضع رأس بركة بلحيته وشاربه المميزين أمام الباشا.

حسن خليفة ومشيخة الطريق الصحراوي:

لم تسع الدنيا أحمد باشا من الفرحة. حين رأى رأس القاتل. وفي قمة نشوته تلك استدعى حسن خليفة، ابن أخ بركة، وألقى برأس بركة على الأرض قائلاً:

«انظر رأس عمك! لعلك تتعظ».

وأدرك حسن من لهجة الباشا أنه كان في غاية السعادة، فشعر بغصة في حلقه لأن جريمة ارتكبها بركة لا تبرر استدعاءه وإذلاله هكذا، فهو بريء لا ينبغي أن يؤخذ بجريرة عمه. ورد عليه حسن بأن من حقه قتل بركة جزاء على جريمته، ولكن ما شأنه هو؟ ثم نبه الباشا إلى أنه يعلم أن لا علاقة له بالجريمة فقد كان في القاهرة حين وقعت أحداثها، إذن

فلم يكن هنالك داع لاستدعائه وإلقاء رأس عمه بين قدميه. وانتهى حسن من حديثه وخرج. أما رأس بركة فقد علق على عامود في ساحة عامة لمدة يومين، وعرض بعد ذلك في كافة أرجاء السودان تذكرة وعبرة.

عند عودة محمد علي باشا إلى القاهرة من زيارته للسودان صحبه حسن خليفة دليلاً من بربر إلى كروسكو، ومن ثم ذهب مع الباشا إلى الاسكندرية. وبعد أن مكث هناك فترة، عاد إلى السودان ابان حادث قتل عمه لسليمان آغا ومجموعته في الصحراء والذي لم يسمع به إلا في كروسكو. واعتقد حسن في ذلك الحين أن الباشا لن يتمكن من القبض على بركة في تلك الصحراء الواسعة، وخشي أن ينعكس ذلك على معاملته له بقسوة وتكليفه بمهمة اعتقال عمه رغم استحالتها.

إزاء هذا الأمر، ارتد حسن على أعقابه، واتجه من كروسكو إلى القاهرة، وروى للباشا ما حدث معبراً عن مخاوفه. وكان محمد علي قد أعجب به أثناء عمله معه خبيراً في الصحراء، فأعطاه رسالة إلى أحمد باشا ضماناً لعدم تعرضه لأي ضرر، ثم ألحقها بأمر يقضي بتعيينه شيخاً على الصحراء بدلاً عن عمه.

على أن أحمد باشا لم يكن راغباً في تعيين حسن، فقد سبق أن وعد الشيخ سليمان بالمنصب مكافأة له على رأس بركة، وها هو سليمان قد أوفى بوعده وينتظر الجزاء. وأمر آخر هو أن سليمان كان قد أخبر الباشا بعودة حسن من كروسكو إلى القاهرة بعد سماع أخبار عمه، فانزعج الباشا باعتبار ذلك محاولة لفرض تعيينه من القاهرة. وصمم أحمد ألّا ينصاع لأمر الباشا، فأفضى لحسن بعدم التفكير في تعيينه شيخاً على الصحراء لما أعطى من وعد لسليمان، ثم أشار عليه أن يبقى في الخرطوم في انتظار ما يسفر عنه قراره في النهاية. وجاء القرار أخيراً بتعيين سليمان شيخاً برغم أمر محمد علي باشا بخلع اللقب على حسن خليفة الذي وضع تحت رقابة مشددة لمنعه من السفر إلى القاهرة شاكياً.

كنز بركة:

في نفس الوقت الذي عين فيه سليمان شيخاً على الصحراء، أمر أحمد باشا حسن خليفة بأن يعمل مع أبناء قبيلته بالبحث عن مكان كنز بركة المخبوء. وأوضح حسن استحالة ذلك الأمر لأن عمه لم يكشف سره لأحد. وأصر الباشا على موقفه وهو يجزم بأن حسن يعرف مخبأ الثروة بصفته أقرب الناس إلى بركة. ثـم ما لبث الباشا أن أعلن مسؤولية حسن عن أي شيء سلب من سليمان آغا، فقد كان يعتقد أن حسن إن لم يكن

قد سعى لإخفاء المال بنفسه، فإنه ساعد عمه في ذلك على أقل تقدير.

وكتب حسن إلى بعض ذويه، لكي يهدىء من ثورة الباشا، يسألهم البحث عن الكنز في منطقة البشاريين حيث مكث عمه لبعض الوقت، لعلهم يعثرون على أحد ممن كانوا معه لحظاته الأخيرة فيدلهم على المكان. وسلم حسن الخطاب لأحمد باشا كي يبعثه بنفسه. ولقد ضمن حسن هذه الرسائل لأهله إشارة ليفعلوا عكس ما طلب منهم تماماً، فلم يسفر البحث عن أي أثر للكنز.

قطاع الطرق في صحراء بيوضة:

توافق في صحراء بيوضة، في فصل الخريف، حدث آخر مع الأحداث التي أسلفت القول فيها في الصفحات السابقة. فأثناء وجود محمد علي باشا في فازوغلي، قدم إلى الخرطوم شخص يدعى سعيد آغا، بلكباشي[٥٥] في سلاح الفرسان المرابط في دنقلا. كان سعيد آغا قد جاء بعدد كبير من الخيول تخص الحكومة وبعض الأفراد، وسلع أخرى تجارية لحسابه الخاص[٥٦]. وبعد أن سلم الخيول وباع البضاعة، عاد إلى دنقلا مع رجاله الذين أوصلوا الخيول إلى الخرطوم وعددهم خمسة عشر رجلاً.

وقبل المضي في سرد القصة علينا أن نعلم أن صحراء بيوضة ترتادها قبائل عربية شتى في موسم الأمطار طلباً للمرعى. كذلك، بما أن هذه الصحراء امتداد لصحراء كردفان، فإن مجموعات من الفور يقصدونها بإبلهم كل عام، يتجولون على هضابها، ويفترسون كل من يلاقيهم في الطريق لينهبوا بضاعته ودابته[٥٧]. وكثيراً ما يغير هؤلاء القوم على القوافل التي تجوب المسافة بين الدبة وكردفان. ويتربص بعض اللصوص أحياناً بالمارين في جبال عبد الهادي، وهم لا يقلون خطورة عن رصفائهم القادمين من دارفور.

كانت المجموعة التي نحن بصددها الآن تقطع الصحراء في فصل الخريف. وبعد

---

(٥٥) قائد سرية من الفرسان غير النظاميين (بلكباس بالتركية).

(٥٦) كانت التجارة الخاصة مسموحاً بها آنذاك بالنسبة للضباط والموظفين باعتبارها مصدر دخل مكمل للمرتب. ولأن اتخاذ التجارة مهنة لم يكن عيباً في ذلك الوقت، لم يكن هنالك حاجة إلى منعها.

(٥٧) هناك احتمال في أن يكون هؤلاء المغيرون من القرعان، وهي قبيلة هجين من التيبو والزنوج، ويتحدثون لهجة التيبو، ويحتلون الصحراء شمال دارفور ووداي. ولا تزال فرق الإغارة من القرعان تجتاح شمالي بيوضة. وفي السنوات الأخيرة توغلت هذه القبيلة حتى مشارف حوض النيل.

قضاء ليلتهم بقرب أحد الجبال، واصلوا سيرهم صباح اليوم الثالث لرحلتهم. وما أن ابتعدوا قليلاً عن استراحتهم، حتى رأوا أمامهم مجموعة كبيرة من قطاع الطرق. ولم يكن هنالك بد من المقاومة، فأوقفوا القافلة في انتظار الهجوم. ولغبائهم كانوا قد أطلقوا جميع ما في أسلحتهم من ذخيرة مرة واحدة قبل الالتحام بالعدو تماماً، فاغتنم أفراد العصابة هذه السانحة فباغتوهم بالنيران قبل أن يتمكنوا من حشو سلاحهم مرة أخرى، فأبادوهم وسلبوا القافلة بأكملها. وتمكن ثلاثة رجال منهم من النجاة لتخلفهم عن الركب لأداء الصلاة، فصاروا مصدر الخبر.

وعندما علم أحمد باشا بالأمر، أرسل على عجل مائة وخمسين رجلاً من الشايقية على الجمال لمطاردة العصابة، إلا أنهم لم ينجحوا في مهمتهم، فقد كانت العصابة أسبق إلى الهروب صوب دار فور. وصرح الباشا بهذه المناسبة أنه بصدد إنشاء قوة من الجمالة قوامها ستمائة من رجال الشايقية لحراسة المرور بالصحراء، غير أن المشروع لم ير النور.

---

(٥٨) زنوج من جبل حرازة، على طريق الجمال بين الدبة وكردفان.

الفصل الرابع

الاستعداد لغزو التاكا:

بعد وقوع الأحداث التي وصفناها، جمع أحمد باشا جيشاً لغزو التاكا، وهي منطقة تقع شمال شرق الخرطوم بين نهر عطبرة، والحبشة والبحر الأحمر. ولقد فشل خورشيد باشا في السيطرة عليها عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ - ٣٢)[١].

ومن أجل ضمان وصول الجنود إلى هناك في لياقة عالية، فكر أحمد باشا في أن يعطي كل جندي حماراً، فصودرت الحمير من سكان الخرطوم وضواحيها. ولكن مئات من الحمير فقدت أثناء عملية التوزيع على الجنود. ولم تصرف هذه الدواب للجنود مجاناً فقد خصم أحمد باشا مبلغ خمسة وسبعين قرشاً عن كل حمار، بينما لم يدفع للمزارعين أي تعويض عن الدواب التي سلبت منهم قسراً. وتمنى الجنود لو أنهم ساروا إلى التاكا على الأقدام، فقد كان ذلك أفضل لهم من التضحية بمرتب خمسة شهور (خمسة عشرة قرشاً للشهر)، ناهيك عن صعوبة الحصول على العلف.

وأثناء الاستعداد للحملة، أرسل أحمد باشا إلى يوسف بك قائد الفرقة الأولى في كردفان ليبعث بالكتيبة الثالثة لمركز التجمع في الخرطوم. وكانت هذه الكتيبة قد جاءت

---

(١) يبدو أن المؤلف لم يشارك بنفسه في الحملة، لكنه استمد المعلومات عنها من شخص آخر ساهم فيها. وكما جاء في مقدمة المترجم فإن شاهد العيان الوحيد هو ويرن في كتابه: (Feldzug Von Sennar rach Taka) والذي ترجم (جولات أفريقية). غير أن ويرن أفسد روايته بغروره وسوء نيته. أما (تاريخ ملوك السودان) فقد جاء خالياً تماماً من أي ذكر للحملة. وثمة نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة تتناول تاريخ الهدندوة، وتتضمن حكايات عن حروبهم ضد الأتراك، في ملفات الحكمدارية في كسلا. وتجدني جد ممتن للحاكم السابق، السيد ميرغني الأمين لتفضله عليّ بمقتطفات منها.

إلى السودان مع الفرقة الأولى عام ١٢٣٩ هـ[٢]، وتم تعزيزها عدة مرات. وكما هو الحال مع الفرقة نفسها، فإن جميع الجنود في الكتيبة كانوا من الزنوج الذين ما برحوا كردفان مطلقاً إلا في حالة الإغارة على الزنوج في الجبال المجاورة، ثم العودة إلى مراكزهم مرة أخرى. والأمر الآخر هو أنهم كانوا جميعاً متزوجين، سمحت لهم الحكومة بحياة الاستقرار في منازل خاصة لأن احتمال استدعائهم إلى القاهرة كان بعيداً.

شعر هؤلاء الزنوج بما كان يجري من استعدادات، فأبدوا عدم ارتياحهم، وهددوا بالتمرد إن هم أجبروا على التحرك نحو الخرطوم. وتصنع يوسف بك النزول إلى رغبتهم تفادياً للتمرد، ثم وعد بالرد على الباشا بأنه في حاجة إليهم نظراً لتردي الأحوال الأمنية في الاقليم.

وبعد حوالي مائة يوم، أمر يوسف بك جنوده بتسليم الأسلحة للمخازن بحجة أنها قديمة يجب إرسالها ألى القاهرة والحصول على أسلحة أخرى جديدة بدلاً عنها. وسلمت الأسلحة وطال انتظار الجنود للأسلحة الجديدة دون جدوى. ثم صدرت أوامر صارمة لجنود الكتيبة الثالثة بالتحرك تحت التهديد بضربهم وتمزيقهم بالقنابل العنقودية. وهكذا وقعوا في الفخ، فما وجدوا بداً من التحرك مع أسرهم بعد أن باعوا ممتلكاتهم التي عجزوا عن حملها. أما الأسلحة فقد صرفت لصف الضباط لأنهم لم يعترضوا على الأوامر، شأنهم في ذلك شأن الضباط. وساروا إلى الخرطوم تحت حراسة مائتين من الفرسان، وسلمت لهم الأسلحة من جديد عند وصولهم.

الزحف إلى كسلا:

وجاءت الكتيبة الثامنة في الزمن المحدد عن طريق البر وعسكرت في قبة خوجلي. وبعد أيام قلائل انضمت إليها الكتيبتان الثالثة والخامسة[٣] مع مجموعتين من الفرسان بقيادة شخصين تجمعهما صلة قربى، ويعرفان بالأدغم. ونحو نهاية ذي الحجة ١٢٥٥ هـ (فبراير / مارس ١٨٤٠) شدت القوات المشتركة الرحال صوب الدامر حيث توقفت في انتظار الباشا الذي انضم إليهم بعد أيام وقد اصطحب حسن خليفة حتى لا يذهب في

---

(٢) دخلت الفرقة أمدرمان في صفر ١٢٤٠ هـ (سبتمبر / اكتوبر ١٨٢٤)، (تاريخ ملوك السودان، ص ٢٦).

(٣) التابعتان للفرقة الأولى.

غيابه إلى القاهرة ويشكوه لذى الإدارة المصرية.

على أن تحوط أحمد باشا راح أدراج الرياح لإصراره على حسن خليفة ليمضي في البحث عن كنز بركة عند وصوله ألى كسلا. وأعاد حسن رده القديم بأنه لا يعلم شيئاً عن الكنز، ثم انه لا يستطيع أن يبحث عنه وهو مراقب. وطلب من الباشا إطلاق سراحه ليذهب بنفسه إلى الصحراء وينتزع الكنز من البشاريين. وتجددت شراهة الباشا، فسمح له بالبحث عن الثروة التي طالما تمنى الحصول عليها. وفر حسن هارباً عن طريق بربر إلى الصحراء العريضة، وشق طريقه وسط منطقة البشاريين إلى القاهرة بعيداً عن المدن.

وصل أحمد باشا إلى الدامر، وهي قرية كبيرة على مصب نهر عطبرة بجيش يقدر بحوالي سبعة آلاف وبضع مئات، وأربعة مدافع. وزحف في محاذاة نهر عطبرة حتى قوز رجب وما بعدها دون أي عائق. وحط الرحال بعد بضعة أيام في كسلا، وهي أيضاً قرية كبيرة تبعد مسافة ساعات من غابة كثيفة يصعب اختراقها. ومكث أحمد باشا هناك أياماً للراحة وجمع بعض المعلومات عن موقع العدو وخطوط المواصلات.

الهدندوة يقاومون:

وذات صابح ترك أحمد باشا المعسكر تحت الحراسة بقوته مزودة بمدفعين في محاولة لاختراق الغابة من عدة جهات. وقام العدو بصده في عنف وتفوق على الفرسان والمدفعية بفضل العوامل الطبيعية، فلم يبق لأحمد باشا غير المشاة في مواجهة الهدندوة الذين خبروا المنطقة وبرعوا في المناورة فيها. عندئذ جمع أحمد شتات رجاله من الأحراش واتخذ لنفسه مكاناً فوق الصخور المطلة على الغابة وأخذ يطلق النار عليها. وفشلت خطته تلك لأن الهدندوة تستروا بالأشجار فلم يصبهم سوء. وعاد أحمد إلى المعسكر في المساء عودة محارب مهزوم، وحصن موقعه ببناء زريبة من الشوك.

وبعد أيام أخرى، تحرك الباشا من المعسكر لمعاودة الهجوم على الأحراش عن طريق منعطف آخر. ورغم ضيق المساحة التي يستحيل معها إجراء المناورات اللازمة، إلا أنه استطاع الوصول إلى قرية في منتصف الغابة خالية تماماً من السكان، فأحرق المنازل ومزارع الذرة والدخان حولها. ولما باءت محاولاته لقطع الأشجار بالفشل، جرب إحراقها لكنها كانت خضراء رطبة لا تندلع فيها النيران.

وأعيت أحمد حيل الحرب، ففكر في استعمال الخديعة. وكتب إلى زعيم الهدندوة

وكان يدعى محمد دين[٤] عن استعداده للتفاوض من أجل إبرام اتفاقية سلام. ورد محمد دين بأنه لن يفكر في ذلك مطلقاً، وطلب منه العودة إلى وطنه بدلاً من الحديث عن السلام. ثم أعلن صراحة عدم رغبته في الحديث إليه لأنه لا يثق بالأتراك. وأثناء ذلك كله كانت المعارك تدور لصالح الهدندوة، فقد ظلوا يشنون غارات ليلية أقلقت راحة الغزاة، وتوغلوا حتى نهر عطبرة لضرب خط الإمداد في قوز رجب. وفي إحدى تلك الغارات، ألحقوا أضراراً جسيمة بنحو أربعمائة من المغاربة كانوا يحرسون هذا الخط.

ومع ذلك ازداد أحمد تصميماً على هزيمة القوم. لقد جرب الحرب ثم الخديعة، فلا بأس من أن يجرب ورقته الأخيرة ألا وهي الدين. فاستدعى قاضي الخرطوم[٥] إلى كسلا ووجهه بالكتابة إلى فكي[٦] كان موضع احترام الناس هناك.

ولقد تضمن الخطاب إلى الفكي تذكيراً بعدم جواز قتل المسلم لأخيه المسلم لأنه أمر بغيض لا يرضى الله، فالقرآن نفسه يأمر بمحاربة الكفار وحدهم. وجاء في الخطاب أن أحمد باشا لم يأت إلا بأمر من السلطان، حامي الأراضي المقدسة، والذي ما فتىء يناشد أتباعه جميعاً الوقوف صفاً واحداً ضد الكفار. إلا أنهم، خلافاً لذلك، ضلوا الطريق القويم، وما أدركوا عظمة السلطان، وهو من بعثه الله ورسوله على الأرض لقيادة المؤمنين وحمايتهم من الأعداء. وتمضي الرسالة لتقرر أنه وفقاً للإرادة الإلهية فإن دفع الجزية للسلطان واجب، سيما وأنها لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من أرباحهم ومنتجاتهم. غير أن الجزية لم تقدم للسلطان حتى اللحظة، وهذه بدعة وضلالة. ثم أضاف الخطاب أن أحمد باشا ما جاء إلا لهذا الغرض، وناشد القوم أن يثوبوا إلى الرشد ويعلنوا التوبة. وعبر القاضي عن أسفه للدماء التي سفكت بين أخوة جميعهم مؤمنون، وقال انه قد سمع

---

(٤) ابن موسى، سليل البيت المالك في ود العلياب الذي لا زال يمد القبيلة بالزعماء.

(٥) مصطفى بن أحمد السلاوي، كان والده عالماً جاء إلى السودان مع جيش إسماعيل باشا الغازي عام ١٨٢٠ - ٢١. أصبح مفتي المذهب المالكي في السودان. وبعد عودة الأب إلى مصر خلفه الابن في مجال القضاء. وقد وصفه ويرن بأنه كان من دهاة رجال الحاشية (جولات أفريقية، الجزء الثاني، ص ٢٥٢).

(٦) ربما يكون الفكي المعني هو الزعيم الديني الكبير محمد عثمان الميرغني (١٧٩٢ - ١٨٥٣) مؤسس الطائفة الميرغنية أو الختمية، وجد الزعيم الحالي للطائفة السيد محمد عثمان الميرغني. وقد أقام الجد في قرية تسمى الختمية على سفح جبل اللوس في نفس السنة التي دخل فيها الأتراك السودان. وقد ظل زعماء العائلة من بعده، والذين ورثوا احترام وقداسة الزعيم الأكبر، على ولاء لا يتزعزع للحكومة المصرية، مما عرضهم لضروب من النفي والمعاناة في ظل المهدية.



الناس يتحدثون عن الفكي باعتباره مثالياً في إسلامه ومشهوداً له بالتقوى والصلاح، يقيم الصلوات في مواقيتها، ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة في سخاء. لذلك، قال القاضي انه شعر بالاحترام نحوه، وقرر الكتابة إليه آملاً أن يعمل على إحلال السلام بين الجميع.

وضمن القاضي رسالته رجاء للفكي أن يقنع محمد دين بالحضور لمقابلة الباشا تحت مسؤوليته الشخصية عن أي ضرر يلحق به. بل ان الباشا، على النقيض من ذلك تماماً، سوف يرحب بمحمد دين كأخ، لأنه مثله مثل أي مسلم قلبه عامر بالحب لا يميل إلى استعمال الشدة تفادياً لإراقة دماء المسلمين. وختم القاضي الرسالة قائلاً ان الباشا قد اغتبط حين علم بنيته في الكتابة إلى الفكي. ثم أرسلها مع رجل دين من كسلا ومعها مصحف حسن الخط فخم التجليد.

وحين تسلم الرسالة والمصحف، صدق الفكي كل كلمة خطها يراع القاضي، وشرع في استعمال نفوذه في إقناع محمد دين وبقية الشيوخ بالاستسلام. وتسلم محمد دين، في نفس الوقت، خطاباً من الباشا مفاده أنه لم يشأ اللجوء إلى العنف احتراماً للقاضي، وأعرب عن أمله في أن يستسلم بالتي هي أحسن، لأنه لم يأت إلا طاعة لأمر الله. وأضاف بأنه لا يقصد به سوءاً، وإنما يسعى للتشاور معه وترتيب أمر الاتاوة التي لا يراها مجحفة في حق المؤمنين.

لم يكن محمد دين ولا بقية الشيوخ يعلمون شيئاً عن الأتراك، فما سبق لهم التعامل معهم. لذلك اجتمعوا فيما بينهم وقرروا مقابلة الباشا في معسكره من أجل تخفيض الاتاوة إلى أقل ما يمكن. وبعد ثلاثة أيام حضر إلى المعسكر اثنان من الشيوخ يرافقهم أحد أقرباء محمد دين، فاستقبلهم أحمد باشا في كرم وبشاشة. وبعد أن تناولوا معه الطعام، منح كلا الشيخين جبة حمراء وطاقية وسيفاً. وكان من نصيب قريب محمد دين جبَّة(٧) حمراء مرصعة بالذهب مع طاقية مثل التي يلبسونها في السودان(٨)، وشال من الكشمير، وسيف أكثر جودة ليحمله هدية لمحمد دين.

واجتمع بهم الباشا، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى حل يرضيهم. وعبر الباشا عن أسفه لغياب محمد دين، وبعث له برسالة رقيقة يرجوه فيها الحضور. وأخيراً اقتنع محمد دين،

---

(٧) رداء ذو أكمام.

(٨) قبعة، مطرزة أحياناً.

وذهب إلى الباشا الذي استقبله بحفاوة بالغة وأغدق عليه الهدايا، غير أنهما لم يتوصلا إلى اتفاق في حينه. وفي اليوم التالي أبرمت الاتفاقية، فكانت أشبه بالوفاق بين الذئب والحمل. بعدها بقليل، اعتقل محمد دين واقتيد وهو يرسف في أغلاله. ثم أمروه بأن يكتب لشيوخه بضرورة حضورهم ومعهم الاتاوة المقررة. ولكن محمد دين كتب إليهم محذراً إياهم من مثل هذا العمل، أما هو فقد بلغ به الكبر حداً لا يخشى معه الموت. وبذلك انتهت أية علاقة تربطه بالأتراك.

تجتاح هذا الجزء من البلاد سيول هائلة في فصل الخريف، تنحدر من الجبال على الحدود الحبشية. وتغمر المياه المنطقة كلها على هيئة فيضانات، ثم تصب في النهاية في البحر الأحمر قرب سواكن[٩]. أما خلال الفصول الجافة الأخرى، فإن المجاري تبقى خالية من المياه. ويلجأ الناس هنا إلى تغيير اتجاه المياه أثناء الفيضان بحفر قنوات لري أراضيهم كل عام.

واتجه تفكير أحمد باشا إلى إخضاع الأهالي عن طريق حرمانهم من الماء الذي يشكل عصب الزراعة عندهم. فأنشأ سداً عالياً على نهر القاش لتحويل تدفق المياه على المنطقة. على أن المجهود المضني الذي بذله أحمد باشا لمدة شهرين صار أثراً بعد عين، حيث جرف الفيضان السد والحواجز المساعدة، فأصبح السد مصدراً لكثير من الأغاني الساخرة[١٠].

وكلف أحمد باشا كاشف كرري سليمان بمهمة اقتياد محمد دين إلى الخرطوم

---

(٩) يروي دلتا خوربركة، الذي يصب في البحر جنوب سواكن بحوالي خمسين ميلاً، حقولاً واسعة من القطن. وكان الاعتقاد سائداً آنذاك أن خور بركة وخور القاش، الذي حاول أحمد باشا إقامة السد عليه، ينبعان من مصدر واحد. ومن الذين سلموا بهذا الاعتقاد ويرن (جولات أفريقية، الجزء الأول، ص ٢٩ و ١٧٤). وتؤيد ذلك الافتراض أيضاً الخارطة على الصفحة الأخيرة من الكتاب. وبعدها صمم هـ. كيبرت خارطة أخرى عام ١٨٥٦ : (Kart Von Lander am Obern Nile «1: 500. 000») يجعل فيها أعالي خور بركة تصب في القاش على الأجزاء الجنوبية من جبل اللوس، بينما نجد مجرى سيول يسمى أوقير بالقرب من أركويت يتجه نحو البحر الأحمر في مكان خور بركة. والقاش كما يوضحه كيبرت يلتحم بخور الهودي (الذي يسميه المقرن)، وهذا بدوره يصب في نهر عطبرة قبل اقترانه مع النيل بقليل. أما و. مانزجر فقد زعم أن ذلك الخور الكبير الذي يأتي من الجنوب الغربي، ويجف على الرمال قرب سواكن، ينبع من الحبشة ويسمى موريب.

(١٠) يذكر ويرن أن الهدندوة دمروا السد ليلاً (جولات أفريقية، الجزء الثاني، ص ٢١٥).

تحت حراسة مائتين من الفرسان. وعلم الهدندوة بذلك وعقدوا العزم على قفل الطريق لتخليص زعيمهم. غير أن الزمن لم يسعفهم، لسوء حظهم، فقد كان سليمان عند نهر عطبرة قبالة قوز رجب قبل المغيب، حيث عبر النهر وأسرع الخطى نحو الخرطوم. أما الهدندوة فقد وصلوا إلى نفس المكان عند الفجر، وأدركوا عندئذ مصير محمد دين، فأطلقوا العنان لثورتهم حيث أشعلوا النيران في الثكنات على الضفة اليمنى للنهر، وأسروا بعض رجال الفرسان الذين تأخروا عن القافلة لحمل معدات المعسكر. وعند وصول الحرس إلى الخرطوم زج بمحمد دين في السجن بسراية الباشا حيث ظل هناك يتضور جوعاً.

إغارة سليمان أبي نمر على البشاريين ومصرعه:

في هذا الوقت، صدرت توجيهات من أحمد باشا للشيخ سليمان (قاتل بركة) ليقود غارة على البشاريين. وكان سليمان نفسه هو الذي أوعز للباشا بهذا الأمر مع الوعد بأسر شيوخ البشاريين أجمعين، فصادف ذلك هوى في نفس الباشا.

وتوجه سليمان إلى بربر وجمع نفراً من أفراد قبيلته العبابدة مع مجموعة من الشايقية. ومضى بقوة تتألف من مائتي رجل يركبون الجمال ومدججين بالسلاح. وباغت سليمان البشاريين بهجوم كاسح أصابهم بالشلل وأقعدهم عن المقاومة، فلاذ بعضهم بالفرار وقتل الباقون. وعاد سليمان أدراجه بعد هذا الانتصار محملاً بالأسلاب من الجمال والنساء والأطفال بل وبعض الشيوخ، واستطاع الوصول إلى أبي حمد قبل أن يفيق البشاريون من الضربة فيلحقون به. ولم يترك البشاريون سليمان، بل تابعوه عن كثب وهم يتحينون اللحظة المواتية للانقضاض عليه، فقد صرفوا النظر عن مهاجمته في المناطق الآهلة بالسكان خوفاً من انضمام الأهالي لقواته، فيتفوقون عليهم عدداً رغم كثرتهم.

ومن أبي حمد سار سليمان في محاذاة النيل في اتجاه بربر، بينما كان العدو الخفي يرصد خطواته على يساره في حذر شديد ليغتنم أول فرصة للهجوم. وحينما كان سليمان ورجاله في الأطراف الجنوبية من منطقة الرباطات، وهي المنطقة التي تقع بين بربر وأبي حمد، وبعد أن بارحوا أبا حمد بثلاثة أيام، رأوا مجموعة صغيرة من البشاريين عند سفح جبل ضخم معزول في الصحراء على يسارهم. وعندما شعر سليمان ببسالة القوم، ارتكب خطأ فادحاً حين انعطف عن الطريق يساراً نحو الصحراء لملاقاتهم. وأدرك البشاريون أن حيلتهم قد نجحت، فوقفوا في انتظار قدوم سليمان الذي سعى بنفسه إلى الكمين، وما ان بلغ المكان حتى حوصر بعدد هائل من العدو كان يختبىء خلف الجبال.

ولم يكن هنالك وقت للتراجع فقد أحاط به العدو تماماً، فقاتل في شجاعة حتى هزم. وقتله البشاريون مع عدد كبير من رجاله، وفر من نجا منهم إلى أرض الرباطات. هكذا انتقم البشاريون من الشيخ سليمان واستردوا الشيوخ الذين أسرهم، والأسلاب من إبل ومتاع، ثم عادوا إلى خيامهم في الصحراء.

نهاية المعركة في كسلا:

نعود الآن إلى ما كان يدور في المعسكر بكسلا. فرغم أن الهدندوة وغيرهم من القبائل الأخرى كانوا قد يئسوا من مصير محمد دين واعتبروه مفقوداً، إلا أن ذلك لم يزدهم إلا إصراراً على عدم الخضوع للأتراك. ولكي يبرهنوا على ذلك عملياً، ظلوا يشنون الغارات عليهم ليلاً ونهاراً في المعسكر، وكانوا ينهبون الأبقار التي تجنح خارج المعسكر. وانزعج الباشا لذلك الوضع الذي كان أشبه بالحصار، وملأ اليأس قلبه لفشله في جميع خططه للسيطرة عليهم بما فيها قطع إمداد المياه عنهم في شعبان ١٢٥٦ هـ (سبتمبر / أكتوبر ١٨٤٠) قرر أن يستجمع قوته كلها للهجوم على الغابة وبسط سيطرته عليها.

وذات صباح باكر خرج الباشا بقواته التي قسمها إلى ثلاثة فيالق، وكلف كل فيلق بمهمة محددة. ثم بدأ في قصف الغابة بالبنادق والمدافع. وتوغل المشاه داخل الأشجار بينما بقي الفرسان بالخارج، وذلك بغرض طرد الثوار من الغابة والقضاء عليهم بسلاح الفرسان. ونالت هذه الخطة نصيباً من النجاح، ولكن العدو، مع ذلك، قاوم بشراسة وذكاء وكبد الغزاة خسائر كبيرة، فقد وصل فرسان أحمد إلى مساحة خالية من الأشجار كانت تستعمل مطامير للذرة والدخن. وأراد الفرسان المناورة فوق تلك المساحة دون أن يتبينوا الحفر، فوقعوا فيها بخيولهم، وانقض عليهم العدو وأجهز على غالبيتهم.

وكاد أن يلقى حتفه بهذه الطريقة ضابط يقال له عمر كاشف خاربتلي كان الباشا يرشحه حاكماً لكسلا، لولا أن أنقذه بعض الشايقية. فقد هوى الرجل بحصانه في حفرة، فأسرع إليه بعض الرجال من الهدندوة للقضاء عليه، سيما وكان يبدو من هندامه أنه من كبار القوم. وتصدى للرجال أثنان من مماليك الضابط فقتلا. وحاول الضابط الخروج من المأزق، ولكن أجزاء جسمه تشابكت بالحصان فما وجد طريقة للفكاك. وهرع إليه أعداؤه وحاول أحدهم قطع رأسه بمطواة وسبب جرحاً عميقاً في مؤخرة عنقه امتد من أحد الشريانين السباتيين إلى الآخر دون قطعهما، فقد انحرفت المطواة مع حركة الحصان

لينقذه رجاله من الذبح. وكان من الممكن أن يشهد ذلك اليوم نهاية سلاح الفرسان بكامله لولا أن استدعى أحمد باشا المشاة لنجدتهم. وجاء أفراد المشاة وانتشلوا الرجال من شراك الموت تلك، وحملوا عمر كاشف إلى المعسكر.

أما أفراد الفيلق الآخر الذين كانوا داخل الغابة، فقد دافعوا عن أنفسهم في معاقلهم الضيقة مع أن العدو كان يحاصرهم من كل ناحية. ورغم أنهم نجحوا في استدراج بعض أفراد الهدندوة إلى خارج الغابة حيث كان سلاح الفرسان يقف لهم بالمرصاد، إلا أنَّ كثيرين منهم اختفوا خلف الأشجار الكثيفة، فذاق جنود الباشا الأمرين من عدو لا يرونه. صحيح أن الجيش ظل يطلق وابلاً من الرصاص، ولكن دون هدف، إذ لم تصب الطلقات غير القليل من أفراد العدو وتاهت معظم الطلقات بين الأشجار. عند حلول الظلام، فقد أحمد باشا الأمل في حسم المعركة لصالحه، فأمر بانسحاب الجنود إلى المعسكر. وانتهت المعركة بخسائر كبيرة خصوصاً في جانب قوات أحمد.

وفي اليوم التالي بادر أحمد باشا بالهجوم على عدوه من جهة أخرى. وحالفه الحظ هذه المرة، فتوغل داخل الغابة أكثر مكتسحاً العدو، فدمر قريتين وأحرق الزرع حولهما. ثم عادت قواته في المساء إلى المعسكر وقد لحقت بها بعض الأضرار.

ووجد الباشا جنوده في حالة أفضل مما كانوا عليه في اليوم السابق، فصمم على مواصلة الضغط على العدو. لذلك أعد قوة مجهزة بمؤن تكفيها لمدة خمسة أيام، وتحرك بها بعد أن أحكم الحراسة على المعسكر. ولم تجد القوة مقاومة تذكر أثناء توغلها داخل الغابة لمدة ساعتين تقريباً.

وكان الإرهاق واليأس قد أصابا الهدندوة نتيجة لسياسة النفس الطويل التي اتبعها الأتراك معهم خلال فترة امتدت ثمانية شهور. بل انهم صاروا يتمنون أن يقبل أحمد بالشروط القديمة لإحلال السلام، فبعثوا إليه نفراً يعرضون عليه التفاوض بشرط واحد هو أن يتراجع بقواته إلى المعسكر أولاً. وفي اليوم التالي تم التوصل إلى صيغة اتفاق يقضي بأن يبقى اثنان من الكشاف مع قوتيهما في المنطقة، وأن يدفع الهدندوة ضريبة سنوية من الملابس والأبقار والجمال والذرة بمقدار يكفي لإعاشة الجنود والموظفين وهكذا أبرمت الاتفاقية، ووافقت عليها الحكومة التركية، وعين أحمد باشا أحد الهدندوة شيخاً للمشايخ بدلاً عن محمد دين[١١]. ومن ثم أوكل أمر القيادة العليا للأقليم الجديد، الذي أصبح

(١١) إبراهيم، شقيق محمد دين ووالد الناظر المعروف موسى إبراهيم.

مديرية كباقي المديريات، إلى عمر كاشف، وصارت كسلا عاصمة لها ومقراً للكتيبة الثالثة التابعة للفرقة الأولى بالإضافة إلى مائتين من الشايقية، وعدد مماثل من المغاربة والأتراك.

فرغ أحمد باشا من مسألة التاكا وتوجه إلى الخرطوم ما بين نهاية شعبان وبداية رمضان عام ١٢٥٦ هـ (نهاية أكتوبر ١٨٤٠) مع بقية أفراد جيشه الذين أصيبوا بالحمى والالتهابات المختلفة بسبب سوء الطقس ونقص في الأسرَّة. فقد كان الجنود يتوسدون الثرى نحو ثمانية أشهر ونيف في عام اتسم دون غيره بالأمطار الغزيرة والسيول التي غمرت المعسكر. ومات البعض وأصيب من بقي منهم على قيد الحياة بقروح في الأرجل، وهو نوع من الأمراض منتشر في اليمن.

لدى وصوله إلى قوز رجب، سلم أحمد باشا القيادة إلى زهراب بك الذي كان قد عين لتوه قائداً للفرقة الجديدة التي أنشئت في الخرطوم، ثم واصل سيره مع قوة صغيرة من الفرسان إلى منطقة العطيش، بينما عاد الجيش القادم من التاكا إلى الخرطوم عن طريق الدامر. وأرسلت المراكب إلى الدامر لنقل الجرحى والأمتعة إلى الخرطوم.

وأقام الجيش معسكراً في قبة خوجلي، ومن هناك عبرت الكتيبة الخامسة النيل لتستقر في ثكناتها بالخرطوم. كان ذلك في النصف الأول من شهر شوال. إذن فقد قضت الكتيبة أحد عشر شهراً خارج الخرطوم. وعادت الفرقة الثامنة إلى مقرها في ود مدني، بينما افترقت عنها الفرقة الأولى هناك وواصلت السير حتى مركزها في سنار. أما مجموعات الفرسان المختلفة فقد تم توزيعها على مراكزها المنتشرة بين الحلفاية وبربر. وأخيراً وصلت المراكب تحمل المرضى الذين بلغوا أقصى درجات الوهن، إلى الخرطوم وحمل منهم حوالي ألف وثلاثمائة ما بين جريح ومريض إلى المستشفى المركزي.

انتفاضة رفاعة بن روف:

في شهر ذي القعدة، أي بعد شهر من عودة الجيش، حضر أحمد باشا بعد أن أكمل طوافه ابتداء من قوز رجب فالعطيش، فالروصيرص ثم الخرطوم. ولكي نقف على دوافعه لتلك الجولة، علينا أن نستعيد ما كان يدور على مسرح الأحداث قبل مغادرته إلى التاكا.

كان عرب رفاعة في حالة عصيان قبل أن يتحرك الباشا إلى التاكا، وذلك بسبب موت الشيخ سليمان ابن روف في الخرطوم كما أشرت سابقاً. ومما زاد الشعور بعدم الرضا تحريض أقرباء الشيخ لأشياعه بأنه قد مات مسموماً. فصار التنقل في المنطقة

محفوفاً بالمخاطر رغم أن رجال القبيلة لم يتعرضوا لأحد بسوء.

وأراد أحمد باشا وضع حد لهذا التمرد المتصاعد قبل أن يتوجه إلى التاكا، فأمر فرهاد بك بالتوجه إلى الروصيرص لبذل كل ما في وسعه في تهدئة الخواطر. وتحرك فرهاد بك من ود مدني ونصب خيامه في الروصيرص لأنها بلدة مهجورة ليست بها منازل. وبدأ فرهاد يستجوب كل من تقع عليه عينه من الناس عن أسباب السخط والتمرد. وقد وجد صعوبة بالغة بادىء الأمر في التفاهم مع أفراد القبيلة، ولكنه استطاع أخيراً الإلمام بالدوافع الحقيقية. لقد تبين له مدى تأثير أشقاء وأقرباء سليمان على الناس، فشرع في الحال في استدعاء هؤلاء الأقرباء تحت وعود كاذبة. وعندما حضروا جميعاً، أوثقهم بالقيود وقتل منهم سبعة رجال.

وتمكن أحد أشقاء سليمان، وكان يدعى محمود، من الهروب إلى أحمد باشا في التاكا شاكياً له سوء معاملة فرهاد بك لهم. وتوجس الباشا خيفة من نفوذ محمود القوي بين أفراد قبيلته الضخمة، خصوصاً وقد كان في ذلك الوقت متورطاً في حرب التاكا بكامل جيشه. لذلك أراد إرضاء محمود اتقاء لشره، فأعطاه رسالة إلى فرهاد بك. كانت الرسالة كلها إساءات موجهة لفرهاد، وتهديداً بتوقيع أقصى العقوبات عليه، إذ كيف يتجرأ على قتل أشقاء وأقرباء محمود؟ وفي الرسالة تذكير لفرهاد بأنه لم يوفد لتلك المنطقة لقتل أفراد القبيلة وإنما لتهدئة الناس وإحلال السلام. ثم ضمن الرسالة بعض العبارات الأخرى التي تسيء إلى فرهاد، وأشار على محمود أن يحملها مفتوحة إلى فرهاد بك بيده.

اعتقد أحمد باشا حين أرسل الرسالة بهذه الطريقة أن فرهاد بك سوف يقرأ ما بين السطور فيفطن إلى مغزاها. غير أنه كان مخطئاً في اعتقاده، لأن فرهاد بك، وقد جاءته الرسالة مفتوحة، لم يستبعد أن يكون كثير من الناس قد اطلعوا عليها. والرجل، فضلاً عن ذلك، لم يكن من النوع الذي يتحمل مثل هذه الإساءات حتى ولو كانت من الباشا العظيم نفسه. فالتفت إلى محمود ضاحكاً وقال:

«يريد أحمد أن يبدو في مظهر الإنسان النظيف، ويريد في نفس الوقت أن يصفني بالنذالة. وأعلم أنني لم أفعل ما فعلت إلا بتعليمات منه. وإذا أردت أن تتأكد من صدق ما أقول، فهاك أقرأ». وناوله الرسالة نفسها.

وقرأ محمود الرسالة، وتيقن أنها خادعة فعلاً، وشعر بالخوف. فأزال عنه فرهاد مخاوفه بقوله:

«يهدف أحمد من هذه الرسالة إلى أن أعاملك مثل أخوانك. وربما قرأتها لأحد، وقد أعطاك إياها مفتوحة. ولكنني أطلق سراحك حتى لا يبدو أحمد عادلاً، ويظنني الناس طاغية».

وجلس فرهاد بك وكتب رسالة غاضبة إلى أحمد باشا محتجاً على عبارات التوبيخ التي ضمنها رسالته، فهو لم يفعل أكثر مما أمر به. ثم اقترح على الباشا أن يبعث بشخص آخر يقوم مقامه إن كان يغضبه تنفيذ تعليماته.

فرهاد بك يموت مسموماً:

كان أحمد باشا شخصاً متكبراً معتداً بنفسه، فضايقه أن يخاطبه أحد مرؤوسيه بهذه الطريقة. ولكنه تصنع عدم الاكتراث لعلمه بطباع فرهاد بك. وعلم أحمد فيما بعد، أن فرهاد بك قد اطلع محمود على الرسالة حتى يبرىء نفسه، فعقد العزم على تحطيمه ولكنه آثر التريث حتى يفرغ من موضوع التاكا. وبعد نهاية الحملة توجه من قوز رجب مباشرة إلى حيث كان فرهاد. واستعد فرهاد للمواجهة فوزع رجالاً على الطريق ينبئونه بقدوم الباشا. وذات يوم جاءه خبر وصول أحمد الذي أخذ طريقه نحو مقر فرهاد دون أن يلوي على شيء. ولم يشأ فرهاد الخروج إليه لملاقاته، بل صمم على عدم إبداء أي نوع من الاحترام تجاهه، فعمد إلى خلع الحزام والحذاء. وعندما صار أحمد على مقربة من الخيمة، كان فرهاد منهمكاً في اللبس من جديد، وكأن الباشا باغته بحضوره. ودخل أحمد ساحة الخيمة، وصعق عندما رأى فرهاد جالساً. وعبر فرهاد عن حرجه دون أن يقف، ثم دعا الباشا أن يترجل لكي يستريح. على أن الباشا كان يعرف فرهاد جيداً، ففهم كل ما كان يدور في ذهنه، فرفض دعوته واستدار آخذاً طريقه إلى شجرة ظليلة بجوار النهر حيث نصب خيمته. وذهب إليه فرهاد وبارك له عودته بالسلامة. وعلى الرغم من أن الباشا استقبله ببرود، إلا أنه لم يرتبك، بل مكث معه وشرب القهوة ومضى إلى خيمته. ولم يعاود فرهاد زيارة الباشا مرة أخرى حتى غادر إلى الخرطوم بعد أن مكث يومين، وترك أمراً لفرهاد أن يعود إلى ود مدني لأن وجوده في الروصيرص لم يعد أمراً ضرورياً.

وفي الخرطوم بدأ الباشا يفكر في طريقة يتخلص بها من فرهاد. لم يستطع أن ينسى احتقار فرهاد له، كما أنه كان يدرك مقدرته على إحباط جميع خططه فيما سأروي بعد قليل. وطرأت له فكرة قتله بالسم فشرع فوراً في إعداد الخطة في سرية تامة.

قدم شخص يدعى هاشم[١٢] كان يعمل محاسباً في فرقة فرهاد بك من ود مدني، فأرسل أحمد السم معه على أن يقوم بدسه لفرهاد شخص آخر يسمى علي أفندي. وكان علي أفندي هذا قد عين حديثاً قائداً للكتيبة الخامسة. أما سعيد هاشم فقد كان إنساناً تافهاً يتملق الباشا ويبدو أمامه بمظهر الصديق الوفي، بينما كانت تربطه بفرهاد صلات وثيقة.

وذات أمسية دعا سعيد هاشم فرهاد بك وجميع القواد وبعض الشخصيات الأخرى إلى مأدبة حتى يضمن النجاح لنواياه الخسيسة. وعرف فرهاد بك بنهمه الشديد للشراب. وعندما حان وقت العشاء كان قد بلغ قمة الثمالة. وأثناء تناول الطعام شعر بأوجاع مفاجئة في معدته. وأخذت الآلام تشتد عليه حتى لم يعد يرى أمامه.

وحمله سعيد هاشم إلى منزله. وعندما وضع على السرير صار يئن تحت وطأة الألم. ولم يكن هنالك طبيب واحد في ود مدني فقد استبقى أحمد باشا جميع الأطباء في الخرطوم عقب عودتهم من الحملة بدعوى حاجته لهم في علاج العدد الهائل من المرضى في المستشفى المركزي. وأدرك فرهاد أنه قد سمّ، وأن الفاعل لن يكون غير سعيد هاشم. فأمر الجنود بالبحث عنه، وأقسم أن يقضي على ذلك الخائن قبل أن تفيض روحه. غير أن الجنود لم يعثروا عليه، فقد اختبأ في مكان لم يخرج منه إلا بعد يومين حين تأكد من موت فرهاد ودفنه.

هكذا لاقى فرهاد حتفه، فتحسر على موته كافة أفراد الفرقة وكل من عرفه. فقد كان الرجل عزيزاً أمام الكبار، ومتواضعاً مع عامة الناس بنفس القدر، وعادلاً في جميع تصرفاته وأحكامه. لم يرتكب جرماً في حق أحد كسباً لمودة أحد الحكام، وما أقدم على قتل أولئك النفر في الروصيرص إلا بأوامر من الحاكم، وقد أطلع محمود بنفسه على صيغة الأمر.

كان يقيم في الخرطوم زميل دراسة قديم لفرهاد، رجل بسيط يعيش في فقر مدقع. وعندما قدم فرهاد من القاهرة كان زميله القديم راغباً عن لقائه حياء وخجلاً. على أن ظروف عمله اضطرته، ذات مرة، لزيارة البك بغرض ختم بعض الأوراق الرسمية. وحين مثل أمامه بحلق فرهاد في وجهه، وعرفه، فسأله إن كان هو فلاناً ابن فلان. فلما أجابه

---

(١٢) نزل عالم المصريات البروس س. ر ليبسياس ضيفاً على سعيد في منزله بود مدني عام ١٨٤٤ حيث تناول طعام العشاء ورقص مع الفتيات (Letters from Egypt, 1833, pp. 181 - 2).

بالإيجاب سأله عن المدة التي قضاها في الخرطوم، فرد أن له فيها بضع سنين. وهنا، عاتبه فرهاد بك على عدم زيارته له طوال تلك المدة. وكان رد الرجل أنه موظف متواضع ولا يليق به أن يسعى للقاء كولونيل مثله ربما يغضبه مثل هذا اللقاء. وقال فرهاد انه مخطىء في ظنه فهو لا يفرق بين الناس، والرجال هم صناع المناصب في نظره، وليس العكس. وإذا كان الحظ قد منحه لقب بك فإنه لا يزال فرهاد وسوف يظل كذلك إلى الأبد. ثم عبر له عن سروره لرؤيته مرة ومرات لأنه ليس من الذين يتنكرون لأصدقائهم القدامى. وكانت هذه المشاعر، بطبيعة الحال، غريبة من تركي(١٣)، خصوصاً إذا كان شركسياً مثل فرهاد.

إنشاء فرقة جديدة:

أمر محمد علي باشا، عند زيارته للسودان عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨) أحمد باشا بإنشاء فرقة جديدة للمشاة جميعهم من الزنوج عدا الضباط وضباط الصف. ثم عين زهراب أفندي، بكباش الفرقة الثامنة قائداً لها. أما باقي الرتب فقد ترك أمرها لأحمد باشا على أن يبارك هو التعيين فيما بعد.

قدر أحمد باشا عدد الزنوج الذين يحتاج إليهم في تكوين الفرقة، وذلك عقب عودته من فازوغلي بعد مغادرة محمد علي للسودان. ثم ما لبث أن أمر كل فرد سواء كان ضابطاً في الجيش، أو موظفاً، أو تاجراً، أو مزارعاً بالتبرع بعدد من الزنوج كل حسب قدرته. واستمرت عملية إنشاء الفرقة منذ ذلك العام، أي ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ - ٤٠) حتى نهاية ١٢٥٦ هـ (نهاية خريف ١٨٤٠)، وهو تاريخ عودة أحمد باشا من التاكا. واكتمل العدد الكافي لتكوين الفرقة، فقام أحمد باشا باختيار الضباط من الفرقة الثامنة بعد ترفيع رتبهم. كذلك اختار بعض المصريين والسوريين(١٤) من الفرقة الثامنة صفاً للضباط. وهكذا تم إنشاء الفرقة الجديدة وعين لقيادتها المقدم حسن، وكنيته «زوك»، وكان قبلها

(١٣) يستعمل الكاتب كلمة «تركي» في دلالتها السائدة آنذاك في السودان وتعني أي عضو في الجهاز العثماني الحاكم.

(١٤) جند هؤلاء السوريون في جيش محمد علي خلال الاحتلال المصري لسوريا، ١٨٣٢ - ٤٠، وكان لزاماً عليه إعادتهم بموجب اتفاقية السلام التي أبرمت عام ١٨٤١ بينه وبين السلطان. وعند استمرار السلطات المصرية في تجاهل أمر انصاف المجندين السوريين، تقدم قائد كتيبة وبيطري في الكتيبة الثالثة التابعة للفرقة التاسعة بعريضة للقنصل البريطاني العام في القاهرة (Public Record Office., F. O. 141 - 8).

قائداً للكتيبة الخامسة للفرقة الأولى. أما مهمة القيادة العليا للفرقة، التي استقرت في ثكناتها على الجانب الغربي من المدينة، فقد آلت إلى زهراب بك.

الفيضان والتيفوس:

هطلت أمطار غزيرة عام ١٢٥٦ هـ (صيف ١٨٤٠) وفاض النيلان حتى تدفقت المياه خارج المجرى، فاجتاحت مناطق واسعة داخل المدينة وأحدثت بها خسائر كبيرة. وفي ود مدني، جرف الفيضان عدداً من المنازل، ولولا السدود التي شيدت على عجل لصارت المدينة بأكملها في جوف الماء. وكان الخطر يتهدد الخرطوم بحكم موقعها في منخفض بين النيلين، إلا أن حرص الحاكم ويقظته أنقذا المدينة من الدمار. على أن الحاكم، وكان اسمه أحمد هاشم[١٥]، دفع حياته ثمناً لما بذل من مجهود. لقد بنى الرجل حاجزاً هائلاً على ضفتي النيل لحماية المدينة، وكان يبقى في الموقع يحرس المكان ومعه بساط نومه، ومعطف يتقي به الرياح، ولا شيء غيرهما في مواجهة الأخطار. ولأنه كان قليل الثقة في الحرس الحكومي، فقد جاء بكتيبة من الجنود لمقاومة الفيضان الذي بلغ ارتفاع رجل فوق مستوى المدينة. وظل الحاكم هكذا معرضاً إلى الرياح والأمطار حتى أصابه مرض لم يمهله إلا ثلاثة أيام.

وبعد انحسار الفيضان، بقيت البرك بمياهها الآسنة التي لوثت البيئة. وفي منتصف شوال (النصف الأول من ديسمبر ١٨٤٠) انتشر وباء التيفوس، وهو مرض فتاك يقضي على المصاب في ساعات قليلة. وظل الناس يسقطون على الأرض فجأة كمن أصابتهم الصاعقة، حتى ارتفعت نسبة الوفيات بين المواطنين بشكل مخيف، خصوصاً بين الجنود بسبب سوء التغذية والضعف العام. وقد لاقى ثلث جنود الفرقة الجديدة حتفهم لأنهم ما تعودوا على ذلك النمط من حياة الجنود. وامتلأت الأسرة بالمرضى، بل إن سلطات المستشفى اضطرت إلى حمل الأسرة خارج الحجرات لتفرش الأبسطة مكانها لاستيعاب المزيد من المرضى، فاختلط المرضى بالمجروحين. وحدث ان بعض المصابين ماتوا في الطريق أثناء نقلهم إلى المستشفى.

---

(١٥) ينطق اسمه «هاشمي». وثمة تعريف أكثر دقة له في (تاريخ ملوك السودان، ص ٣٣) حيث وصف بوكيل المديرية، فقد كان نائباً للحاكم مصطفى بك الذي توفي في الخرطوم خلال ذلك الفصل الممطر.

ولم يسلم من هذا الوباء اللعين حتى الأطباء في المستشفى فماتوا أجمعين. ولم ينج من الصيادلة سوى واحد شفي بعد فترة طويلة مثل الطبيب والصيدلي التابعين للفرقة الثامنة واللذين كانا يقيمان في الخرطوم كما ذكرت، فقد قاوما المرض طويلاً، وبعد العلاج، فرا مسرعين إلى ود مدني. وفي نهاية الأمر، بقي طبيب واحد في الخدمة، فقد كان أمراً فوق طاقته. واقترح هذا الطبيب خروج جميع مرضى التيفوس من المستشفى بغرض تغيير الجو. وأصدر الباشا تعليمات بأن يقوم كل شيخ في المنطقة، على مسافة يوم بالمركب من العاصمة، بتوزيع المرضى على المزارعين لإطعامهم. وتم إخلاء المستشفى بعد أن أصبح وكراً للموت، ما حمل إليه مريض إلا وخرج منه ميتاً. واستعاد جميع المرضى صحتهم بعد الخروج من المستشفى رغم غياب أي نوع من العلاج الطبي. بذلك أمكن التخلص من وباء خيم على الخرطوم حتى شهر ربيع الآخر ١٢٥٧ هـ (مايو / يونيو ١٨٤١). أما في بقية أرجاء البلاد، فلم يكن الوباء بمثل خطورته في الخرطوم.

أحمد باشا في كردفان:

في هذه الأثناء، أي في نهاية محرم بالتحديد (نهاية فبراير ١٨٤١) توجه الباشا إلى كردفان للتحقيق في بعض الشكاوى ضد يوسف بك قائد الفرقة الأولى وحاكم الاقليم. وأثناء وجوده هناك، أرسل إلى زهراب بك في الخرطوم ليتحرك بفرقته إلى شندي لمجرد التغيير والترويح عن النفس.

ثم استمر الباشا في تحرياته حول النزاع بين يوسف بك وخصومه. وضمن محاولاته لحسم الأمر، قرر إجراء تغيير في المواقع، فعين يوسف بك قائداً للفرقة التاسعة في شندي على أن يتولى زهراب بك تصريف شؤون كردفان بدلاً عنه. غير أن الباشا حرص، قبل تنفيذ التغيير، على مراجعة الحسابات عن فترة حكم يوسف بك، فأوكل المهمة إلى فرج بك، قمندان الكتيبة الأولى التي كانت ترابط آنذاك في الخرطوم، وهو رجل حبشي الأصل.

تعيين حسن خليفة شيخاً على الطريق الصحراوي:

عاد أحمد باشا إلى الخرطوم، لكنه ما لبث أن توجه إلى بربر بعد أن قام بإنجاز بعض المهام. فوجد هناك حسن خليفة عقب عودته من مصر حيث ذهب إليها للتظلم من الباشا كما نعلم. وجاء حسن هذه المرة يحمل أمراً للباشا من الجناب العالي ليحقق له أمنيته الكبرى ألا وهي تعيينه شيخاً على الصحراء مكان عمه بركة. ولم يجد أحمد باشا

مناصاً من التنازل عن موقفه الثابت بسبب موت سليمان أبي نمر وعين حسن شيخاً. لكنه اشترط عليه البقاء في بربر، وليس مثل بركة يوماً في المعسكر ويوماً في أبي حمد. ووافق حسن على هذا الشرط.

أحمد باشا يضيق الخناق على موظفي الحسابات:

انتهى أحمد باشا من بعض المهام الرسمية في بربر وخرج قاصداً دنقلا. وبعد يومين من وصوله، أمر باعتقال مباشر المديرية توطئة لمراجعة دفاتر حسابات الاقليم. وكشفت المراجعة عجزاً كبيراً، ودلت التحريات أن المباشر قام بتزوير في الضرائب المفروضة على المزارعين. وما ان سمع المزارعون باعتقاله حتى هبوا ليشهدوا على ما أخذه منهم ابتزازاً.

وأمر الباشا بمثول المباشر أمامه، وطالبه برد كل شيء استولى عليه دون وجه حق إلى الخزينة. فأنكر المباشر أن يكون قد فعل أمراً مخالفاً للقانون، وقال انه لم يأخذ شيئاً حتى يعيده. وما كان للباشا وقت النقاش، فأمر على الفور بمصادرة جميع ممتلكات المباشر، ما كان منها في منزله، أو خارج المنزل، ثم أمر بجلده حتى يعترف.

إلا أن الرجل ظل مصراً على موقفه تحت وابل السياط التي انهالت عليه. فأشار الباشا بإحضار ابنه، وكان صبياً في الخامسة عشر، ليتم جلده مع والده. واستمر إصرار المباشر، مع ذلك، على التزام الصمت فلم ينطق بشيء. عندئذ حكم أحمد باشا بشنق الاثنين معاً: الصبي أولاً ثم والده. وعند النطق بالحكم أخذ المباشر يتوسل إلى الباشا ويناشده الرأفة بالطفل المسكين لأنه بريء. ولكن الباشا لم يشأ التراجع عن قرار أصدره. فاقتيدا إلى المشنقة، ووضع الحبل حول عنق الصبي. وحيال منظر ابنه وهو يشنق أمام ناظريه، توقف قلب الأب، وهوى على الأرض جثة هامدة.

وكان المشهد مهيباً بحق هز جميع الحاضرين بمن فيهم الشخص المكلف بتنفيذ الحكم، فقد أجَّل الشنق وجرى نحو المدير. وفكر المدير ملياً ثم توجه إلى الباشا عله يصدر عفواً عن الصبي البريء. ولكن نهم الباشا للذهب كان عظيماً، واعتقاده بأن البماشر كان يخفيه في مكان ما لا يزال يسيطر على تفكيره، فتوقع اعترافاً من الصبي. وما كان أحمد باشا يدرك أن الطفل اليائس الذي يقف تحت حبل المشنقة كان مستعداً في تلك اللحظة أن يفتدي حياته بذهب الدنيا كله. وأخيراً ذهب جمع من الناس إلى المدير يسألون عفو الباشا عن الصبي، وألحُّوا في سؤالهم هذه المرة حتى صدر العفو. فانظر

كيف عانى أناس مسلمون من أجل إنقاذ حياة مسيحي. لقد خيل لهذا الطاغية المتعنت أن في وسع كل امرىء اكتناز الأموال.

وفي طريق عودته من دنقلا، عرج أحمد باشا على المتمة حيث أمر بمراجعة الحسابات. وعند اكتشافه لبعض التجاوزات، أصدر حكماً بشنق رئيس الكتبة، ونفذ الحكم. وفعل مثله في شندي برئيس الكتبة أيضاً حيث اقتاده معه إلى الخرطوم وأعدمه. ومن شندي واصل طريقه إلى الخرطوم ومنها إلى ود مدني. هناك أيضاً تمت مراجعة الحسابات فوجد تقصيراً فيها، فلقي المباشر نفس مصير زملائه في دنقلا والمتمة وشندي.

ثورة أبي ريش(١٦):

أثناء وجوده في ود مدني، سمع أحمد باشا بتمرد أبي ريش احتجاجاً على قراره بأن يدفع ضعف ما قدمه من ضريبة. وحين تمادى أبو ريش في رفضه لتلك الضريبة الباهظة أمر أحمد باشا الكاشف بإلقاء القبض عليه وإرساله مقيداً إلى الخرطوم.

وسمع أبو ريش بما كان يدبر له، ولكنه لم يكن قادراً على الوقوف أمام الباشا. وكان يعلم بوجود عصابة مشهورة على بعد مسافة قريبة من الحدود الحبشية تخصصت في نهب المسافرين وفرض الاتاوات على سكان القرى. وقرر أبو ريش الاستعانة بهذه العصابة بعد إغراء أفرادها بما يمكن أن يعود عليهم من غنائم بعد هزيمة الأتراك. ووافق زعيم العصابة على العرض المغري، وعبر الحدود إلى العطيش مع أبي ريش. وشعر الكاشف باتصال أبي ريش بالأحباش، فجمع ما لديه من رجال قليلين، وسلح بعض الأتراك والتجار المصريين في المنطقة حتى بلغت قوته، بما فيها جنوده أنفسهم نحو سبعين رجلاً. وتحرك بهذا العدد الضئيل إلى العدو، ولو كان حصيفاً لفكر في أن يتحصن في موقعه بدلاً من التقدم.

وفي نفس الوقت كان أبو ريش يزحف نحوهم على رأس قوة من رجال قبيلته يدعمهم رجال العصابات الأحباش، فصاروا في مجملهم أكثر من ألف رجل. وواجهت القوتان بعضهما البعض، وبدأ الكاشف بالهجوم لأنه كان أكثر شجاعة، في حين أنه إذا تريث لأمكنه تحقيق نتائج أفضل. فقد كان العدو مرتبكاً لأنه لم يكن يملك أسلحة نارية. على أنهم حين هجم الأتراك عليهم عمدوا إلى إفساح المجال لهم بغرض محاصرتهم. ونجحت المناورة حيث حوصر الأتراك في حيّز ضيق، فانقض عليهم رجال أبي ريش من

---

(١٦) أي أبو ريش بشير الغول.

كل جانب، وأبلى الكاشف ورجاله بلاء حسناً في المعركة، واستبسلوا لعدة ساعات حتى انهاروا في النهاية نظراً لتفوق العدو الواضح. وفر الكاشف وبعض أعوانه ممن كانوا على ظهور الخيل تاركين بقية الرجال نهبا للقتل والأسر.

وما ان أدرك الكاشف مقره، حتى استدعى جميع الجنود في الاقليم على الفور ثم اتصل بالباشا وأطلعه على ما حدث، فقد كان الباشا في ود مدني كما سبقنا القول. ومعروف أن فصل الأمطار في السودان وقت يصعب فيه السفر، خصوصاً في العطيش، فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بتحرك جيوش، ومع ذلك أدرك الباشا خطورة الظرف فأمر بتحرك الكتيبة الخامسة مع الإمدادات اللازمة إلى أبي حراز، فوصلت إلى هناك بعد أربعة أيام. ولحق بها الباشا من ود مدني سريعاً وانطلق بالقوة، بعد ضم مائتين من الفرسان المغاربة كانوا هناك، قاصداً العطيش.

وانشغل أبو ريش وحلفاؤه بعد الانتصار في إلهاب مشاعر الكراهية ضد الأتراك بدلاً من تعزيز نصرهم على الكاشف وملاحقة فلوله حتى القضاء عليها تماماً. وما دار بخلدهم أن أحمد باشا سوف يأتيهم من الخلف في وقت تحولت فيه الأرض كلها إلى أوحال تغوص فيها أرجل الجنود والخيل حتى الركبة. لذلك ركن رجال أبي ريش إلى الخمول وانصرفوا عن أي نشاط عدا تأليب الجماهير على الأتراك. ولكنهم حين أفاقوا كان أحمد باشا على مشارف المنطقة فانزعجوا كثيراً. أما الحليف الخبشي فقد أطلق ساقيه للريح بمجرد شعوره بالخطر، خاصة وانه لم يظفر بالغنائم كما وعد، ودخل الحدود تاركاً أبا ريش يواجه مصيره وحده. وعلم أبو ريش بزحف الباشا نحوه فجمع ألف وخمسمائة من أفراد قبيلته للمقاومة على أمل أن تأتي أعداد أخرى لنجدته. ومضى أحمد باشا نحو قوات أبي ريش بخطوات واثقة. غير أن أبا ريش لم يبق في مكان واحد، وإنما ظل يتحرك هنا وهناك للتمويه على العدو. واستطاع الباشا في نهاية الأمر من تضييق الخناق عليه فنشبت المعركة بينهما. وصمد أبو ريش لفترة، ثم ولى هارباً مع عدد من أعوانه.

واستولى أحمد باشا على مقر أبي ريش مع كل من فيه من أهل بيته وعدد كبير من أتباعه الذين فاجأهم جيش الباشا دون أن يتمكنوا من الفرار. وفكر أبو ريش أول الأمر في التخلي عن أفراد عائلته الكثر للأتراك واللجوء إلى الحبشة، فقد كان على ثقة من أن الباشا قد باع منهم عدداً غير قليل. ولكنه عدل عن فكرته وقرر تسليم نفسه. صحيح أن الباشا قد يقتله، ولكن احتمال العفو عنه وارد على أي حال. أما إذا تم العفو عنه، فتلك فرصة لكي يشتري ذويه مرة أخرى.

وركب أبو ريش حصانه ذات يوم، وكان عطلة عامة، قاصداً معسكر الباشا الذي كان مجتمعاً آنذاك في خيمته مع أحمد أبي سن والشيخ عبد القادر وأبي جن. وكان الشيوخ قد توافدوا على مقر الباشا قبل أيام لحضور مراسم عزل أبي ريش الذي لم يكن يعرف له مكان منذ هزيمته. فإذا بالأرض تنشق عنه فجأة، فيقف أمامهم بمفرده ممتطياً صهوة جواده ونزل الرجل قرب الخيمة ودخل على الباشا وهو يلف رداءً أبيض حول عنقه دليلاً على الاستسلام وارتمى بين قدميه. واعترف أبو ريش بأخطائه للباشا، ثم وضع رأسه بين يديه ليتصرف فيه كما يشاء. وتدافع بقية الشيوخ نحو الباشا وارتموا أرضاً بين قدميه يسألونه العفو عن أبي ريش. واكتفى الباشا بالإهانة التي لحقت بأبي ريش، فعفا عنه، وعاونه على النهوض.

وتقدم الشيخ أبو سن نحو أبي ريش، وأخذه من يده إلى مقره الخاص بالمعسكر. وهناك سأل أبو ريش أبا سن إذا كان في إمكانه استرداد أفراد عائلته الذين تم بيعهم. فأخبره الشيخ أبو سن بأن الباشا قد رتب كل شيء، فقد فك الرهن على أولئك الذين باعهم للناس، بحيث يتنازل عنهم الملاك الجدد دون أي مقابل.

وقرر أحمد باشا العودة بعد أن حقق أهدافه. وأصيب الجنود بالحمى بفضل الأمطار والرطوبة التي تعرضوا لها. ولم يقتصر الأمر على الجنود، فالباشا نفسه كان في حالة صحية سيئة حيث حمل على سرير إلى أبي حراز، ومنها بالمركب إلى الخرطوم. وهكذا أسدل الستار على ثورة أبي ريش، والحملة التي أعدت لإخمادها(١٧).

---

(١٧) ضمن رسالة موجهة إلى خبير الاستشراق ي. ف جومارد من الاسكندرية في ٣٠ مايو ١٨٤٢، قال أرتين بك سيكياس، السكرتير الأول لمحمد علي، ان أحد زعماء العطيش السود كان قد هاجر من زمن إلى الحبشة حيث رحب به الملك، واعتبر العطيش والاقليم بأكمله حتى سنار أراض حبشية. واستطاع ذلك الزعيم بمعاونة الأحباش غزو إقليمي القلابات والعطيش لأنه كان يخطط لإقامة مستوطن للهاربين من السودان. وفي تقريره عن شهر محرم (فبراير / مارس ١٨٤٢) أوضح أحمد باشا أن عمليته العسكرية ضدهم كانت ناجحة. فقد أدرك أحمد خطورة الموقف على الحدود، وتوجه أولاً إلى الروصيرص. ثم بعد مسيرة ستة أيام منها وصل إقليم القلابات ليسمع نبأ هزيمة الأحباش على يد قائد (كاشف) ذلك الإقليم. وعلى أثر ذلك قبل الزعيم الثائر عفو أحمد باشا له، فعاد من الحبشة، وأنعم عليه بكسوة شرف. ومضى أحمد قدماً في الهجوم على الأحباش فدحرهم، وأسر منهم أعداداً هائلة، واستولى على نحو ألف وخمسمائة رأس من الماشية. ثم عرض أحمد الصلح عليهم شريطة أن يعيدوا ثمانية آلاف عائلة لجأت إليهم من السودان. (Bill. Soc. Georg . de Paris, Ze Ser., XViii, 1842, pp. 135-7) ولا تختلف هذه الرواية كثيراً عن الرواية الرسمية لحادثة أبي ريش مع أن المؤلف يرويها عن طريق غير مباشر بعد تداولها للمرة الثانية أو الثالثة كما يبدو.

الفصل الخامس

المثل، والسلوك، والعادات عند السودانيين[1]:

يعرف السودانيون باعتقادهم في السحر، الأمر الذي جعلهم يؤمنون بوجود سحرة في سنار وما وراءها. ويروى أن ساحرة من أولئك وجدت عشيقها في كوخ مع امرأة شابة وهما يشربان المريسة. وغضبت الساحرة، وكان انتقامها سريعاً حيث مسخت المحبوبة الجديدة إلى متسولة. أما الرجل فلم يجد أعضاءه التناسلية في موضعها، ولم يستردها ثانية إلا بعد إعلان توبته أمام الساحرة، وتعهده بعدم الاتصال بامرأة غيرها مرة أخرى.

ويسود الاعتقاد بين الأهالي هنا أن للساحرات قدرة على التحول إلى ضباع ونمور وتماسيح وغيرها من الوحوش الفتاكة. لذلك فإن من يتعرض لهن بسوء هالك لا محالة. والقصة التالية عن جاويش أساء معاملة إحدى الساحرات في سيرو. وبينما كان الجاويش يغط في نومه، شعر بآلام حادة في معدته، فاستيقظ. وخيل إليه أن وحوشاً مفترسة تأكل في أحشائه. ومن خلال توجعه وعذابه تذكر الجاويش أنه قد أساء إلى امرأة ذلك اليوم، فأيقن أنها لا بد أن تكون ساحرة، وسارع الرجل بتكليف أحد أصدقائه بالبحث عن تلك الساحرة، واسترداد أعضائه الحيوية منها بشتى السبل، فقد تأكد تماماً أنها قد أخذتها وتركت جوفه فارغاً.

وتوجه الصديق إلى كوخ الساحرة. ولم يجد الساحرة، ولكنه رأى قطة سوداء ضخمة تلتهم أمعاء الجاويش المسكين، فأدرك أنها الساحرة نفسها. وجثم الرجل على ركبتيه أمام القطة وأخذ يسألها المغفرة لصديقه والرحمة به باسترجاع الأعضاء المفقودة إلى

---

(١) عنوان وضعه المؤلف نفسه.

أمعائه. وبعد برهة مرقت القطة من الكوخ كالسهم وهي تحمل الأمعاء في فمها. وما هي إلا لحظات حتى دلفت الساحرة، حاملة سلة لم يتبين الرجل محتوياتها للوهلة الأولى، وسألته عن سبب زيارته. فأفضى لها بكل شيء طالباً منها الرحمة بصديقه الجاويش. فردت الساحرة في نبرات حادة أنه لا أمل مطلقاً فيما يطلبه، بل أضافت أنها سوف تشوي أمعاء الجاويش على نار هادئة أمام صديقه حتى يزداد عذاباً فوق عذابه. ثم أخذت قطعة من الكبد وألقتها على الجمر وهي تتمتم ببعض العبارات المبهمة.

ولم يتمالك الرجل نفسه فارتمى بين قدمي الساحرة باكياً ومسترحماً، على أن ذلك كله لم يحرك فيها شعرة واحدة. أما صاحبنا الجاويش فقد استمر في آلامه وأوجاعه. وأخيراً لجأ أصدقاؤه إلى أحد خلصاء الساحرة لكي يقنعها بوضع حد لشقائه، فاستجابت بعد لأي هذه المرة، واسترد الجاويش أحشاءه وانتهت آلامه.

فن الطبخ عند السودانيين:

والسودانيون مشهورون بالكرم. ويخصص الموسرون منهم جزءاً من المنزل (قد يكون منزل شيخ من الشيوخ أو أحد الأثرياء) لاستقبال الضيوف ومعاملتهم في غاية الكرم وحسن الوفادة.

ويستقبل الضيف عند حلوله أول الأمر في حجرة الضيافة حيث يتكون الأثاث من عنقريب واحد عليه مفرش مناسب. وإذا كان الجو دافئاً يقدم له الأبري، وهو مشروب منعش[٢].

(٢) هنالك نوعان من الأبري، النوع القديم الأحمر الذي يعتبره السودانيون ذا خصائص علاجية، والنوع الأبيض الذي اكتسب الأفضلية حديثاً، وأنا مدين لمدام فخر الدين محمد للوصفة التالية في صناعة الأبري الأحمر.

تؤخذ كمية من الذرة (ويفضل صنف الفترية)، وتقسم إلى ثلاثة أقسام متساوية. ينشر القسم الأول على قطعة قماش مبتلة ويترك لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، مع رشح ماء عليه من وقت إلى آخر، حتى تبدأ الحبوب في النمو. يطحن القسم الثاني ويغربل، ثم يغلى الدقيق في الماء حتى يتكثف الخليط، ويترك ليبرد ويتماسك. يطحن ويغربل القسم الثالث والأخير من الذرة، ويعجن الدقيق مع الماء. وعند اكتمال الخلط، يضاف إلى القسم الثاني في جرة من الفخار، ويترك ليوم واحد. بعدها تنشف وتطحن الحبوب النابتة (القسم الأول) وتضاف إلى الجرة نفسها مع القسمين الثاني والثالث. تغطى الجرة وتترك لمدة ثلاثة أيام حتى يبدأ التخمير. في وعاء آخر يخلط ١ ـ ٢ أوقية حبهان، وأوقية شمار ناشف، وثلاث أوقيات من عصير العرديب، ويضاف الخليط كله إلى العجين. وأخيراً يخبز الخليط فوق صاج ساخن أو دوكة، على شكل فطير رقيق، ثم يترك لينشف. ويقدم الأبري الأحمر مع الماء البارد والسكر.

والضيوف درجات، وكذلك طريقة معاملتهم فعامة الناس يكرمون عادة بالكسرة[٣] والملاح[٤]. أما الضيوف من ذوي الصفة الرسمية فيجب أن يقدم لهم الفراخ أو يذبح حمل صغير على شرفهم. وبعض هذه اللحوم يطهى مع الذرة وبعضها يسلق لتقدم الشوربة مع الخبز.

وعند حلول شخصية هامة. يذبح كبش في الحال ويطبخ في أشكال متنوعة. فهناك الشواء مع الذرة، والمسلوق، واليخني حيث يحمر البصل ويقطع اللحم إلى شرائح ويخلط مع صلصة البصل، فتتكون مرقة كثيفة. وبعد نضوج اللحم يضاف الماء والملح وبعض الشطيطة[٥]، وهي نوع من الفلفل الأحمر صغير الحجم وحار المذاق. وبجانب ذلك يقدم طبق يتكون من أمعاء الذبيحة حيث يؤخذ جانب من كل جزء من محتويات الأمعاء بقدر معلوم، ثم يقدم هذا الخليط الذي يسمونه المرارة، نيئاً. ومن عادة السودانيين أيضاً تقديم بعض اللبن المخمر (الروب)[٦] والمريسة لكبار الضيوف وحاشيتهم وعبيدهم، وإطعام دوابهم. هذه هي أقصى درجات الكرم عند هؤلاء القوم[٧].

فتيات للإيجار:

ومن عادة السودانيين، مهما كانت طبقاتهم ودرجاتهم مسح أجسادهم كل مساء بمرهم مكون من نخاع العظام وزيوت القرنفل والصندل. وعندما يأتي ضيف ليلاً يبعث اليه صاحب المنزل إحدى الفتيات الجميلات من الرقيق لتقوم بعملية المسح هذه قبل أن يأوي إلى السرير. ويمكن بالطبع أن تقضي معه الليل إذا رغب. ولكن المضيف لا يسدي هذه الخدمة للضيف مجاناً، فالفتاة تسلمه كل ما تأخذه من الضيف مقابل خدماتها.

ومن المهم، ونحن في معرض هذا الحديث، أن نذكر أن هؤلاء القوم لا يهتمون كثيراً بتقاليد ومثل باتت راسخة في أنحاء أخرى من العالم. فليس عيباً عندهم مثلاً، أن يدير أحدهم منزلاً للدعارة لمجرد الربح. ويمارس الجميع هذه التجارة، سواء كانوا أغنياء

---

(٣) خبز من الذرة دون خميرة يخبز على شكل أقراص فوق الدوكة (نوع من الأطواق).

(٤) عن الوصفة لصنع الملاح، أنظر صفحة ١٦٦ من الكتاب.

(٥) الفلفل الدقيق، تصغير للشطة.

(٦) الروب هو اللبن المخثر، الزبادي.

(٧) حاشية المؤلف: لم أشرح الأسماء المحلية المستعملة هنا لأن الشخص (مانسفيلد بيركنز؟) الذي يعد له هذا العمل قد مكث بهذه المنطقة لبعض الوقت، ويمكنه التعرف عليها دون مساعدة.

أو فقراء، وذلك لسببين. أولهما هو ما تدر عليهم من مال وفير. أما الثاني فلأنها وسيلة لامتلاك المزيد من الرقيق، فالاطفال غير الشرعيين نتيجة لتلك التجارة الوحشية هم في الواقع خدم لأسياد أمهاتهم. ويجد المرء في بعض الأحيان شخصاً واحداً يمتلك عدة منازل للدعارة منتشرة في كثير من المدن، كما أن بعض المناطق، خصوصاً المحطات تحتوي على قرى لا يسكنها سوى البغايا(٨).

بلاط الأميرة نصرة:

هنالك قرية كبيرة تقع جنوب ود مدني، على الطريق إلى سنار، تسمى السوربية يبلغ عدد سكانها أربعمائة نسمة. وجميع سكان هذه القرية هم في الواقع من عبيد الأميرة نصرة، شقيقة إدريس ود عدلان وسليلة قدامى الوزراء في سنار. ويحتل قصر الأميرة قلب المدينة، وهو مبني بالطوب الأخضر، ويمتاز بجودة التخطيط والنظافة والأناقة رغم أنه من طابق واحد. ويحيط بالقصر سور مرتفع متوازي الأضلاع. وخارج السور، على الجانب الشمالي الشرقي من المربع الضخم الذي يمثل مركز القرية، يقع الحائط الأمامي لحجرة كبيرة، أي الديوان، وهو في الواقع حجرتان متجاورتان. وأمام الحجرة تمتد فرندة تستند في نهايتها على أعمدة ضخمة وتظلل المساحة التي تقع على طول الحائط.

وفي مواجهة هذا الحائط، أي في منتصف الفرندة يوجد سلم بدرجات دائرية يؤدي إلى أرضية المبنى تحت الفرندة. وهذه الأرضية وغيرها في هذا المبنى كلها من الطين. ونرتقي درجات السلم لنرى باباً في منتصف الواجهة يقود الى حجرة صغيرة بها نافذتان على جانبي الباب للإضاءة والتهوية. ويلاحظ الداخل إلى هذه الحجرة، على يمينه ويساره، بوابتين من القضبان الحديدية يؤديان إلى الحجرتين على جانبي المبنى. وفي مواجهة الحجرة الصغيرة نجد مدخل القاعة الكبرى. وبالمثل نجد على جانبي هذا المدخل أيضاً نافذتين بحواجز حديدية لإضاءة الحجرة، وعلى كل ركن من هذه الحجرة الصغيرة بابان مشبكان يؤديان أيضاً إلى الحجرتين الكبيرتين. أما الحجرة الكبيرة نفسها ففيها ست نوافذ ضخمة.

وبما أن الحجرة قد امتدت جنوباً عدة أذرع(٩) من بقية المبنى، أو بالأحرى أمام

---

(٨) أثناء إقامته بدارفور عام ١٧٩٣ ـ ٩٦، علم براون (W. G. Browne) أن كبار التجار في سنار كانوا يمتلكون شركات من الفتيات من البغايا الأرقاء، كسبوا من ورائهن أرباحاً طائلة (Travels in Africa, Egypt, and Syria, 1799, P. 307).

(٩) دراع، بدلاً من ذراع، ربما كان القصد منه الدراع المصري ويساوي ٧,٥٨ من المتر.

الفرندة، فيمكن للمرء ملاحظة الأساس الذي تم حفره لبناء مزيد من الحجرات واصطبل. هكذا قال زوج الأميرة، محمد دفع الله «الأرباب»، وهو لقب ينم عن النبل وعلو المرتبة. وأضاف الأرباب بأنه كان في النية إحاطة هذا المبنى بسور مربع الشكل حفاظاً على حديقة حول المبنى الذي أنشىء على غرار معبد قديم.

وعلى الجانب الشمالي من القصر يوجد مبنى آخر، هو منزل ابنة الأميرة، لكنه لا يسترعي الانتباه كثيراً. ثم نأتي إلى منزل ابن الأميرة الذي يستعمل الآن استراحة للضيوف بعد وفاته. ونواصل السير جنوباً لنصل إلى مطابخ الأميرة على الجانب الشرقي من القصر. وكل هذه المباني التي وصفناها تقع في منتصف المربع. أما ما حولها، فكلها أكواخ متناثرة يسكنها عبيد الأميرة من الجنسين(١٠).

والأميرة نصرة سيدة تبدو في الخامسة والأربعين على أكثر تقدير، وتدل تقاطيع وجهها على جمال أخاذ في شبابها. أما لونها فيميل إلى الصفار الذهبي، وتمشي في خطوات وئيدة ووقورة. ورغم أن زمانها قد ولى، إلا أنها ما تزال تغري وتأسر بعض المحظوظين من المعجبين. وقد عرفت نصرة منذ طفولتها الباكرة بتحررها في اختيار أصدقائها سواء كانوا من العظماء أو غيرهم انسياقاً وراء نزواتها.

وقد تزوجت ابنة الأميرة من الشيخ الذائع الصيت عبد القادر ولاقت مثل نجاح والدتها حيث لم تكن تبخل بنفسها على معجبيها. بل انها في الحقيقة فاقت الأميرة نفسها في هذا المجال لأنها كانت تستجيب لأي شخص يأسر قلبها. وقد كان أحمد باشا أبو ودان، الذي توفى وهو ما يزال حاكماً للسودان، أحد عشاقها المداومين. لذلك كان يختلق الأسباب ليجعل زوجها في سفر دائم حول أقاليم السودان حتى يجد الحرية في الاستمتاع معها. ولم يلبث أبو ودان أن تسبب في طلاقها من عبد القادر، وأرسلها إلى والدتها. ثم تخلى عنها الباشا غاضباً حين تجرأت بمغازلة موسى بك(١١) مدير شبه جزيرة سنار، لأنه كان يتخذها من قبل أميرة بكل ما تحمل الكلمة من معنى دون أن يكشف سره

---

(١٠) في يناير ١٩٦٥ شاهد المترجم مع بعض رجال القرية المتقدمين في السن بقايا أساسات المباني التي اندثرت منذ زمن طويل. ويتطابق تصميم هذه الأساسات تماماً مع وصف الرواية. والبئر التي لا تزال مستعملة إلى اليوم تسمى بئر نصرة «عين نصرة»، وتقع على بعد مائة ياردة شرق أساسات القصر.

(١١) أصبح حكمداراً للسودان فيما بعد، ١٨٦٢ - ٦٥.

أحد. واستمر حقد الباشا على موسى طويلاً بعد ذلك، غير أن ابنة الأميرة نصرة ما اكترثت لذلك، بل إنها، بالعكس تماماً، وثقت علاقتها بموسى أكثر فأكثر.

ترابط الفرقة الثامنة في حامية ود مدني، على بعد ساعة ونصف بالحمير من السوربية. وكان كبير المفتشين الطبيين للفرقة فرنسياً في نحو الأربعين، قوي البنية، ذا مقدرة لإرضاء أكثر النساء رغبة في الجنس[١٢]. وذات يوم التقت به ابنة الأميرة فهامت به وراودته عن نفسها فتمنع، فقد كان يعشق حبشية ظفر بها قبل عدة شهور. ولكن ابنة الأميرة لم تيأس فذهبت إليه في منزله في اليوم التالي مباشرة. فأثارت صفاقتها الرجل، فردها على أعقابها في جفاء. وشعرت بخذلان شديد وخيبة على فشلها، ولكنها على أية حال، عادت أدراجها دون أن ترتكب خطيئة، لا لسبب غير أنها ما وجدت إليها سبيلاً.

مما تقدم يمكننا الحكم على السوربية، قرية ماجنة وشريرة، أطلقت العنان لملذات فينوس. ولندع القارىء يتخيل منظراً خلاباً أحسن وصفه الشعراء، ولكن، بدلاً من النوافير والأنهار والمروج الخضراء التي تغطيها أبسطة الورود، فإننا نجد قرية تحيط بها مزارع الذرة والدخن والقطن والبامية وغيرها. هناك الحور الحسان وعرائس البحر ذوات اللون الأبيض الملائكي، وهنا أميرة بيضاء ساحرة، وعرائس بحر من المولدات الهجين من كل لون وجنس. هناك المتعة دون مقابل وهنا يدخل المرء وجيبه منتفخ، ويخرج وهو فارغ.

ومن بين نساء القرية جميعاً، هنالك نحو خمسين من أجمل الفتيات لا عمل لهن غير خدمة الأميرة. وعند قدوم شخص ذي حظوة ومال، تذهب هؤلاء الفتيات على الفور ليرفهن عنه طوال فترة إقامته. ويختار الضيف من تروق له أثناء الليل أو النهار. وواضح طبعاً أنهن يطلبن أجراً أعلى بكثير من بقية نساء القرية.

الفقر يدعو إلى الفضيلة:

في أحد الأيام قصد خمسة من الأوروبيين كانوا يقيمون في ود مدني، قرية السوربية لقضاء ليلة بها. وبمجرد نزولهم من الخيول، أحاطت بهم خمس فتيات حسان من حاشية الأميرة تحمل كل منهن قرعة عليها نقوش جميلة فيها شراب الأبري. وتقدم كل فتاة الأبري إلى أحد الزوار، وهي تضع إحدى ركبتيها على الأرض وتمد ذراعين نحوه قائلة في صوت رقيق، «سيِّدي . . . إشرب».

---

(١٢) هو دكتور جاسيير (Dr. Gassier) في اليوميات.

وتزينت الفتيات بأجمل الحلل: عقد على كل معصم، أحدهما من الذهب والآخر من الفضة، وعقد ثالث حول رسغ القدم. كذلك كن يضعن قطعاً من الذهب على الأذن والأنف، وعلى العنق عقوداً من اللؤلؤ الأحمر، كما تدلت سلاسل من الخرز على صدورهن بين النهود البارزة. أما الخصر فقد طوقه حزام من حبات الفضة وكان ضرباً من ضروب الرحط[١٣]، والشعر مضفور حسب الموضة عندهم. وتلألأت خرزات من الزجاج على الرأس، فبدت من خلال الشعر خليطاً من اللونين الأحمر والأبيض، وتدلت من فوق تلك الخرزات ميدالية ذهبية أنيقة الشكل أضفت على الجبهة رونقاً وجمالاً. وكانت الفتيات عاريات إلا من الرحط الذي غطى الأجزاء الحساسة من الجسد.

وبعد تناول الشراب أحسنت وفادة الزوار على النحو الذي بيناه من قبل. ولما كان الوقت مساءً فقد أعد لهم طعام العشاء وحمل إليهم في حجراتهم، طعام فخم متنوع على الطريقة التركية، ومعه أصناف من الحلوى الشهية، وكلها من صنع الفتيات الجميلات.

وما أن فرغوا من تناول الطعام حتى جاءهم أحد خدم الأميرة برسالة منها تعرض اثنتين من المولدات الجميلات للبيع. إلا أن أربعة من الأوروبيين لسوء الحظ، لم تكن معهم من النقود ما يكفي لاستكمال الصفقة. أما الخامس فقد كان يملك النقود، ولكنه آثر أن يتريث حتى الصباح ليتمكن من معاينة البضاعة في الضوء للتأكد من سلامتها.

ورد الخادم على الضيف بأنه قد أساء الفهم، فبيع الفتاتين لا يتم عادة إلا أثناء الليل. ثم أبدى استعداده في إحضارهما تلك الليلة في الحال. عندئذ فهم الرجال عن أي نوع من التجارة كان الخادم يتحدث، فضحكوا وطلبوا منه الفتاتين. وأقرر هنا أن دافعهم كان مجرد حب الاستطلاع والفضول حيث لم يكن في وسعهم التمتع دون نقود. أما الوحيد الذي كان معه المال فلم يكن يطمع في ذلك هو الآخر في وجود زملائه في نفس الحجرة.

وبعد قليل عاد الرجل بالفتاتين المولدتين، وثالثة سوداء في مثل عمرهما، لكنها غاية في الجمال، تحمل مصباحاً لإنارة الطريق أمام الفتاتين. ولا يمكن وصف جمال المولدتين بكلمات مقتضبة، وللقارىء أن يتمنى كل ما يحب أن يراه في امرأة جميلة، وله أن يتخيل، ما شاء له الخيال كل صفات الحسن والجمال، وأراهن أنه لن يجافي الحقيقة الماثلة أمامه.

(١٣) رداء حول خصر الفتيات، من سيور وشرائط من الجلد في الغالب.

وتبلغ إحداهما السابعة أو الثامنة عشرة من العمر، والأخرى الرابعة أو الخامسة عشرة. الأولى طويلة القامة إلى حد ما، والثانية معتدلة في قوامها. وما اختلف لبسهما عن الأخريات إلا من درع كبير من الفضة يتدلى على سلسلة فضية يغطي جانباً من البطن والفخذين. أما لون البشرة فقد كان في مثل لون نساء صعيد مصر. سأل الضيوف ما إذا كانت الفتاة السوداء «للبيع» أيضاً، فجاء الرد سريعاً بأنها الفتاة الأثيرة لدى سالم كاشف ود مدني الذي بث عيوناً في كل ناحية ليبطش بمن يقترب منها. ولكن، ومع ذلك فقد فهم الضيوف منهم أن «بيعها» ممكن تحت ستار من السرية التامة.

وفي النهاية لم يقدر للصفقة أن تتم، فعاد أربعة من الضيوف إلى ود مدني وهم يلعنون ضيق ذات اليد الذي حرمهم من متعة أكيدة، بينما واصل الخامس سيره إلى سنار متحسراً على تلك الفرصة التي أهدرها عليه وجود الأخرين معه(١٤).

حوريات النيل في مارنجان:

وبعد مدة قصيرة من زيارة الأوروبيين، حضر ثلاثة رجال من بني جنسهم أيضاً إلى مكان يسمى مارنجان وهو يقع جنوب شرق ود مدني على ضفة النيل، حيث تمتلك الأميرة منزلاً به حديقة صغيرة على بعد ساعتين شرق السورية. ويبدو هذا المكان موحشاً رغم مناظره الخلابة حيث تنمو فيه أشجار السنط والأعشاب الكثيفة الخضراء. كان هم الزوار الأكبر هو طعام الغداء، فأخذ أحدهم بندقيته وسرح داخل الغابة عله يصيب صيداً يأكلونه بينما ذهب الأخران في جولة على ضفاف النيل، رغم أن الأشجار المتشابكة حجبت عنهما رؤية النيل نفسه.

وأثناء سيرهما، سمعا أصواتاً صاخبة في اتجاه النيل. ولم يتبين الرجلان مصدر تلك الأصوات، ولو أنهما اعتقدا أنها طيور تصدح بين الأشجار. ولكن حدة الضوضاء كانت ترتفع كلما اقترب الزائران من النيل، حتى انتهيا إلى منطقة رملية على الشاطىء. هناك وجدا أمامهما منظراً يشرح القلب ويبهج النفس. فقد كانت هنالك مجموعة من الفتيات من مختلف الألوان يربو عددهن على المائتين. بعضهن يسبحن في الماء عاريات، وأخريات يغسلن ملابسهن على حافة النهر، أو يتواثبن على الرمال، أو يتبارين في السباحة. وسرب آخر انتشر داخل الغابة فأصبحن يتناقلن من خلف الأشجار مثل الحوريات.

---

(١٤) زار بيارد تيلور (Bayard Taylor) السيدة نصرة في الخرطوم عام ١٨٥٢، وترك وصفا يتسم بالمبالغة في إطرائها وإطراء فتياتها من الرقيق (Life and landscapes, 1854, pp. 293-6).

استمتع الزائران بالمشهد الشائق برهة ثم تقدما نحو الفتيات على حافة النيل، فقد تأكدا أنهن قادمات من السوريبة لغسل الملابس في النهر. وما ان اقتربا حتى قفزن داخل الماء في حياء وخفر. يا له من منظر رائع! عشرات من الرؤوس الصغيرة تطفو فوق سطح الماء، وتكاد تنفجر من الضحك. وانبرت حفنة منهن تومىء للضيفين بالابتعاد، ولكن في لهجة تنم عن الرغبة في نقيض ذلك تماماً. وأخذ البطلان يحصبان رؤوس الفتيات بكتل صغيرة من الطين حتى اضطررن إلى الغطس في الماء. وحيال إصرار الرجلين على البقاء خرجت الفتيات من النهر كما ولدتهن أمهاتهن، وهرعت كل واحدة منهن إلى ارتداء رحطها.

ثم تجمعن في سرعة وحاصرن الضيفين، وبدأن في الانتقام منهما بفاصل من المضايقات، مجموعة تشد أذرع الرجلين ومجموعة أخرى تمكنت من خلع الطربوشين ورفضت تسليمهما إلا بمقابل. وأحرج الضيفان غاية الحرج، فلم يكن لهما المال لاستردادهما، فلجآ إلى الحيلة والتملق، وعرضا عليهن دفع الفدية بشرط أن يستردا الطربوشين أولاً. وفي نهاية الأمر أطلق سراحهما بعد تدخل ممن كانت تتولى أمرهن. وهكذا عادا إلى ود مدني حيث انضما لثالثهما الذي كان قد خرج للصيد، والذي أخبرهما أنه استهلك ما كان يحمل من بارود دون أن يصيب شيئاً. وعندما علم منهما تفاصيل المغامرة توجه فوراً نحو مكان الفتيات عله يعوض خسارته في الصيد. ولكن هيهات! فقد انطلق السرب نحو السوريبة، فكانت خيبة أمل أخرى لصاحبنا.

وجبة عشاء في المسلمية:

بعد مضي يوم أو أثنين، اجتمع شمل الأوروبيين الخمسة في ود مدني بقدوم الخامس من سنار. وقرروا جميعاً زيارة المسلمية، وهي مركز تجاري هام، على بعد أربع ساعات بالحمير، شمال غرب ود مدني. وفي المسلمية توجهوا إلى تاجر يسمى الفكي طه كانوا يعرفونه، فأكرم وفادتهم. فقد هيأ لهم الإقامة في منزل له كان خالياً ثم مضى يطلب لهم الطعام في أطباق معدنية إمعاناً في إكرامهم، لأنهم في الظروف العادية يأكلون في أطباق خشبية محلية الصنع.

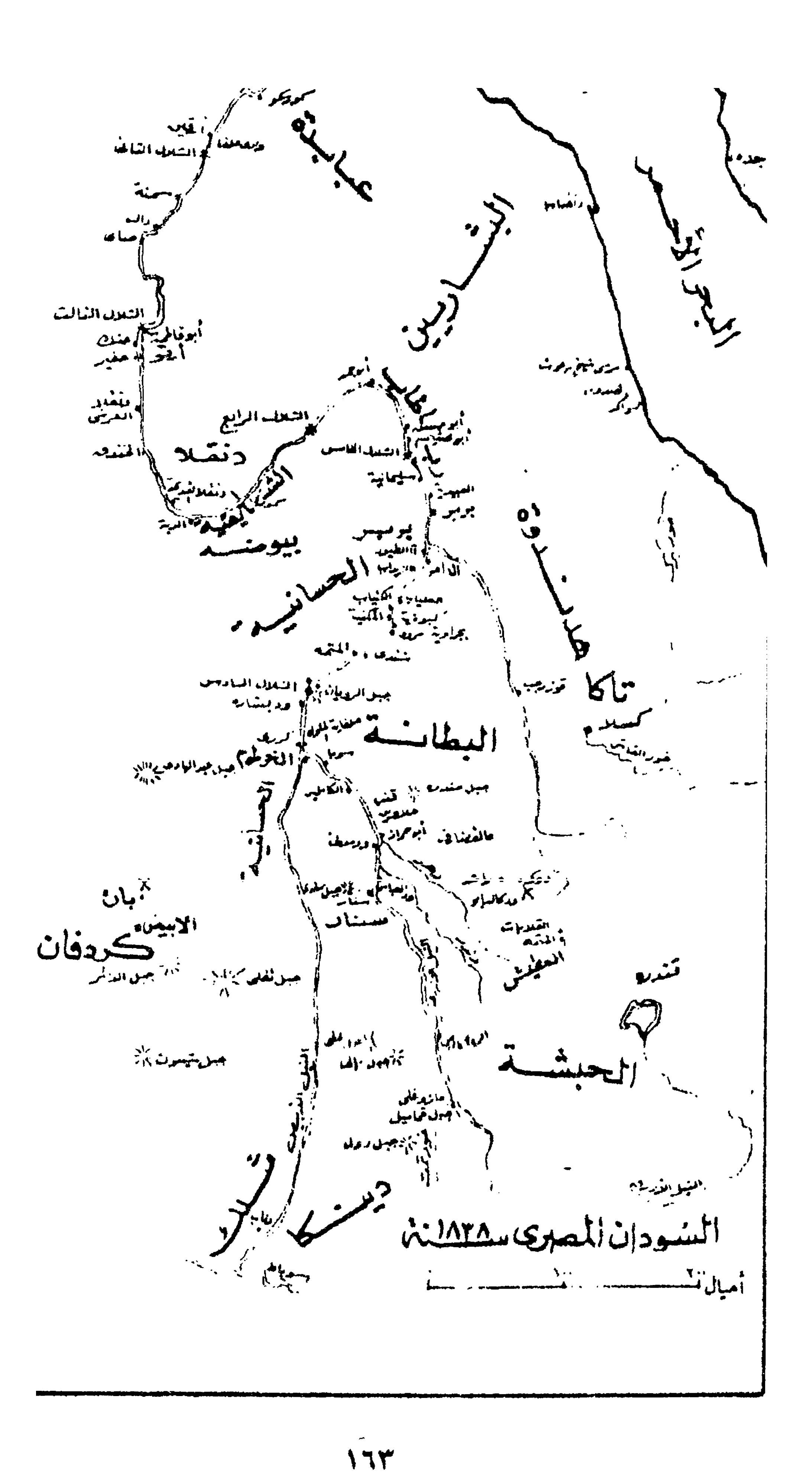
وفي هذه الأثناء خرج اثنان من الضيوف وجلسا في الفرندة حيث الهواء الطلق هرباً من حرارة الجو داخل الحجرة. وبعد قليل لمح الضيفان من خلال حاجز القش بعض الخدم مقبلات نحو المنزل في طابور وهن يحملن أطباقاً من الطعام. ولفت انتباههم قدر

كبير مغطى أيضاً تحمله إحدى الخدم. وازداد تعجبهما ودهشتهما كلما اقتربت منهما حاملة ذلك القدر العجيب، فقد كان عبارة عن قصرية بها طعام اليخني، فاستغرق الضيفان في ضحك هستيري حتى طفرت الدموع من عينيهما.

ولكن أمراً آخر غطى على هذه الصفاقة من الضيوف. فقد كان اثنان من الضيوف يسميان «جيوفاني»، ولكن المضيف الذي كان معهما داخل الحجرة ظل يناديهما «جواني» وذلك لعجز في لسانه العربي عن نطق الأسماء الافرنجية. وعند شعوره بأنه لا يستطيع التفاهم معهما، تساءل الفكي طه - مازحاً - من منهما «الجواني» ومن «البراني»، فضحك من كانوا داخل الحجرة. واعتقد الرجل الطيب أن دعابته هي سبب ذلك الصخب المتواصل فيما بعد، فتركه الضيوف على اعتقاده، ووجدوها فرصة للاستمرار في الضحك طوال فترة العشاء. وما زاد الموقف طرافة أنهم التهموا ما بداخل تلك القصرية من طعام.

وبعد العشاء، لم يتمالك أحد الضيوف نفسه من البوح بالسبب الحقيقي للضحك، وشرح للفكي طه أن مثل ذلك القدر يستعمل في أوروبا لغرض غير نظيف. فانتفض الشيخ الفاضل، ودافع عن نفسه قائلاً أنه لم يستعمل ذلك القدر في الأغراض التي ذكروها مطلقاً منذ أن ابتاعه من أسواق القاهرة، وذكر أنه قد تعرض للكسر أثناء الرحلة فلم يستطع أن يبيعه. ثم أضاف أن السودانيين لا يستعملون مثل هذه الأواني إلا في تقديم الطعام لكبار الزوار. واختتم حديثه بأن عبر عن أمله في أن يكونوا راضين عنه فيما أقدم عليه بنية حسنة، ووعدهم بأنه لن يقدم طعاماً لأوروبي في ذلك القدر مرة أخرى.

ومكث الضيوف مع الفكي طه يومين آخرين دون أن تقع عينهم على ذلك الوعاء. ثم رحلوا ونفوسهم تمتلىء بالإعجاب ببساطة ذلك الرجل العظيم.



السودان المصري سنة ١٨٢٨
عبابدة
البشاريين
البحر الأحمر
دنقلا
بيوضة
الحسانية
البطانة
تاكا
كسلا
الخرطوم
سنار
كردفان
الأبيض
الحبشة
دينكا
شلك

الفهرس

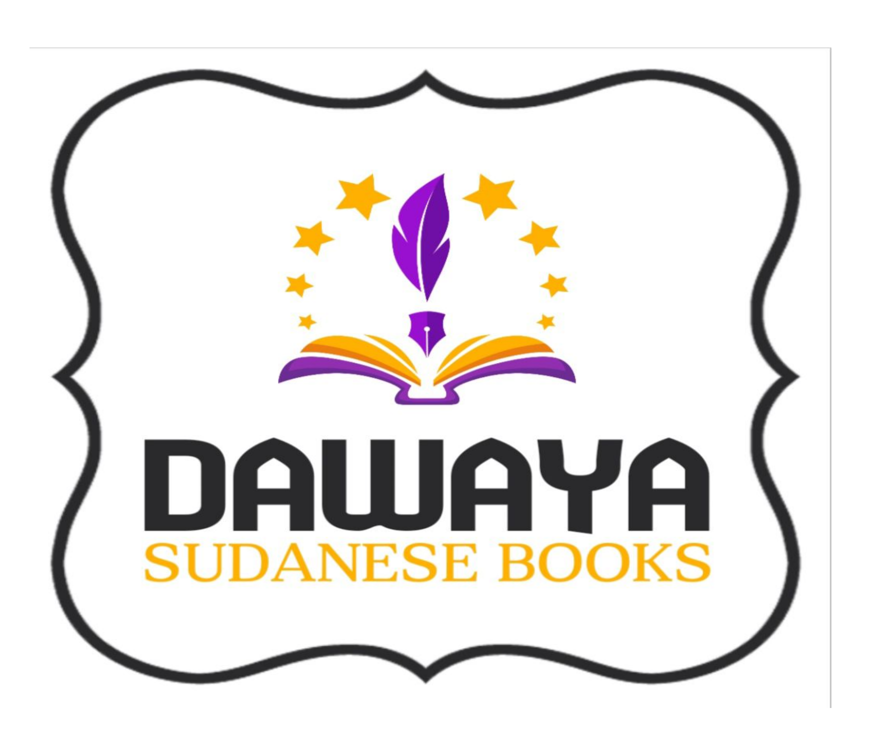
الفصل الرابع

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس

على تخوم العالم الإسلامي

(٢)


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

بسم الله الرحمن الرحيم

عرفان

أحمد لوزارة التربية والتوجيه منحي هذه الفرصة النادرة كما وأنى مدينة لكل من شارك في إنجاز هذا العمل وشكري في المقدمة للأساتذة المشرفين: البروفسير/ علي محمد المك الذي قام بقراءة وتصحيح هذا العمل والدكتور/ محمد سعيد القدال الذي ساعد في اختيار هذا الكتاب للترجمة وقام أيضاً بقراءة وتصحيح الترجمة كما وأشكر الأخت/ إنعام سعيد التي قامت بطبعه والعاملين بمكتبة السودان ومكتبة دار الوثائق القومية ومكتبة معهد الدراسات الاسيوية والإفريقية.

ثريا الزين صغيرون

ديسمبر ١٩٨٤ م.

مقدمة المترجم

توطئة:

هذه مقدمة الترجمة العربية للكتاب «على تخوم الإسلام» الذي يحتوي على ثمانية فصول هي: التصدير ومقدمة المترجم ريتشارد هيل ثم النص المترجم ويقع في ستة فصول تليها الهوامش وتشمل هذه المقدمة أربعة موضوعات تناول الجزء الأول منها سيرة الكاتب والأماكن التي عمل بها ومؤلفاته ودور نشرها. وتعرض الجزء الثاني للحديث عن الترجمة وروادها الأول ومذاهبهم في الترجمة. وخلصت من ذلك إلى النهج الذي سلكته في ترجمة هذا النص. أما الفصل الثالث فقد تناول أهمية الكتاب وقيمته الأدبية والأسباب التي دفعتني لاختياره. وحوى الجزء الرابع والأخير بعض الملاحظات والتعليقات عن الكتاب وتعرضت فيه لأسلوب الكاتب وطريقته في معالجة الموضوع.

نبذة عن المؤلف:

اشتهر ريتشارد هيل بكتاباته عن تاريخ السودان الحديث وبصفة خاصة الحكم التركي ـ المصري في السودان. عاش هيل وعمل بالسودان لفترة طويلة من عمره وكان من الموظفين العاملين في الإدارة البريطانية في السودان. عمل بالسكة حديد مأموراً للحركة وذلك في الأربعينات. وقد تعلم اللغة العربية في المحطات خلال اتصاله بالناس والتحدث إليهم. وعمل فيما بعد بكلية غردون التذكارية أستاذاً للتاريخ. واهتم بالدراسات السودانية وخاصة العهد التركي ـ المصري. وتبلغ مؤلفاته عن السودان عشرة مؤلفات نذكر منها:

1 - The Biographical Dictionary of the Sudan. oxford, clarendon.
2 - A Bibliography of the Anglo-Egyption Sudan (O.U.P. 451 1939).
3 - Egypt in the Sudan. Royal Institute of International Affairs 1959.

4 - On the Frontiers of Islam. Clarendon Press Oxford 1970.
5 - A Bibliographical Dictionary of the Anglo-Egyption Sudan Oxford (Clarendon Press 1951).
6 - SLATIN Pasha. London. Oxford University Press 1965.
7 - The Tuti Community. Khartoum 1963.
8 - Sudan Transport. London, Oxford University Press 1965.

كما وله عدد من المقالات منها:

1 - «The Gordon Literature» Durham University journal XL VII (1955) pp. 97-103.
2 - «The Period of Egyption Occupation» S. N. R. XL 1950 pp. 100-106.
3 - Historical Writing on the Sudan since 1820» in Historians of the Middle East Edited by Bernard Lewis and P.M Hilt (London) pp. 357-66.

والكتاب الأول عبارة عن موسوعة جمع فيها كل الأجانب الذين عملوا بالسودان. والثالث هو كتابه الأول والرابع هو الكتاب موضوع هذا البحث.

عالج هِيل في كتبه موضوع الإدارة وكان له اهتمام خاص بعنصر الجندية والجيش. ولا زال هيل مواصلاً للبحث فهو يقوم الآن بعمل بحث عن دور الجندي السوداني في الشتات (Diaspora) مما حــداه أن يهتم بدور الأرطة السودانية التي حــاربت في المكسيك إلى جانب الفرنسيين في عهد الخديوي محمد سعيد. ويقوم الآن ببحث ميداني في المكسيك ليشهد مواقع المعارك ولقد قام الدكتور مارتن دالي (Martin Daly) بجمع وتحقيق مجلد عنه سيهدى له خلال شهر ديسمبر ١٩٨٤ م. وقد قامت دار الوثائق القومية بمنحه وساماً في الاحتفال بيوبيلها الفضي عام ١٩٨٠ م. وذلك تكريماً له ولعمله ومؤلفاته عن السودان. والجدير بالذكر أنه يرجع الفضل لِهلْ في القيام بجمع الأرشيف عن السودان بجامعة درم (Durham) التي عمل بها بعد أن ترك السودان ـ فقد قام هِلْ بعمل منشور أرسله لكل الموظفين الأجانب الذين عملوا بالسودان يخطرهم بذلك ويستأذنهم فأهدوا أوراقهم عن السودان لجامعة درم. وكان ونجت باشا مدير المخابرات المصرية والذي كان حاكماً عاماً للسودان على مد ست عشرة سنة قد جمع وثائق عن المهدية سلمها لجامعة درم. كما وقامت حفيدة سلاطين باشا الذي كان مفتشاً عاماً للسودان بإهداء كل أوراقه لجامعة درم ويرجع الفضل لِهلْ في جمع كل هذه الأوراق والإشراف عليها وتصنيفها ثم فهرستها وأنشأ بذلك أكبر مستودع للوثائق المتعلقة بشؤون

السودان خارج دار الوثائق القومية. ويعيش هِلْ الآن باكسفورد حيث كان يعمل بجامعتها وله أسرة مكونة من زوجة وثلاث بنات ولدت كبراهن بالسودان وقد أطلق عليها اسم «بنت النيل».

نبذة عن الترجمة:

من الطبيعي أن يتجه العالم نحو الترجمة مع هذا التطور العلمي والتغني الهائل وذلك لربط العالم بعضه ببعض عن طريق نقل المعارف والعلوم. وقد عرفت الترجمة منذ أقدم العصور إذ حثَّ القرآن والحديث على طلب العلم وقال الرسول (ص) «اطلبوا العلم ولو في الصين» وفي عهد الدولة العباسية اهتم الخلفاء اهتماماً شخصياً بالترجمة فأقاموا لها الدور مثل بيت الحكمة واستجلبوا لها الكتب والعلماء. وبعد أن كان دافعهم لذلك هو ترجمة الفلسفة والمنطق للدفاع عن العقيدة، صار لهم شغف بالعلوم كغاية في ذاتها.

نهضت الترجمة في مصر على يد محمد علي باشا حيث استخدم الاوربين في نقل كتب الآداب والتاريخ وأهم مراكز الترجمة هي مدرسة الألسن والجامعة الأميركية ببيروت.

وقد شهدت الفترة من الثلاثينات إلى الستينات نهضة واسعة فقد تمت ترجمة أمهات الكتب وروائع الأدب العالمي. واشتهر في تلك الفترة محمد بدران وعلي أدهم وأمين سلامه ود. ذكي محمود وأشهر دور هو دور بيروت إذ قامت بإعداد المعاجم المتخصصة وهي أدوات المترجم وعدته. وقد بذل مكتب تنسيق التعريب في الرباط مجهوداً كبيراً. ولا زال يعمل. وكذلك جامعة الدول العربية.

والترجمة أنواع منها الترجمة الحرفية وهي أن يقوم المترجم بنقل النص دون أي حذف أو إضافة. وهناك الترجمة الفنية وقوامها المصطلحات المتخصصة في ضرب من ضروب المعرفة مثل الرياضيات والطب... الخ أما الترجمة المعنوية فيعنى فيها المترجم بالمعنى العام للنص المنقول. وتوجد الترجمة الإبداعية وتتم في مجال الأداب مثل ترجمة الشعر وهي على عكس الترجمة الحرفية لا يتقيد فيها المترجم بحرفية النص بل يعطي نفسه مطلق الحرية فيبدع ويزيد وينقص ويقدم ويؤخر دون أن يخل بالمعنى. ويختلف هذا النوع الأخير من الأنواع الثلاثة المتقدمة في كونه ينأى بالنص من شكله الأول وتظهر فيه لمسات المترجم وإبداعاته وتنمحي آثار المؤلف الأصلي بحيث لا يمكن للمؤلف أن يتعرف على النص إذا ما قرأه. أما في الأنواع الثلاثة المتقدمة فيبقى جوهر النص ثابتاً لا يتغير مهما تغير الوعاء.

واشتهر من رواد الترجمة البارزين المنفلوطي ويعقوب صروف وقد عنى بترجمة العلوم وخليل مطران واهتم بترجمته الأعمال الأدبية فترجم لشيكسبير وكان له أسلوب متميز فقد سلك طريقاً وسطاً بين الأسلوب الجزل المبين والأسلوب العادي وأسماه الأسلوب الوسيط. أما الزيات فقد جمع بين مذهب يوحنا البطريق في الترجمة الحرفية ومذهب حنين بن إسحق في ترجمة المعاني ويقول عن نفسه انه جمع ما في الطريقتين من محاسن.

وفيما يتعلق بالنهج الذي سلكته في ترجمة هذا النص، فتجدر الإشارة إلى أن النص منقول في الأصل من الفرنسية إلى الإنجليزية وبذا يكون نقله إلى العربية نقلاً غير مباشر أو ما يعرف بالترجمة الثانية وهي أصعب أنواع الترجمة ولا يلجأ إليه المترجم إلا في حالة عدم العارف بلغة المتن الأصلية، وذلك لأنه كثيراً ما يقع المترجم لمثل هذا النوع من الترجمة في مزالق كثيرة خاصة إذا ما أراد أن يبدع في ترجمته بالتقديم والتأخير أو الزيادة والنقصان وهذا شيء تحتمه ضرورة اختلاف اللغات وقواعد النحو والتراكيب الخاصة بها.

والصعوبة في ترجمة هذا الجزء من الكتاب تأتي من طبيعة أسلوبه وطريقته في معالجة الموضوع فقد خرج عن النهج المألوف لكتاب التاريخ أي سرد الأحداث حسب تسلسلها التاريخي. فهو عبارة عن مذكرات لفرنسي قام بخمس رحلات داخل السودان وخارجه رصد فيها الأحداث رصداً دقيقاً مركزاً على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحياة. وهو أقرب إلى أدب الرحلات منه للتاريخ ولكنه أسلوب فوضوي إذ أن الكاتب ينقلك فجأة من رواية أو قصة بالتعليق على منظر جذب انتباهه من حيوان أو إنسان أو غير ذلك وقد حاولت من جانبي التحايل على أسلوب اليوميات فخصصت فقرة جديدة لكل تاريخ وذلك لتوضيح المدى الزمني والحدثي ولم يكن ذلك مجدياً إذ أن المؤلف كان حريصاً كل الحرص في سرد الأحداث ووصف الرحلة يوماً بيوم وساعة بساعة.

قمت بقراءة الكتاب للمرة الأولى لأخذ فكرة عن موضوعه واستخراج ما صعب من كلمات وقرأته ثانية قمت فيها بالترجمة ثم قرأت المسودة وعدلت فيها وعنيت بالتراكيب اللغوية محاولة إضفاء روح التاريخ على النص. ولغة النص ليست بالصعبة ولتمكن المؤلف من العربية فهو يستعمل وبكثرة الكلمات العربية والألفاظ الدارجة منسوخة بالأحرف الانجليزية (Transliteration) مثل كلمة «كفار» و«سحار» و«مريسة» إلى غير ذلك ولكن هناك قليل من المصطلحات التاريخية والجغرافية وبعض الكلمات المتعلقة

بعلم الآثار. والتزمت بالأصل كثيراً حتى في حالة الأخطاء اللغوية والفنية. واحتفظت بما جاء باللغة الفرنسية والألمانية من أسماء الكتب والمجلات وعناوين المقالات والرسائل مثلما احتفظ بها هِلْ في ترجمته الانجليزية.

لقد وقع اختياري على هذا الكتاب لقيمته التاريخية والأدبية وقد ثنى الاختيار الأساتذة المشرفون على البحث البروفسير / علي الملك والدكتور / محمد سعيد القدال. وقد لفت انتباهي الوصف الدقيق للحياة الاجتماعية مع بعض المبالغة. وترجع أهمية الكتاب لكونه من المراجع الهامة التي تتعرض بالتفصيل لفترة الحكم التركي - المصري في السودان وهي فترة يكتنفها الغموض والتناقض. كما وأنها اتسمت بندرة المراجع التي تشبه هذه المذكرات ولم تحظ باهتمام المؤرخين بالرغم من أنها فترة هامة في تاريخ السودان الحديث. وتأتي أهمية هذا الكتاب من كون الوثيقتين (الجزء الأول من نفس الكتاب والجزء الثاني وهو موضوع الترجمة) تكملان في تفصيل العمل السوداني الوحيد من تلك الفترة إلا وهو كتاب «**تاريخ ملوك السودان**»[١] الذي ألفه الدكتور مكي شبيكة. وتظهر أهمية الكتاب جلية إذا ما رجعنا قليلاً إلى الوراء، ففي القرن التاسع الميلادي حيث بدأت الحركة العلمية لكتابة تراجم العلماء، نجد أول كتاب هو الذي كتبه محمد النور ضيف الله «**كتاب الطبقات**» ثم تلاه الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي المعروف بكاتب الشونة بتأليف كتاب عن السلطنة السنارية والإدارة المصرية ثم هاتين الوثيقتين موضوع الترجمة. ويعد الكتاب واحداً من الكتب المنهجية بالنسبة لقسم التاريخ وبنقله نكون قد وفرنا للباحثين والدارسين في تاريخ السودان مرجعاً مفيداً وبصفة خاصة للطلاب الذين لا تسعفهم لغتهم الانجليزية بالقدرة على استيعاب ما جاء بالكتاب.

والكتاب كدراسة شفوية للحكم التركي - المصري يوضح أهمية الروايات الشفوية كوسيلة ووثيقة للتاريخ وكيف أن الدراسات الأدبية والعلوم الاجتماعية تسعى لاحتوائها ضمن المصادر الأولية أو الثانوية التي ترتكز عليها العلوم وتؤسس منها منهجاً علمياً دقيقاً للاستفادة بصورة أعم. وقد ذكر محمد بن عمر[٢] التونسي أنه قد اعتمد على هذه الروايات في كتابة تاريخ أقليم دارفور نسبة لعدم توفر المعلومات عنه وعدم وجود أي تاريخ مدون أو وثائق ذات قيمة تاريخية.

(١) عبد الله علي إبراهيم كتاب من آداب **الرباطاب الشعبي**، الخرطوم، جامعة الخرطوم شعبة أبحاث السودان ١٩٦٨، الجزء ٤.

(٢) محمد بن عمر التونسي كتاب **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**. تحقيق د. خليل محمد عساكر ومصطفى محمد سعيد - القاهرة ١٩٦٥ ص ٧٠.

ملاحظات وتعليقات حول الكتاب

يحتوي الجزء الثاني من الكتاب، وهو موضوع هذا البحث، على: التصدير ومقدمة المؤلف. وينقسم هذا الجزء إلى ستة فصول بيانها كالآتي:

١ ـ الرحلة صعوداً في النيل من القاهرة إلى ودمدني.
٢ ـ الرحلة إلى الحجاز والعودة إلى ودمدني.
٣ ـ الحياة في ودمدني.
٤ ـ الرحلة إلى بربر.
٥ ـ العودة إلى مصر.
٦ ـ مذكرات عن سنار.

قام الكاتب الفرنسي المجهول الهوية بتلك الرحلات وزار فيها تلك المدن إلى جانب العديد من القرى والمدن الهامة في السودان مثل الخرطوم وشندي وسنكات وعطبرة وسواكن.

ولقد ركز على وصف جوانب الحياة الاجتماعية ولكنه لم يغفل الحقائق التاريخية التي تميزت بها تلك الفترة ولا الملامح الرئيسية التي تذكرها كتب التاريخ، فهو إن لم يسرد الحقائق سرداً تاريخياً ولم يحلل الأحداث كما يفعل المؤرخ فقد كان يشير إليها إشارة عابرة ويضمنها وصف الرحلة. ومن الجوانب التي أبرزها الكتاب رحلة محمد علي باشا للسودان وذكر أهدافها التي تلخصت في استغلال موارد السودان وبخاصة الذهب واكتشاف منابع النيل وصيد العبيد. وعلى عكس الكتاب الأوروبيين والمصريين فقد ركز على التنقيب على الذهب كهدف أساسي كما وأشار مراراً لرحلات سليم القبطان لاكتشاف منابع النيل ولكن يرى نفس الرأي القائل بان هدف محمد علي باشا الرئيسي هو رفاهية السودانيين ويظهر هذا من تعليق على الرق «كوسيلة توعية لهؤلاء السود». وقد تناول هذا الموضوع الدكتور حسن أحمد إبراهيم في الكتيب[٣] الذي حقق فيه ترجمة النص التركي للتقرير عن رحلة محمد علي باشا. وأوضح أن الهدف الأساسي هو التنقيب عن الذهب حسب ما جاء في نص التقرير: «ويتضح من هذا أن معدن الذهب موجود بالفعل في هذه البلاد. ولهذا اعتزم جنابنا العالي زيارة السودان لما في هذه السياحة من مبررات حسنة

(٣) حسن أحمد إبراهيم (تحقيق) رحلة محمد علي باشا للسودان ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ كراسة رقم ١٥ معهد الدراسات الافريقية والآسيوية جامعة الخرطوم.

وقررنا الوصول إلى معرفة حقيقة هذا التبر» ولكن الاعتقاد السائد هو أن الهدف الأول هو العبيد. وعند اطلاعي على محافظ الأبحاث التاريخية والوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بقلعة محمد علي بالقاهرة لاحظت الإصرار على ارسال العبيد في رسائل الجناب العالي وربما كان ذلك بغرض التمويه ومثال لذلك[٤]. من الجناب العالي إلى: البك الكتخدا.

«بما أن من اللازم استعجال مجيء الزنوج المنتظر مجيئهم من السودان وكردفان فقد كتب إلى سر عسكر الجهتين المذكورتين خطابات لكل منهم وأرسلت مع الاغا (معجون اغاس) وعليه يلزم أن تبادروا بعونه تعالى إلى ركابه بمركبي الخاص من طراز (قانجة) عند وصوله وإرساله إلى الجهة التي يقصدها».

ومن الجوانب التي أبرزها الكتاب المدن كمظهر حضاري. وصف المدن ومستوى العمران فيها والمباني والمنازل ونوع المواد التي بنيت بها هذا إلى جانب محاولة استقصاء تاريخ نشوء وتطور تلك المدن، وتطرقه أيضاً لوصف المواقع الأثرية ووصف في شيء من التفصيل والدقة المعابد والآثار وهذا جانب مهم في فهم تاريخ تلك الفترة.

وتعرض الكاتب للجيش ونظمه وأقسامه ونوع الأسلحة المستعملة كما وصف الجنود وزيهم الرسمي ورتبهم ومرتباتهم. تناول الكاتب النظم الإدارية واستخدام الأقباط. وتعرض للحكام وفسادهم وانحرافهم وتعاملهم بالرشوة وقسوتهم. ومن أمثلة الظلم أنهم كانوا يتهمون الشخص زوراً ويصرون على هذا الاتهام لدرجة إيهام الشخص بأنه مذنب فيعترف بذنب لم يرتكبه. وناحية أخرى هي الإكراه على التجنيد وفرض الضرائب الباهظة وطريقة جبايتها مما أدى إلى ثورة عامة ومما دفع الأهالي لضرب مأمور بربر. ومن صور العنف الجلد بالكرباج والفلقة والشنق والخازوق والسخرة.

واهتم الكاتب اهتماماً بالغاً بالناحية الاقتصادية فكان كلما حط رحاله بمدينة أو قرية ذكر السوق والسلع الضرورية الموجودة والسلع النادرة والمحاصيل وأسعار المحاصيل والعملة ويقارن في ذلك بين القرى والمدن كما اهتم جيداً بوسائل النقل من دواب وبواخر.

والكتاب في مجمله شيق وممتع وفيه ابتكار من حيث الموضوع وطريقة معالجته فقد نحى الكاتب منحى علمياً تاريخياً فنتج عن ذلك عمل يصلح لأن يكون ...

(٤) دفتر معية سنية تركي. ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤٤ بتاريخ ١٢ محرم ٢٢٨.

انتروبولوجية. فقد أكمل الكتاب الجانب الإنساني في التاريخ. كما اهتم الكاتب بالإنسان وسماته الشخصية ومظهره وملبسه ومسكنه وممارساته ومعتقداته وتقاليده. ولم يغفل جانب القبائل وانسابها كما وناقش الإدارة الأهلية. ومثال ذلك الفقرة التي يصف فيها الحسناوات وجمالهن ويقارنهن بل ويفضلهن على الاوروبيات:

«كل شيء هنا بكر كالتربة تندر العاهات الجسدية عند النوبة: جميل حقاً أن ترى الفتيات النوبيات عاريات إلا من الرحط وهو هداب من الجلد يغطي الجزء الأسفل من الجسم. وهن جميلات الصدور والاكتاف وإذا ما غضضنا النظر عن بياض البشرة فإن النساء الاوروبيات لا يرقين إلى مستوى الشابات النوبيات فهن لا يستعملن المشدات أو الملابس الضيقة».

ويتحدث المؤلف أحياناً عن السودانيين بطريقة لا تخلو من سخرية وازدراء خاصة عندما يصفهم بالتواكل والجهل والاستسلام للقدر دون احتياط وذلك يتمثل في كلمات مثل «إن شاء الله» و «معليش» و «ما في عوجة» التي صار هو نفسه يستعملها. وهو يسخر حتى من الحكومة في تعاملها بالرشوة وابتزازها للرعية ومثال ذلك أن الحكومة كانت تشتري الحمير من الأهالي بواقع ستين قرشاً للحمار وقيمته الأصلية ثلاثمائة قرش ثم تبيع الرديء منها للضباط بواقع مائة قرش للواحد ويعقب المؤلف بكلمة «حكوماشيش» على وزن «بخشيش» غير أن المؤلف لم تفته الإشارة إلى كرم السوداني وحسن ضيافته وعفته وأمانته بل وحرصه على كرامته ولو كان دون ذلك الموت وكيف كان يقابل قسوة الترك في جمع الضريبة بقوله: «زولين في تربة ولا ريال في «طلبة» ومعنى ذلك لأن يخوت اثنان أفضل من أن يقصر في دفع ريال واحد قد يؤدي به إلى الفلقة المهينة.

تناول المؤلف عادة خفاض الأنثى وختان الذكر والتأثير النفسي للخفاض على الأنثى وتأثيره على الجنس واصفاً هذه العملية وصفاً دقيقاً ومفصلاً كما وصف الطريقة البدائية لتضميد الجراح.

وتحدث عن تقاليد الخطبة والزواج ومراسم الزواج وعادة عرض دم البكارة عند النوبة. ثم تعرض لتعامل العروسين وعلاقة المرأة بزوجها وأسلوب كل منهما في التعامل مع الآخر.

وصف الموت وكيفية التجنيط والتكفين وحفر القبر ومراسم الدفن وقارن ذلك بالكيفية التي يتم بها في بلده حيث يحفظ الجثمان لفترة قبل الدفن، وكما وضح عادة البكاء وضرب النقارة. ووصف الآلات الموسيقية الشعبية وانتقد لغة الأغاني وأثنى على

مادة أغانيهم الوطنية وأخذها كمؤشر لوجود ملحمة قومية كاملة.

تناول المؤلف الخرافة والسحر وروى بعض الأساطير واعتقاد الناس في الأولياء والصالحين والعلاج عن طريق التعاويذ والمحاية والبخرات واعتقادهم في العلاج بالعقاقير البلدية مثل التربية كعلاج للزهري والبانزهير كعلاج مبطل لمفعول السم.

ويقودنا الحديث عن الأولياء إلى الحديث عن الإسلام وكيف أن الإسلام لم يكن متأصلاً في النفوس كعقيدة وان الحياة في السودان إبان الحكم التركي - المصري لم تكن بالحياة الإسلامية بل كانت ممارسات الناس بعيدة كل البعد عن الإسلام وقد نأت بهم عن الإسلام وأضرت به. لم يلتزم الحكام بصيام رمضان ولم يحكموا بين الناس بالعدل بل تمادوا في الظلم. ومما أورد الكاتب من نماذج عديدة يتضح أن السودان لم يندمج في الإسلام بل احتفظ بتقاليده الافريقية والوثنية. وفي عنوان الكتاب إشارة خفية لذلك «على تخوم الإسلام». وهذا أمر طبيعي إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن الإسلام لم يصبح الدين الرسمي للبلاد[٥] إلا حين تولى سليمان سولونج سلطنة دارفور عام ١٦٤٠ وهذا بالرغم من أن الإسلام أخذ يشق طريقه لهذه البلاد منذ حوالي القرن الثالث عشر الميلادي.

وقد ذكر ريتشارد هِلْ في مقال له[٦]: «إن تبجيل قبور الأولياء التي انتشرت في الريف في ظل السودان المسلم لجزء من الهواء الذي يتنفسه الإنسان. وقد فشل الاتصال بمراكز الدراسات الإسلامية الذي استمر على مدى مائة وثلاثين عاماً في أن يفرض الروح الإسلامية الصارمة على هؤلاء الناس للذين اعتادوا على دفء ولون افريقيا الوثنية».

واللغة التي استعملها الكاتب ليست بالصعبة والتعبير مباشر والأسلوب سلس خاصة عندما وصف المواقع الأثرية وجمال الطبيعة وروعة النيل فقد سجل في إحدى يومياته:

«تسلقت صباح هذا اليوم تلاً مواجهاً لجزيرة الفنتاين. جلست في ظل حائط آيل للسقوط استنشق هواء الصباح النقي وأدخن غليوني في هدوء بهيج وأتأمل العالم الملون تحتي. ضجيج الأصوات البشرية وأنين الجمال الحزين يخترق أذني كرجع أمواج بعيدة ترتطم بالشاطىء ومسحة من الحزن قد بدت على وادي النيل. وفي كتل الجرانيت والجدران المحطمة يأوى السكان البؤساء ورثة الحضارة الثرة الغامضة التي ضاع أساسها في ظلام الزمان ولم يبق منها شيء يدل عليها سوى بعض الأعمدة والأروقة. وليس ثمة

(٥) التونسي. تصدير ص ٧.

(٦) Ri Hill. «The Gordon Literature. Durham University Journd XL VII pp. 97 - 103.

شيء يذكر الإنسان بزواله أكثر من هذا المشهد. لقد جاء إلى هنا الفرنسيون وكثيرون من قبلهم يحملون ألوية النصر».

وهناك بعضُ المآخذ على المؤلف وهي أنه كثيراً ما يجنح للمبالغة فقد أورد مثلاً أن السود كانوا يأكلون بعضهم بعضاً إذ مثل قوله أن الأهالي يغلـون الدم ثم يأكلونه. وقد وقع المؤلف في أخطاء لغوية بسيطة متعلقة بالأسماء الأعلام وأسماء الأماكن وهي قد تكون أخطاء طبيعية في الترجمة وذلك للاختلاف في قواعد اللغات ولتأثير اللغة الأم (Interfer-ence of the Mother Tongue) والأمثلة لذلك كثيرة منها تأنيث المذكر في أسماء الشهور العربية ومثال ذلك قوله: «الفطر الاولانية» ويخطىء أيضاً في التنكير والتعريف خاصة في أسماء الأماكن ويذكر «الطيبة» ويقصد «طيبة» وهناك أخطاء مثل إطلاق عبارة «فقير الريح» بدلاً عن فكي الريح». . . الخ. ونموذج آخر كلمات مثل ALmees فهي مزيج من العربية والفرنسية وهي بالعربية تجمع على عوالم (جمع تكسير) فهو قد أضاف اللاحقة الحرفية «s» التي تدل على صيغة الجمع في الانجليزية للكلمة العربية المفردة «عالمه» ومثال آخر كلمة «Tukuls» هي اللفظة العامية لمطابخ.

وبرغم أن كل ما أورده الكاتب قد لا ينطوي على الحقيقة المطلقة ورغم المبالغات والقسوة في الحكم فأنت تحس بصدق المؤلف وانتمائه لتلك الحياة التي انغمس فيها فصار جزءاً منها. إن ما كتبه هو تجارب عاشها ورواها لحظة بلحظة وينعكس صدقه وانتماؤه في تجربته مع خادمته عزمية التي أحبها وحزن لفقدها حزناً شديداً فوصف لنا مرضها ولحظة موتها وموكب جنازتها ودفنها وكيف أنه احتفظ بخصلات من شعرها وأنه لم يستطع نسيانها بل ويحلم بها ويأمل في لقائها في الدار الآخرة.

ومن الممكن أن تعزى هذه المآخذ لكونه أوروبياً وهذه ناحية يجب ألا نغفلها وهي اختلاف الظروف والأحوال بين أوروبا وأواسط السودان آنذاك فقد يتأثر بالنزعة الاوروبية وإن كان هذا لا يحدث دائماً فيوجد بين الرحالة الكثيرون ممن توخوا الصدق ونأخذ كمثال الرحاله بالم (Palm) وبروس رولى (Bruce Rollet) الفرنسي الذي أشار إلى أطماع فرنسا وانجلترا في أواسط افريقيا وتغلغل النفوذ التجاري وحذر من خطر تغلغل النفوذ الأوروبي.

ونحن نحتكم لهِلْ نفسه فهو مؤرخ له وزنه وقد اشتهرت كتاباته عن هذا العهد وقد عاش في السودان وعمل بالسكة الحديد واختلط بالناس. وهو الذي نقل هذه الوثيقة إلى الانجليزية وقدم لها ونقدها وهو الذي قرر أن يختمها في الفصل الخامس بحجة أن الوثيقة

صارت خالية من أي أهمية في تلك المرحلة فاسقطها وختم الكتاب الفصل السادس الذي حوى مذكراته عن سنار.

وعلى أية حال فإن كاتب اليوميات قد نجح بفضل أسلوبه وتناوله الموضوعي في أن يعطي القارىء العادي، وبنفس القدر الذي يعطيه لباحث التاريخ المتخصص فكرة دقيقة وصادقة عن تطور المجتمع السوداني وتفاعله مع الحكم الأجنبي والحكام.

مقدمة
المترجم ريتشارد هيل

المخطوطة الفرنسية المجهولة الكاتب بعنوان:

Journal fait durant un voyage au Sennar et à I'Hèdjaz 1837. 1838 et 1840. والذي يتناول هذا الجزء من الكتاب ترجمتها، كتبت في كراسة من مائة وخمس وسبعين صفحة، مقاس كل منها ١٧,٤×١٨ سم. وهي الآن بمكتبة الدولة ببافاريا التي سمحت بنشرها. وأول من امتلكها هو المستشرق اتيين مارك كواترمير (Etienn-Marc Quartermère) (١٧٨٢ - ١٨٥٧) وقد باعت المكتبة ببافاريا مكتبته بما في ذلك هذه الكراسة.

واستعمل الكاتب ريشتين فقط لكل هذا العمل. إذ كان يواصل الكتابة ولا يتوقف إلا عندما تجف ريشته ليغمسها في الحبر وهو لا يغمسها عند بداية كل مدخل كما يفعل كاتب المذكرات عادة. أضف إلى ذلك فإن هذا العمل قد كتب بخط سكرتيري واضح في صحائف مجلدة بنفس الشكل والحجم الخاص بمجموعة كواترمير. وكذلك فإن التي بأيدينا هي نسخة واضحة مقروءة وليست الصحيفة الأصلية.

بالرغم من أن كاتب هذه المذكرات لم يذكر اسمه يبدو أن الحروف الأولى من اسمه هي أ. د. ر. (A. D. R.) إذ أن هذه الحروف ظهرت في نهاية رسالة طويلة بعنوان **Notes sur le Sennar** مقتطفات من رسالة خاصة موجهة إلى م. بريس (M. Prissé) كتبها أ. د. ر. ونشرت في مجلة **(Miscellanea Aegptiaca)** الاسكندرية الجزء الأول (١٨٤٢) الصفحات ٥٣ - ٦٢ وهي في الواقع تكملة لصحيفة الكاتب وقد ضمنت في الكتاب كفصل سادس في الصفحات ٢٠٦ - ٢١٦ والتشابه في الاسلوب يوحي بأن أ. د. ر. هو أمادي رايم (Amadee Ryme) والذي كتب الجزء الذي يحمل العنوان **(Egypte Moderne,** **(Egypte depuis la conquête des** في المجلد **periode de la domination française)**

Arabes (etc) للكاتب ج. ج مارسل (J.J. Marcel) وأ. رايم (A. Ryme) وأ. برس (E. prisse) (L'Univers pittoresque, ii 1848).

وقد كتب جوزيف فون روسيجر (Josef Von Russejjer) ان هناك ثلاثة أطباء فرنسيين بجيش أحمد باشا في السودان لم يذكر أسماءهم الأول طالب في العلوم الطبيعية وكان ينوي صيد فرس البحر بمدفع وينطبق هذا الوصف على جاسيير (Gassier) الضابط الصحي المسئول بالفرقة الثامنة، والثاني وقد كان أكبر سناً وهو بلا شك سنت اندري (Saint André) والثالث وهو أصغر سناً وأكثر هدوءاً وقد دفع به القدر التعيس إلى الهجرة[1] وزاد وصف روسيجار للرجل من احتمال التعرف عليه. لم تثبت المذكرة أن اسم الكاتب كان مضمناً في جدول رواتب الجيش بالرغم من اهتمامه بالمسائل الطبية وقد استخدمه جاسيير في عدد من المهمات التجارية ولكن لا أحد يدري إن كانت خاصة بالحكومة أم بجاسيير. إذ أنه من المحتمل أن يكون كاتب هذه المذكرات ضيفاً على جاسيير أو مرؤوسه.

والصفحات التي تضمنت الرحلة عبر مصر من المذكرات وهي (١٢٥) (٢٦ و ٢٠٥) كانت ثرة وقد اختفت منها الملاحظات الدقيقة والتغيرات اليومية للطقس وقد تكون ملاحظاته هذه مفيدة لعمل دراسة منتظمة للتغيرات المناخية في وادي النيل إذا دعت الضرورة.

السودان المعاصر الحكام والرعية:

إن الحكم الذي عاش وعمل تحت نفوذه كاتبانا يسمى بالتعبير الحديث الحكم التركي - المصري وهي تسمية لم يكن من الممكن استعمالها. والمقصود بهذه التسمية الصفوة التي تتحدث اللغة التركية وهي تتكون من ألبانيين وشراكسة وأكراد وأتراك أصليين ومسلمين من المصريين والذين كانوا يحكمون مصر والسودان في تلك الفترة. ولقد اعتاد المصريون على السيطرة التركية لدرجة الاذعان مما جعل هذا الخنوع موضوع بحث لكثير من المسافرين لكلا البلدين ومنهم فيردناند ويرن (Ferdinand Werne) الذي تنبأ بأن «اخضاع العرب الفعلي للعرب أمر يحتاج لزمن طويل»

كان السودان في تلك الفترة مستعمرة تابعة لمديرية (ولاية بالعربية وقلاية بالتركية) مصر العثمانية والتي هي في الحقيقة جزءاً من الامبراطورية العثمانية.

---

(١) **Reisen in Afrika, II.** الجزء الثاني صفحة ٦٢٤.

ولم يكن للسودان أي كينونة سياسية إلا منذ فترة الاستقلال القصيرة أثناء حكم المهدية ١٨٨٥ ـ ١٨٩٨ وظل تحت الإدارة الأجنبية إلى عام ١٩٥٦. وفي عام ١٨٣٥ ترقى علي خورشيد بك إلى منصب باشا من الدرجة الرابعة: Akālīm- i Mişrīyenin bir kismo olān Sūdān iklīmī Müdürü وهو حاكم مقاطعة السودان وهي جزء من مقاطعات مصر.

ولقد اقرت موقف التبعية هذا السلطات التي أوفدت ممثليها لمصر وتوابعها. وأنه لمن الغريب ومن المخيب للآمال أن يتعرض المؤرخ لذكر المحاولة الوحيدة التي قام بها الحاكم التركي ـ المصري بالسودان للتخلص من التبعية لسيده في مصر والتي أدت إلى ما كان سيكون اغتيالاً قضائياً للحاكم العام أحمد باشا أبو ودان في أكتوبر ١٨٤١ وهذا بالرغم من إشارته لخلفاء أحمد باشا من أمثال أحمد باشا منكلى وخالد باشا خسرو. وبالطبع فإن الكاتب قد نسى ذكر الحادثة لأنه سمع عنها بالتأكيد للضجة التي أحدثتها في الدوائر القنصلية في مصر(٢).

والكتاب ليس لديهم فكرة واضحة عن السودان كوحدة جغرافية ولا يعرفون بالتأكيد أين تنتهي النوبة وأين تبدأ بلاد السودان (أرض السود. وحتى القناصل لم يتحروا الدقة في رسائلهم فكأنوا على سبيل المثال يكتبون سنار ويقصدون السودان وكانوا دائماً مترددين بالرغم من أن حكومة القاهرة كانت تكتب السودان منذ بداية الاحتلال التركي ـ المصري. ومثال آخر للاستعمال المريب لكلمة سودان جاء في رسالة من القنصل العام فريدريك بروس السفير البريطاني بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٨٥٦ والتي حوت تقديراً عن وقائع رحلة محمد سعيد باشا نائب الملك للسودان(٣).

وبما أن السودان كان وحدة حكومية جديدة لا تتلاءم والنمط التقليدي للحكم العثماني فقد واجه محمد علي باشا هذا الموقف ليس فقط بوضع مفردات إدارية جديدة ولكن بإضفاء قيم جديدة للوظائف والدرجات والمقاطعات الإدارية التي كانت موجودة أصلاً. وقد خضع تعيين الحكام للسودان للتعديل كما هو الحال دائماً بالنسبة لاختيار الحكام. كان الحكام في السنوات الأولى للاحتلال هم الحكام العسكريين للمنطقة وكان

---

(٢) نوقشت ظروف وفاة أحمد باشا في مقال ريتشارد هل بعنوان: **Death of a Governer General.** السودان في رسائل ومدونات ١٩٥٨، الصفحات ٨٣ ـ ٨٧.

(٣) دار الوثائق البريطانية ـ لندن. **Public Record Office, London, Foreign office papers (belew, passim, .P.R.F.O.). 195-522, pt. 2.**

علي خورشيد الذي حكم من ١٨٢٦ ـ ١٨٣٨ أول ضابط توكل إليه السلطة القضائية العسكرية والمدنية لكل المنطقة المحتلة الواقعة جنوب مصر وقد سبق أن عين مديراً وهو مصطلح يعني المدير الإداري أو المالي ولكنها تعني هنا المسئولية لدى السلطة العليا وبالتحديد حاكم مصر. وفي عام ١٨٣٥ رقى على خورشيد إلى حكمدار (وتنطق بضم الحاء والكاف في اللغة التركية) وتعني الحاكم المكلف أو المفوض من سلطة عليا ويسمى في اللغة الحديثة مندوب سامي أو حاكم عام إذا ما أردنا استعمال مصطلح مألوف لدى الطلبة الذين عاصروا الإدارة الاستعمارية السابقة.

كانت الخرطوم هي مقر الحاكم العام وهي مدينة اسسها عثمان بك جركس الحاكم العسكري للمنطقة في عام ١٨٢٥ وقام بتوسيعها وتطويرها علي خورشيد باشا منذ عام ١٨٢٦. وقد قسم السودان إلى خمسة أقسام صغيرة سميت عن طريق الخطأ بالمديريات. ونحن لا نملك إلا أن نقبل هذه التسمية لأن اللغة الانجليزية لا تشمل الكلمات التي تدل على الاقسام السياسية غير الانجليزية. والمديريات هي: سنار وكردفان وبربر ود نقلا والتاكا التي صارت كسلا الحديثة بعد الغزو عام ١٨٤٠. كان الضابط المسؤول من هذه الأقسام في بادىء الأمر يلقب بالمأمور وهو شخص يؤمر بعمل شيء وكانت منطقة نفوذه تسمى مأمورية وعندما تغير لقب الحاكم العام من مدير إلى حكمدار في الخرطوم، تغير لنفس السبب لقب المأمور الاقليمي إلى مدير.

قسمت المأمورية والتي سميت فيما بعد مديرية إلى أقسام أصغر يحكم كل منها كاشف ويسميها العرب «قسم» ويسميها الاتراك «كازفيك». والكاشف هو المسئول المباشر عن الشيوخ السودانيين أو بتعبير ألطف ممثلي دافعي الضريبة المغلوبيين الذين يتحملون عبء دفع الضريبة. وفي الفترة التي عاش فيها الكاتبان في السودان كان الحاكم العام وحكامه الاقليميون أعضاء في الجهاز الحاكم والذي يتحدث اللغة التركية وكان جميع الكشاف كذلك بالرغم من أن كاتب المذكرات أفاد بأن هناك واحداً أو اثنين من الكشاف في بلاد الشايقية والدناقلة كانا من الأهالي.

والأهمية التي أولتها الروايتان للموظفين من الاقباط المسيحين يمكن أن يبررها كون الاقباط كانوا العرب الوحيدين الذين يعملون بالسكرتارية وكمحاسبين وصيارفة وقد لعبوا أهم دور في إدارة يحكمها الجهلة وأنصاف المتعلمين من سادة المسلمين. ومن بين جميع الأجانب غير المسلمين كان الأقباط هم الأسوأ. كان كل من الكاثوليك والبروتستاتين يكرهونهم على حد سواء. فرفضهم الكاثوليك كمنكرين ورفضهم

البروتستانت كمروجين للخرافة وحاول كلاهما جهده لتحويل بعض الاقباط للإسلام، وكان المسلمون يحتقرونهم ويعتبرونهم مصريين من الدرجة الثانية ويكرهون مقاومتهم لاعتناق الإسلام ولكنهم كانوا يتغاضون عنهم للاستفادة من خبرتهم بالشؤون المالية والسكرتارية.

لقد انصف الكاتبان الاقباط إذ جمعا بين نقدهم لمكرهم وبين إعجابهما بشجاعتهم واحتمالهم للاضطهاد المستمر وكلاهما سجل تفاصيل معاناة موظفي المالية الأقباط على يد الحاكم العام ولكن من من السودانيين يستطيع الاعتراض على معاملة أحمد باشا تلك القاسية للمحاسبين والصيارفة من الأقباط؟ ومما يزيد موقفهم سوءاً هو كونهم هم الأدوات الممقوتة لجمع الضرائب. فهم ينوبون عن الحكومة في القيام بالأعمال البغيضة مثل حفظ دفاتر المساحة والعوائد ومعرفة مديونية الحكومة على الناس. هذه المناهضة الطويلة المدى لدين الأغلبية من تلك الأقلية من المصريين لا بد أن تترك أثراً واضحاً ألا وهو خضوعهم الذليل لسادتهم المتغطرسين.

كان الموضوع الرئيسي لكلا الوثيقتين هو الإشاعة وأهميتها كمصدر للأخبار في عالم يغيب فيه الاطلاع على الجريدة الأخبارية أو كتابة الخطابات الشخصية. كان للسلوك المهني المكشوف للموظفين الاتراك المصريين بالإضافة إلى حب ترويج الشائعات نتيجة حسنة وهي أن السر سرعان ما ينكشف. ولقد أعاقت القيود الشكلية التي تفرضها اللغة والتقاليد السكرتارية انسيابية الرسائل شبه الرسمية والخاصة والتي كانت بمثابة عصب الحياة بالنسبة لصناع السياسة في السنوات الأولى للحكم الثنائي (الحكم الانجليزي ـ المصري) ولا يستطيع الاتراك بأية حال الاشتراك في عمل هم يحتقرونه ويعتبرونه عملاً غير مشرف وذلك لجهلهم. ولسوء الطالع لم يوجد أي شيء بخط يد أي من الحكام الذين ذكرهم الكاتبان. ومن الاسلم التنبؤ بأن طلبة التاريخ من السودانيين مستقبلاً سوف لا يجدون في الوثائق القومية لمصر والسودان أي آثار أدبية ثرة ومتنوعة وملهمة للقادة السياسيين المعاصرين، بحيث يمكن أن تضاهي تلك التي تركها كرومر وونجت وسلاطين.

نجد أن للحكم التركي المصري، شأن أي نظام سياسي، جوانب قوة ونواحي ضعف. وواحدة من ميزاته هو تحرره من الاعتماد على الروتين الكتابي ومرونته. ويتكون القلم الكتابي لأحمد باشا أبو ودان الحاكم العام من خمسة من السكرتارية هم: مصطفى أفندي الذي قرأ فولتير وقد كان مسؤولاً عن المراسلات التركية وشيخي أفندي وكان

يحفظ السجلات والكتب ومعلم خليل الكاتب القبطي وناسخين.

وكان انعدام الصلة الفاعلة بين الحكام والرعية ضعفاً ولا توجد أجهزة استشارية في السودان المحتل تمكن الحكومة من الاتصال بدافعي الضرائب إن أرادت. وسوف تنتقل جرثومة الاستشارية عما قريب إلى المحافظات الأخرى من الامبراطورية العثمانية بموجب ما يسمى بقانون الولايات لعام ١٨٦٤. ولكن محمد علي باشا وخلفاءه فعلوا كل ما في وسعهم لايقافها وإيقاف أي قرارات عثمانية للاصلاح ورفضوا تطبيقها في مصر وتوابعها. ذلك لأنه قدر على مصر والسودان اتباع طريقتين مختلفتين في المسار السياسي.

ومع ذلك فهناك طريقة تمكن الحكومة سلباً من جس نبض الشعب وهي منحه حق الالتماس ضد الظلم المزعوم. ولم يكن الالتماس في السودان مقيداً بقوانين الاجراءات البريطانية المرسومة بل كان سخطاً تلقائياً غير رسمي من قبل الشعب. وروى المؤرخ عن كيف نحى عباس آغا حاكم بربر بسبب التماس الشعب. وبذا يبدو لنا البون الشاسع بين المفهومين الإسلامي العثماني والأوروبي الغربي لطبيعة الحكم والذي تحد منه حقيقة أن الحكم البريطاني في فترة الاربعينات من القرن التاسع عشر والحكم الانجليزي ـ المصري في السودان إلى عام ١٩٣٦ قد بني على أسس إسلامية أكثر منها غربية. وسيتحد المسلمون لاصلاح ما يرون أنه خطأ كبير لا يمكن غض النظر عنه أو عن الاستجابة لدعوة حماية العقيدة من الهجوم أو لصد أقلية غير ملتزمة قد يضر نشاطها ومعتقداتها بالإسلام. وقد كانوا دائماً يجدون صعوبة في الاتحاد من أجل أهداف إيجابية وخاصة التي تحتاج إلى انضباط جماعي.

لقد قبل السودانيون بوادي النيل الحكم التركي ـ المصري بعد أن وضح لهم عدم جدوى المقاومة بعد اخماد الثورة عام ١٨٢٢ ـ ١٨٢٥. كانت كل الحكومة عبارة عن قوة استبدادية خارجية. فهي على الأقل حكومة مسلمة بالأسلوب الخاص بها. وقد تعلم القادة والتجار المسلمون كيف يستفيدون من الحكم الاستبدادي الجديد. ويحدث المؤلف عن حملات الرق التي كان يقوم بها الشيوخ السودانيون تحت حراسة قوات نظامية وتجار سودانيين ومرافقين للجيوش المصرية التركية في أراضي غير محتلة بحثاً عن الرقيق وبضائع أخرى. ويسخر المؤلف من أحمد باشا أبو ودان في لجوئه للحدود الدينية في محاولة لإقناع قبيلة الهدندوة بالتاكا للخضوع لخليفة الإسلام. وهذه حيلة سياسية استعملها الحكام المسلمون في الماضي ليبرروا شن الحرب على المسلمين. ويكرر

أحمد باشا نفس التكنيك الدعائي الذي استعمله محمد علي باشا شخصياً عندما أرسل ثلاثة علماء لمرافقة الجيش الذي قدم من سنار عام ١٨٢١. ويدل غياب مثل هذه المؤسسة التبشيرية في حملة الدفتردار على كردفان في نفس العام على أنه من الممكن إقناع السكان بالعنف أكثر من إقناعهم بالدين. وليس من الحكمة محاولة التقصي ما إذا كان الولاء للسلطان عادة في السودان في ذلك الوقت. ولكن لا بد من معرفتها فيما بعد. وقد ورد في كتاب افليا سلبي التي زعمت أنها قامت بزيارة مدينة سنار في حوالي ١٦٧١ ـ ١٦٧٢ ان اسم كل من سلطان الفونج والسلطان العثماني كان يذكر في صلاة الجمعة. وبعد قرن من الزمان كتب مسافر إلى دارفور يدعى وليم جورج بروان أن سلطان دارفور بعد توليه بفترة وجيزة بدأ يرسل الهدايا إلى القسطنطينية كانما ليؤدي فروض الولاء إلى البيت العثماني.

تفهم الاتراك سلوك القبائل السودانية المقيمة على طول وادي النيل برغم اختلافهم عنهم تاريخاً ولغة وكذلك في طريقة التفكير والعادات والزي والطبخ. استغلت بعض هذه القبائل وبصفة خاصة الجعليون الامكانيات التجارية التي أتاحها الوضع الجديد ليلعبوا دوراً كبيراً في فتح الجنوب الوثني.

وينعكس الوضع في حالة البدو البعيدين عن النهر سواء كان البجة في الشرق أو البقارة والكبابيش في الغرب، فقد فشل الأتراك معهم فشلاً ذريعاً فاحتلت قواتهم أماكن الآبار خلال موسم الجفاف وهو الوقت الذي لا بد للبدو من الحضور فيه للسقيا وإلا ماتت بهائمهم. وكانوا يستولون على بهائمهم بدلاً من الضرائب. ولم تساعد الحكومة البدو لكي يزيدوا قطعانهم ويحسنوا نوع مواشيهم. ما زال علم البيطرة وليداً كما نعلم ويوجد بالجيش قليل من البياطرة للقوات المحمولة. وكما ذكر المؤلف فإن العلاقات متأرجحة مع قبائل العبابدة وهم ملاك الجمال الذين يتحكمون في عبور الصحراء بين كورسيكو وبربر وهو الشريان الحيوي للاتصال البري بين مصر والسودان. وبينما فرضت السياسة على الحكومة تحويل العبابدة إلى ما وراء حدود المصالحة، نجد أن طبيعة الوجود القبلي على الحدود الحبشية يجعل المصالحة الدائمة أمراً صعباً. كانت العلاقات في توتر دائم بين رفاعة أبوروف ورفاعة أبو جن وهما مجموعات قبيلة جذبت انتباه المؤرخ كثيراً. لأن هؤلاء الجوالة مثل رجال الحدود بامكانهم عبور الحدود إذا ما طاردهم جامع الضرائب التركي ـ المصري. وقد تدفع المصلحة الشخصية رفاعة أبو جن ويلجأ للحكومة كما فعل كاسا ثيودورس (Kasa Tewadros) الذي صار مستقبلاً الامبراطور ثيودور الثاني عندما طلب

جباية الضريبة الحربية من القبائل السودانية في أيام الحكمدار خالد خسرو باشا (١٨٤٥ - ١٨٥٠)[٤].

ويقع عبء حفظ الأمن وإدارة حملات الرقيق السنوية على المشاة النظاميين وهي قوة كونها محمد علي باشا عام ١٨٢١ - ١٨٢٤ وتلقت تدريبها على أيدي مدربين أوروبيين. وبمرور الزمن زاد عدد الزنوج فيها إلى عام ١٨٣٧ حيث وصل كاتب الصحيفة إلى السودان وحيث صارت كل الفرقة الأولى والثامنة من الزنوج جنود الصف، بمعنى أن الأنفار وبعض الضباط غير المكلفين كانوا عبيداً اسروا في الحملات أو تنازل عنهم سادتهم وقدموا كضريبة بدلاً من النقود. وكل الضباط تقريباً من الأتراك ولكن أضيف لهم بعض السودانيين المبرزين من جنود الصف الذين أعطوا رتباً في الجيش. وليس للأحرار والعرب من السودانيين مكان في الجيش النظامي.

وقدمت الفرقة الثامنة التي امتلأت صفحات الكاتب بذكرها إلى السودان في عام ١٨٣٨. وكانت هذه الفرقة أو أخرى تحمل نفس رقمها تعسكر في مورية (Morea) بقيادة إبراهيم باشا ضد الاغريق. وقد قويت بفضلها الفرقة الأولى والتي كانت هناك منذ عام ١٨٢٤، وكان محمد علي باشا يريد الفرقة الثامنة لغزو الحبشة ولكنه ألقاها في السودان بعد الحرب. وكانت تقيم بود مدني ولها كتيبة منفصلة في سنار وأخرى في الخرطوم.

والتكوين غير النظامي يمثل النظام العسكري كما كان قبل النظام الجديد لمحمد علي باشا، وهو نموذج جديد للجيش وكانت تتكون كلها من الفرسان. تؤخذ مجموعة المستخدمين من قبيلة الشايقية ومن عرب الفزارة من مصر العليا من تشكيلة من المرتزقة تسمى بالمغاربة. وهم أهالي الغرب الذين يجمعون فيما بينهم قوات من أي جهة تقع بين مصر والمحيط الأطلنطي وقوة غير نظامية أخرى هي الخيالة الناطقون بالتركية وتسمى دلي (Deli) وتعني «المجانين» ويميل الأجانب في السودان إلى تسمية كل الجنود غير النظاميين «باشبوزك» وتعني بالتركية الاناء المصدع. ويستعملون المصطلح للتعييب كلفظة مرادفة للقسوة. ومن الثلاثة تكوينات فقد لعب الشايقية أهم دور في الروايتين وقد صمدوا لسنين حتى سقوط النظام على أيدي الثورة المهدية تعرض خلالها ولاؤهم للحكم التركي -

---

(٤) جزء لم ينشر من المخطوطة متعلق بالأحداث في السودان ١٨٤٣ - ١٨٤٨، حققه ريتشارد هل، السودان في رسائل ومدونات ٣٦، ١٩٥٥ الصفحات ١٠ - ١١ من الكتاب.

Nuovi documenti per storia d'Abissinia nel secolo XIX, ed G. conti Rossini, Reud. Acc, Naz Lincei, Rme, ser NIII, ii, 1947, P. 396.

المصري لامتحان عسير ألا وهو سياسة أحمد باشا الضريبية.

ومن بين الضباط الشايقية الذين ذكر المؤلف اسماءهم أجداد الفريق إبراهيم عبود والذي كان رئيساً للدولة في السودان.

وإبان المحن القاسية التي تعرض إليها في بداية حياته كان محمد علي باشا يفضل أن يقتل على أن يقتل ولا يتردد في ذلك. ولكن حاول الرجل العجوز في آخر أيامه أن يفرض سيادة القانون على ضباطه. ولم يعتاد الاتراك للخضوع للقوانين التي تسوى بين الحاكم والمحكوم. وهم لم يرفضوا أحكام القاضي في مسائل القانون الإسلامي ولكنهم رفضوا القوانين والتوجيهات الصادرة من القاهرة والتي تأمرهم بتوخي العدالة في معاملة أي شخص بصرف النظر من مركزه أو عنصره أو دينه. وهذا النوع من الوصاية كما أوضح كلا الكاتبين ليس له وجـود في الحدود السودانية وكلما ارتفعـت مكانة التركـي قلّ اهتمامه بدقة وصحة أشكال القانون وكلما كثرت ممارسته غير المقيدة للحرية الشخصية بينما نجد في القاهرة مجرد إبداء نائب الملك رغبته في التخلص من الشخص يقوم ضابط بقتله في الحال. إذا كان حقيقة ما زعم الكاتب وهو أن أحمد باشا قتل كمبال بن شاويش قائد الفرسان غير النظاميين الشايقي الأصل. فإنه في اعتقاده قد حقق العدالة. والحاكم في تلك الأيام هو قاضي نفسه وهذا أمر مسلم كان عند أهل ذلك المذهب الفظ.

إذا كان مفهوم سيادة القانون كما يفهمه الطليان والفرنسيون غير موجود عند الأتراك، هذا لا يعني أنهم لا يعرفون العدالة. فهم على العكس شديدو الحساسية لما يرونه هم كعدل أو ظلم. وللمؤرخين السودانيين أيضاً مقاييسهم التي يحكمون بها على الحكام الأتراك ـ المصريين. فهم أحياناً يثنون على الحاكم لاسباب قد يعتبرها أصحاب النظريات من الغرب شيئاً غير مقبول ومثال ذلك ثناؤهم على الحكمدار الذي يعفى أحد رجال الدين المتميزين من الضريبة ولكنه لا يعطي أي اعتبار لدافعي الضريبة الآخرين الذين يجب عليهم الدفع أكثر من المفروض عليهم. ليعوضوا العجز الذي نتج بسبب تباهي الحاكم بالنزعة الخيرة عنده.

ولا يمنع المعنى الاستبدادي للعدالة من ممارسة المزايا السياسية المقبولة. إن خضوع الحكومة المدروس للسيدة نصرة بنت عدلان وهي تنتمي لعائلة الأوصياء على العرش السابق لسلاطين سنار من الفونج، كان خضوعاً ذكياً مثلما هو كريماً. ولم يخضع شيخ قبيلة للحكومة والضرائب التي تفرض إلا وأهدى بدلة حكومية في الحال وكرمه

موظفو الدولة. كان بعضهم يتظاهر بالذهاب إلى مصر كضيوف لنائب الملك.

من بين كل عناصر المجتمع السوداني كانت الطبقة الشرعية ـ العلماء هي التي أخذت المبادرة في صنع السلام مع الفاتحين. قبل قدوم الاتراك للسودان وكان التأثير الديني والثقافي يأتي من الجزيرة العربية ومصر وكان سلاطين سنار يكرمون الوافدين أو العلماء العائدين ويشملونهم برعايتهم. وتحت حكم الاتراك بقيت العلاقات الدينية والثقافية مع الحجاز إلى أن أضعفتها الحروب الوهابية. واتجه السودان نحو كلية الأزهر بالقاهرة لاكتساب المعرفة والرشاد. لقد خرج الأزهر العلماء الثلاثة الذين قدموا السودان مع جيش إسماعيل باشا الفاتح ١٨٢٠ ـ ١٨٢١. وكان كل العلماء في السودان وعلى مدى جيل كامل مصريين من الأزهر. وكان ضمن الباقين الكثيرون ممن تلقوا تعليمهم هناك وهؤلاء الرجال الذين تلقوا تدريبهم في الأزهر بذلوا مجهوداً كبيراً في إقناع السودانيين بالنظام التركي ـ المصري بأسلوب سلمي. وقد أدركت الحكومة فائدتهم واستخدمتهم بمرتبات في مواقع دينية وقضائية ولهذا السبب عندما ثار السودانيون على الحكومة أخيراً اعتبروا الموظفين من العلماء مرتزقة للمستعمر.

والتجارة ووسائل النقل على الدوام في ذهن كاتبنا. كانت الإدارة التركية ـ المصرية معتمدة في بقائها على النقل النهري الداخلي ولا توجد أي سفن سودانية واسعة وكبيرة ومريحة. وتمتلك الحكومة كل السفن التي تحمل المسافرين لمسافات بعيدة (الدهبية والجانجا التي كانت أصغر وأسرع) والتي بنيت في مصر بخشب أوروبي وأطر مشكلة وأشرعة مثلثة الشكل. وتمتلك الحكومة المسافن في السودان. وكانت تبني ناقلات البضاعة المنجورة والتي ليس لها أطر وذلك بغرض الملاحة الداخلية أو للتصدير على النهر إلى أواسط الدلتا وإلى عام ١٨٥٧ حيث مخرت عباب ماء النيل أول باخرة مقدافية صغيرة فوق الشلال الثاني.

والسخرة هي أحدى المظاهر القاسية للنقل الحكومي وهو أن يفرض على الفلاحين النيليين جر السفن أو إيقافها أو توجيهها عندما ترسو. ويستغل كاتب الصحيفة موضوع السخرة عندما يرى ذلك ولكنه يتألم ويزرف الدموع في مثالية على هذه الممارسة. ومسألة احتكار الحكومة لوسائل النقل أيضاً قاسية. ولا تفرض الحكومة على الزراع زراعة محصول بعينه مثل النيلة. ولكنها تشتري كل المنتجات كصبغة النيلة والصمغ العربي وريش النعام والمواشي بسعرها الخاص في السودان ثم تبيعها غالية في سوق

الاسكندرية. وبالرغم من أن كاتب الصحيفة يسجل أسعار المحاصيل إلا أنه لم يكن مهتماً بالنظريات الاقتصادية السائدة في اوروبا.

الأوروبيون:

عاش كاتبا هاتين الوثيقتين حياة قاسية وعملا في ثكنات مبنية من الطين وفي المستشفيات والمكاتب، وسكنا في منازل من الطين بنوافذ ذات مصراع وبلا زجاج، وقد صنعت الأرضية والسقوف من الطين الذي يخلط بروث البهائم والغش للتقوية. ولم يكن مبيد البعوض معروفاً. كان البعوض الذي يسبب الملاريا يتبعهما من مغيب الشمس وإلى الفجر أثناء الخريف والى أسابيع بعد ذلك.

ولم يكتشف بعد علم طب المناطق الحارة وعلم الصحة. وما زال علم الطب يربط الملاريا بال Mal'aria أي الهواء الفاسد والطبيعة. أما علاج معظم أمراض المناطق الحارة فلم يكن معروفاً. ويعتقد القلائل في لحي الكينيا وهو مصدر الكونيين ولكن الكثيرين يجهلونه. من أجل الصحة كان الاوروبيون يشربون البراندي متى ما وجدوه، وإن لم يجدوه فهم يشربون العرقي وكان كاتب اليوميات وهو رجل رومانسي يشرب كي ينسى.

كانت الخادمات يكفين حاجتهم من النساء. وقد أحضر اثنان فقط منهم (زوجتيهما الاوروبيتين هما المدرب برن رولي (Brun Rollet) التاجر وڤيجارو (Vijournx) كان الاوروبيون مثل الاتراك يلبسون زياً نظامياً أو زياً عسكرياً إذا كانوا جنوداً. كانت مرتباتهم بسيطة ولكنها كافية لنوع الحياة التي يعيشونها، وكانت تدعمها التعيينات التي تصرف لهم والعلف لحيواناتهم. وليس لهم إجازات منتظمة ولا معاش عند نهاية خدمتهم، ولذلك فإن الأجور الإضافية مهمة جداً. ورجال الصحة من أطباء وخيالة يعملون عملاً خاصاً جداً، كما وضح الكاتب فقد استفادوا من الهدايا التي كان يقدمها الأغنياء. وكل من يستطيع كان يقوم بعمل خاص. فهي حياة لا بأس بها لإنسان واقعي.

مجرد الاطلاع على الوثيقتين يمحو أي انطباع سائد بأن الفرنجة في السودان كانوا مجتمعاً متماسكاً بل كانوا على عكس ذلك: كثيري الشجار وعلى استعداد لشكوى بعضهم للحكمدار المسلم أو التآمر على بعضهم البعض. وما أوضحته الوثائق أكدته أدلة روايات المسافرين وادق ملاحظات عن الفرنجة جاءت من فيردناند ويرن (Ferdinand Werne) وهو كاتب ألماني متقد الذهن متشبث برأيه كان قد ذهب في حملة التاكا وقد وضعته كتاباته بين الكتاب البارعين الذين كتبوا عن السودان مع بيركمارت وونسن تشيرشل.

إن الكتابات النقدية اللاذعة لوبرن يجب أن توازن لقاء تحامله وبالتالي تقل قوة برهانه نسبياً. وباختصار فإن جميع الاوروبيين الذين وجدهم في السودان فقراء، وقد خصص صفحتين من كتابه للكيل لكل الطليان وقد عزى ميزتهم الوحيدة وهي توسطهم في شرب الخمر لقذارتهم الفطرية وحتى طعامهم كريه فهم لا يشبعون من تناول العجينة التي يطلقون عليها اسم «مكرونة» ولم يعرفوا قيماً مثل الشرف والأمانة والشجاعة. والفرنسيون القلائل بالسودان بالمقارنة، ليسوا إلا مهرجين استعراضيين ودجالين. وقد تناول بالحديث أيضاً، الانجليز وكانوا قلة ولكنه سرعان ما ترك الحديث عنهم. ولم يقابل إلا الميكانيكيين والمهندسين، ولم يعجب ويرن أي شيء حتى زملاءه الألمان الذين قدموا إلى وادي النيل. وكان معظمهم ميكانيكية غير متعلمين من الذين افسدهم الشرقيون من لصوص وأوغاد ومحتالين وسكارى وسفاكي دماء وقد وصل البيرمنتيون: الحد الأدنى في الخيانة وأضافوا إلى إجرامهم لهجتهم الفظة. وهكذا كان لوميلو (Lomello) الرائد الصيدلي بمستشفى الخرطوم المركزي والذي كما وصفه ويرن ساخراً، كان قد بدأ حياته في مصر كمعلم بليارد في بعض حانات الاسكندرية[٥].

كان من الممكن فهم الوثيقتين بصورة أحسن إذا عرفنا شيئاً عن خلفية ونشأة الكاتبين ـ أين تلقيا تعليمهما ولماذا هاجرا. وواضح أن كليهما متعلم والفرنسي أكثر تعلماً من الايطالي. أضف إلى ذلك أن الفرنسي كان أكثر طلاقة وأوسع ذخيرة لغوية وكانت له نظرة راقية متحضرة وحيثما كان موطن مؤرخنا أو موطن والديه وسواء كان من أواسط إيطاليا أو من جنوبها فهذا لا يمكن أن يولد فيه الشعور بالعنصرية والسيادة القومية وجاء كاتب اليوميات من فرنسا في فترة لم تشوهها الشوفينية بعد فلم يعط نفسه حق الحنين للوطن أو الفخر بالقومية. ويسجل الفرنسي سقوط القسطنطنية على أيدي الجيش الفرنسي دون الشعور بأي وطنية وهو ضد الدين أو غير مكترث بالدين ويبدو وكأنه يكره سانت سيمون. ومن جهة أخرى فانا نجده هو والمؤرخ متعاطفين مع العقيدة المحلية لهؤلاء السودانيين البسطاء.

---

(٥) **African Wanderings. pt2 pp. 147 fs**. وجد و. أ برومفيلد (W.A. bromfield) الذي زار الخرطوم ١٨٥٧ أن المجتمع الاوروبي المحلي من نفس النوع «لقد انخرط الاوروبيون في حياة الاتراك شبه المتحضرة ونتج عن ذلك مجتمع بغيض سيىء الخلق. وكانت الحياة خارج تلك الدائرة في منتهى البربرية والفقر والاضطهاد».

(Letters from Egypt and Syria, 1856, p. 140).

لم يقع أي من الكاتبين في الخطأ بتقييم دوافع وممارسات الحكام الاتراك ـ المصريين حسب مقاييس الأخلاق السائدة آنذاك في فرنسا وإيطاليا ولكن لانغماس الكاتب الفرنسي في الحياة من حوله كان من الممكن أن ينحرف ويتبجح بالحديث عن آخر منقذ للمجتمع الفرنسي أو ربما انحرف وسلك تعليم أكثر نظامية. أو ربما تسبب الاتصال قريب العهد بالوطن في أن تمتلىء صفحات الكاتب الايطالي بذخيرة لغوية غير مناسبة من رواية «ايطاليا المتآمرة» للكاتب سلقيوبليكو فيخلط الهبسبيرج بالاتراك. وقد تنزه الكاتبان تماماً من أي نفاق. وكتب بكلر مسكو (Puckler Muskau): «لقد ادهشني هذا التناقض». كيف أمكن لهؤلاء الإداريين بما في ذلك الانجليز أن يمتلكوا الخدم هنا وهم الذين يقشعرون لمجرد ذكر الرق». وهذا الأمير الرومانسي لا يبالغ عندما يبتهج لرؤية راقصة في القاهرة أو عندما يعلن عن اعتقاده أن الغواني المصريات قد استوقفن وهبيات المسافرين عندما أبحر على النيل من الاسكندرية للقاهرة، وقع الاوروبيون الآخرون ضحية لأصناف كثيرة من النفاق كانت سائدة في ذلك الزمن. والنفاق التجاري متفشي في مستعمرة التجار الاوروبيين في الاسكندرية والذي وصل منه سيل من الآثار إلى ارشيف الحكام الأجنبي وكان حول موضوع الاقطاعيين العثمانيين ضد دعاة التجارة الحره من الاوروبيين. والنفاق في مقاومة الرقيق الذي أراد أن ينهي بضربة واحدة مؤسسة كان يرتكز عليها اقتصاد السودان هو نفاق حسن المرامي ولكنه صار سحيقاً وذلك بسبب الجهل والمغالاة في الخطب. وقد تمثل نفاق السواح في سيل من الصحف قام بنشرها مسافرون على النيل لا يجرأون على السفر جنوب وادي حلفا وكان ذلك هو أدب المعابد الرومانسية القديمة والرموز الانجيلية والغروب الكلاسيكي يقوم فيها المؤلف تلو الآخر بملاحظة أي شيء ما عدا مصر التي تذخر بالحياة من حوله وقد خلا كاتبانا أيضاً من الشبق الذي كان طابعاً للأدب وسواح وادي النيل في تلك الأيام. وقد كان المقيمون من الاوروبيين أقل حماساً لموضوع الجنس من السواح الاوروبيين إذ كان بإمكانهم شراء البنات الزنجيات كيفما شاءوا بشرط ألا يكن مسلمات مما قد يعرضهم للمشاكل مع القاضي. وبالرغم من أن السواح البريطانيين والفرنسيين لا يتخذون الزنجيات كخليلات إلا أنهم يداومون على زيارة أسواق الرقيق بالقاهرة لمشاهدة البنات شبه عاريات وقد عرضن للبيع بالمزاد. وعندما القيت أسواق الرقيق بانحسار تجارة الرقيق في نهاية القرن تحولت وكالات السياحة إلى أسواق لتنظيم بيع الرقيق لهؤلاء الزوار العجزة. وكان الفرنسيون منكبين على زيارة الراقصات اللائي يسمين العوالم بمصر العليا حيث نفاهن محمد علي باشا من باب الاحتشام.

كلا الكاتبين يسجلان بشيء من الاشمئزاز أكثر منه الرفض عادة كانت سائدة بين التجار والوجهاء السودانيين إلا وهي عادة التكسب من استئجار الغواني الزنجيات للدعارة. وكلاهما يقبل الرق بالرغم من أن المؤرخ كان يتألم للقسوة التي لا بد من أن تصاحب حملات الرقيق وكان يقبلها كشيء حتمي وهذا لا يمنعه من إدانة بعض الاوروبيين لقسوتهم على الرقيق.

والمسلمون من جانبهم لا يحتجون على عدم المراعاة الواضحة للدين. والمسلمون بحكم العادة لا يكترثون لاديان غير المسلمين وهم عموماً ليس لهم فضول عقائدي. وفي عام ١٨٤٢ قدم قسان فينيقيان من الحبشة إلى الخرطوم واجتهدا لتكوين ارسالية تبشيرية ولكن الجالية الرومانية الكاثوليكية الصغيرة كانت غير مكترثة هذا إن لم تكن مناوئة. وهذا الموقف نتج عن ضعف شخصية القسين. ولكن في عام ١٨٤٨ وعندما قدمت الخرطوم بعثة منتظمة يقودها المطران احنلز نوبلشر (Ijnaz Knoblecher) وأقامت داراً دينية وكنيسة، جاء اولئك الاوروبيون المرتدون المخادعون. ربما الكثيرون من الذين وردت أسماؤهم في الوثائق. جاءوا مسرورين ومعهم خليلاتهم الزنجيات لكي يتزوجوا بهن ولتعميد الأطفال غير الشرعيين وخير شاهد على هذا الحدث الإنساني المثير للمشاعر هو الكنيسة البيزنطية في الخرطوم.

وثائق متقابلة:

سيصاب بالاحباط كل من يريد مراجعة هاتين الوثيقتين بالأدلة القاطعة من رسائل القناصل في مصر إلى وزراء الخارجية في بلادهم وإلى سفرائهم في الباب العالي. والسودان بعيد وغير مهم وربما لا يوجد أي نواب أو وكلاء دائمين للقناصل مقيمين بالخرطوم. وكانوا يعتمدون في معلوماتهم على ما يستخلصه المترجمون من الموظفين المصريين ومن القصص التي يستقونها من القادمين من السودان أو اللغط الذي يدور في المقاهي.

هناك تميز واضح في رسائل القناصل للقوة المنشغلة أكثر مما يجب بالمسألة الشرقية. لقد عكس كل من السفير البريطاني في القسطنطينية والوكيل البريطاني والقنصل العام في مصر بحماس شديد وحشية لورد بالمرستون ضد محمد علي باشا، مما جعل صوتهم يفوق صوت محمد علي، وقضى القنصل الفرنسي جل وقته في مقاومة زملائه الانجليز. وظلت مطامع النمسا في السودان ساكنة حتى وصول الارسالية الكاثوليكية إلى

الخرطوم في ١٨٤٨ ومما يبدو فلم يستطع الكتابة بواقعية عن السودان سوى ممثلي الدول الصغرى وبالتحديد ساردينيا والجراند دوشي (Grand Duch) بتسكانيا والمملكتان الصقليتان. ولكن الممثلين أنفسهم كانوا تجاراً أذكياء.

على الرغم من أنهم كانوا عرضة للتضليل في كثير من المرات. وروى المؤرخ السوداني قصة الفونج في سنار والجزء الذي تلاها من الحكم التركي - المصري وهو الذي شملته الوثيقتان. هو عمل قام به عدد من المؤرخين[٦]. هناك خمس طبعات شهيرة مختلفة ونسختان مطبوعتان **«تاريخ ملوك السودان»** الذي حققه مكي شبيكة، (الخرطوم ١٩٤٧) وأعمال منقحة مثل **«مخطوطات كاتب الشونة»**. تحقيق شاطر بصيلي عبد الجليل ومحمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٦١). وملخص بالانجليزية طبع في كتاب سير أ. هـ. أ. ماكمايكل **History of the Arabs in the Sudan. ii. Cambridge 1922, London** ولا يوجد له أي ترجمة كاملة بأي لغة.

والفترة من تاريخ السودان التي غطاها المؤرخ وكاتب اليوميات مسجلة بغير انتظام في الأدب الاوروبي. وهناك انتاج قليل من الكتب ألفه بعض الذين ذهبوا مع حملة إسماعيل باشا لسنار ١٨٢٠ - ١٨٢١ تلاه ركود أدبي إبان الفتح التركي - المصري لكردفان ١٨٢١، والثورة السودانية التي اعقبت مقتل إسماعيل باشا ١٨٢٢. والمؤرخ هو المصدر الوحيد لأي تفاصيل عن الثورة. وكان الانتاج الاوروبي من الأدب ضئيلاً إبان معظم فترة حكم خورشيد باشا ولكنه نشط قليلاً نحو نهاية خدمته في السودان وإبان فترة حكم خلفه أحمد باشا أبو ودان القصيرة (١٨٣٨ - ١٨٤٣).

هناك ثلاثة أحداث اسهمت في هذا البحث وقد تناولها كاتبنا بالنقاش: رحلة محمد علي باشا للسودان في شتاء عام ١٨٣٨، والثلاث رحلات التي قام بها سليم قبدان، ١٨٣٩ - ٤٠، ١٨٤٠ - ١٨٤١، ١٨٤١ - ١٨٤٢ لاكتشاف منابع النيل الأبيض، وحملة غزو التاكا في ١٨٤٠.

وقد سجلت رحلة الباشا إلى السودان في الغازيتة المجلة الرسمية: «الوقائع المصرية» وحرر فرنسوا جومارد (Francois Jomard) ترجمة بالفرنسية تلقاها في مصر ونشرها بعنوان: **Etudes géographiques of historiques sur L'Arabie,) Suivies de la**

---

(٦) لقد صورها الدكتور يوسف فضل حسن في كتابه:
Y.F. Hassan, The Arabs in the Sudan, Edinburgh, 1967, pp. 212-213.

relation du voyage de Mohanmed Aly dans le Fazoql (etc.) 1839.

وجمعت ترجمة فرنسية لمذكرات سليم قبدان أو (سليم بكباشي بالترجمة العربية وهي رتبته في الاسطول المصري) أثناء رحلته الأولى ونشرها جومارد في (Bulletin de la Société de géographie de Paris, Xvii,) وهناك طبعتان عربيتان استخلصتا من الترجمة الفرنسية: محمد مسعود سليم قبدان الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض... إلخ القاهرة ١٩٢٢ وناظم مكار البكباشي المصري سليم قبدان والكشف عن منابع النيل، مقدمة محمد شفيق غربال المجلد (القاهرة ١٩٦٠. وجد فيردناند ويرن لنفسه عملاً على متن سفينة سليم في الحملة الثانية وكتب وصفاً Expedition zur Entdekunj der fouell des Weissen Nil برلين، ١٨٤٨ ترجمة س. و. اوريلي (C.W.O. Reilly) المجلد ٢ بعنوان: Expedition to discover the Sources of the White Nile. وكان وصف ج ثبوت لرحلته مع سليم ١٨٣٩ - ١٨٤٠، مختصراً وغير رائع ونشر في Bulletin de la Société de géographie de Paris, xv, 1841, pp.127-32 وقد كان أقل جودة من حيث القيمة العلمية.

ولم يبد الكاتبان بجانب المراقبة المريبة من الشاطىء أي اهتمام غير صادق في المغامرة التي قام بها محمد علي باشا وكان مقتنعاً بأنها ستؤدي إلى اكتشاف الثروة المعدنية الكبيرة وستكون عزاءاً له بعد التحرر من الوهم المتعلق بذهب فازوغلي الشهير. وكان موقع منابع النيل مثار جدل بين علماء الجغرافيا في العالم ولم يخطىء الباشا فهم هذا الفضول العلمي كجشع تجاري. وعليه كان قلقاً وحريصاً على أن يكون أول من يذهب إلى جبال القمر بل وحرص على عدم ابداء قلقه أثناء حواره مع الاوروبيين. وظل الكثيرون في اوروبا كما في مصر والسودان يعتقدون أن النيل ينبع من الغرب وليس من الجنوب إلى أن اثبتت حملة سليم أن من المحتمل أن توجد منابع البحر الا يبقى حيث ذكر الجغرافيون. وفي الاطلس الملحق لكتاب Turquie de 1829 à 1836, Vol. i, Egypte et la Nubie, 2 pt. ادموند بيير ماري (Edmund Pierre-Marie) مدير مكتب البريد المصري بالاسكندرية وج دي برو فيري (J. DE Brevury) طبع المؤلفون مقالة عن «خريطة دارفور» توضح النيل الأبيض وهو يصعد جنوباً من جبل مرة وينساب شرقاً وشمالاً في شكل قوس واسع إلى الخرطوم. وخريطة ثانية في نفس الموضوع تؤكد المنبع الغربي للنيل من وصف السلطان تايما ولد المصطباوي حكمدار كردفان وهو يعطي النيل منبعاً ثلاثياً إلى الجنوب مباشرة من جبل مرة واكد أجناز بالم والذي كان في كردفان مؤخراً حتى

عام ١٨٣٨ غربية منبع النيل في حوار اجراه مع أحد أهالي دار رونجا وهو جدل ضعيف وقد كتب بعنوان:

Beschreibung Von Kordofan und einigen angranzanden Laudern (etc), Stutlgant Tubingeu 1844.

وترجمت للانجليزية بعنوان أسفار في كردفان... الخ ١٨٤٤ ويجب أن يقرأ وصف المؤرخ الكامل لحملة التاكا مع الطبقة الوحيدة لشاهد عيان وهو كتاب فيردناند ويرن: حملة على سنار والتاكا والبازا والبني عامر شتودقارد ١٨٥١. **Basa und Beui-Amer nit besonderem Hiublik auf die Von Belled- Sudan, Stuttgart, (1851).** وترجمها ج. ع. جونستون (Inoc J.R. Johnston) تحت عنوان: **African Wanderings (etc),** وكان يجب على الكاتب ألا يتباهى برحلاته إلى البازا والبني عامر لأنه لم يتوغل في أرضهم. وقد أدى الجهل بالعربية وبالسودان مترجم ويرن إلى الدخول في مآزق صغيرة كثيرة ولكن لم يخف هذا روعة وصف ويرن. وكان وصفه رائعاً وقد أبرز جمال وصف المؤرخ كوصف أكثر صدقاً وابتذالاً[٧].

---

(٧) توجد معلومات ببيلوغرافية في هوامش الكتاب.

الفصل الأول

الرحلة صعودا
في النيل من القاهرة الى ودمدني

غادر كاتب هذه المذكرات في التاسع من نوفمبر ١٨٣٧ القاهرة على ظهر سفينة وبصحبته الدكتور جاسيير (Dr. Gassier) الضابط الصحي المسئول بالفرقة الثامنة. وتحوي الصفحات ١ ـ ٧ من المذكرات وصفاً لخط سيرهما وهما يصعدان جنوباً في النيل إلى أسوان وفي طورا (Tura) انضم إليهما سعيد أفندي وهو إعرابي شاب ـ أي يتحدث العربية ـ ومن المحتمل أن يكون مصرياً وكان يعمل طبيباً بالجيش في طريقه إلى ودمدني حيث وضعت الفرقة الثامنة استعداداً للحرب ضد الحبشة وقد كان أحمد باشا أبووردان ـ حكمدار السودان المرتقب قائداً للفرقة والقوات الأخرى المرافقة للركب.

وأثناء الرحلة على النيل جنوباً قام الفرنسيان بزيارة آثار مصر القديمة: غار سالمون بالمعابدة بالقرب من منفلوط ومعبد دندرة (الذي قال الكاتب أنه قد رآه من قبل) ومعبد الأقصر وتماثيل طيبة والتي تكسب منها الحكومة دخلاً يساوي ١٥ كيساً سنوياً ومقابر الملوك في باب الملوك، والمعابد في اسنا وكوم امبو. لقد لاحظ الكاتب الحركة والنشاط على طوال وادي النيل: زراعة القصب ومصفاته بالقرب من منفلوط والمدارس في المراكز الكبيرة حيث يتعلم أطفال المصريين الكتابة والقراءة على أيدي اساتذة من خريجي مدارس القاهرة المدنية والعسكرية الأقل مستوى. وقد أعجب بالخبز الأبيض في طيبة ولاحظ قوة الحاميات على طول الوادي. وفي أسيوط قدم المسافران خطاباً للدكتور ماركويت (Marquetti) وهو صيدلي برتبة مساعد رائد في الخدمة الطبية لجيش محمد علي باشا وقاما بزيارة دكتور فيراري (Dr. Ferrari) الضابط الصحي الأول والذي يعمل بالتجارة. وعند الاتجاه جنوباً التقيا باثنين من الانجليز هما كما ذكر الكاتب: جورج الاسكندر (Georges Alexander) وانطوان ديوران (Antoine Durand) وكانا في طريقهما إلى

الشلال[1] الثاني وفي الثالث من ديسمبر ١٨٣٧ وصل المسافران إلى أسفل الشلال الأول[2] باسوان.

٣ ـ ديسمبر:

وصلنا صباح اليوم إلى أسوان حيث التقينا بالرجلين الانجليزيين مرة أخرى. يبدو نهر النيل ههنا أكثر روعة حيث تقع إلى الإمام جزيرة الفنتاين الصغيرة محاطة بصخور الجرانيت. ومن على تل قريب يبدو المنظر رائعاً حيث يوجد برج مراقبة بناه الفرنسيون من الطوب المحروق. وبما أن الحملة المرافقة لاحمد باشا موجودة الآن باسوان فقد ذهب جاسيير لزيارته هو والكولونيل وكانوا يتحدثون عن زحفهم إلى الحبشة. لقد ارتفعت أسعار الأطعمة باسوان بسبب مرور القوات.

٤ ـ ديسمبر:

تسلقت صباح هذا اليوم تلا مواجهاً لجزيرة الفنتاين. جلست في ظل حائط آيل للسقوط استنشق هواء الصباح النقي وادخن غليوني في هدوء بهيج وأتأمل العالم الملون تحتي. ضجيج الأصوات البشرية وأنين الجمال الحزين يخترق أذني كرجع أمواج بعيدة ترتطم بالشاطىء ومسحة من الحزن قد بدت على وادي النيل. وفي كتل الجزانيت والجدران المحطمة يأوي السكان البؤساء ورثة الحضارة الثرة الغامضة والتي قد ضاع أساسها في ظلام الزمان ولم يبق شيء يدل عليها سوى بعض الأعمدة والأروقة. وليس ثمة شيء يذكر الإنسان بزواله أكثر من هذا المشهد. لقد جاء إلى هنا الفرنسيون وكثيرون من قبلهم يحملون ألوية النصر.

٥ ديسمبر:

لقد قضيت ليلة البارحة في خيمة ودهشت عند سماعي صوت سكرتير أحمد باشا يثني على فولتير على الملأ كما وأثنى على نشاط الفرنسيين ولكنه مثل كل الاتراك لا يفهم ما معنى أن يسافر الإنسان من أجل المتعة وحب الاستطلاع واستخلاص الدروس.

---

(١) من الممكن أن يكون المقصود به جورج وليام الاسكندر مؤلف **Letters on the Slave Trade. 1842.** وقد يكون مسيو ديوران الذي ذكره ج .ج امبيد في كتابه **Voyage en Egypte. 1868 p.284** وكان دائماً يبحر إلى أعالي النهر في حوالي عام ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ أما بول ديوران ١٨٠٦ ـ ١٨٨٢ وهو سائح فرنسي ومحصل ضرائب وقد قام بثلاث رحلات إلى مصر.

(٢) ملخص المترجم للصفحات ١ ـ ٧ من المذكرات.

٦ديسمبر :

عندما فقدت الأمل في الشفاء من نوبات الكآبة المتكررة اصطحبت بعض الضباط الاتراك واحد الدراويش إلى حانة فشربت حتى ثملت كالوحش لاحظت أن العساكر غير ملتزمين بصيام رمضان قد زارنا اليوم اللورد دردجون(٣) (Drudjeon) الذي كان في طريقه إلى الشلال الثاني.

٧ ديسمبر :

انفض المعسكر بأسوان بطريقة حزينة وصلنا تجاه فيلة خلال ساعتين سرنا خلالها على شاطىء النيل. والشلال عموماً هو عبارة عن اندفاع النهر بقوة على التلال الصخرية وحوضه المغطى بصخور الجرانيت الكبيرة وبعض الجزر الصغيرة التي تنمو فيها أشجار الطرفاء يبدو أن التيار قوي كما هو الحال دائماً بسبب العوائق الضخمة التي تعترض سير المياه. المنظر خلاب ويزيده روعة وجود معبد فيلة إلى أسفل. قضينا الليلة على مرأى من حطام المدينة وقد أضاءتها أشعة القمر الخافتة انه لمنظر يجعلني أحس بالأسى اني لست رساماً.

٨ ديسمبر :

نزلنا بفيلة. لقد امتلأت المدينة تماماً بحطام المعبد ولقد وزعت الأعمدة بطريقة غير منتظمة وهنالك مسلة حجرية في نهاية عمود إلى اليمين من المعبد وكتابة يرجع تأريخها إلى عام ١٧٩٩نحتها الجيش الفرنسي(٤) تحت رواق المعبد وكتابة أخرى بالداخل يرجع تاريخها للعام السابع للجمهورية(٥). وقبل ساعة من الظلام أبحرنا في واحد من ستة وعشرين قارباً تحمل المرضى ومتاع الفرقة وقد كان منظر الأشرعة المتعددة المنبسطة المثلثة الشكل رائعاً حقاً. لقد غادر الباشا وقواته على ظهور الجمال جنوباً على الضفة اليمنى. نحن لا نبحر ليلاً.

---

(٣) ظل الشريف مختبئاً.

(٤) السنة السادسة للجمهورية ١٣ Messdor غزا جيش يقوده بونابرت الاسكندرية وبعد عشرين يوماً من الغزو فر المماليك إلى الاهرامات وطاردهم ازبكس قائد الفرقة الاولى إلى ما وراء الشلالات التي وصلها في يوم ١٣ Venlise من السنة السابعة وحمل اللواء كل من الجنرال فريان والجنرال بليار دوترلو رئيس هيئة الاركان. والجنرال لاتوفيري قائد المدفعية والجنرال ابليد قائد الفرقة ٢١. ١٣ من السنة السابعة للجمهورية ٣ مارس ١٧٩٦ ميلادية مقشه النحات كاستيكس.

(٥) السنة السابعة بلزاك موبيرت كوربوف ريبول ما شان موي لوانوار نكتوكس سانت ـ جنس فينست دو تبدير سافيني خط طول باريس ٣٠ ٣٤ ١٦.

١١ ديسمبر:

على اليهودي لكي يصير مسلماً أن يعتنق المسيحية أولاً يا لها من طقوس(٦). إن ما قاله رسل (Russel) عن وادي النيل هو عين الصواب(٧). لقد وصلنا كورسيكو وهي قرية نوبية بائسة على الضفة اليمنى حيث لا يوجد أي شيء يمكن شراؤه. ذهبنا إلى الشاطىء ونصبنا الخيمة. تحرر الأَمَةُ التركية إذا ما ولدت طفلاً من سيدها ويصير طفلها شرعياً كما لو كانت متزوجة.

١٤ ديسمبر:

لقد وصل الفرنسيان المسيوبرس(٨) (Prisse) والمسيوبوبلبير (Popiliers) وكذلك المسيو مارتين (Martyns) البلجيكي من وادي حلفا في طريقهم إلى الشمال. تدفع الحكومة ٦٥ قرشاً على كل جمل يستخدم في الرحلة من أسوان إلى أبي حمد وإذا ما وهن الجمل فإن على صاحبه استبداله بآخر.

١٦ ديسمبر:

الجراد هنا أحمر اللون سمين. لقد قمنا بزيارة كاشف أسوان والى أغا والذي جاء مع القوات ولقد قام بزيارته كثير من الاوروبيين وهو يحتفظ ببطاقاتهم ويحتفظ على الدوام بأطلس عربي يكتب فيه بقلم الرصاص مذكرات اثنولوجية (متعلقة بدراسة الاعراق البشرية).

---

(٦) راجع أيضاً كتاب **Inscriptions Françaises de Haute Egypte** للكاتب ج. ليجربيين وهي طبعة جديدة موسعة في (صحيفة القاهرة) ٣٠ يناير فبراير ١٩١٧ وكتاب ب. بالاري **«Mavie-Jules-cesay»** القاهرة مؤسسة مصر الجزء ١٧ - ١٩٣١ صفحة ٢٨. وكتاب ف فارون وأ. دارجو **Le caire et la Haute Egypte 1872.** وكتاب فف تاينارد **مصر والنوبة** (١٨٥٨) والذي يحوي صورة للمخطوطة الكبرى والنص في كلتا المخطوطتين في كتاب **Lettres sur Egypte** للكاتب ج. بارتيلي سانت هيلار ١٨٥٦ الصفحات ٢٩٩ - ٣٠٠ وقصص أسفار كثيرة. عملية غطس المخطوطة بطلاء أسود والتي يزعم أنه قد قام بها انجليزي هي مثار تانيب وتعليق عن الفرنسيين. وحسب ما رواه بعضهم فإن ج. ف. شامبليون نفسه هو الذي كتب بجانب الصورة «صفحة من التاريخ يجب ألا تلوث» بكلر موسكوا والذي احتلت القوات الفرنسية عقارات أسرته أثناء حروب نابليون يرى أن المخطوطة بربية نوعاً وهي النقيض الهزلي للنتائج السريعة للحملة الفرنسية على مصر **Egypt under Mehemet Ali. pt. 2,p. 81.**

(٧) م رسل RUssel. **Nubia and Abyssinia, 1833, P. 40.**

(٨) اميل بركس ١٨٠٧ - ١٨٧٩ من Avennes وهو فرنسي غريب الاطوار. مولع بالقتال. كان يجلب الانانيك ويبيعها مما جلب له المشاكل مع السلطات المصرية. وكان قد وصل لتوه من رحلة لأبي سمبل.

١٧ ديسمبر:

يغادر الكولونيل ونصف الكتيبة على الجمال.

١٨ ديسمبر:

من عيوب التركي عدم التمييز وهو دائماً يرافق من هم دونه ويتبسط معهم.

١٩ ديسمبر:

وصل سانت اندري (Saint-Andre) ويعمل الآن صيدلياً للفرقة الثامنة وكان قائداً للسفينة دراجون نابوليون (Dragons Napoleon).

٢٠ ديسمبر:

تلقى حسن شيخ الدِّر ـ والذي جاء ليساعد القوات لإيجاد طريقها ـ من جاسيير كمية من ماء الأقصر(٩). لقد أعطاه الشيخ دجاجتين وجاء في اليوم الثاني يطلب قليلاً من السكر وهذه وقاحة معهودة.

٢١ ديسمبر:

تغادر نصف كتيبة أخرى. يذهب جاسيير يومياً لاحمد باشا ليتحدث عن اوروبا لمدة أربع أو خمس ساعات.

٢٣ ديسمبر:

رحيل نصف كتيبة أخرى مع رواد الطريق والأمتعة.

٢٤ ديسمبر:

يأتي ثعلب ليلتهم دجاجنا فيطرد.

٢٥ ديسمبر:

تغادر نصف كتيبة أخرى. التقينا باثنين من الانجليز قدموا من القاهرة في عشرين يوماً في طريقهم إلى وادي حلفا وقد حدثونا عن أسر قسطنطين في الهجوم الذي شنه الفرنسيون لمدة أربعة أيام شربنا نخب أسرنا احتفالاً بعيد الميلاد.

---

(٩) عطر مركز يسمى بالعربية (عطر حنة) وقد كان معروفاً في السودان ولكنه وجد منافسة من العطور المستوردة وعطر بنت السودان.

٢٦ ديسمبر:

يستحم العرب يومياً في النيل رغم البرد. أرسل شيخ الدر سلة مليئة بالبلح لجاسيير مقابل بعض الحبوب المقيئة.

٢٧ ديسمبر:

هنا تضع أواني ملأى بالماء في كل القبور ـ كعادة دينية كريمة لم تغادر أي قوات مؤخراً بسبب قلة الماء في آبار الصحراء.

٢٨ ديسمبر:

رحلت ست سريات. يقول والي كاشف أن هنالك منجم ذهب على مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام جنوباً. سبق أن أرسل الباشا شخصاً لاستكشافه ولكنه فشل لخوفه من الحيوانات المتوحشة.

٢٩ ديسمبر:

لقد هل الهلال ليلة البارحة فأنتهى شهر رمضان. تبودلت اليوم الزيارات للمجاملة والتحايا بعيد رمضان. وبما أن القوات على سفر فقد منحهم الباشا رخصة لافطار رمضان وهو نفسه لا يصوم. نجد أن المعسكر محاط بالغائط لأن لا أحد يهتم بحفر خنادق لدفن الفضلات والاتراك لا يعرفون الوقاية الصحية وقد انتشرت جثث الحيوانات هنا وهناك رغم أن النهر على بعد خطوتين.

٣٠ ديسمبر:

تغادرنا ست سريات. لقد قمنا بزيارة خليل بك حاكم اسنا وهو مسافر في نفس الطريق وهو تركي تواق إلى المعرفة.

١٨٣٨

١ يناير:

غادرنا كورسيكو مع أحمد باشا وأربع سريات والمرضى في الساعة الثانية والنصف حسب تقدير الأتراك. هذه هي المرة الأولى التي اركب فيها جملاً في حياتي. مررنا بتلال ذات صخور بركانية يميل لونها إلى السواد وصخور رملية مختلطة. وقد جمعنا أحجاراً رملية مستديرة تشبه الرصاص وعند كسرها وجدناها مليئة بالرمل. مررنا بجراد كثير وغربان ولا زال هناك كثير من الأشجار الجافة التي توقف نموها. بعد الساعة التاسعة والنصف وصلنا إلى العقبة جاموس لقد أخبرني أحمد باشا بأسماء أماكن متعددة في الصحراء مقابل

قراءة التيرمومتر المئوي. يرافق والي كاشف الباشا حتى بربر وسيلحق بهم قائمقام الفرقة ومعه بقية المؤن.

٢ يناير:

حشائش صفراء متفرقة تنبىء عن وجود بعض الأمطار الطفيفة حتى في هذه الصحراء المرعبة. قد تراءى لي السراب وهو الصور الوهمية للمياه التي تنجم عن انعكاس أشعة الشمس على السهل المنبسط ولكنا سرنا عبر سهول جافة تماماً.

٤ يناير:

يذكرني الجراد الكثير الذي نراه في الصحراء بالقديس يوحنا المعمدان الذي كان يأكل هذه الحشرة في صحراء الجود. وقيل أيضاً أن النوبيين يأكلونها وهي حشرات سمينة. مررنا الآن بشجرتين من السنط يثبت فوق واحدة منها طائران. رأينا أيضاً الطيور الجوارح ومررنا بشجر الدوم وسرنا في ممر ضيق وقصير من ألواح مسطحة كألواح الاردواز وبعد تسع ساعات قضيناها ركوباً وصلنا ديلا (Della). وفي هذه المنطقة تقع عمرية (عامرية؟) الموضحة في خريطة أروسمث (Arrowsmith) وعلى مسير ساعتين من ديلا يوجد مكان يسمى نسيب[١٠] الحضرية حيث يوجد الذهب كما يقول العرب.

٥ يناير:

وصلنا آبار مرات في واديمن التلال الزرقاء الصخور يوجد الماء فيه على بعد ستة أقدام فقط من السطح وهي ماء مرة وبئر ريبت[١١] (Rept) غير موضحة في خريطة أروسمث (Arrowsmith) وفي أبسية (أبو سيحة) وهي مكان موضح في الخريطة الجغرافية يوجد ثعبان وعندما قتل هذا الثعبان مؤخراً اختفى الماء إلى الأبد وتوجد بالقرب من آبار مرات خيام من الحصير تسكنها القبيلة المسئولة عن تدبير السقيا. لقد فاتني أن أضيف أنه على طول طريقنا قد انتشر الرخام. القمر عمودي على رؤوسنا.

٨ يناير:

وفي منتصف المسافة وعلى الطريق الصحراوي التقينا بعباس أغا مأمور بربر محاطاً

---

(١٠) خام الذهب هو غالباً الموجود في ام تباري وهي على بعد عشرة اميال في الشمال الغربي من آبار مرات وعلى بعد ٣٢ ميلاً من شمال الشمال الشرقي من محطة سكة حديد نمرة ٦ الحالية. وقد بنت شركة سودان قولد فيلد المحدودة خطاً بين هذه المحطة والمنجم.

(١١) خريطة مصر العليا ١٨١٦ ل. أ. أروسث.

بحرس من السود وكانوا يلبسون زياً على الطراز الالباني ويجلس على سجادة منتظراً الباشا ليقدم له التحية. لقد دعانا بلطف لتناول القهوة وتدخين الغليون معه. لقد خدعنا السراب ولمدة طويلة قبل وصولنا. كنا نرى أشجاراً على الماء وكلما اقتربنا منها تحولت إلى أعشاب في أرض رملية ووصلنا بعد الساعة التاسعة والثلث إلى أبي حمد حيث شربنا من ماء النيل. لقد افزعنا عبور الصحراء. قيل ان هنالك نقاطاً كثيرة في الصحراء يوجد فيها الماء ولكن العرب لا يريدون الافصاح عنها لكي لا يقل مكسبهم من تأجير الجمال لحمل الماء.

٩ يناير:

أبو حمد قرية بائسة بها حوالي الأربعين كوخاً من الطين أو الحصير يقطنها حوالي مائتي شخص. ذهبت لأداء فروض الولاء لأحمد باشا وعباس آغا اللذين رحبا بي وقد بعث لي عباس بخروفين. يقولون أنه لا توجد تماسيح هاهنا وذلك لأن خرير الشلالات يخيفها. أهالي أبي حمد سود ذوو قسمات منتظمة يمشون حاسري الرؤوس طوال الشعر لكنه أجعد. يمتد نفوذ مأمور بربر من أبي حمد إلى وادي بشاره جوار الشلال السادس.

١٠ يناير:

أثناء عبور الصحراء أراد ستة من الجنود اتباع طريق قصير للوصول إلى آبار مرات قبل الآخرين ولكنهم ضلوا الطريق فوجدهم بعض الاعراب الذين تقفوا آثارهم على الرمل. وجلد كل واحد منهم خمس وثمانين جلدة بالكرباج وعند مغادرة مرات أمر الباشا ستة من رفقائهم باقتيادهم من أيديهم كالاطفال. ضفاف النيل هنا غير مزروعة لأن الأرض رملية ومغطاة بالجرانيت إلا من بعض أشجار النخيل والسنط إن كل السمن الذي يصنع في هذا المكان يباع للحكومة.

١١ يناير:

كان عباس آغا مأمور بربر كردي الأصل تنم فطرته الفظة عن قسوته[١٢]. وكان له حاشية وعدد من الخدم. ترك العمل اثنان من رجال الكتيبة التي عبرت الصحراء. تأكل

---

(١٢) لقد وجده كابتين و. بورشير وهو بحار في سفينة تحطمت وهي في طريقها من سواكن لمصر عن طريق - وادي النيل - مضيفاً لطيفاً ببربر يوم عيد الميلاد ١٨٣٣ ولكنه علق على عادة البصق عنده وبصوت عالي على الحائط المواجه **Narrative..describing.. journies across the Nubian Desert, 1834, pp. 33-36** يصف عباس آغا بأنه رجل صارم ذو مظهر جذاب وقد أخبر عباس آغا هوسكن بأنه رجل موحش قليل الاصدقاء كثير الاعداء **Travels in Ethiopia , 1835, pp. 44-5**.

الجمال الذرة والتبن والحبوب والبلح.

١٢ يناير:

غادرنا أبو حمد على ظهور الجمال وقد غادر جاسيير (Gassier) واحد عشر من المرضى وممرض المستشفى على صندل المأمور لأنه كان يعاني الآم الحمى. مررنا بأشجار دوم وسنط كثيرة على سطح مطعم باجزاء صغيرة من الرخام الأبيض والوردي والأزرق. هنالك مدفنتان تشيران إلى وجود قرى قريبة على ضفاف النيل الذي كان من ناحية اليمين. كل البلاد في طريقنا هي عبارة عن سهل رملي صخري. بعد تسع ساعات من السير وصلنا إلى أبي حسن وهي قرية بها ستون كوخاً ويقطنها حوالي المائتين وخمسين نسمة. أخبرني جاسيير (Gassier) بأن قاربه كان دائماً يرتطم بالصخور.

١٣ يناير:

مررنا على بلاد مثل التي كانت بالأمس ووصلنا إلى أبي هاشم وهي قرية تتكون من مائتي كوخ وحوالي أربعمائة شخص. لقد عبرت سفينة جاسيير الصخور الأولى من الشلال الخامس. لقد نضج القمح وسيكون الحصاد بعد شهر.

١٤ يناير:

حوض النيل مليء بالصخور. مررنا بجبل غني بالرخام كما وكنا نمر من حين لآخر تحت أشجار الدوم والسنط وبعد تسع ساعات من السير وصلنا إلى دوكمات الدل (؟؟) في مواجهة الشلال الذي يبدو طويلاً. لقد انضم إلينا جاسيير ليلاً بعد أن تعذر عليه السير بالقارب بسبب الصخور. يحمل النوبيون أثناء تجوالهم حربة وسيفاً ذا حدين وذرقة من الجلد كما ويحملون في أذرعهم خنجراً محني الشفرة.

١٥ يناير:

رحلنا في السادسة وخمس دقائق. سرنا في محاذاة النيل لمدة ساعتين إلى نهاية الشلال. من المؤكد أن المنظر الطبيعي سيكون رائعاً أثناء الفيضان. كان طريق سيرنا على كتل الجرانيت وبعد خمس ساعات من السير وصلنا إلى القنينيطة (Jananita) وبعد ثماني ساعات أخرى وصلنا إلى بربر. يقع معسكرنا على شاطىء النيل على بعد ربع ساعة من المدينة. ولقد عسكر الباشا وجاسيير وبعض القوات في المؤخرة بالعبيدية.

١٦ يناير:

وصل جاسيير والباشا وبقية القوات، لقد بنيت بيوت المدينة بما في ذلك ديوان

الحاكم من اللبن. والسوق لا يعمل ليلاً. يذهب التجار المصريون كل صباح لعرض بضائعهم الغربية والشرقية ويأخذونها معهم ليلاً. الدعارة منتشرة في بربر.

قمنا بزيارة عباس آغا ولكن طلبوا منا انتظاره بديوانه[١٣] ريثما يعود من جناح الحريم وبما أن المأمور قد كان غائباً من دياره لفترة فقد جاء كل الشيوخ والموظفون والخدم والراقصات للترحاب به وتقبيل يده. استمرت هذه المراسم لفترة طويلة وكانت مسلية بالنسبة لي.

١٧ يناير:

وجد أحد الجنود الذين فروا في صحراء كورسيكا وقد أوشك أن يموت عطشاً فحكم عليه بالقتل رمياً بالرصاص وقد أعدم صباح هذا اليوم. دعا عباس آغا كل الهيئة من ضابط الفرقة لتناول طعام الغذاء فذهبنا جميعنا بعد الظهر. جلس في مائدة واحدة داخل المنزل كل من الباشا[١٤] والبنرك الذي يعد القهوة للباشا[١٥] الكبير وقد قدم إلى هنا في مهمة. لقد فرش فناء الدار بالحصير المصنوع من السعف وبالسجاد ووضع عنقريب أو كنبة مصنوعة من سيورِ جلد الجمال وكرسيين للمأمير وقواد الكتيبة. دارت القهوة عدة مرات وبعدها البيلاف أو الأرز المطبوخ بلا صلصة والشواء واللحم بصلصة البصل وعدة أطباق متنوعة وضعت على الحصير والسجاد كان علينا الأكل في سرعة شديدة ـ خطف الطعام ثم بلعه ـ ولم يضع في المائدة أي مشروب آخر خلاف الماء وذلك لأنه ليس من عادات الأتراك الجلوس على المائدة لمدة طويلة فتركنا المائدة أنا والفس اندري (Saint- Andre) ونحن جياع.

أثناء الأكل كانت الراقصات يغنين ويرقصن على إيقاع الدربكة[١٦] والكمنجة ذات الوتر الواحد. وبعد الفراغ من الأكل بدأت الراقصات يتثنين في تهتك. سوف لن أكون قد امتهنت هذه الرقصة إذا ما استنكرتها كنوع من المتعة ممعن في الوقاحة والتهتك. صار كل شيء مباحاً بعد مغادرة الباشا حتى شرب البراندي.

١٩ يناير:

أراد الباشا أن يركب فرسه في المساء ولما لم يجده معداً ما كان منه إلا أن ضرب

---

(١٣) تعني هنا مكتب حكومي أي حجرة المجلس. ويعني اللفظة في السودان ديوان أي غرفة معيشة.

(١٤) فرهد بيه.

(١٥) محمد علي باشا.

(١٦) نوع من الطبلة يصنع من الطين والجلد.

السائس بالسيف في يده التي كان قد رفعها ليحمي بها رأسه تاركاً فيها جرحاً عميقاً وقد نسي هذا الأمر نسبة لمهابة الباشا ومركزه. يزرع في بربر الذرة والقمح والفاصوليا والحبوب والباذنجان والرجله والشمام والبطيخ والسنمكه والقطن والشعير والذرة الشامي والملوخية والباميا. وأن التباكو الذي يزرع هنا كثير الطلب لكي يخلط بتباكو سنار لأنه أخف.

٢١ يناير:

توفي المسيو ملز (Monsieur Mills) الفرنساوي الأصل والذي كان بخيلاً وقبل موته بفترة وجيزة هبطت عليه ثروة كانت قيمة بالإضافة إلى رصيده الضخم ولكن الجشع حال دون استمتاعه بالثروة فذهب إلى سنار لينمي ماله وهذه هي النهاية التي يستحقها هو وأمثاله إذ تبعثرت معظم أملاكه.

يوجد هنا طبيب عربي يتبع للحكومة يدعى مصطفى أفندي. الأرض حول المدينة قليلة الزرع إلاّ من شجر الدوم[١٧] الذي ينمو وسط هذه الكتل الهائلة من شجيرات كثيفة ذات ثمار سامة وأوراق مصفرة اللون تسمى العشر[١٨] يقال أن الجو في بربر ليس جميلاً ولكنه يفوق جو سنار. والصعيد[١٩] يعني في العربية بلاد الجنوب.

٢٤ يناير:

يؤكد المأمور أن الإنفاق على الطعام وحده يستهلك ١٥ كيساً بكل منها خمسمائة قرش. في النوبة السفلى يسمنون الحمام بانتزاع الريش من أجنحته وذيله وبطنه فيصير بعد ذلك صالحاً للأكل الشهي. توجد هنا دار للجمارك للقوافل القادمة من الخرطوم وسواكن.

٢٥ يناير:

قطع جاسيير ساق أحد الجنود وكان قد عضه جمل متوحش.

٢٦ يناير:

منح عباس آغا جاسيير جملاً كهدية مقابل بعض الأدوية التي كان جاسيير قد أعطاه إياها. تناولنا بعض العنب الخاص بأحمد باشا.

---

(١٧) الخباز ـ خباز اليهود.

(١٨) تفاح سدوم.

(١٩) الصعيد هو الوجه القبلي (من صعد وهو الطلوع) ومنها جاءت التسمية العامة لمصر العليا بالصعيد.

٢٧ يناير:

أمطار طفيفة تهطل في اغسطس وسبتمبر. كان عباس آغا حاكماً لبربر لمدة خمس سنوات. زارنا شيخ حسن أحد كبار شيوخ البشارين (العبابدة). وقد كان أحمد باشا غير راضي عنه لأنه غير اتجاه القافلة التي كانت تحمل الصمغ العربي الذي أرسله عباس آغا لمصر عن طريق القوافل الذي يؤدي من بربر مباشرة لأسوان. وكان الشيخ يعلم أن القوافل توقف في كورسيكو للتفتيش لأنها محملة بالمؤن. بهذه الطريقة حرم عباس آغا من البخشيش الذي كان سيتقاضاه من العرب في مقابل اعفائهم من عمل السخرة الممقوت قليل الأجر. لقد أجلت رحلتنا إلى الخرطوم.

روى عباس آغا أن هنالك مكاناً في الصحراء على مسيرة أربعة أيام من هنا يسكنه ثلاثة رجال تتراوح أعمارهم بين ١٧٠ و١٥٥ و١٣٦. وعلى بعد ساعات من سواكن يوجد شيخ له أربع زوجات لكل واحدة منهن عشر أبناء. وتزوج كل واحد منهم باربع زوجات أنجبت كل منهن عشرة أبناء فصار مجموع عددهم كلهم ـ الجد والأبناء والأحفاد ـ أكثر من أربعمائة شخص كلهم يتمتعون بصحة جيدة. قد تم القبض على أربعين من الفارين فانهال عليهم السباب من الجنود وعقد لهم مجلس عسكري ثم حكم عليهم بالاعدام ولكن عفى الباشا عنهم لاسباب سياسية.

٢٩ يناير:

تناولنا الرمان الطازج في منزل حسن مسمار وهو موظف بالجمارك(٢٠). وفي يوم من الأيام دخل أحمد باشا خيمة فرهد بيه فلاحظ وجود سلاسل وكرابيج وحبل مشنقة فسأل هل كان الكولونيل جلاداً؟ من سياسة أحمد باشا حالياً العمل على إرضاء الجنود بحسن معاملتهم وعدم ضربهم والإساءة إليهم. الريف يعج بالفئران والجراد. تظاهر أحد الجنود بأنه قد مات ولكنه أيقظ بوضع الصوفان المشتعل تحت أنفه. كان الطباخون في انطاكية يبحثون عن السمك لمائدة إبراهيم باشا. كان أحد الصيادين محظوظاً إذ وجد سمكة كبيرة فاسرع بإهدائها لسيادته الذي سر بها جداً وأعطاه في مقابلها عشرين بارة. وقد كان في منتهى الكرم معه إذا ما وضعنا في الاعتبار أن هذه السمكة تساوي أكثر من عشرين قرشاً في

---

(٢٠) لقد جلد هذا الرجل التعيس وهو صاحب امتياز الجمارك (ملتزم الجمارك) بالعصا في اخمص قدميه وذلك لجرم اتى به أثناء فترة حكم الحكمدار عبد اللطيف باشا عبد الله (١٨٥٠ ـ ٥٢) **تاريخ ملوك السودان)** ص ٣٤. لقد وصفه ويرن **(Werne)** بأنه تاجر من بربر وقد صحب حملة أحمد باشا إلى التاكا **African Wanderings, pt.1, 23**.

السوق. تعيش القبائل في طريق بربر وسواكن حياة مستقلة.

٣١ يناير:

تساوي التكلفة السنوية لإعاشة فرقة مصرية أكثر من مائة وثمانيين كيساً. لقد جاء أحمد دين شيخ التاكا[٢١] إلى خيمة جاسيير يطلب عقاراً منشطاً جنسياً وهو يبلغ من العمر الستين ولكن جاسيير رفض طلبه فظل يحافظ على صحته وحيويته بالمداومة على تناول اللبن والسمن.

١ فبراير:

عندما كان جاسيير يزور مريضاً في منزل حسن كاشف أصيب بعدوى الحمى. وقد حرص أحد الجلادين على معالجته فغطاه ببطانية وجعله يستنشق دخان النخرات المحروقة وأعطاه حجاباً يحفظه معه أثناء نومه والغريب في الأمر أنه مسلم وجاسيير مسيحي. يوجد ببربر كاشفان يتبعان لسلطة الحاكم.

٣ فبراير:

اجبرت الحكومة أصحاب السواقي على زراعة كمية من النيلة لتشتريها الحكومة بثمن تحدده هي.

توفى نصر الدين ملك بربر الذي ذكر في كتاب رسل (Russell) **Nubia and Abyssinia** قبل عام ويتقاضى ابنه عدلان معاشاً من الحكومة ويشارك في حملات الرقيق مع ميليشيا الأهالي.

٥ فبراير:

غادرنا بربر بالمركب. يتكون اسطولنا من ٢٤ ـ ٨٣ مركباً شراعياً حملت المتاع والمرضى و ٨٥ من الجنود العاجزين عن السير. ان الرجل الذي كان جاسيير قد بتر ساقه عوفى الآن وهو معنا بالقارب.

---

(٢١) إن وجوده في معسكر أحمد باشا يوحي بأنه جاسوس لمحمد دين أو منشق جاء يطلب مساعدة مصر ضد أهله. وليس هنالك أي مصدر يكشف عن وجود أي اتصال آخر إلا في سواكن بين الهدندوة والاتراك قبل الاحتلال المصري للتاكا ١٨٤٠ والذي وصفه المؤرخ في ص ٩١. من الجزء الأول من الكتاب.

(٢٢) وتعني هنا حس مسلح لشخصية مهمة ـ ليكتر.

٧ فبراير:

لم يكتف شيخ حسن[٢٣] أبو خليفة بخداع الحكومة فحسب بل كان من الجرأة بأن فتح خطاباً من خورشيد باشا. هو الآن تحت الحراسة مع الفرقة. عند مغيب الشمس جعلنا الحمير تعبر إلى الضفة اليمنى وسافرنا شرقاً ووصلنا بعد ساعة ونصف إلى مكان يسمى البحراوية مليء بالأهرام (قارناه باهرامات ممفيس) وقد بنيت بالقرب من بعضها البعض في أرض مرتفعة ويوجد في الجزء الشرقي من كل منها مدخل يبدو وكأنه يقود إلى الداخل. توجد في نفس الجانب وعلى ارتفاع معين نافذة وهمية. لقد حطم فيرليني (Dr. Ferlini) احدى الإهرامات تماماً وقد وجد أشياء قيمة هنالك (راجع قائمة مجموعته[٢٤]) ظل مدخل هذا الهرم باقياً لم يحطم وهو عبارة عن قوس مستدير وفي كل جانب تابلوهات بارزة عملاق يهم بضرب أشكال بشرية راكعة وقد أمسك شعرها بيده الأخرى وهو نفس فكرة العمل الفني الموجود في الرواق في إدفو (Idfu).

٨ فبراير:

وصلنا شندي يوم السوق.

٩ فبراير:

اصدرت الأوامر بأن نتوقف. يقام السوق في شندي مرتين في الأسبوع- الأثنين والثلاثاء وفي مكان عام. المدينة هي عبارة عن متاهة مكونة من منازل محطمة مبنية من الطين. السكان قليلون. اذكر أن شندي كانت من أكثر المدن ازدهاراً في السودان قبل سبع عشرة سنة مضت ولكنها إلى الآن لم تسترد مجدها بعد انتقام الدفتردار. النساء يدهن شعرهن وأجسادهن بودك البقر أو زيت السمسم. تقهقر المك نمرمك شندي والذي أحرق إسماعيل باشا إلى الحبشة حيث يعيش حالياً.

١٠ فبراير:

زار كل من المفتي والقاضي بشندي جاسيير وقد حاول القاضي اقناعه بأحقر أساليب المداهنة ليذكيه لأحمد باشا. قررنا أن نجعل الباشا يدفع ثمن مسلكه المشين فطلبنا منه بعض السمن الذي يصعب الحصول عليه هنا.

---

(٢٣) وهو شيخ العبابدة والذي ازعج أحمد باشا أبوودان تعيين محمد علي باشا له لمشيخة طريق الصحراء. ص ٨٧. من الجزء الأول من الكتاب.

(٢٤) كتلوج لاناتيك اكتشفت في النيل الأبيض.

١١ فبراير:

وصل المدينة أحمد باشا والقوات وبما أن المراكب كانت محملة بالمتاع فقد أضطر المرضى للنوم على الشاطىء وهو شيء متعب للغاية. لقد رأينا خادماً عجوزاً كانت ملكاً للملك نمر سمينة قصيرة يحكى شكلها كماريكثيرا حقيقاً. لقد أطلق سراح شيخ حسن خليفة. وهنا يزرعون الفاصوليا العريضة الحبوب المختلفة الألوان. غادرنا شندي لقد أطلق الباشا سراح شيخ حسن لاته اهدى الباشا جملاً كان طامعاً فيه وهو شيء مألوف عند الأتراك. كان مرتب أحمد باشا ثلاثين كيساً في الشهر.

١٥ فبراير:

يبلغ تعداد سكان بربر كما ذكر المأمور حوالي ٢٥٠٠٠ خمسة وعشرين ألف نسمة.

١٦ فبراير:

رأينا بعض أكواخ العرب وقد كانت جميلة تسقفها بعض الشجيرات إلى حين نزول المطر، كان النوبة لا ينامون في الأرض بـل كانت لهم اسرة من الخشب تسمى العناقريب. العقارب هنا لا تحصى. فرضنا على الرجال والنساء مساعدتنا في جر حبل الكتان لأن الرياح كانت عكسية واستمر هذا العمل لمدة ساعة ونصف نستحثهم خلالها بضربات الكرباج.

١٧ فبراير:

عبرنا الشلال بكل خطورته وضخامته هنا ينمو الاسل خارج الماء ويغطي الصخور. مررنا بعد ذلك بالعقبة وهي ممر من تلال الجرانيت لقد استغرق عبور الممر ثلاث ساعات.

١٨ فبراير:

ابحرنا لساعتين متواصلتين فقط عبر صخور الشلال لقد غرقت سفينة محملة بالمؤن في الشلال كما وغرق أربعة أشخاص.

١٩ فبراير:

ما زلنا وسط الصخور النوبيون يحملون التمائم والنساء يلبسن الكثير منها في الأجزاء العليا من بطونهن.

٢١ فبراير:

عبرنا صباح اليوم مقرن النيلين ودخلنا الأزرق ـ بحر أزرق ـ ونزلنا بالخرطوم في الضفة اليسرى حيث وجدنا اثني عشر من الفرنجة رحبوا بنا. لا يزال خورشيد باشا في

الحدود الحبشية ولكن من المتوقع مجيئه في أية لحظة. قيل ان أسعار الطعام مرتفعة جداً والأحوال بالبلاد متدهورة وأنه لولا وصول أحمد باشا والفرقة الثامنة مشاة لقامت ثورة.

٢٢ فبراير:

جاء أحمد باشا إلى المدينة ليؤدي الصلاة. لقد التقى بالسلطة العسكرية والمدنية في ديوان خورشيد باشا وأطلقت احدى عشرة طلقة على شرفه. كل المنازل مبنية من اللبن وقد طليت الجدران بالطين المخلوط بروث البهائم.

٢٥ فبراير:

غادر الباشا والقوات قبل مغيب الشمس بساعتين ونصف مودعين المدينة بسبع طلقات وفقاً للوائح. أجرى جاسيير عملية ختان م. بوناردوت (M. Bonnardot) وهو يعاني من مرض الجلاع. ذهبت اليوم إلى حيث يلتقي النيلان، تختلف مياه النيل الأزرق من مياه الأبيض وقد بدا لي النيل الأبيض كالنيل في القاهرة فهو مليء بالطمى وماؤه أقل عذوبة في مذاقه عن الأزرق.

٢٦ فبراير:

والفرنجة في الخرطوم هم: سليمان أفندي وهو مرتد يدين بمذهب الأفلاطونية المحدثة وهو ضابط الصحة المسئول ومفتش الخدمات الطبية في مديرية سنار(٢٥) وبيانشين (Bianchini) وهو طبيب برتبة امباشي من ماسيراتو (Macerato)(٢٦) في ولايات

---

(٢٥) والقصة كما رواها ويرن (Werne) والذي ربما يكون أخذها من أخيه جوزيف الذي كان في الخدمات الصحية من أن سليمان أفندي كان يسمى دي باسكالي (De pasquali) وان وطنه بالبريمو (Palermo) لقد ذكر Werne أن سليمان قد سم أبا روف وثلاثة وثلاثين من الجنود وقد سم الجنود بغرض تحطيم سمعة الطبيبين والصيدلي وكلاهما فرنسيان ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد سم ناصر ود أحمد (وهو شقيق سليمان) وقد اعطى مصطفى بك حاكم الخرطوم جرعة زائدة من روح الأفيون كما وقد اتهم بحالات تسمم مختلفة أثناء عمله مع القوات المصرية في الجزيرة العربية واخيراً فإنه سم أشبال الأسد الخاص ب (Werne). وقد استنتج ويرن أنه قد مات مبكراً عام ١٨٤١ (الحملة ص ٣٩ - ٤٩ ولقد ورد ذكره سليمان أفندي كمفتش صحية في السودان في رسالة محمد علي باشا إلى علي خورشيد باشا حكمدار ١٥ جمادي الأول ١٢٥٢ (٢٨ اغسطس ١٨٣٦) (ارشيف عابدين ٢٢٠ غرة ١٧١.

(٢٦) لقد التقى به جوهان هيدنبورج (Johan Hedenborg) عالم التاريخ الطبيعي السويدي في السودان عام ١٨٣٥ (أ هولمبرج (A. Holmberg بروفسير جوهان هبدينبرج ١٧٨٦ - ١٨٦٥ ستكهولم ١٩٦٨ ص ٥٧.

بابل (Papal State) ونيكولاس أوليفي[٢٧] (Nicholas Olivi) وهو تسكاني صيدلي برتبة معاون مساعد وبارتولي (Bartoli) امباشي صيدلي تسكاني آخر برتبة[٢٨] مساعد محاسب وقد تزوج قريباً من سنيورا جنيفيرا (Ginavra) ابنة أوليفي (Olivi) واونادروجي (Onadrojji) وهو افلاطوني محدث وصيدلي برتبة معاون مساعد ولاسكارس[٢٩] (Lascaris) وهو يوناني يعمل رائد صيدلي وثيبـوت (Thibaut) وهو تاجر فرنسي آخر وضابط متقاعد في جيش نابليون وروليت[٣٠] (Rollet) وهو من بلاد السافوا وزيبوشيني (Zebbochini) وهو من تريست (Triest) كاتب فاسيير (Vassier)[٣١] وبوناردوت (Bonardot) وهو صياد ومحنط للحيوانات فرنسي وأخيراً لويس (Louis) وهو طباخ فرنسي أحدب الامام والظهر بعد أن فرغنا من مهمتنا أبحرنا عند المغيب.

٢٧ فبراير:

أبحرنا طوال النهار وعلى مرأى منا سهول بها زراعة متفرغة ولكنها كثيفة الغابات وكما رأينا كثيراً من التماسيح. الاهمال وهو الصفة الملازمة للاتراك جعلهم يقيمون مخزن البارود في قلب الخرطوم مما سينتج عنه تدمير المدينة يوماً إذا ماانفجر خاصة وليس للخرطوم حصون أو سور أو بوابة. كثيراً ما توجد جثث الزنوج غير المدفونة بالقرب من

---

(٢٧) نيكولاس أوليفي (Nicholas Olivi) ١٧٩٢ - ١٨٥٢ يقال إنه أثرى من عمله في احتكار الحكومة للتجارة (ج ليجيان **Voyage.. dans L'Afrique Orientale**. باريس ١٨٦٢ ص ١٩٠ وقد ترك بعد ذلك خدمة الحكومة للعمل بصيد الحيوانات. انجبت له - محبوبة - خليلته الحبشية أربعة أطفال وقد عمّدوا وأنجبت له امرأة أخرى بنتاً وتوفيت ولما زالت وليدة. Cliber Baptizatorum of the cathogio Mission Mission, Khartom) سنيورا وتقرأ سنيورينا.

(٢٨) من المحتمل أن يكون كاتب الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢٩) أحد أهالي سمايرنا والذي استضاف فون روسجير (Von Russeger) بحفاوة في منزله الكبير في الخرطوم كتاب ريزان (Reisen II) الجزء الثاني ص ١٢٦ - ٦٢٩.

(٣٠) انطوان برن - روليت (Antoine-Brun-Roilet) ١٨١٠ - ٥٨ مثل الكثير من الأجانب الاوروبيين فقد اتخذ اسماً مزدوجاً. كان عضواً في جماعة صغيرة من التجار في السودان جاءوا من سنت - جان ديمورين (Saint-Jean de-Maurienne) وكان يعتبر أ. فودي (A. Vaudey) والأخوات بونست (Poncet) ضمن جماعتهم كان برن روليت واحداً من أوائل الاوروبيين الذين كانوا يتاجرون في بحر الغزال وكان واحداً من أوائل الذين اصطحبوا زوجاتهم الاوروبيات للسودان وتوفي في الخرطوم.

(٣١) جوزيف - ماري - فرانسوا فاسيير (Joseph-Marie-Francoii Vassier) ١٧٨٦ - ١٨٤١. لقد حارب في جيش إبراهيم باشا الوالي ضد الوهابية في الجزيرة العربية واشترك في حصار دارية Dar'iya ١٨١٨ وتوفي بالخرطوم تاركاً بنتاً تدعى جوديث روز (Judith Rose) ولدت عام ١٨٣٧.

المستشفى. نسبة لندرة الفكة هنا فإن الخيرية قيمة التسع قروش تخسر قرشين وعشرين بارة أو ربما ثلاثين بارة بسعر الصرف. لقد قام بمهام الحكم سليمان كاشف كرري في فترة غياب خورشيد باشا. نسبة لندرة الخضروات وكثرة الطلب عليها فإن كل من يستطيع أن يقوم بزراعة بستان ولذلك نجد العنب والرمان على مدار السنة.

٢٨ فبراير:

لا نرى سوى السهول المزروعة أو المغطاة بالغابات. كتب خورشيد باشا لأحمد باشا عن أساليب إشعال الحرب في تلك الأماكن. ووصف خورشيد باشا للجيش بأنهم كلاب وكفرة جعل أحمد باشا يضحك لأنه غير متعصب.

١ مارس:

النيل الأزرق ضحل في هذا الوقت من العام والمجرى ملتوي والرياح عكسية لذا نستعمل طريقة سحب الحبل. والبحارة والجنود لا يكفون عن مزوالة كل أنواع النهب في البلاد التي يمرون بها. تقل السواقي في هذه الاجزاء. أخبرنا أحد الاتراك الذي كان كاشفاً في إحدى القرى لمدة طويلة بأنه عندما جاء الأتراك لأول مرة كان الناس يعتقدون أن الصابون مخ بشري وأن صبغة الطرابيش الحمراء دم بشري.

٢ مارس:

ارتطمت المراكب بالأرض في شواطىء محارية بعضها مختف وبعضها في مستوى الماء.

٣ مارس:

تقدمنا قليلاً نسبة لضحالة الماء وصلنا أثناء الليل إلى الهلالية وهي قرية على الضفة اليمنى.

٤ مارس:

قضينا اليوم بالهلالية. الأكواخ مستديرة ومبنية من اللبن بسقوف مخروطة من الغش ويسمى الواحد منها تكل. دور الدعارة والمريسة منتشرة في المدن والقرى.

٥ مارس:

رأينا العزعز والقردة.

٦ مارس:

وصلنا أبو حراز على الشاطىء الأيمن حيث تعسكر الفرقة. تركنا أبو حراز وفي أربع

ساعات وصلنا ودمدني وهي مدينة صغيرة على الشاطىء الأيسر.

٧ مارس:

طفنا بالمدينة التي وجدنا معظم منازلها عبارة عن تكلة (جمع تكل) العساكر يطلقون الرصاص احتفالاً بعيد رمضان المعظم. لقد زار الباشا المدينة وطاف بالمستشفى وقد استقبل بخمس طلقات تحية له.

٨ مارس:

جاء م جاك بسيير (M. Jacques Bwssier)[٣٢] وهو فرنسي من إقليم بروفانس (Provence) لزيارتنا من الروصيرص وهي إلى الشمال قليلاً من فازوغلي ولقد أحضر معه فرس البحر وأنواعاً مختلفة من الطيور المعبدة قال خورشيد باشا قد اعطاه الف قرش للعلاج من البواسير وجاء موجناني (M. Mujnaini)[٣٣] التسكاني. لزيارتنا بعد عودته من حملة لجلب الرقيق من القلابات وهي قرية بالقرب من عطبرة على الحدود الحبشية وقد حدثنا عن موت م. جالينا (M. Gallina)[٣٤] وهو دكتور ايطالي كان من الذكاء بأن أثرى خلال عامين فقط في تلك المنطقة.

٩ مارس:

وصل م. بوريني (M. Boreani) مفتش المناجم في مصر والنوبة ومعه ابن بلدته م. بولونيرا (M. Polonera)[٣٥] وقد كانوا في سنجة (خط عرض ١٠° شمال مع العدانية

---

(٣٢) يكتب اسمه بحروف هجائية مختلفة في Libre Baptisatarium بارسالية الخرطوم له ثلاثة أبناء اسماؤهم: إبراهيم (١٨٤١) والاسكندر (١٨٤٤) واوقسطا نابليون (Agusto Napolcon) (١٨٤٥) وقد كفل ماريا آن ادريانا Maria Ann Adrian وهي ابنة ن. يوليفي (N. Ulivi) آن اوريانا وهي ابنة ن يليفي (N. Ulivi) بالعماء.

(٣٣) نشد هذا الصيدلي الغامض الخلود بكتابة اسمه مرتين عام ١٨٣٧ و ١٨٤٠ في معبد الصخرة بابي سمبل ومن المحتمل أن يكون هو جيوفاني ماجناني (Giovani Magnani) من (Pontadera) وهو طالب بكلية الصيدلة في جامعة بيزا (Pisai) ٣٦ - ١٨٣٥.

(٣٤) الحق جالينا بقوات خورشيد باشا على الحدود وتوفي فيما يبدو من رواية ج فون روسيجر (J. Von. Russegar) بالحمى (ريزان الجزء الثاني صفحة ٥٠٣).

(٣٥) جيوفاني بولونيرا (١٨٠٨ - ٥٠) من أهالي ريفولي (Rivoli) لقد كتب تقارير جيدة عن رحلته إلى فازوغلي كان القنصل العام السادويني بالاسكندرية قد ارسلها لحكومته حاول الالتحاق بالحملة المصرية الثالثة لمحاولة اكتشاف منبع النيل الأبيض ولكنه فشل وكان عند وفاته بالقاهرة سكرتيرا للمجلس الاعلى للصحة.

الألمان تحت حراسة قوة يقودها مصطفى بك. فقد اعلنوا عن اكتشاف رمل غني بالذهب بالقرب من سنجة. وصلت الفرقة وعسكرت خارج المدينة.

١١ مارس:

إلى الجنوب قليلاً من أبي حراز يوجد مصب النهر وهو الآن جاف يفيض في موسم الامطار. المستشفى في مدني صغيرة وفي حالة سيئة كانت القوات تتقاضى أجرها في شكل ملابس ورقيق وجمال ونادراً ما يدفع لها نقداً. ربما كانت هذه البضائع غير جيدة لأن الجندي يخسر كثيراً عند بيعها. كل السود الذين يتم القبض عليهم في الحملات والأقوياء منهم يكتتبون في الجيش. عندما يكون الرقيق غير راضٍ عن سيده فإنه يذهب إلى الديوان ويجند في الحال ويعطي سيده تعويضاً قدره ثلاثين الف قرش ولا يعوض عن أي أضرار.

١٥ مارس:

وصل كل من مصطفى بك ومم روسيجر (M. M. Russegger)[٣٦] وكوتش (Kotschy) النباتي وأحمد أفندي الدليل من فازوغلي هناك خلافات بين هؤلاء الرجال وبوريني.

١٦ مارس:

وجدت هذه المدافع بدون حاملات بالقرب من المنزل الذي كنا نسكن فيه[٣٧]. قيل انها تركت بعد أن هزم الجيش وإن صح القول فإن بعض البنادق برتغالية الصنع. الأهالي في غاية الكسل وذلك لعامل الدين والطقس والحكومة.

١٨ مارس:

الضباع كثيرة جداً وهي تعوي طوال الليل.

١٩ مارس:

جاء خورشيد باشا وجنوده من القلابات حيث حرق القرى المهجورة وأسر بعض الرقيق. لقد اطلقت اثنتا عشرة طلقة على شرفه.

---

(٣٦) بمعنى آخر مع حسب ج فون روسيجر (J. Von. Russegur).

(٣٧) سجل التاريخ السوداني (تاريخ ملوك السودان صفحة ٧٠٦) الاستيلاء على مدافع الاحباش في المعركة شرق نهر الندر في التنقيح القديم لمخطوطات كاتب الشونة.

٢٠ مارس:

وصل م. زيبوشيني (Zebbachani) كاتب م. فاسيير (M. Vassiere) وقد كان يبيع البراندي بسعر الزجاجة خمسة وعشرين قرشاً.

٢١ مارس:

لقد اقضت مضجعنا وخزات من تأثير الجو والحشرات كوخزات الإبر(٣٨).

٢٢ مارس:

غادر كل من بوريني وبولونيرا إلى الخرطوم. ذهبت أمس نساء المدينة مساءاً في موكب إلى النيل وهن يرقصن ويغنين ويرمين الخبز في النهر شاكرات لله عودة أزواجهن سالمين من غارات الرقيق. أراد أحد النوبيين الاستحمام في النهر فخطفه التمساح الذي ذهب به إلى الضفة الأخرى ليلتهمه فجاء تمساح آخر فاقتتلا على الضحية وفيما هما كذلك جاء بعض الرجال وخلصوا الجثة ثم قاموا بدفنها.

---

(٣٨) من الممكن أن تكون هذه هي ذبابة الرمل الضخمة وهي فريدة في درجة حدة السم في لدغتها.

الفصل الثاني

الرحلة الى الحجاز
والعودة الى ودمدني

٢٤ مارس:

غادر الخرطوم كل من العدانين الالمان وخورشيد باشا وأحمد باشا. ركبت مع سكرتير أحمد باشا وبطرس (Butrus) التاجر الارمني أود شراء البن من الحجاز. يكلف رطل البن في ودمدني اثنى عشر قرشاً لأن الطريق من الحبشة قد قفل.

٢٥ مارس:

كانت مركبنا محملة ولذا لم نصل أباحراز حتى صباح اليوم وحجزنا هنا لمدة طويلة. من المعتقد أن يرجع أحمد باشا إلى القاهرة وهذا أمر مؤسف له.

٢٦ مارس:

لم نتقدم كثيراً بسبب ضحالة الماء. وصلنا أمام اربجي[1] على الضفة الغربية.

٢٧ مارس:

مررنا على الشاطىء المحاذي ووصلنا ود الفارو وهي قرية على الضفة على الضفة اليسرى.

٢٨ مارس:

قمنا بزيارة عمر آغا كاشف مدينة ود الفارو فارسل لنا ثلاثة خراف كهدية. يبدو أن

---

(١) مدينة لها أهميتها أثناء سلطنة الفونج وهنالك روايات مختلفة عن أصلها وسقوطها (أربجي مدينة عظيمة حطمت مثل قرى وقد كانت مقراً للأمراء العرب وعاصمة البلاد قبل غزو الشلك سنار وبعد ذلك أيضاً (تعليق ج. شيروس) (J. Chiros) في مخطوطة تحوي خرط اسكتشية لروافد النيل الصالحة للملاحة بالسودان بعنوان **Cours du Nil** وقد وضعت في ليجاز في مذكرات رحال في كردوفان ولم تنشر «السودان في وثائق ومدونات ٢٩ الجزء الأول ١٩٤٦ صفحة ١. ايفلياسيلبي (Evliya Celebi). (Seyagatname) تصف المدينة كما كانت حوالي عام ١١٨٣ يعطي انطباع مبالغ فيه عن مجدها وقد دمرهاالفونج بالاشتراك مع البدو الشكرية في ١١٩٨ (١٧٨٣ ـ ٨٤) (تاريخ ملوك السودان ص ٩).

جميع صغار الموظفين الاتراك لا يعيشون في حدود امكانياتهم.

النهر ضحل جداً. توقفنا قبل أن نصل الهلالية وافرغنا السفينة وكان علينا جرها بالأيدي وتكررت نفس المشكلة بعد أن تركنا القرية.

٢١ ابريل:

اطلق مصطفى أفندي النار على خادمه غضباً ولا أظن أنه كان متعمداً. توقفنا عند مغيب الشمس في البشاقرة وقد جاءت سفينة أحمد باشا (الجانجا) لتحمل مصطفى أفندي وانتقلنا فرحين من سفينتنا إلى سفينة أسرع يقودها اثنا عشرة ملاحاً وهم يغنون في ضوء القمر كي يظلوا يقظين وقد هدهدنا غناؤهم فنمنا.

٢ ابريل:

نحن نأكل على الاطباق ونحتسي القهوة من الإناء الخاص بها وكنا مسرورين لأننا حصلنا على محار وطبق نحاسي استعملناه في صنع شراب التمر هندي. لا بد للمرء من القيام بأي عمل أثناء الرحلة.

٣ ابريل:

هناك بعض الانسجام بين ذلك العدد القليل من الفرنجة. بعد القيام باستطلاع وبعض التحريات استطعت أن استنتج أن قصة منديل السلطان(٢) قصة ملفقة. كان العدانون الالمان قد وصلوا المدينة.

٤ ابريل:

ذهبت لزيارة بوريني الذي تكرم بإجراء تجربة صغيرة أثناء وجودي معه بالرمل المحتوي على الذهب فأخذ نحواً من اربع أوقات(٣) من رمل جبل جحامل وغسلها عدة مرات في إناء خشبي حتى لم يبق منها شيء سوى ذرات من الذهب أذابها في بوتقة اختيار

---

(٢) من المحتمل أن تكون هذه إشارة للقصة التي تروى عن السلطان العثماني كان يحدد المرأة التي يختارها لتقضي الليل معه بأن يرمي بمنديله على كتفها (ج . أ . ١٧٩٧ ص ٢٥) وج بروان (W.G. Brown) قام ببحث هذه المسألة التي أثارت فضوله في استنبول لم يتوصل للحقيقة ولكنه سمع في البوستة بأن البنات المسلمات في سن الزواج يسمح لهن بالظهور دون حجاب أثناء النهار حيث يرمي الرجل الذي يريد الزواج من إحداهن بمنديله أو جلبابه على رأسها أو كتفيها (ع. واليول **Biographical memoir of Mr. Browen, in Memoirs relating to Turkey, II 1820, P.161).**

(٣) اقه وقه وهي وزن مقداره $\frac{1}{2}$ ٢، رطلاً.

فنتج عن ذلك شذرات تعادل اربع حبات من الغلال المحلية أو ست من الغلال الفرنسية أي ما قيمته قرش.

٥ ابريل:

ذهبت لزيارة مصطفى بك وكان يشبه الجندي في قوامه. كان خورشيد باشا أحد الأتراك الذين كتب عنهم ڤولني (Volney) وكان من المتدينين والمصلين سراً وجهراً ولكنه كان يظلم الناس. كان مصطفى بك قليل القراءة وكان يكره المسيحيين ولكنه كان كريماً. وصف بمباشي من الفرقة الثامنة ضابط الفرقة الأولى بأنهم (antichita Romana).

وصل اليوم من بربر عباس آغا وتبدو عليه قسوة حقيقية ولا يقرأ ولا يكتب.

٧ ابريل:

اجرى بوريني تجربة بالرمل المخلوط بالذهب بوجود خورشيد باشا. والقاضي وعباس آغا وكانت ناجحة. وصل سالم افندي قائمقام الفرقة الثامنة لتوه ومعه المؤن. استغرقت رحلة أحمد قائمقام الفرقة من ودمدني إلى الخرطوم يومين في سفينته الخاصة (جانجا). يبدو خورشيد باشا رجلاً عادياً ذا لحية ولكنه ليس عجوزاً وهو يستعمل نظارة نسائية للقراءة. قدم معي صباح اليوم أحمد باشا لمقابلة خورشيد بلا حرس وهو شيء غريب على الاتراك الذين يهتمون بالشكليات. اعطاني عباس آغا مذكرة لوكيله(٤) وأخرى لسونكن. وضع مصطفى بك صندله(٥) تحت تصرفي ليأخذني إلى بربر وذلك بسبب وساطة أحمد باشا. ذكرت لأحمد باشا في ذلك اليوم أهمية الرحلة إلى كردفان للحصول على أطباء فاجاب بأنه هو شخصياً مهتم بصحة الجنود فقط ولا يهمه الآخرون.

١١ ابريل:

ابحرت لبربر. احسست بالزهو وأنا أرى مركباً تبحر خصيصاً من أجلي.

١٢ ابريل:

كنت أفكر في مستوى الطعام في بلادي وكيف يطعم عمال السفن بينما أنا هنا لم أتناول سوى الكسرة وملاح الويكة دون شهية على مدى شهرين أن الناس في هذا البلد فاقدي الوعي ترى هل هم سعداء بذلك؟ تتكون الأواني المنزلية للأهالي من برام للطبخ

---

(٤) كتاب الكونت قسطنطين ڤولني Voyage en Syrie et en Egypte (1787). أخضع ڤولني الأنظمة التركية وأنظمة المماليك إلى نقد لاذع.

(٥) وكيل بالانابة.

وأقداح خشبية. وأطيب الملذات هنا هي المريسة والعرقي وأم بلبل[٦] واساس هذه المشروبات الثلاثة الذرة المخمر. تصنع قدور التقطير من الفخار والعرقي أخف نسبياً.

١٣ ابريل:

عبرنا الشلال والاخدود. أخذنا بالأمس خروفاً من صاحبه عنوة مقابل ٦ قروش. يجد المرء نفسه مدفوعاً لهذا العنف وإلا مات جوعاً أو دفع القيمة مضاعفة إلى أربعة أضعاف. مراكب الأهالي[٧] غير جيدة الصنع وهي تصنع من ألواح الخشب الموصولة مع بعضها بسيور من جلد البقر أو الجمال وليس لها دفة بل يحركها مجداف يشبه الحوض من طرف واحد. والسواقي الزراعية مبنية بنفس الطريقة. كل شيء هنا بكر كالتربة. تندر الطاهات الجسدية عند النوبة. جميل حقاً أن ترى الفتيات النوبيات عاريات إلا من الرحط وهو هداب من الجلد يغطي الجزء الأسفل من الجسم وهن جميلات الصدور والأكتاف. وإذا ما غضضنا النظر عن بياض البشرة فإن النساء الاوروبيات لا يرقيين إلى مستوى الشابات النوبيات اللائي لا يستعملن المشدات (كورسيهات) ولا الملابس الضيقة. ونجد أن صدورهن سريعة الترهل كما هو الحال دائماً في المناطق الحارة ولكني رأيت نساء مسنات مكتنزات الصدور. نجد صدور النساء عند بعض السلالات لا تترهل بل تضمر وتنكمش عندما تتقدم بهن السن فلا يبقى من صدورهن الجميلة سوى الحلمات التي تبدو قبيحة.

توقفنا هذا الصباح عند الناصري حيث تساوي الخيرية فئة التسعة قروش سبعة قروش فقط .

١٥ ابريل:

اضطررنا لاستعمال حبل السحب. نزلنا بالمتمة بعد الظهر وهي على الضفة اليسرى في مواجهة شندى وتشبه شندى ولكنها أكثر منها ازدحاماً بالسكان. قمت بزيارة الكاشف إسماعيل آغا في منزل يشبه القلعة مبني من الطين. كان يدخن غليونه. فقدمت له الإذن فقرأه له كاتبه. دعاني للتدخين معه وابقاني للعشاء. لم اتمالك نفسي من الضحك عند التفكير في مستر هوسكن وغليونه.

---

(٦) أم بليل أم العندليب وهو صنف راقي من المريسة تخمر وجريش الذرة المغلي. وهي سائل أصفر اللون. ك ب تراسي (C.B. Tracey) «مريسة» السودان في وثائق ومدونات ج ٨ ـ ١٩٢٥ ص ٢١٣.

(٧) تعني هنا زورق بخاري.

في المساء عبرنا إلى شندى حيث قمنا بزيارة القاضي أحمد جلال الدين الذي أكرم مثواي بتقديم المريسة والشواء ثم القهوة. لم يكن طموحاً بل طلب طلباً متواضعاً هو أن يؤذن له بتركيب ساقيتين بالقرب من المدينة حاولت إقناعه بزيارة القاهرة ولكنه قال محتجاً بأنه سيموت حزناً إذا ما ترك وطنه ولم يكن يستهويه ثنائي الكثير على مصر. وفيما يبدو لي فإن حب الوطن هو إحساس طبيعي حقيقي بالنسبة لكاهن عجوز مثله. لا زالت بقايا حطام المنزل الذي أحرق فيه إسماعيل باشا موجودة.

١٦ ابريل:

ذهبت هذا الصباح إلى جزيرة كورقس (Kurgus) وقمت بزيارة الكاشف حسن. لا توجد أي خرائب بالجزيرة ولكن اخبرت بأن هناك بعض الخرائب في المكان الذي يسمى بابا (مروى) مواجهاً للجزيرة التي سوف لا أستطيع زيارتها لضيق الوقت.

١٧ ابريل:

وقفنا أثناء النهار خارج الكتيباب وهي قرية على الضفة اليسرى نشاهد كل يوم قطعانا كبيرة من الماشية الخرافَ والماعز يأتي بها العرب للشرب في النيل. شربنا كثيراً من اللبن الذي كان يمنح لنا بلا مقابل حتى في القرى الواقعة على ضفاف النيل فإنك تجد الماء الاسن محفوظاً في أوعية. والناس هنا من الكسل بحيث يفضلون شرب الماء الاسن الموجود بالقرب من منازلهم على السير بضع خطوات لاحضار الماء العذب من النيل.

١٩ ابريل:

وصلنا بربر ظهراً حيث عرض على شيخ أحمد المشرف على الاوزان الحكومية[٨] منزلاً لا سكن فيه. التقيت بالحاج علي المغربي وكان يعرف الايطالية والسنيور لورنزو اجرتي (Signor Lorenzo Agretti) وهو تاجر إيطالي كان يعمل حكيماً ملحقاً بالوحدة. قمت بزيارة خليل أفندي وكيل عباس آغا وقدمت له خطابات تعريفي فاعطاني في الحال جمالاً ودليلاً للطريق الصحراوي إلى سواكن.

٢١ ابريل:

السوق صغير وكذلك المدينة. الحياة في بربر مملة ولا يستمتع بها إلا من لهم أسر أو عمل تجاري أو حكومي.

---

(٨) من الممكن أن يكون هذا الوزان هو الشيخ أحمد الحاج أبو علي كاتب الشونة ـ كاتب مخزن الحكومة ومؤلف كتاب: تاريخ الأحداث. مخطوطات كاتب الشونة راجع صفحة ٢٨ الفائتة.

٢٢ ابريل:

سألت بالأمس ميكائيل كيف كان يصرف الاتراك نقودهم وهو اغريقي كان صرافاً لإسماعيل باشا ويعمل الآن تاجر أو ساعاتياً فرد بأنهم يخفونها ويموتون كالكلاب وتذهب مدخراتهم لخزينة الباشا الكبير. كانوا يعيشون حياة شاقة. إذا كان التركي يتقاضى مرتباً قدره الف قرشاً وكانت له أسرة فإنه يدخر منه خمسمائة قرشاً بحجة الاحتياط ضد المرض ويوفر منه شيئاً لورثته من بعده إذ كان يتوقع أن يكون له أطفالاً مبذرين. كان دينهم عائقاً لهم عن تحسين إدارتهم وأساليبهم في الحياة بحجة أن هذه الاصلاحات هي من مقترحات الفرنجة المسيحيين. لقد قامت ثورة في فرنسا رغم الدين ولنأمل أن يحدث مثل ذلك في تركيا.

التجار هنا قليلون ولكنهم رغم ذلك يقومون بتصريف الأمور. ما يبيعه أحدهم بعشرة قروش يقدمه له آخر بثمانيةأو تسعة قروش. كانوا يأكلون الكسرة لأن القمح غير متوفر. سافر مصطفى أفندي الطبيب العربي إلى الحجاز مر بالمدينة منذ أيام طبيب هندي قدم من دارفور حيث أخبر السلطان بأن المـؤن الطبية قد نفدت وقد حمل بالهدايا عند رحيله تخسر الخيرية فئة التسعة قروش قرشين بسعر الصرف في بربر. سألت بنتاً لماذا تمسح جسدها بالدهن فاجابت بأنها تستعمل الزيت لنفس الغرض الذي نستعمل نحن من أجله الصابون. غادر موسى آغا أحد بمباشوات الفرقة الثامنة إلى القاهرة زاعماً أن السبب هو إحضار أسرته ولكن قيل أنه سافر في مهمة تخص أحمد باشا.

٢٣ ابريل:

يشاع أن الفرقة الثامنة ستظل في أحسن أحوالها طالما بقي أحمد باشا هنا ولكنها سوف تضعف كالفرقة الأولى إذا ما رحل. تنتج عن الجوع وسوء الأغذية والسكن غير الصحي امراض مختلفة قد تسبب في موت الجنود وفقدهم الحماسة والمقدرة على غزو الحبشة. كثيرون مثلي يضايقهم بشدة التأخير في سير الرحلة ولكنا مخطئون إذ أن التسرع لا يخدم غرضاً وقد يدفع للجنون وأن الدين والفلسفة يحثان على الصبر. كان فارهد بك كولونيل الفرقة الثامنة فظ المظهر سيىء الشخصية يتعاطى الخمور بـإدمان وبخـاصة البراندي.

٢٥ ابريل:

تسويق المواد الغذائية هنا ليس خاضعاً لأي نظام لا يوجد اليوم أي لحم أو خبز. مدينة الخرطوم مدينة لخورشيد باشا وإدارته في تطورها فإن ما كان عبارة عن تكلة أيام

كلود (Gailliaud) صار الآن عاصمة بلاد السودان[٩].

٢٧ ابريل:

سعر الخروف الآن ستون قرشاً وابتعت اثنين بخمسين قرشاً ثم وجدناهم على طول الطريق بخمسة أو ستة قروش للواحد. العمل الرئيسي للنوبة هو غزل القطن وعمل المريسة.

٢٨ ابريل:

غادرنا بربر أخيراً بالجمال. توقفنا بعد ساعتين عند بئر عذبة الماء تسمى ماحوبك.

تتكون قافلتي من خمسة جمال ومعي خادم يدعى فضل الله ومرشديين من قبيلة البشارين هما عيسى. وكان عيسى فقط هو الذي يتكلم العربية أما الباقون فيتكلمون لغة الصحراء كان لكل واحد جمل خاص به. وهم يمشون حاسري الرأس لهم شعر طويل مدهون وملابسهم عبارة عن قطعة من القماش وصندل ويحمل الواحد منهم حربة ودرقة.

٣٠ ابريل:

مررنا بآبار كثيرة مرة المياه وبعضها جاف في مكان يسمى أوباك.

١ مايو:

بعد السير في أودية صخرية ضيقة خرجنا إلى أودية صغيرة بها آبار عذبة المياه تسمى المهدية.

٢ مايو:

رأينا أناساً كثيرين والقطعان ترد الماء للشرب. لا يمكن أن تصدق أنا في الصحراء ونحن في هذا الوكر ذي الشجر حيث تشقشق الطيور الصغيرة لم يفزع وجودنا النساء. توجد بالقرب من هنا قبيلة تسمى كوكيرب حيث تناثرت منازلهم ببراعة في مقاطع من القماش تقوم مقام الفساتين يحملن أباريقهن على أكتافهن لسحب الماء وكن يغنين. ليس للنقود أي قيمة في الصحراء. تعطى الماشية والدواجن والدواب مقابل القماش والتباكو والذرة وما شابهها. يعيش الناس هنا حياة دينية مقصورة على رعي قطعانهم وأخذها إلى أحسن المراعي.

---

(٩) المدخل في Libro Baptizatorum الخاص بالبعثة الكاثوليكية الخرطوم، تسجل وفاته في تلك المدينة عام ١٨٤٢ هو أول اسم في قائمة الموتى الذي بدأه بالقديس الفنساني ل . مونتيوري (G: Montuori) ولد لاجراتي Agretti طفلاً عام ١٨٤٣ بعد وفاته.

٣ مايو:

أصبت بصداع حاد جداً لم استطع معه السير لأكثر من ساعة فوقفنا واستأنفنا السير مرة أخرى لمدة ساعة ونصف وقد عاودني الصداع فوقفنا في واد صغير حيث توجد بئر كوكريب. لا يزال الشواء الذي قمت بصنعه في بربر جيداً لكنه صار جافاً. هناك بئر تسمى كوكيرب لا يقل ماؤها عذوبة عن الأولى. سرنا بعد ذلك في بطء وبمشقة لمدة أربع ساعات ظهراً. كنا نمر بأودية ضيقة حيناً وممرات صخرية أحياناً أخرى. مررنا بمدافن كثيرة تقوم الصخور فيها مقام الشواهد. قضينا الليلة بالقرب من قطعتين من الحصير وقد نصحني المرشدان بألا أدخلهما خوفاً من أن افزع النساء.

٥ مايو:

شربت اللبن للمرة الثانية هذا الصباح. بعد سير نصف ساعة وقفنا لملأ القرب من بئر عذبة قيل لي أنها أيضاً تسمى كوكيرب. سرنا على مدى ساعتين عبر شعب مليئة بالغابات وممرات صخرية ضيقة. سافرنا بعد الظهر لمدة خمس ساعات ونصف ووقفنا بالقرب من خيمة من الحصير في واد ذي شجر جاءني بعض الاعراب باللبن واعطيتهم بعض البسكويت فاستمتعوا بأكله إذ أنهم لم يعرفونه من قبل.

٦ مايو:

سرنا لمدة ست ساعات تابعين لخور ماء جاف معظم الوقت ملأنا القرب بماء عذب من الخيران. يسمى الخور ارتري (هارتري؟). شجيرات العشر المنتشرة في هذا المكان شديدة الارتفاع كالشجر إذا ما قورنت بشجيرات العشر في النوبة. قابلنا شيخاً من الحداربة يدعى هالوه يركب جملاً عربياً في طريقه إلى سواكن. بعد الظهر ركبنا مدة خمس ساعات عبر واد مغلق ذي شجر. لقد رأينا غزالاً وافزعنا ارنباً.

٧ مايو:

ركبنا صباحاً لمدة خمس ساعات سائرين أغلب الأحيان عبر مجرى وادي مليء بالمستنقعات التي حوت في قاعها ماء طيباً. اخبرنا المرشدان بأنها موسمية فقط ركبنا لمدة خمس ساعات أخرى ظهراً.

٨ مايو:

سرنا ظهراً لمدة ثلاث ساعات وربع فافزعنا أرنباً. أخبرني الدليل بأن أكثر الحيوانات شراسة في هذه الصحراء هو الضبع كما ويوجد وحيد القرن والغزال والبقر الوحشي وحمار الوحش والأرانب. أما الحيوانات الأليفة فهي الجمال البقر والحمير القوية

والماعز والضأن. بعض نساء الصحراء يلبسن الثياب الجلدية (الصديري) وزمام الفضة. توقفنا للراحة بالقرب من آبار تسمى حندوب (هاندوب؟) حيث ترتوي كثير من الدواب. ركبنا لساعتين مساءاً كانت لحظة رؤيتي للبحر لحظة فريدة. نمت تلك الليلة أمام خيمتين من الحصير وشربت اللبن الدافىء.

٩ مايو:

دخلنا سواكن بعد مسير دام ثلاث ساعات ثم عبرنا على طوف الحي الجزيرة حيث يوجد ديوان الحاكم عبد الله آغا وهو من البوسنه (Bosnian) وكان في يوم ما ساعياً وصار رئيساً للمستشفى بجده. سلمته خطاباتي فاحسن استقبالي ومنحني سكناً مع اثنين من التجار أو الخياطين الارمن هما إبراهيم ويعقوب. كان عبد الله قصيراً ذا لحية وسيم المنظر يرتدي بنطلوناً واسعاً وعمامة كالمماليك وهو لا يقرأ ولا يكتب وله خادم حبشي بمثابة سكرتيره.

١٠ مايو:

بنى جزء من سواكن على جزيرة صغيرة والجزء الآخر داخل البلد. بنيت معظم منازل الجزيرة من الحجار المرجانية التي تحضر من حوض البحر ومعظم المساكن داخل البلد من قطاطي ذوات سقف مخروطي ويوجد السوق في هذا الجزء من المدينة. تحضر مياه الشرب من بئر عذبة تقع على مسيرة ساعة داخل الجزيرة ثلاثة أو أربعة من الأشجار هي كل نصيب الجزيرة أو الساحل من الخضرة. التربة جافة وغير مزروعة. الطعام رخيص والمواد الغذائية الرئيسية هي لحم البقر والضأن والجمال والماعز وبعض الأرانب والطيور والسمك واللبن. أما الذرة فيستورد من الحجاز لصناعة الكسرى.

يشتغل أهل سواكن بالتجارة فقط ولا يشتغلون بالصناعة والمدينة عبارة عن نقطة انتقال بين الجزيرة العربية وداخل افريقيا. هنالك مسجدان ومقاهي وهي المكان الوحيد الذي يلتقي فيه أهل المدينة. والعملة الوحيدة المتداولة هي أبو نقطة والدولار والبارة. تعادل الخمس وثلاثون بارة قرشاً واحداً بينما يساوي القرش في مصر اربعين بارة وعليه فإن الدولار يساوي ٢٨٠ مائتين وثمانين بارة[١١]. مما يضايقني هو عدم استعمال النقود

---

(١٠) رافق كل من فردريك كلود وبيير لتوزيك وهو ضابط البحري التابع للتجارة الفرنسية البحرية جيش إسماعيل باشا ١٨٢٠ - ٨٢ وقد كتب كتاب Voyage a Meroe باريس ١٨٢٣ - ٢٧.

(١١) هذه زله قلم إذا كان دولار ماريا ثيريثيا يعادل ٢٣ قرشاً تركيا إذن الدولار يساوي ٩٢٠ بارة استنبولية.=

الذهبية في المقايضة علماً أن كل نقودي من الذهب. كان علي أن استبدل بعض نقودي من تاجر عربي استقل حاجتي فربح. مياه البحر الأحمر زرقاء ومليئة بالصدف. تتبع سواكن لحكومة جدة(١٢).

اعارني عبد الله آغا اليخت الحكومي لالحق بسفينة كبيرة غادرت صباح اليوم بعد أن اعطاني خطاب تقديم لسليمان أفندي حاكم جدة وثلاث أوقات من البسكويت ولكنها كانت تالفة لسوء الحظ ولكن على الإنسان ألا يفحص الهدية ليغيبها.

١١ مايو:

اثنان وستون شخصاً على ظهر السفينة: عرب ورقيق واثنان من الاتراك وخادمي وشخصاً وطاقم السفينة.

١٣ مايو:

دخلنا خليج الشيخ برغوث. توجد على بعد مسافة قصيرة داخل البلد توجد ثلاثة آبار بها ماء عذبة حيث تسقى قبائل العرب حيواناتهم(١٣) كنا نستبدل الذرة باللبن لأن الناس لا يستعملون النقود.

١٤ مايو:

ابحرنا في خليج دارفور حيث توجد آبار قريبة ماؤها صالح للشرب.

١٥ مايو:

للمسلمين أساطير غريبة عن الحيوان. واحدة منها تروى عن النعام لقد اعطى الله كل الحيوانات أجنحة فصاحوا كلهم «لقد أعطانا الله أجنحة ستمكننا من أن نطير إن شاء الله» إلا النعام الذي نسى أن يضيف عبارة «إن شاء الله» فقال ان لي أجنحة ويمكنني الآن أن أطير. ولذا طارت كل الطيور في الجو ما عدا النعام لم يستطع الطير وبقي على الأرض. وهكذا صار النعام ذليلاً أمام الله فعطف عليه وأعطاه السرعة في المشي.

١٦ مايو:

أبحرنا من مكان تشحن فيه السفن ملح البحر الأحمر والذي يوجد هناك بكثرة في

= ويعرف الماري تيرثيا دولار غير المزيف بالجوهرة (النقطة) على البروش الذي على كتف الامبراطورة.

(١٢) آجرت ميناء سواكن لمصر ١٨٤٦ على مدى حياة محمد علي وفي عام ١٨٦٥ ضمت لمصر.

(١٣) موقع بورتسودان الحديثة والأبار في خور موج الذي يصب في الميناء.

البحيرات الضحلة(١٤). كثير من القوميات ممثلة على ظهر سفينتنا فهم يتحدثون العربية والصومالية الهندوية. أنا فرنسي وهناك مغربي وتركي بعض الاحباش وبعض الزنوج والزنجيات الذين يتحدثون لغات مختلفة أنها تذكرني ببرج بابل.

٢٣ مايو:

دخلنا ميناء جدة عند الساعة الثانية فذهبت في التو إلى أمين بك(١٥) فوجدته مع سليمان أفندي(١٦) على ظهر سفينة حربية. تناولت معهم الغداء وتناقشنا حول الأحداث في سنار وكان يعيننا بالترجمة سركيس الطبيب الارمني. شعرت بالحزن عندما دخلت المدينة وذلك للفرق الشاسع بينها وبين الصحراء وهو نفس الشعور الذي اعتراني عندما رأيت الاسكندرية لأول مرة توجد هنا أزياء متنوعة يبدو أن التجارة نشطة. تكون منطقة السوق والدكاكين طريقاً عريضاً به مطاعم بينها مسافات قريبة. يوجد هنا من الفرنجة م. شيدوفولت (M. Chedyfault) وهو مقدم طبيب بالجيش وأخوه(١٧) سائح تجاري جاء يبحث عن الثراء وم. ميمارد (M. Mimard) وهو امباشي طبيب فرنسي وبيرفن (Perfetti) وهو صيدلي برتبة مساعد امباشي ومورينو (Maurino) وتيدسكي (Tedeski) وايطالي يهودي ويعمل محاسباً وستابيل (Stabile) وهو صيدلي برتبة امباشي ونوبير (Neubauer) كبير الصيادلة وهو الماني(١٨) ودومنكوبابتا (Domenico Papetta) ومساعد صيدلي

---

(١٤) خليج سنقنيب.

(١٥) حاكم مكة.

(١٦) هو حافظ سليمان صدقي بك حاكم جدة.

(١٧) ش (آرلس)؟ (Charles) شيدوفو وهو الضابط الصحي للقوات المصرية في الحجاز منذ عام ١٨٣٤ وهو من أهالي باجنير دي بيجور. قدم خدمات ممتازة أثناء المعسكر ضد الوهابية في عسير. لقد قابله إنطوان وابادي بجدة وأعلن أنه بصدد اعداد خريطة مفصلة عن عسير (باريس المجموعة الثانية ١٤ ١٨٤٠ ص ٠٥٨ لقد التحق موريس تايسير- سائح من سانت سيمونيا بالخدمة العسكرية المصرية كسكرتير. خدم شيدوفو في مصر بعد ذلك وكان أحد مؤسسي الصحيفة الثقافية **(Miscel-lanea Egptiaca)** ١٨٤٢ وفي عام ١٨٤٧ كتب س لامبرت بك ليدعم ويزكي الطلب الذي قدمه للحكومة الفرنسية لمنحه وسام نجمة الشرف (The Cross of Honour) والذي كان يطالب به كحق ثابت (شيدوفوالي لامبرت القاهرة ١١ يونيو ١٨٤٧ مكتبة الارسنال باريس انفتاين نمرة ٧٧٠٣ راجع أيضاً ف فرسنل **L'Arabie Vue en 1837-1838** المجلة الاسيوية المجموعة السادسة ١٧، ١٨٧١ ص ١٥ وكتاب **Les Reformes en Egypteù P. 281**. ص ٢٨١ ج قومارد (G. G. Guemard).

(١٨) نقل مؤخراً للخرطوم حيث عمل صيدلياً للمديرية. كتب ك. ر ليبوري **Letters from Egypt, 1853,** p. 160. أن أحمد باشا ابوودان خلفه من منصبه في السودان ولكن خليفته أحمد باشا حنكلي اعاده =

واجليفي[١٩] (Ogilvie) القنصل الانجليزي والذي كان يعيش في وداد مع الاوروبيين ويتناول معهم الخمور كان التنافر سائداً بين هؤلاء الاوروبيين ولكل منهم يكيد للآخر.

بنى المستشفى على الشاطىء خارج المدينة. كان الضابط الصحي المسئول وهو سملبيرنيوني مرتد طبيباً ملحقاً بالمستشفى في مصر وقد رقي الآن إلى رتبة مساعد امباشي طبيب. ويتسع المبنى لعدد قليل جداً من المرضى بالرغم من أنه ظل تحت التشييد لمدة ثلاث سنوات في انتظار الخشب لتكملته والمعلوم أن الأهالي وضيق النظرة شيء مألوف عند الاتراك احيطت المدينة بسور له ثلاث بوابات وهي باب مكة وباب المدينة وباب البحر وهي تقفل ليلاً. ويتمتع الفرنجة بأمن شديد برغم وجودهم قرب مكة مثلما هو الحال في الاسكندرية. وحقيقة الأمر هو أن هناك بعض الاوروبيين الذين يستقلون هذه الحرية استغلالاً سيئاً لكي يهزموا العرب.

كان سليمان أفندي قد منحني غرفة مناسبة في منزل حكومي وهي خدمة جليلة إذ لا توجد فنادق في جدة. اللغة هنا هي العربية الفصحى. النساء يلبسن ملابس كثيرة مثلما في القاهرة ولكن الاخلاق لم تعد قويمة. درجة الحرارة رهيبة ولسؤ الحظ لم يوجد من يملك مقياس حرارة كي يقيسها لا اذهب إلى فراشي للنوم مبكراً في الليل رغم عدم نومي أثناء النهار.

اقيم احتفال بمناسبة الانتصار على عرب الوهابية في العسير على حدود نجد

= إلى العمل بتوصية من طبيبه الخاص كوش الألماني.

(١٩) كان كل من أ. ك اوقلتي وزميله الباحث الفرنسي قنصل فلجنس فرسنل هما الساكنان الاوروبيان الوحيدان في جدة باستثناء ضابط الحامية. نقل وكلاء البوستة التابعين لشركة الهند الشرقية عام ١٨٣٧ إلى موانيء البحر الأحمر بما في ذلك جدة حيث عين أوجلفر ـ كان هذا اقتراح موجه من الملازم ت. واجهورن. كتب القنصل العام ب. كاميل (P. Campell) من الاسكندرية يقترح أن يوكل لهؤلاء الوكلاء اعباء نائب القنصل والتي كان يقوم بها وكلاء من الأهالي (لكسل الاتراك وتراخيهم المعهودة فهم لا يضعون كبير أهمية للزمن أو الرسائل البرقية واهميتها وافق اللورد بالمرستون (Palmerstone) وفوني مكتب الشئون الخارجية كاميل في ١٤ اغسطس ١٨٣٨ لينفذ هذه التعينات. مكتب المحفوظات البريطانية F.O.P.R. office (الخارجية) ٣٢٢/٧٨. ص ٦٨ ـ ٧٦ وأعلن خليفة كامبل بعد ثلاثة عشرة سنة أن أوجلفي والذي ما زال نائب قنصل بجدة كان مصاباً بنوبات هذيان والتي انتهت به للجنون وأوصى بأن تجد شركة الهند الشرقية خلفاً له ليشغل (هذه الوظيفة الصعبة الممقوتة) ك. أ. مواري (Murray) الاسكندرية إلى اللورد بالمرستون ١٨ فبراير ١٨٥١ مكتب المحفوظات البريطانية ١٩٥/٣٤٨).

والحجاز تجاه سبيا وقد تعرض معسكر العرب للنهب والسلب كان م. شيدوفولت محظوظاً إذ حصل على خيمة القائد وأسلحته ومنها فتيل بندقيته نحت عليه زهرة الليس والسيف والبدلة والدرع وغطاء الوجه وهي تشبه الاسلحة في السودان والدرقة الجلدية صغيرة جداً. كان قائد الحملة هو أحمد باشا[٢٠] وهو أحد أقارب محمد علي. يبدو أن شريف مكة عزز نصر المصريين إذ أنه قاد الفرسان بنفسه وضرب الوهابين اعيد رأس قائدهم أما رؤوس القتلى وآذانهم فارسلت إلى جدة كما جرت العادة.

٢٧ مايو:

يبيع الاتراك بيع الزرنيخ وكلوريد الزئبق والافيون ونادراً ما يتحرى في حالات التسمم والتي كانت متفشية جداً في أواسط الطبقة العليا وبين الحريم بصفة خاصة. قدم المدينة بعض الجنود المخمورين من البارجة الحربية الانجليزية وقد آثار ادمانهم وإسرافهم سخط العرب مما جعلهم يرددون كلمات لا يفهمها الانجليز. كانت الحكومة المصرية متسامحة للغاية. قمت بزيارة سليمان افندي الحاكم وقد كان مداهينا متملقاً للغاية يبالغ في اصطناع التهذيب في معاملة الناس مما يعطيه مظهر المنافق. وكان أمين بك على عكسه صادقاً مخلصاً محباً للاوروبيين وقد غادر اليوم إلى مكة حيث يعمل حاكماً.

٢٩ مايو:

يأتي ماء الشرب من صهاريج بالقرب من المدينة وتباع وبأثمان باهظة. وفي المقاهي يكلف كوب الماء البارد وهي مياه غير عذبة ولا تحفظ في الازيار مثلما يحدث في القاهرة ولذا فهي تسبب طفحاً جلدياً.

النقود المصرية غير متداولة باستثناء فئة الخمس بارات. يساوي الجنيه المصري مائة قرشاً والدولار مارية ثيرسيا ثلاثة وعشرين قرشاً. وأكثر العملات تداولاً هي عملة القسطنطينية. تكفي عشرة قروش فقط لاعاشة الفرد في جده بينما نجد الاوروبيين يعيشون في إسراف شديد لإدمانهم وحبهم للملابس الجميلة والتي كانت مكلفة جداً في جدة. الصناعات الوطنية محدودة جداً عبارة عن شباشب جلدية ملونة ومسابح مصنوعة من سن الحوت أو من خشب أسود يستخرج من البحر يسمى اليسر[٢١] أما أنابيب غليون النارجيلة فتأتي من اليمن.

---

(٢٠) يقصد أحمد شكري باشا وزير الحرب المصري.

(٢١) اليسر/اليسرا وهو خشب يوجد في البحر الأحمر وهو نظيب لخشب البلوط في المستنقعات ويصنع منه خرز المسابح هذه المسابح يبتاعها الحجاج من الحجاز على سبيل التذكار.

كانت جدة ميناء عبور للبضائع من الهند إلى اليمن ومكان توجد به البضائع من هذين القطرين في أكبر المحال التجارية. أما الخضر والفاكهة فكانت متوفرة جداً ولم تكن تحضر من البلاد المجاورة إذ كانت كلها صحراء وكانت تحضر من الطائف وتستغرق الرحلة إليها يومين ويشبه مناخها مناخ ايطاليا في الاعتدال ولكن البرتقال لا ينمو فيها.

٣٠ مايو:

تزوج أحد ضباط البحرية العرب فدعى الاوروبيين لحفل زواجه وفي الفناء الذي زين جزء منه بستائر حمراء وبيضاء وضعت مقاعد وأرائك بائسة على الجوانب ورتينة على منضدة عالية. وامتلأت النوافذ ومصاطب المنزل بالنساء المحجبات. بدأنا بشرب القهوة وتدخين النارجيلة. بعدها ظهرت راقصتان ترقصان وتغنيان بمصاحبة أوركسترا عربية تتألف من طبل وفلوت وكمنجة ذات وتر واحد. كان مظهرها خليعاً ومثيراً يدعو للتقزز. قدم لنا البراندي في سخاء. كثير من المسلمين لا يرون غضاضة في تعاطي الخمر علناً. تطوف الراقصة من حين لآخر على الجالسين طالبة النقود وهي تحرك اردافها المثيرة ثم ترتمي في أحضان أحد الضيوف الذين كانوا يلاطفونها ويراقصونها في غير احتشام ويضعون النقود على جبينها وعلى بعض أجزاء من جسدها وكانوا في هذا الأثناء يتبادلون بذيء الالفاظ. وحتى القنصل الانجليزي وقبطان إحدى السفن الانجليزية فقد فقدا وقارهما واشتركا في تلك العروض الخليعة. قد ذهلت لوجود مثل تلك المشاهد وبصفة خاصة وجود العاهرات بالقرب من مكة.

من الممكن للإنسان أن يسافر طوال الليل بلا ضوء. توجد في الجزيرة العربية ثماني فرق من المشاة بالإضافة إلى الخيالة والجنود غير النظاميين ويوجد في جده الجنود المعونون فقط. مؤكد أن المدينة غير محصنة. قدم طبيب يدعى هاردي (Hardy) (٢٢) للشاطىء ليتعرف على الاوروبيين وقد رحلت البارجة التي كان يعمل بها بالأمس إلى السويس أخبرنا بأن الدخول عالية جداً ولكن جزءاً كبيراً منها يضيع لغلاء المعيشة.

٥ يونيو:

قدم المسيو شيدوفولت إلى جدة كي يصلح من الخدمات الطبية التي ساءت لكثرة النفاق والتآمر.

---

(٢٢) وليم هاردي م ر، ك س (١٨٠٩ ـ ٤٠) بالخدمة الصحية الهندية والذي نشرت صحيفته بعنوان: **Up The Red Sea And Down The Nile In 1839 (1841)**. وقد توفي بنابلس.

٦ يونيو:

تسلمت بمزيد من السعادة خطاباً من جاسيير كتب في ابريل عاد خادمي بفضل الله من جده حاملاً لي خطاباً من أمين بك كان رداً على خطابي الذي سألت فيه بماذا يأمر.

٨ يونيو:

يوجد بالجزيرة العربية ثلاثة حكمدارات هم: أحمد باشا وهو من أقارب محمد علي إبراهيم باشا وهو شقيق أحمد باشا[٢٣] وخورشيد باشا المملوك[٢٤] يوجد بجوار المستشفى ضريح كبير داخل حوش كبير مليء بمقابر المسلمين ويعتقد المسلمون أن في هذا الضريح يرقد جثمان حواء. تأتي النساء أيام الجمعة يلتمسن الحظوة عند أزواجهن ولا يسمح للمسيحيين بالدخول.

ترقى مدرب كورسيكي بالجيش يدعى ماري إلى رتبة مقدم لخدمته الطويلة الممتازة في الحجاز[٢٥] واعتنق الإسلام رجل فرنسي يدعى سيرتولو (Sertolo)[٢٦] وهو يعمل بداخل الجزيرة. اشتهر بسوء السلوك كل من برا (Prax) وهو من الجماعة السمونية وكوجنات (Cognate)[٢٧] ومدام أجارايت كوسديير (Agarite Causidiere)[٢٨] وهي سيدة

(٢٣) وقد كان يقن إبراهيم توفيق باشا هو الضابط الذي قاد القوات المصرية إلى اليمن ويسمى كوكوك الصغير للتفرقة بينه وبين إبراهيم باشا الوالي أكبر أبناء محمد علي.

(٢٤) هو محمد خورشيد باشا (١٢٦٥ ـ ١٨٤٧/٤٨٦) وهو القائد المصري في نجد من فبراير ١٨٣٨.

(٢٥) ماري بك ويعرف أيضاً ببيكر (Bekir) آغا أوبيكر بك وقد ولد في فيوموربو وخدم في جيوش نابليون. وقد حارب كمتطوع مع الخوارج الاغاريق وقد تحول بعد ذلك إلى الجيش المصري حيث اشتغل مدرباً للجمباز وفي ١٨٣٤ كان الحاكم العسكري بجدة واشترك في حملة العسير وكان يعزي عدم ترقيته لرفضه الدخول في الإسلام.

(٢٦) هو جين ـ بونا فنشر ـ فرنسوا برا (١٧٥٩ ـ ١٨٠٧) من أهالي بيريجنان مدرسة الفنون التقنية باريس ١٨٣٨ ذهب إلى مصر مع جماعة سانت سيمونيون بقيادة بروسير انفنتاين واشتغل بسد الدلتا وعندما عين بمعهد الآليات التكنلوجية في الجيش المصري بالحجاز اعتنق الإسلام وعاش لأكثر من سنة بمكة وربما كان هو الفرنسي الوحيد الذي عاش بالمدينة المقدسة بعد أن انتهت خدمته كسكرتير ل. أ. ب. كلوت بك في مصر ثم بمصلحة الاشغال العامة بحكومة الجزائر فقد ختم حياته العملية كقنصل فرنسي لهاييتي (Haiti) لم تسهم الصحيفة التي تركها بمكة بشيء جديد ولكنها كشفت عن عقل مجتهد مولع بالبحث في أمور الدين والعادات الاجتماعية **Journal in the Bibliotheque de L'Arsenal, fonds Enfantin, No. 7773**.

(٢٧) طبيب من جماعة سانت سيمونيون أيضاً وقد دخل مصر ١٨٣٣ وخدم بسد الدلتا ونقل بعد إلى الجيش المصري بالحجاز وقد اصطحب معه أجاريث كوسيدير (Agarithe Caussidiere).

(٢٨) لقد اشتركت أجاريث كوسيدير في ثورة عمال النسيج بليون (Lyoni) عام ١٨٣٤ وكانت توزع =

من ليون أوشك برا الذي اعتنق الإسلام حديثاً أن يموت ميتة نكراء لـولا تتدخـل م. شيدفولت فاعيد إلى القاهرة تحت الحراسة.

بعد الفراغ من شراء حاجياتي ركبت السفينة هذا المساء.

٩ يونيو:

توقفنا عند طلوع النهار وكان بحوزتي خطابان من سليمان أفندي لعبد الله آغا في سواكن وآخر لأحمد باشا ابوودان.

١٣ يونيو:

وصلنا سواكن قبل منتصف النهار بقليل. ذهبت لزيارة الآغا. كنت أسكن بمنزل يعقوب الارمني حيث يسكن سليمان آغا وهو تاجر تركي وسعيد عيسى وهو تاجر لمن أسنا في انتظار الجمال لتقلهم إلى بربر. درجت العادة أن يقدم كل تاجر هدية للحاكم ولكيلا يفوتني ذلك ارسلت سلة بها سكر هندي. كان دائماً يعاملني بلطف وذلك بفضل خطابات تقديمي له.

١٦ يونيو:

درجة الحرارة أقل احتمالاً بكثير في جدة ولكن بالمقارنة فإن الحياة في جدة مملة جداً.

١٩ يونيو:

بسواكن كثير من القطط ولا يوجد أي أثر للخيول أو الكلاب.

٢٢ يونيو:

يعقوب يضاجع صبيا في كل ليلة دون أي اعتبار لمشاعر ضيوفه حدث بالأمس خلاف بينهما مما جعل يعقوب يطوف كل المدينة جرياً باحثاً عن الصبي. شاع الخبر فذهبت جماعة من أهل المدينة الذين (يجهلون هذه الرذيلة إلى الحاكم يطالبون بقتل هذا المسيحي الكافر فاصدر كل من القاضي والمفتي أمراً بقتله لولا تدخل عبد الله آغا. فابعد

= الذخيرة للمتمردين. قتل أبوها واحد أخوتها في المعركة وقد صدر أمر بالقبض عليها ولكن ساعدها بعض المسؤلين من أصدقائها بالدوائر الرسمية مع جماعة سانت سيمونيان بأعمال سد الدلتا وقد كانت خليلة لكثيرين منهم مثل كوجنات وبرا Journal of c. Lambert, Bibliotheque de L'Arsenal fonds Enfatin, No. 7751.

الغلام بعد أن جلد بالكرباج اربعين جلدة ثم أرسل إلى السجن. وجاء في جرأة ليجمع حاجياته الشخصية لأنه ابعد. بوصفه المسيحي الوحيد في مدينة كسواكن كان لا بد أن يكون متعطشاً لاشباع رغباته الحيوانية مثل مضاجعة الذكور رغم ما في ذلك من مخاطرة ومسؤولية.

٢٣ يونيو:

ارتكب أحد العرب جريمة سرقة في السوق وأراد الجنود الاتراك القبض عليه ولكن حماه زملاؤه بسيوفهم ضد البوليس أما الحاكم الذي كان ضعيفاً فلم يستطع أن يفعل أكثر من احضار اللص لكي يمثل أمام الحاكم شكلياً فقط. تتكون الحامية من ٢٥ جندياً نالوا تدريباً جزئياً ولذا فإنهم غير مهابين. لقد قام الحاكم بتأجير جمال نيابة عني مقابل تسعين قرشاً للواحد ولكنه لا يستطيع أن يأمر أصحابها بإحضارها المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه الإنسان بالملل هو الديوان ومنزل الشيخ عثمان. تعج المقهيان بأصوات الهدندوة الهمجية مما يجعلني لا أستطيع البقاء فيها أكثر من ربع ساعة.

٢٥ يونيو:

عرضت على أحد الصبية خمسة قروش مقابل بعض الصدف فرفض في ازدراء وطلب ضعف المبلغ فقلت له إنك مجنون وأن لا أحد غيري يمكن أن يشتري منك فرمى بصدفه في البحر ليثير غيظي.

١ يوليو:

بالإضافة للعوائد التي يجبيها الديوان يجمع العرب ضريبة خاصة بهم: حاول عبد الله آغا اعفائي من الأخيرة. يدفع شيخ العرب خمسمائة دولار سنوياً للاتراك لجباية هذه الضريبة ويعتمد عليه الاتراك في السيطرة على الأهالي.

٢ يوليو:

اليوم تناولت طعام الغذاء في صحبة كل من سليمان آغا وشيخ عثمان(٢٩) والأمير عثمان في دار الحاكم. يتكون الطعام من اللحم المطبوخ بالصلصة والحلو والبيلاف وكان الطعام يقدم بكميات بسيطة كعادة الاتراك وقد كنت راغباً في الزيادة. تتكون ملابس الأهالي من قطعة قماش واحدة تلف حول الجسم وصندل من الجلد. لمعظمهم شعر طويل أجعد. وهم يمسحون شعرهم وأجسامهم بالدهن.

---

(٢٩) اللفظة المحلية لعثمان.

٣ يوليو:

راجع مذكراتي عن سنار[٣٠] حول الاسطورة الخاصة بسواكن.

٤ يوليو:

معظم المنازل في جزيرة سواكن آيلة للسقوط ولا أحد يفكر في اصلاحها وعلى ما اعتقد فإن المساكن الدائمة قليلة جداً. المرجان الذي يستعمل في البناء يباع بالجملة وهو قوي شديد الاحتمال.

٥ يوليو:

طلب العرب منا ٤ دولارات كقسط أول على كل جمل وكذلك الطعام للجمالين ولم يعترض إلا انهم طلبوا الدفع مقدماً لأنهم سمعوا عن قافلة خورشيد باشا الذي وعد بأن يدفع سبعين قرشاً للجمل ولكنه دفع ستين قرشاً فقط بعد وصول قافلته بربر وهي عبارة عن تعريفة الحكومة فاعطيناهم المبلغ ولم يقتنعوا بالأربعة ونصف دولار مما اضطر كل رفاقي لاعطائهم خمسة دولارات. أما أنا فدفعت لهم أربعة ونصف بعد تدخل الحاكم. وقد اعفاني مشكوراً من الضريبة التي يدفعها كل من يعبر الصحراء.

وصلت الجمال أخيراً وقضينا الليلة داخل البلد في موقع على بعد ساعة سيراً من المدينة بجوار الآثار التي يردها الأهالي للماء[٣١] والجزء المبني من المدينة داخل البلد يسمى القيف[٣٢] اعطاني حاكم سواكن ثلاثة خطابات: لأحمد باشا وخورشيد باشا ومأمور بربر.

٦ يوليو:

هبت عاصفة شمالية غربية عنيفة مثيرة تراباً كثيفاً. رحلت قافلتنا في حالة اضطراب. ركبنا لمدة ساعتين. أربعة وعشرين جملاً لسليمان آغا وثلاثة عشر جملاً لسعيد عيسى وهو تاجر من اسنا وخمسة جمال لجانوه الهندي وإحد عشر جملاً لشخصي.

٧ يوليو:

وصلنا بئر حندوب بعد مسيرة ساعتين. اشتبك أحد صغار جمالينا مع أحد العرب ونتج عن ذلك أن جرح جرحاً عميقاً بالسيف في ملتقى الكتف والذراع وعولج الجرح

---

(٣٠) الصفحات ١٦ ـ ٢٠٦.

(٣١) آبار شطه.

(٣٢) الكلمة العربية القيف.

بخلطة من التراب والدهن وهو شيء خطير. مرشدنا لا يجيد العربية ولا يبدو محل احترام الجمالين. كان عديم الفائدة بالنسبة لنا برغم أنه قدم لنا كمرشد ممتاز بقصد خداعنا. ركبنا ظهراً لساعتين ونصف الساعة. بدأ مرشدنا عبد الله موسى إثارة المشاكل. طلب منا دفع ثلاثة دولارات كنا وعدناه بها عند وصولنا بربر وطلب أن يعامل معاملة السيد وأن يتناول الأكل والقهوة معنا فطلبنا منه الرجوع لسواكن إذ يمكننا الاستغناء عنه ولكن لم يرجع.

٨ يوليو:

بعد عناء واصلنا السير لمدة ساعة فوصلنا إلى بئر مرة المياه. طلب منا المرشد طعاماً فرفضنا. ركبنا بعد الظهر لمدة خمس ساعات ونصف. سمعنا الرعد وشعرنا بقطرات المطر.

٩ يوليو:

لحق بنا صباح اليوم الجزء الذي تخلف من قافلتنا. ركبنا ظهراً لثلاث ساعات قيل أن هناك لصوصاً ولكن لم يمنع العرب ذلك من ترك جمالهم ترعى في حرية ودون حماية.

١٠ يوليو:

ركبنا لأربع ساعات وصلنا بعدها إلى بئر تسمى تودية (تودا) ماؤها عذب ولكن غير نقي. في الظهر واصلنا السير لساعتين وهطلت بعض الامطار في المساء.

١١ يوليو:

الكل قلق الجمال والجمالون والمرشد. ركبنا لساعتين أثناء الصابح الصباح ولساعتين ونصف بعد ذلك توقعنا العواصف الرعدية فهطلت بعض الأمطار استطاع خادمي بمساعدة رجل آخر حفظ بضاعتي من المطر. أما بقية الجمالين فذهبوا يبحثون عن مكان يقيهم من المطر غير عابئين بما قد يصيبنا من ضرر غضب سليمان أفندي عندما رأى بضاعته من سكر وأرز قد ابتلت ولم يجد من يساعده فضرب اثنين من العرب. اجتمع كل أصدقائهما واحتجوا على ضربهما بالكرباج.

١٢ يوليو:

من نتائج طيش سليمان آغا وحماقته عدم وصول جمالي وستة من جماله. واستمر الشجار طوال الليل. فتقدمنا لنلحق ببقية القافلة تاركين متاعنا في رعاية الله. ركبنا لساعة

ووجدنا الجمال واقفة ببئر ارترى التي كان بها قليل من الماء. اثرت هذه الحادثة على سليمان آغا فندم على فعلته. واعترف بأن هذا كان من إغراء الشيطان وأنه مستقبلاً سوف يكون أكثر تحفظاً وصلت جمالنا وسرنا لمدة خمس ساعات أثناء الظهيرة. هطلت أمطار طفيفة في المساء.

١٣ يوليو:

سرنا لمدة خمس ساعات أثناء الصباح والتقينا ببعض الاعراب الذين جاءوا من سواكن في ستة أيام. أخطرنا بأن هناك ماء مطر بالقرب من باك (اوباك) واصلنا السير لمدة ثلاث ساعات حتى وصلنا بئر كوكيرب.

١٤ يوليو:

سافرنا لمدة ثلاث ساعات فقط ووصلنا إلى بئر تسمى قلاقناه (ماقوالا).

١٥ يوليو)

لحق بنا بعض التجار الهدندوه الذين غادروا سواكن من بعدنا. بين هؤلاء الرجال رجل يدعى أبو بكر وزعموا أنهم أصدقاء لجانوه الهندي. توقفنا بالقرب من بئر يابسة عسكر جوارها العرب الذين قدموا من سواكن جاءوا ليلاً وأخبرونا بأن هنالك عداوة بين العرب والاتراك وسوف لا يمكننا السير في غير صحبة شيخ وعرضوا علينا ابن الشيخ هالوه كنذليل مقابل بعض الدولارات وقد جادلهم ترجماننا في ذلك فصرفنا النظر عن قولهم. لم يحدث العرب الذين لقيناهم أول أمس عن أي اشتباكات بين العرب الاتراك وكانوا قادمين من بربر. كان قرارنا الأخير هو أنه ليس لدى العرب أي حق في فرض ضريبة على الاتراك فبحثوا عن حيلة أخرى تجعلنا نرضخ لهم لكننا واصلنا السير.

١٦ يوليو:

جاء ابن الشيخ هالوه يطلب بعض الملابس فاخبرناه بأن ما لدينا من ملابس لا يناسبه لأنها صممت للجنود بالإضافة إلى أن كل البضائع هي ملك لأحمد باشا وخورشيد باشا. فرد ابن الشيخ قائلاً أنه جاء ليسألنا معروفاً(٣٣) فهو ليس إلا رجل فقير فاعطيناه خيريتين وتساوي الخيرية تسعة قروش. ما زال سعيد باشا معنا وانضم الهندي إلى عرب سواكن واقتنع بصداقتهم وبكل ما قالوا له كانما العرب لا يريدون سوى مصلحته فهو جبان وقد استقلوا هذا الجبن وأن حقائبه تحتوي على ما قيمته أكثر من ٥٠٠ دولار من

(٣٣) وبالاصح رمز للصداقة.

البضائع. ركبنا على مدى أربع ساعات شرقاً بين سيقان الذرة التي حصدت قريباً. استفاد العرب من الأمطار الغزيرة فزرعوا الذرة. وفي رأي من الممكن تحويل هذه الصحراء إلى أرض مزروعة بالمثابرة والصبر رأينا بالقرب هذا المكات ست خيام مصنوعة من حصير البردى.

لحق بنا جانوه وعرب سواكن الذين تخلفوا واتخذ جانوه مرشداً وحامياً وأعطاه مقابل ذلك خمسة عشر دولاراً وقطعة من القماش. سافرنا على مدى اربع ساعات ونصف بوصول هالوه ورجاله في المساء شعرنا بأن هناك شيء غير عادي. ذهبت ارحب بالشيخ فعرفني. هو لا يعرف العربية كان طويل القامه أبيض شعر الرأس واللحية وكبقية رجال قبيلته فهو يلف حول جسمه قماش وينتعل صندلاً. ويبدو لي بذلك كبطريق انجيلي حقيقي.

١٧ يوليو:

هذه هي حدود منطقة الهدندوة ونحن على وشك دخول منطقة الموزاجاب(٣٤) ركبنا صباحاً لساعتين بصحبة الشيخ هالوه. كنا نلاحظ العرب على ظهور الجمال ذات السنام الواحد وقفنا بمكان به ماء المطر. اقترب منا عربان كثيرون واشتد نقاشهم حولنا وحول متاعنا. ومما يبدو لي فإن العرب مستعدون ومسلحون بالحراب والدرق وهم في انتظار أوامر مجلسهم الاعلى ليبدأ القتال والنهب في المساء جاءنا الشيخ هالو وأكد لنا أن كل المطلوب منا هو إظهار المعروف وأن اجتماع العرب كان حول جانوه الذي اختلف معهم وأساء لهم. رغم هذا التأكيد لم نر النوم الله كريم. علينا أن نكون قدريين.

١٨ يوليو:

زارنا طاهر شيخ قبيلة محمد حسن ـ ليحيينا ويؤكد لنا أن ما يزعجه هو جانوه الذي وعد بإعطائه خادماً ولم يف بوعده. اهدى له سعيد عيسى شمسيته ثم طلب منا أرز وذرة ليطعم رجاله. عاد وطلب جوالاً لأن الكمية التي أخذها لا تكفي رجاله ورفضنا طلبه إذ أن الجوال هو نصف حمولة الجمل وربما أن قيمة الذرة والأرز واحدة بالنسبة له فقد أعطيناه بدلاً عنها ٤ خيريات فئة تسع قروش ولكنه رفض هذا العرض في تهذيب عاد مرة أخرى في المساء على رأس قبيلة يطلب الأرز بلا شروط. فرفضنا طلبه بصفة رسمية وأخطرناه بأنه إذا أصر على أخذ بضائعنا فليأخذها قسراً.

---

(٣٤) غير معروفة. كان المسافرون داخلين على أراضي قبيلة البشارين.

ذهبوا بعيداً يتشاورون في الأمر ولكن خوفاً من نواياهم فقد اعطاهم سعيد عيسى كيساً من الأرز فسلقوه دون ملح أو سمن وأكلوه كما لم يأكلوا ارزاً من قبل. طلب جالوناً ارزاً أيضاً ولا نملك إلا أن نعطيهم إياه. فيما يبدو لي فإن كلام شيخ طاهر غامض. كان شيخ طاهر يشبه في زيه تاجراً مصرياً بعمامة. كان أسود اللون تنم نظرته عن نفس شريرة وكان يجيد العربية.

١٩ يوليو:

قبل شيخ طاهر الأربع خيريات بالإضافة إلى الأربع التي كان قد اعطاه إياها سعيد عيسى كما وأعطاه أيضاً معطفاً(٣٥). رغم كل شيء يبدو كلام طاهر وكأنه ضرب من المراوقة. منذ أن قابلنا شيخ هالو فنحن نرسل له يومياً طبقاً من الأرز والذرة إذ إننا رغم كل شيء رعاياه ورفاق سفره.

أما مرشدنا عبد الله موسى فبالرغم من المبلغ الذي اعطيناه له (٥٨ قرشاً) اتقاءاً لالحاحه فقد تركنا في هذا الوضع وغادر في الحال إلى سواكن دون أن يشكرنا. فاتخذنا محمود أخا طاهر مرشداً لنا مقابل ٤ دولارات تدفع مقدماً. يبدو أن جانوه قد عتق نفسه وحررها بإهدائه ١١ لفة من القماش الهندي ودعنا الشيخ طاهر ورحلنا ولكنا توقفنا بعد ساعتين من السير. خدعنا المرشد أخو طاهر وأنكر المبلغ الذي أخذه وقرر التخلي عنا لم يشفع لنا في ذلك وجود جانوه في معسكر العرب بالقرب منا.

٢٠ يوليو:

لاحظنا وجود شيخ طاهر مع شيخ آدم وهو من بئر مكاوية وعدد من العرب على ظهور الجمال ذات السنام الواحد. تحرك الرجال نحو جانوه وأخذوا سيفه وأمروه هو وخادمه أن يتوجها بكل بضائعه نحو بئر الرهاوية (راواي) وهي مسافة قصيرة كي يقتسموا الغنيمة.

أما نحن فقد كنا على استعداد مسلحين بالمسدسات والبنادق ولكن شيخ آدم أكد لنا بأنا في (أمان الله) لأننا اتراك. لم يرغب جانوه في صداقتنا حتى في سواكن. دار نقاش حول رجوعنا إلى سواكن وقررنا الاستمرار في السير بإصرار بعد مقارنة ما ينتظرنا من خطر بما خلفنا. ان نقاش الجماليين عن الرحلة لا تنتهي. ذهب اثنان منهم للبحث عن الماء

---

(٣٥) التنك أو السترة وبمعنى آخر البرنس أو القفطان.

فعادوا يخطرونا بأن العرب قادمون لذبحنا ليلاً أو غداً.

بعد أن تأكد لنا أننا لا محالة ميتون قررنا ألا نبذل أرواحنا رخيصة. حاولنا حماية أنفسنا فشيدنا قلعة من أكياس الأرز والبضائع الأخرى كان في حوزتنا ما يكفينا من السلاح والذخيرة ولكن لا نملك من الماء إلا ما يكفي ليومين فقط. زارنا أبو بكر من السواكن فاعجب بنشاطنا ووعدنا بالبحث عن شيخ علي ليساعدنا. نمت رغم مخاوفي.

٢١ يوليو:

جاء شيخ علي هذا الصباح ليعطينا (أمان الله) طلبنا منه أن يكون لنا مرشداً فقبل. ركبنا لساعتين في الصباح بعد أن ملانا القرب من ماء المطر. استأنفنا الرحلة وسرنا لثلاث ساعات.

٢٢ يوليو:

تركنا شيخ علي بعد أن اعطيناه ١٣ خيرية. سرنا لثلاث ساعات صباحاً وثلاث ظهراً فوصلنا إلى باك (اوباك) حيث توجد آبار ماء مرة. تقول المعتقدات المحلية أن المياه كانت عذبة وصارت مرة بسبب الدماء التي اريقت في الحرب بين العرب.

٢٣ يوليو:

سرنا لمدة خمس ساعات واستأنفنا مرة أخرى لساعتين قبل الظلام سرنا طوال الليل بسبب نقص الماء. توقفنا بالقرب من بئر ماحوبك في الساعة الثانية. وخوفاً من السير ليلة أخرى في الصحراء قررنا أنا وسليمان آغا وهو أحد الجلابة[٣٦] السيرراسا إلى بربر.

٢٥ يوليو:

وصلنا بربر في وقت مبكر ونزلنا بمنزل حسن آغا الذي كان سكرتيراً لعباس بك. قمت بزيارة حليم أفندي الحاكم الجديد وهو بمباشي الفرقة الثامنة. كتبنا تقريراً عن رحلتنا وبلغ طلبنا مائة دولار وكنا في انتظار قرار أحمد باشا سوف نكتب خطاباً شديد اللهجة لشيخ طاهر. غادر خورشيد باشا إلى القاهرة وخلفه أحمد باشا حكمداراً لبلاد السودان. يوجد عباس آغا المأمور السابق لبربر بالسجن وسيظل كذلك إلى أن تتم مراجعة حسابات المديرية التي يقوم بها فرهد بك في مأمورية للقاهرة.

---

(٣٦) جلابي: تاجر صغير.

٢٨ يوليو:

صار من الصعب الحصول على الفكة إذ جددت الحكومة سعر الصرف بثمانية قروش بدلاً من تسعة قروش للخيرية الواحدة. والآن قد اعيد فتح الطريق إلى الحبشة فصار سعر رطل البن ستة قروش. ارتفع سعر القمح وصار سعر الذرة اثنى عشر ياردة للملوة وهي ما يعادل هينيين.

٣١ يوليو:

يساوي رطل اللحم قرشين. هناك تزمر وتظلم من غلاء المعيشة. زارني قاضي شندى والذي جاء للتحري في قضية الاختلاس المتعلقة بعباس باشا وطلب مني هدية فرفضت طلبه وذلك لعسرى. بسبب الرحلة فاغتاظ ولم يذر منزلنا منذ ذلك التاريخ. تكرر نفس الفصل مع الحاج علي التاجر المغربي. قمت بزيارة فرهد بك فتلقاني ببرود. لكي تساير الاتراك فإنك لا بد أن تتحدث التركية أو يكون لك مهنة محترفة.

١ اغسطس:

رفض الحاكم تسليفي سفينة الحكومة لارحل بها إلى الخرطوم وحتى وإن قبل فلا بد من الدفع مثل الآخرين. لم يكن الحال كذلك أيام خورشيد باشا إذ مدني عباس باشا بكل وسائل النقل التي احتاج إليها. طلبت أن يسمح لي بدفع العوائد الجمركية بالخرطوم ولكنهم رفضوا. وهي عبارة عن ضريبة العشر إذ تساوي عشر قيمة كل البضائع. يبلغ مرتب الحاكم عشرة أكياس شهرياً استأجرت وسليمان آغا مركباً بمائة وخمسين قرشاً ولم يستطع سعيد آغا الحضور معنا لأنه لم يقم بتسديد الضرائب على بضائعه وقام بخصم دولارين من سليمان آغا عند تسديد السلفة ـ هذه تعريفته الخاصة.

ذهبت مراراً كي أشرب البوظة بمنزل امرأة من بربر وكانت امرأة جميلة ذات شخصية طريفة تسمى فضل العزيز. منذ سقوط الحاكم نجد أن الشيخ أحمد المشرف على أوزان الحكومة مكتئب لشعوره بالذنب. صار ميخائيل الاغريقي والذي كان صرافاً لإسماعيل باشا يشتغل بتصليح الساعات وقد قام بإصلاح ساعتي دون مقابل.

٢ اغسطس:

غادرنا بربر ظهراً.

٣ اغسطس:

قضينا يومنا في جذب حبل السفينة. وصلنا جاجزان (قوز الفونج) على الضفة

اليمنى ونزلنا بقرية رأس الوادي وهي قرية بائسة على الضفة اليمنى.

٤ اغسطس:

اعطاني حاكم بربر تذخيرة (إذن مكتوب) لتجنيد خمسة رجال لجذب حبل القطر ربما أن هذا العدد لا يكفي فقد نصبنا أنا وسليمان نفسينا موظفين حكومة لنجمع عدداً كبيراً من الرجال. إني أعترف بأن عمل السخرة عمل شاق لما به من الإساءة والضرب الذي يقع على التعساء الذين يدفعهم الفقر لمثل هذا الاستعباد. في الظهر عبرنا المقرن العريض. في مواجهة مقرن النيل وعطبرة توجد قرية كبيرة تسمى أم الطيور يوجد بها قائمقام(٣٧) وكاشف.

٥ اغسطس:

مررنا بالزيداب على الضفة اليسرى كانت الرياح غربية شمالية غربية ولكن لم نستطع الإفادة منها لقد تمزق شراعنا لخطأ الريس وهو امر مألوف. كان غناء الفلاحين الكورالي أثناء جذب الحبل يذكرني بدعاء المصلين في بلادي. تجاوزنا على الضفة اليمنى.

٨ اغسطس:

مررنا اليوم على الكتياب وسقدي على الضفة الغربية إلى اليسار منا وإلى الجنوب قليلاً من سقدي يوجد تلان هما: جاباتي وبقروسي. وقفنا أمام المكينة على الضفة اليمنى وابتعنا لبناً. وبما أن سليمان آغا لم يكن متعجلاً على الأكل وقد شربت أنا قليل من اللبن كان علينا شراء أشياء كثيرة لأن دينه يحرم عليه الشرب من أي أناء قد شرب منه بخلاف الماء برغم أنا نأكل سوياً. ومن نفس الإناء. خادمي وهو مسلم متزمت لم يعرف شيئاً عن هذه الحزمة.

٩ اغسطس:

تجاوزنا العطية على الضفة اليمنى وكركباب وكبوشية وجزيرة كرفس على الضفة اليسرى. قضينا الليلة خارج المغاوير على الضفة الشمالية هنالك كثير من النخيل والسواقي في المنطقة.

١٠ اغسطس:

جاء حسن آغا لمقابلتنا وهو الكاشف هنا وأخبرنا بأن ليس هناك أي غلال وأن

---

(٣٧) تعني هنا مساعد الكاشف وليس الرتبة العسكرية المعروفة.

الاسعار مرتفعة. وهذه هي الحقيقة فقد دفعنا بالأمس ٢٧ قرشاً ثمناً لكبش وقد كان سعره تسعة قروش فقط. قضينا الليلة في شندى على الضفة اليمنى.

١١ اغسطس:

أراد شيخ البلد(٣٨) أن يأخذ ريس المركب مما اخطرنا لجذبه بقوة إلى الداخل. فخاف الريس وأخذ يعتذر اعتذاراً واهياً. وصلنا المتمة على الضفة اليسرى مساءاً وقمنا بزيارة الكاشف إسماعيل آغا حيث تناولنا طعام العشاء وقضينا الليلة.

المتمة مدينة كبيرة ومعظم سكانها من التجار الحضارمة من سواكن وهي أيضاً واحدة من نقاط الانتقال بين ساحل البحر الأحمر وداخل افريقيا. هنا تباع الذرة بواقع قرش لكل ست سلقات (هينين) والبن باربعة قروش للرطل.

وتتبع لديوان المتمة ثمانون قرية ممتدة من الكتياب إلى ود بشارة ولكن السلطة العليا في يد المأمور ببربر وهو المسئول لدى حكمدار بلاد السودان. ومعظم الضرائب التي يتلقاها الديوان يمينية. وتصدر المنطقة النيلة والملابس القطنية وجلود البقر والضان والماعز والذرة والقمح والقطران ويشتغلون بصناعة السفن.

١٢ اغسطس:

أخبرني إسماعيل آغا بأنه كان كاشفاً بالمتمة خلال الثماني سنوات الماضية وكان يتقاضى الف قرشاً في السنة للبس ويأخذ المواد التموينية مجاناً وكذلك العلف لحصان واحد. وأضاف أن هذا التعيين غير كاف لرجل يتقاضى مرتباً. كان الغلاء عاماً حتى في دنقلا. هنا تباع سلقة القمح بقرش وهي تعادل ثلاثة أهيان. غادرنا المتمة صباحاً.

١٤ اغسطس:

مررنا بسلسلة صغيرة من التلال على الضفة اليمنى وجزيرة أمام نصري (Nasri) وبعض السواقي عند حبشية.

١٥ اغسطس:

الخبز هنا خفيف جداً ويصنع من الذرة وتخبز العجينة على منضدة أو صاج أو دوكة من الفخار. وتصنع وجبة يومية من الويكة والشرموط حيث يهرس كل من الويكة والشرموط

---

(٣٨) شيخ القرية وهي ادنى درجة بالسلم الإداري.

وتضاف إلى الماء مع البصل والثوم والشطة ثم تقلى على النار وتفرك باستمرار بمفراكة وعندما تصير غليظة كالحساء الثقيل تقدم مع كسرة الذرة ويسمى هذا الطبق الملاح.

يحتاج خورشيد باشا إلى اربعمائة وثمانين جملاً كي ينقل نساءه وممتلكاته الشخصية إلى القاهرة. وقد كان مرتبه سبعمائة وخمسين كيساً (خمسمائة قرش للواحد) سنوياً. تتكون حاشيته من أربعمائة شخص كانت هناك ظلامات كثيرة ضد ابتزازه الذي حطم البلاد فيما بعد.

اجتزنا ويرك (ودحمد) على الضفة اليسرى ويعقد فيها سوق كبير اسبوعياً.

١٧ اغسطس:

قبل دخول مضيق قرى طلبنا ثلاثة وعشرين من الفلاحين لجذب حبل السفينة وبعد عناء وصلنا إلى الجانب الآخر. على سفح جبل الرويان وقد سرنا الوصول إليه بعد رحلة محفوفة بالمخاطر. أخذت الرياح العكسية السفينة.

٢١ اغسطس:

بعد الظهر وصلنا لتل كرري على الضفة اليسرى توجد على سفحه قلاية كرري ويوجد بها كاشف.

٢٢ اغيسطس:

وصلنا الحلفاية وهي مدينة كبيرة إلى حد ما وتقع على بعد مسافة من النيل. قمنا بزيارة سليمان آغا وكاشف كرري الذي كان ماراً بالحلفاية فدعانا للعشاء معه كما ودعى أيضاً الملك كمبال بن الملك شاويش. وصلنا خارج الخرطوم الساعة الثانية صباحاً. غادر أحمد باشا في سفينة إلى بربر عبرنا النهر لندخل المدينة حيث أسكن مع دكتور بيانشيني.

منذ أن ترقى أحمد باشا لرتبة حاكم صار يتعامل بقسوة بالغة لدرجة الهمجية في مراجعة حسابات الحكومة وتحقيق العدل للفلاحين. صار أي كاتب يرتجف خوفاً. ومن توجد دفاتر حساباتهم غير منظمة تباع ممتلكاتهم بالمزاد العلني. وقطعت أيدي الكثير من اللصوص. من لا يقبل بسعر الصرف حسب التعريفة الجديدة وهو الخيرية ذات التسعة قروش تصرف بثمانية قروش ونصف القرش يعرض نفسه للضرب بالفلقة أو يرسل ليقوم بالإعمال الشاقة بالمنجره[٣٩] ويتقاضى الجنود مرتباتهم بالنقود الفضية ولكن طعامهم ظل

(٣٩) قرية بالقرب من ود شلعي على النيل الأبيض على بعد حوالي ١٢٠ ميل من الخرطوم بالنيل. بنى بها خورشيد باشا مسغناً ومكاناً للعقاب.

رديئاً وغالياً بلغ سعر رطل السمن قرشين ونصف إلى ثلاثة قروش.

٢٤ اغسطس:

العوائد الجمركية تدفع على حمولة الجمل ونوعية البضاعة. جاء المقدم عيسى(٤٠) افندي في مهمة لمناجم الذهب وهو يقوم بأعباء الحكم في الخرطوم نيابة عن أحمد باشا.

٢٥ اغسطس:

ذهب الدكتور سليمان في زيارة تفتيشية لمستنقعات كردفان. منح بيانشيني إجازة وسيسافر قريباً. عين بارتولي (Bartoli) صيدلياً برتبة امباشي كاتب واونادروجي (Onadroggi) برتبة مساعد امباشي أما الصيدلي لاسكارس فهو منطو على نفسه دائماً. غادر نيكولو أوليفي (Nicolo Olivi) إلى القاهرة بصحبة زيبوشيني (Zebochini) بعد أن قام بنفسه بتسديد الدين لفاسيير للدفاع عنه في قضية تجارة الرقيق والتي كانت حقيقة. لقد توغل مسيو ثيبوت (M. Thibaut) في بلاد الشلك وهم قوم يعبدون الشجرة. وعملية الختان عندهم هي عبارة عن خلع الاسنان بدلاً من قطع جلدة رأس الذكر. وهم يمشون عراة تقريباً ويعتمدون على أنفسهم ومعظمهم فقراء ومتسولون ولهم لغة خاصة ولكن بعضهم يفهم العربية. عاصمتهم تسمى دناب ولكن لم يذهب إليها أحد منهم. عملية البيع والشراء عندهم محدودة فهم يعرضون عن الشراء لكيلا يعرف الناس بأن لديهم نقوداً.

١ سبتمبر:

هذا موسم الرياح العكسية حيث تقل حركة السفن لذا فلم أجد سفينة تقلني إلى ودمدني فتركت اشيائي بمنزل بيانشيني وذهبت على ظهر جمل. وصلت الجريف حيث قضيت الليلة بعد ثلاث ساعات.

٢ سبتمبر:

الناس يدعون بالبركات لأحمد باشا الذي أرسل الله في عهده المطر مدراراً.

٣ سبتمبر:

اجتزنا أم عقاد والبشاقرة مقر القائمقام التركي ووصلنا التكلة حيث أمكث مع أحد خدم الملك ادريس عدلان ملك سنار.

---

(٤٠) من المحتمل أن يكون على عيسى أفندي من مكتب الاسطول بالاسكندرية والذي بعث على نفقات الحكومة ليدرس التعدين بانجلترا حوالي عام ١٨٣٦.

٤ سبتمبر:

وصلنا أبو عشر. عليك أن تستعمل وسائل التهديد أحياناً للحصول على الطعام وأن تدعي الأهمية والمهابة وإلا مت جوعاً. وصلنا الحلاوين وهي على بعد أربع ساعات على خط مستقيم صعوداً على النيل من ودمدني حيث يقيم الكاشف.

٥ سبتمبر:

وصلنا المسلمية وهي قرية كبيرة حيث تعقد أسواق كثيرة من حين إلى آخر أيام الثلاثاء والسبت من كل أسبوع. قمت بزيارة شمبول وهو تاجر غني كريم من الحضر. تناولت معه القهوة فاصر على أن يعطيني طبقاً من الشعيرية بمرق اللحم وشربات الذبيب كي أحمله معي. وصلت ودمدني بعد الظهر حيث قدمت التحية لصديقي جاسيير أخيراً.

الفصل الثالث

الحياة في ودمدني

في السادس عشر من مايو وأثناء غيابي من ودمدني سافر فرانسسكو زيبوشيني إلى القاهرة. وفي الثامن عشر من مايو غادرت إلى سنار كتيبة من الفرقة الأولى كانت تقيم بمدني. من ٩ إلى ١٢ يونيو مكثت بالمدينة بعثة حبشية كانت في طريقها للخرطوم للمفاوضة على السلام. وأقيم عرض تمارين عسكرية على شرف المبعوثين. وفي ١٣ يونيو مضى فرهد بك إلى الخرطوم وبربر بينما وصلت أخبار يوم ٢٨ من يونيو مفادها أن كتيبة من الفرقة الثامنة ضلت الطريق وهي متجهة إلى الخرطوم وتوفى أربعة من الجنود عطشاً وانقذ الباقون.

٦ سبتمبر:

يوجد هنا كل من لورنزو أجرتي والقديس اندري الصيدلي وموجناني الذي ترك الخدمة.

٨ سبتمبر:

للاتراك علاج ناجح ضد السم يسمى بانزهير وهو عبارة عن مادة معدنية زيتونية اللون. قدم رجل تركي لمصطفى أفندي وأخبره بأنه قد شرب دواءاً ضد لدغة العقرب فاسرع شايقي أفندي[1] بإعطائه قليلاً من البانزهير بعد أن أذابه في كوب من الماء ببعض النقود الفينيسية حتى صار لون الخليط زيتونياً. شربه التركي بعد أن تلا بعض التعاويذ فشفي تماماً. شفاه الاعتقاد في الدواء.

عرب الشايقية والجعاايين يخدمون الباشا مقابل أجر أثناء الحرب وفي حملات الرقيق ويعانون من الضرائب ومن العمل في جذب حبال السفن لقاء ذلك.

---

(١) يدل السياق على أنها «شيخي أفندي» وليس شايقي أفندي (raznameci) سكرتير الحكمدار روزيل السكرتير التركي مصطفى أفندي.

٩ سبتمبر:

ذهبت اتجول على شاطىء النيل فدهشت لاتساع رقعة الأرض المزروعة والفراش ذي الأجنحة المتعددة الألوان ينتقل بين أغلفة الزهور المتفتحة. هناك ساقيتان فقط بالقرب من المدينة.

١٠ سبتمبر:

ابحرت في سفينة حكومية إلى أبي حراز بصحبة فضل الله لاستلام بعض البضائع التي تخص جاسيير وصلت بعد ساعة.

١٣ سبتمبر:

نزلت ظهراً بالخرطوم بمنزل الدكتور بيانشتيني ومثلت أمام أحمد باشا لاسلمه البريد من الحجاز وطلبت منه الإذن لاعطائي امتياز الجر المجاني لسفينة خاصة لأسافر عليها ولكنه رفض في تهذيب معتذراً بأنه إذا اعطاني هذا الحق فسوف يكون لزاماً عليه اعطاؤه لغيري ويكون بذلك أساء استعمال هذا الحق وهذا شيء لا يرضاه وأضاف بأنه يمكنني السفر على سفينة حكومية في أقرب وقت ممكن فشكرته على ذلك. إن امتيازات مثل هذه كثيراً ما تستغل استغلالاً سيئاً.

قبل فترة وجيزة كسر ربان سفينة يد أحد الفلاحين وهذا نادراً ما يحدث. ذهب الفلاح المغلوب على أمره بظلامته إلى الباشا بوصفه الجهة الوحيدة التي سوف تقضي له فحكم الباشا على الريس بالجلد والأعمال الشاقة ومنذ تلك اللحظة منع منح أي إذن لجر السفن المجاني. وصارت سفن الحكومة فقط هي التي تحتاج لفلاحي النيل لجرها.

١٦ سبتمبر:

أرسلت خادمي لودمدني على رأس أربعة جمال محملة ببضائع جاسيير وكما روى لاسكارس (Lascaris) فإن رولي (Rollet) كان عديم المروءة إذ سرق بعض ممتلكات جالينا والذي كان لاسكارس وكيلاً له. أخبر بوناردو رولي بما روى لاسكارس فضرب رولي الرجل الذي زعم أنه شتمه.كان لاسكارس جباناً ولكنه لم يهرب بل ذهب للباشا شاكياً.

١٧ سبتمبر:

استدعى دكتور بيانشتيني د. فاسيير ورولي أمام الباشا فكالوا الشتم للاسكارس. واستدعاهم الباشا مرة أخرى في المساء وطلب من فاسيير أن يجمع الجالية الاوروبية

ويحكم القضية وفقاً للقانون الفرنسي.

هطلت الأمطار غزيرة وصار أردب الذرة بثلاثين قرشاً على الأكثر.

١٨ سبتمبر:

حصل تلاعب في الامتياز الاستثنائي لبيع الخمور فكسب العطاء اغريقي يسمى خليل نال هذا الاحتكار مقابل دفع الف قرش سنوياً. الطفح الجلدي ـ حمو النيل منتشر هنا كما في مصر في فترة فيضان النيل.

اجتمع كل الافرنج بمنزل بيانشين ما عدا جاكس بسيير واوناد روجي استجوب كل من الشاكي والمتهم وتلا م فاسيير المادة الخاصة بالسرقة. أصدرنا الحكم على م. رولي بدفع مبلغ خمسين قرشاً ل م. لاسكارس. وقمنا بترجمة الحكم للعربية لعرضه على الباشا. وضحك الباشا عندما اطلع على الحكم إذ كان يتوقع أن يعاقب من ضرب ضابطاً في الحكومة بالسجن. فاعتذر بأنا لا نستطيع ذلك وقفل المحضر.

١٩ سبتمبر:

من عادات الأهالي تبادل التحايا والهدايا عند ظهور هلال كل شهر.

٢٠ سبتمبر:

لوحظ عدم الانتظام في حسابات يونس ضابط الجمارك في سنار فعامله الباشا بمنتهى الوحشية إذ أمره بالحضور نهاراً رغم مرضه معرضاً نفسه لحرارة الشمس في أشدها وقدم له القهوة بمنتهى السخرية. بيعت ممتلكاته قبل أن تحصر ويعرف ما إذا كان المبلغ سيكون كافياً لسداد الفرق في الحسابات.

٢٢ سبتمبر:

عاد د. سليمان أفندي من رحلته التفتيشية في مستشفيات كردفان فأخبرنا بوفاة أيكن (IKEN) الامباشي طيب الألماني[٢]. اشتهر الضابط الصحي السابق ببخله.

٢٦ سبتمبر:

سافر أحمد باشا إلى سنار.

٢٩ سبتمبر:

توجه مصطفى بك هذا الصباح إلى كردفان.

(٢) قدم أيكن من هانوفر وتوفي بالأبيض.

٣٠ سبتمبر:

وصل الصيدلي الفرنسي ديمونت[٣]. عين خورشيد باشا حافظ آغا رئيساً لضباط الجمارك ولكن بلا عقد مكتوب فرفض أحمد باشا الاعتراف بهذا التعيين الشفهي وأمر بمراجعة حساباته لأخذ مجموع الاعتمادات التي يفترض أن يكون قد استلمها والسعر الملائم للتنازل عن الرسوم وكانت النتيجة أن بلغت ديونه أكثر من الف كيس (خمسمائة ألف قرش).

اتهم مسجون رجلاً آخر زوراً بأخذ مبلغ من المال يخصه. جلد المتهم حتى اعترف بالدين الباطل. وأخبر كاتب بأنه لا بد أن يكون ارتكب جريمة السرقة فاحتج وعرض عليهم دفاتره ولكنه جلد ثلاث مرات وأجبر على الاعتراف بأنه لص. والذي يدعو للتعجب هو أنه ليس في استطاعته أن يفكر في الطريقة التي يمكن أن يثبت بها كيف سرق لان السرقة ليست من طباعه. وجلد كاتب آخر وأجبر على دفع مبلغ من المال للديوان وبيعت ممتلكاته واكتشف أخيراً أن حساباته صحيحة. كان من المفروض أن يعطى تعويضاً ولكنني أشك في حدوث ذلك.

٢ اكتوبر:

ارسل سليمان أفندي وهو تركي يعمل سكرتيراً للديوان ليتفقد الشونات أو مخازن الحكومة.

٤ اكتوبر:

على الضفة اليمنى للنيل الأبيض وعلى بعد ٦ أيام من الخرطوم يوجد مكان يسمى المنجرة تبنى فيه السفن التي تستعمل محلياً والسفن التي تصدر إلى القاهرة. العمال هنالك لصوص وسجناء مغترفون. وهم يضعون السواقي كذلك والسفن تبحر للقاهرة على النيل في موسم الفيضان كي تمر على الصخور عند الشلالات.

٨ اكتوبر:

اشيع أن جاسيير توفي. سافرت إلى ودمدني صباحاً على حمار واصطحبت الفتاة عزمية وهي شابة من الغالة كنت اشتريتها قبل ثلاثة أيام بألف ومائتي قرش ابدو وكأني في عالم سماوي مبهور عندما أتأمل الشخصية البرئية المراهقة إلى جواري فاعتراني شعور

---

(٣) كان اقريكولا ديومنت (Agricola Dumont) من أهالي مرسيليا (Marseillei) وله خدمة طويلة في عهد محمد علي باشا توفي عام ١٨٤٣.

كشعور الأم بالسرور والرضى وهي تنظر إلى ثمرة حبها الأولى ولكن ولسوء الطالع فقد أفسد هذه الأحلام الشاعرية إحساس بألم حاد في الرأس بسبب أشعة الشمس. اضطررت للوقوف على الشاطىء لأني كنت أشعر بالهذيان. استأنفت الرحلة بعد الظهر وقضيت الليلة في قرية اكرمني شيخها سعد.

٩ اكتوبر:

تلقيت خطاباً من جاسيير صباح اليوم فأبكتني رنة العتاب فيه.

١١ اكتوبر:

زارني التاجر بطرس الذي كان في طريقه إلى ودمدني. واضح أنه على وشك الافلاس بسبب السكر.

١٣ اكتوبر:

توجد مجموعة من السود يعرفون بالتكروري نسبة لمجيئهم من منطقة التكارنة وأصلهم من أواسط افريقيا ويذهبون إلى مكة عن طريق بربر وسواكن وهم يتسولون في ذهابهم وإيابهم من الحج. وعادة تحسن ضيافتهم في القرى التي يمرون بها. يحملون طمبوراً يضربونه ويغنون أمام المنازل ويقال من المستحسن تجنبهم في الشوارع المهجورة لقد استرق خورشيد باشا عدداً كبيراً منهم في إحدى حملاته على حدود الحبشة وهذا شيء يرفضه المسلمون الحقيقيون.

١٦ اكتوبر:

عدت إلى هنا كي انتظر ديمونت الذي كنت قد كتبت له ليأخذني على سفينته عند النوبة.

١٧ اكتوبر:

تدفن الجثث بعد الموت مباشرة بعد غسلها ودهن الرأس وربط الأيدي على البطن وربط القدمين مع بعضها وتكسى الساقان بسروال ويلف الجسد بالكفن إلّا الأعين. توضع الجثة على عنقريب بين عويل النساء ويغني المغنيات ويرقصن على إيقاع النقارة.

١٨ اكتوبر:

سافرت مع ديمونت الذي وصل اليوم.

٢٦ اكتوبر:

توقفنا بودمدني حيث لقيت جاسيير مرة أخرى فتلقاني بمنتهى البرود ـ وجدت هناك

موجناني الصيدلي السابق ولورنزو اجرتي والقس اندري.

٢٧ اكتوبر:

قدم فرهد بك من بربر. تمت مراجعة حسابات عباس آغا ووجد مديناً للديوان بخمسمائة كيس فارسل إلى القاهرة.

٣١ اكتوبر:

جاء سليمان أفندي في مهمة رسمية. وصل م. جاكس ومعه بضائع فاسيير.

٢ نوفمبر:

سيسافر فضل الله الأسود إلى الخرطوم مع شحنة ذرة على قارب جاسيير غادر أحمد الامباشية إلى القاهرة فعين فراد (فراج) افندي النوبي بدلاً عنه. علمت اليوم أن رولي وبيانشي غادرا إلى القاهرة.

توفي يونس الأرمني قبل أيام وذلك بالتأكيد بسبب المعاملة القاسية التي وجدها من الباشا. دعا أحمد باشا تجار الخرطوم بعنجهية للحضور بغرض تخفيض أسعار السلع المحلية. بدأت قوات من الأهالي وقوات غير نظامية من الشايقية تصل إلى المدينة لأن حملة فازوغلى ستغادر قريباً. خلع سلطان دارفور بواسطة أخيه فهرب إلى كردفان(٤). أعطاه الباشا أجراً إضافياً على أمل استغلاله فيما بعد.

١١ نوفمبر:

اساء موجاني للفلاحين فنفاه الباشا خارج السودان في الحال. قد لا يحدث تصرف مثل هذا أي استغراب تحت إدارة خورشيد باشا. كان التغيير مفاجئاً والأتراك مقطوعون. انعدم السحن من السوق ولكنك تجده في المناطق المجاورة بسهولة بسعر قرش وعشرين بارة للرطل وسعر اللحم قرشاً وعشرين بارة للرطل. أما الخضروات فإنك قد تجد بالصدفة بامسا وبسلة وباذنجان وملوخية ولفت وليمون وبصل أخضر. وصل الغازيات أو الرقصات بأعداد كبيرة وهن ممنوعات في القاهرة والاسكندرية فقط.

---

(٤) السلطان الذي ذكر هنا هو السلطان محمد أبو مدين الذي زعم أنه أخو السلطان الحاكم وهو محمد الفاضل عبد الرحمن الذي توفي عام ١٨٣٩ وقد تغول على عرش دارفور. وفر من السلطنة عام ١٨٣٣ وطلب مساعدة محمد علي باشا ليدعم زعمه. فاعترف الباشا بشرعية حكمه وخططوا لغزو مصري في ١٨٤٣ ولكن صرف النظر عنه ربما بسبب موت أحمد باشا.

١٢ نوفمبر:

جاء م. م ثيوت وفاسيير من الخرطوم. كان أحمد باشا مريضاً بالحمى وتجدر الإشارة إلى أنه أثار ضجة حول مرضه برغم سخريته من الآخرين الذين يستسلمون للمرض. جو المدينة رديء للغاية والشوارع قذرة والجنود يتقوطون في أي مكان لعدم وجود مراحيض. أشيع قبل أيام أن محمد علي وبوريني قادمان وتكثر الإشاعة في بلد بلا صحف أو حتى رسائل شخصية. يتقاضى الجنود مرتباتهم بنقود الفضة كل أربعة أشهر وهو أمر غير مألوف هنا. إذا أراد أحد الجنود من صغار الرتبة الاستدانة من مرتبه لا بد أن يأتي بإذن مكتوب من رئيسه وإلا سوف لا يمنح. وبهذه اللوائح استطاع أحمد باشا أن يمنع الاستغلال.

١٨ نوفمبر:

انتشرت إشاعة حول مجيء محمد علي. هل الهلال فاطلقت عشر طلقات معلنة حلول شهر رمضان غداً. يمكن للجنود التمسك بالصوم إلى حين رحيلهم أما أحمد باشا فلم يلتزم بالصوم بحجة المرض واستمر يأكل ويتعاطى الخمر أحياناً والتي كان يعطيها له فاسيير حسب نصيحة الطبيب. وصل بعض الخيالة غير النظاميين من الشايقية في طريقهم لفازوغلي.

١٩ نوفمبر:

اهدى أحمد باشا سليمان أفندي ألف قرش مقابل الخدمات الطبية التي قدمها له أثناء مرضه بسوء الهضم. بدأوا شحن الذخيرة للحملة.

٢٠ نوفمبر:

رحل كل من فاسيير وثيبوت وجاكس للخرطوم. ظهر أحمد باشا في ثكنات الجيش ظهر اليوم فقامت بعض السريات بعروض أمامه.

٢١ نوفمبر:

بما أن المنازل التي تضم المرضى والصيدليات قد تحطمت بفعل الأمطار فقد تقرر قبل شهرين بناؤها في مكان آخر. يبلغ عدد المرضى من الجنود أحياناً مئتين وخمسين مريضاً مصاباً بالدسنتاريا. كثير من السوريين يعانون من أكل الذرة كبديل للقمح. والذرة من الملينات خاصة لمن لم يعتد أكلها.

٢٢ نوفمبر:

ينظم الباشا اليانصيب ويفرض على أي إنسان الإشتراك فيه. وفرض ذلك على

معلم فقير يتقاضى مرتباً قدره مئتان وخمسون قرشاً.

٢٥ نوفمبر:

بدأ توزيع الجمال بواقع جمل لكل اثنين من الجنود لحمل الأمتعة.

٢٧ نوفمبر:

الجنود على استعداد للتفتيش العسكري لأن الباشا على وشك الوصول.

٢٨ نوفمبر:

طلب جاسيير من أحمد باشا متأخر التعيينات ولكن الباشا أشار عليه بألا يفكر في الماضي وأنه قد خسر كثيراً، ولكنه مستقبلاً سوف يمنح التعيينات المناسبة أو خمسة وثلاثين قرشاً بدلاً عنها. تقسم التعيينات كذرة وسمن وملح ولحم ولكنها تقسم بطريقة غير منتظمة. غادر أحمد باشا صباح اليوم للمثول أمام الباشا الكبير.

٢٩ نوفمبر:

لم يعط أي من الجنود الاوروبيين بالفرقة الاولى تغيينة من العلف فقد ألغاها خورشيد باشا. تتم عملية الخصى بقطع الأعضاء التناسلية ثم ادخال سيخ في القناة البولية ويجفف الجرح بالماء المغلي الذي يستعمل أيضاً عندما تقطع يد السارق.

٣٠ نوفمبر:

عقد أحمد باشا معاهدة مع الشلك يحضر الشلك بمقتضاها ثلاثة من حيوان فرس البحر حية إلى الخرطوم سنوياً لترسل وتباع في القاهرة. استدعى فرهد بك جندياً من الصف وضربه بيده. سيصل اليوم مستر ليفيبر الفرنسي وهو يعمل في التنقيب عن المعادن وفي خدمة الباشا بمرتب قدره خمسة أكياس شهرياً. أرسله محمد علي لزيارة جبل سقادي حيث توجد طبقات من الفضة كما جاء في تقرير روسجير (Russger).

٢ ديسمبر:

غادرنا م. ليفبر صباح أمس بعد مغيب الشمس أمر الكولونيل الأهالي بتنظيف تسع أرادب من القمح للباشا الكبير الذي اشيع عن وصوله غداً.

٣ ديسمبر:

ركب الباشا حماراً وهو شبه مخمور ولم يأخذ حتى سيفه وأخذ يركض أمام الفرقة وسرية العلم التي كانت في طريقها لاستقبال محمد علي وكان من حسن حظه أن محمد علي لم يصل بعد.

٦ ديسمبر:

وصلت ليلاً كتيبة من الفرقة الأولى في طريقها إلى فازوغلي. عاد أحمد باشا من الخرطوم وترك محمد علي بانتظار وصول بعض القوارب التي ستقوم بالرحلة على النيل الأبيض.

٧ ديسمبر:

هنا تندر البراغيث والبق ولكن القمل كثير كما ذكرت آنفاً. وصل م.م. بوريني وبوليرخيا وارنود(٥) من القاهرة ليلاً.

٨ ديسمبر:

كان بوريني في رتبة بك ويتقاضى عشرة أكياس شهرياً أما سكرتيره بولونيرو فمرتبه كيسان ونصف. وزعت الجمال على الجنود الذين ذهبوا يعسكرون جنوب المدينة.

١١ ديسمبر:

غادر كل من م.م. بوريني ورنود وبولونيرو وكذلك فرهد بك والجنود ولم يبق إلا قليل من الجنود والمرضى والقائمقام.

١٢ ديسمبر:

رحل أحمد باشا بصحبة جاسيير وأخذ ديمونت المؤن الطبية وذهب. تمت الموافقة لسليمان أفندي ليأخذ تعيين العلف للماضي والحاضر والمستقبل.

اشترى جاسيير منزلاً وكذلك القس اندري وتبادلا المنازل دون أن يخطرا القاضي. أراد القس اندري بيع منزله ولكن القاضي رفض الاعتراف بملكية جاسيير. يستحق الضابط فوق رتبة ملازم جملاً وان أرادوا أكثر فعليهم أن يدفعوا. هذا التحديد نتج عن استغلال الضباط لهذا الامتياز في الإدارة السابقة. حصل بوريني على عدد من الجمال عليها طابع الحكومة وباع وقتل الكثير منها وأخذ مواصفاتها للديوان زاعماً أنها ماتت. استلم سعيد أفندي وهو عربي برتبة مساعد معاون بعض المخازن الطبية من

(٥) هو جوزيف بون دارفود وصار فيما بعد بك (١٨١٢ - ٨٤) هناك إشارة غير كافية له في معجم السيره الفرنسي أما ما ورد في كتاب Le Soudan egyptien sous Mehemet Ali (1898) p. 361 . ١٨٩٨ ص ٣٦١ الكتاب هو. دهران (H. Dehrain) بان الصحيفة والأوراق الخاصة برحلات ارنود الثلاث مع سالم جايوردان (Salim Qapudan) لمحاولة اكتشاف منبع النيل الأبيض موجودة بارشيف جمعية الجغرافيا بباريس فهو غير صحيح.

ديمونت وقام بإدارة المستشفى في غياب جاسيير. رفع الباشا مرتب مصطفى أفندي سكرتير أحمد باشا من ثمانمائة (ثماني ألف) قرش إلى اثني عشر ألف وخمسمائة قرش استجابة لطلب أحمد باشا شخصياً.

١٣ ديسمبر:

السلطان فضل هو السلطان الحالي الذي اغتصب سلطنة دارفور وله أخ يسمى محمد بن مدين. هدى له محمد علي معطفاً وزاد راتبه الشهري الذي يتقاضاه من الديوان (سبعمائة قرش) ثلاثمائة قرش أخرى ووعد بأن يدعمه بعشرة آلاف جندي ليسترجع مملكته العام القادم.

١٤ ديسمبر:

لا يوجد اليوم لحم في السوق. الرقيق الذين يهربون من سادتهم ويذهبون إلى الديوان يجندون في الحال ولا يعطي أصحابهم أي تعويض. سبق أن ذكرت أن أصحابهم كانوا يعطون مبلغ ثلاثمائة قرش وهذا اجحاف إذ أن الرق أمر مشروع.

١٦ ديسمبر:

أشعر بالسأم وأقارن نفسي برريني دي شاتوبريان (René de Chateau Briand). لا بد أن كاليود (Cailliead) لا يجيد العربية لأنه يزعم أن اللغة أكثر رصانة في سنار منها في القاهرة.

١٧ ديسمبر:

عاد فضل الله من بربر بعد أن قام ببيع الذرة التي تخص جاسيير بواقع خمسة وخمسين قرشاً للأردب ولكن سعر الغلال سينخفض إذ أن المحصول وفير.

١٨ ديسمبر:

اطلقت ثلاث طلقات في العصر[٦] معلنة نهاية شهر رمضان. في المساء اطلقت البنادق وارتفعت أصوات الغناء ابتهاجاً بمقدم العيد من كل جانب.

١٩ ديسمبر:

أعلن مجيء الباشا الكبير محمد علي على سفينة بإحدى وعشرين طلقة وكان قد غادر الخرطوم مساء أمس الأول ومعه م. توستذا (M. Tossitza) والقنصل العام لليونان

---

(٦) الأصيل.

واثنان من المماليك هما رستم بك ويعقوب والمرافقان الشخصيان لسيادته. وفي سفينة أخرى جاء الدكتور جاتاني (Gaetani) ومستر لامبرت ومهندس من مجموعة سانت سيمونيان برتبة مقدم وم. باوليتي الصيدلي الاغريقي الخاص بالباشا وأحمد أفندي العربي مدير مستوصف بربر. لم يظهر الباشا للناس بل غادر سنار مباشرة بعد إصلاح الشراع الممزق وودع بإحدى وعشرين طلقة. انخفضت الأسعار في السوق بمناسبة العيد.

٢١ ديسمبر:

تثار ضجة كبيرة عن الرق في اوروبا وهم لا يدرون أنه وسيلة لتوعية السود الذين يأكلون بعضهم بعضاً ولا يفهمون ما معنى المتعة عند البشر.

٢٢ ديسمبر:

أرسلت خادمي العربي الأصل للقرى لشراء الذرة التي تباع هناك بقرش بينما تكلف هنا قرشاً وعشرين بارة. إن عملية احتكار الغلال فيها مخاطرة لأنها قد تضاعف رأس مال الشخص إلى ثلاثة أضعاف أو قد تضيعه.

٢٣ ديسمبر:

جاء خير الدين مدير مناجم الذهب بفازوغلي في طريقه إلى مقر عمله. زارنا خسرو أفندي أخو آرتن بك[٧] والمترجم الخاص لسيادة الباشا قادماً من دمشق في خمسة وثلاثين يوماً. يقال ان هناك بعض الرجال المسنين بفازوغلي.

٢٤ ديسمبر:

رحل دكتور سليمان أفندي هذا المساء إلى الخرطوم بصحبة القس اندري والذي منح إجازة ليذهب للقاهرة على نفقة الحكومة دون أن يقدم استقالته وذلك لأسباب صحية. هجر القس اندري ابنته المزعومة وزوجته زينب السوداء والتي تواطأت مع خادمه البربري موسى وسرقا كل ممتلكاته وكانت تلك عبرة للقس اندري لأن هذه المرأة السوداء كانت تعيش مع خادمه موسى ولم تبد أي اهتمام به رغم المعاشرة الطويلة التي دامت عشر سنوات ولم تراع كبر سنه إذ أنه تجاوز الستين.

---

(٧) هو ايتنير بك سيكسلس الأرمني. توفي (١٨٥٩) والذي كان عميد مدرسة الإدارة والترجمة وقد عين سكرتيراً لمحمد علي قبل مغادرة الباشا السودان بمدة وجيزة. وفي عام ١٨٤٤ خلف بوخوس باشا وهو أرمني آخر كسكرتير للشئون الخارجية وتقاعد عام ١٨٥٠. كان يعقوب ارتن باشا وزير المعارف ابان حكم عباس حلمي الثاني ابنه.

٢٥ ديسمبر:

الأتراك مولعون بالسلاح. ظل خير الدين بك وسالم كاشف بالقرب من منزلي طوال اليومين الماضيين يشربان ويطلقان الرصاص. يعيش سالم أفندي قائمقام الفرقة الثامنة حياة مسلم زاهد لا يشرب شيئاً سوى الماء ويصوم شهر رمضان ولا يحذو حذوه إلا القلائل وأولئك الناس الذين يسمون الأتراك بمصر وهم غالباً مماليك القوقاز وجورجيا.

٢٦ ديسمبر:

تزوجت خادمة القس اندري السوداء من خادمه موسى البربري وأقيمت لها كل مراسم الزواج الممكنة ذهبت قبل شهور للطبيب كي تجري لها عملية خفاض لتدعي أنها نوبية عذراء.

٢٧ ديسمبر:

اعيش عيشة راهب. لا أرى أحداً وأقرأ كثيراً وبخاصة لشيكسبير. لا أهتم بزيارة أجرتي الإيطالي وهو الاوروبي الوحيد هنا سواي.

٢٨ ديسمبر:

قمت بزيارة سالم كاشف بعد الظهر ووجدت حوالي الاربعين نوبياً بديوانه جاءوا بخصوص الضرائب. وكانوا يتحدثون جميعاً في وقت واحد ويستعملون الإشارة كثيراً. لقد اصموا أذان الجميع بما في ذلك أنفسهم وحتى في فترات الصمت عندما يبدو أن الأمر قد حسم يسأل أحدهم سؤالاً جديداً فيثير الجلبة بعنف أكثر.

كانت خادمتي الغالية عزمية مريضة خلال الخمسة أيام الماضية ولم تتناول سوى قليل من الماء. ومجرد التفكير في أنها ربما تموت يدفعني للبكاء وذلك برغم طبيعتها السيئة للغاية.

٣٠ ديسمبر:

أراد الباشا الكبير ارسال ثلاثمائة رجل على النيل الأبيض لتمهيد الطريق للحملة القادمة لمنابع النيل ولكنه اثنى عن عزمه بحجة أن هؤلاء الرجال سيقتلون جميعاً وسوف لا يستفيد هو شيئاً من هذا الاستطلاع الأولى.

١٨٣٩

٢ يناير:

طلبت عزمية أن تنام في فراشي اليوم إن كان ذلك ممكناً. فحملتها إليه ونمت في

أحضانها طوال الليل وكان كلانا عارياً. كانت ليلة مبهجة ولكن عزمية لم تشاركني تلك المتعة إذ كانت تعاني من الم في معدتها.

٣ يناير:

عاد خادمي محمد النور من جولته في القرى المجاورة ليشتري الذرة بسعر قرش للبرمة[٨]. يخسر الواحد منا عشرين بارة في كل خيرية (تسعة قروش) عند الشراء. هنالك مشترون كثيرون ولكن سيخسر معظمهم في اعتقادي إذا كانت الأمطار غزيرة.

٧ يناير:

تقع المقابر في وسط البلد ليس بعيداً من النيل الأزرق وهم لا يحسنون دفن الجثث مما جعل الضباع تذهب هناك دائماً بالليل بحثاً عن الطعام.

٨ يناير:

نسمع أحياناً خوار فرس البحر ليلاً وهو يشبه زئير الجواميس. من حسن الطالع فقد وجدنا السمن في السوق بسعر قرش وعشرين بارة للرطل.

١٠ يناير:

اشتريت ببغاءاً أخضر صباح اليوم ولكنها قطعت الحبل وانطلقت حرة بعد أن تناولت وجبة دسمة من الذرة على أية حال فهي لم تكلفني سوى بارة ونصف. لا بد أن أجد بها بديلاً.

١١ يناير:

استعدت ببغائي مساء أمس وربطتها ولكن قدرها كان محتوماً فقد التهمتها الفئران ليلاً.

١٢ يناير:

ولدت امرأة طفلها الأول. وضعت النساء المشيمة في قدح خشبي وغطينه بمنديل وحملنه في موكب إلى النيل حيث قذفن به في الماء. هناك بدأن يرمينه بالحجارة ويرقصن ويصفقن ثم قفلن راجعات من النيل بعد ذلك وهن يرددن المدائح.

١٣ يناير:

يدير هذه المدينة كاشف تركي وشيخ من الأهالي يسمى محمد دفع الله ترفع إليه

---

(٨) والكلمة حرفياً تعني قدر من الفخار ويقصد بها مكيال أو ملء قدر يسع خمسة أرطال من القمح.

كل المشاكل قبل أن تعرض على الكاشف.

١٤ يناير:

تؤخذ البنت للنيل لتستحم قبل إجراء عملية الخفاض.

١٥ يناير:

يذكر شيكسبير المدفع في تراجيديته ـ الملك جون ـ وهذا من المفارقات الغربية.

١٨ يناير:

فرغت من ترجمة الملك جون. اقضي ساعتين أو ثلاث يومياً أنظر إلى دجاجي.

١٩ يناير:

كنت مستلقياً بفراشي وعند الثانية صباحاً وعندما لم أسمع انفاس عزمية نهضت وبضوء المصباح وجدت أنها قد فارقت الحياة. لم أذق النوم الهانيء العميق. أرسلت في الصباح إلى الدكتور سعيد أفندي ليستخرج لها شهادة الوفاة ولقد شرقت بالدمع. دعوت فاطمة وهي خادم م. بورجليون[٩] (M. Boriglione) التي عتقت لكي تغسل الجثة وتكفنها. وذهبت أنا للإشراف على حفر القبر وعمقه خمسة أو ستة أقدام وضيق في قاعدته. حمل العنقريب الذي كانت عليه الجنازة أربعة من البرابرة وتبعتهم أنا باكياً. وضع الجثمان في الحفرة المبنية بالطوب في أسفل القبر بطريقة لا تعرض الوجه أو الجثمان إلى التراب. ردم بعد ذلك القبر وتلا الفكي بعض التلاوة من القرآن وانتهت بذلك مراسم الدفن.

كل ما بقي لي منها الآن هو بعض خصل شعرها اتخذتها رفيقاً. كانت وردة لم تعش لأكثر من صباح قصير مثل كل الورود. يتراوح عمر عزمية بين اثنتي عشرة وأربع عشرة سنة. كانت محمرة اللون. لم تكن جميلة ولكنها كانت تعنى بنفسها وقد قضى

---

(٩) فرانسكو بورجليون (ولد عام ١٨٠٣) من الساندريا بييدمون كان صيدلياً حائزاً على دبلوم من جامعة تورين (Turin).

وقدم مصر عام ١٨٢٦ وانضم إلى الخدمات الطبية المصرية التابعة للجيش وقد أفاد القنصل العام الساردينى بالاسكندرية في تقرير عنه بأنه حسن السمعة ولكنه مغامر. **(Elenco dei Sudditti di S. M. I. re di Sardegna diimoranti in Alessandria d'Egitto.... 1844)** تطوع في عام ١٨٤٨ للخدمة في جيش ساردينيا ضد النمساويين.

(Archiv. di Stato, Turin, Conaolati nazionali, Alessandria d'Egitto, bundle no. 1846-50)

عليها المرض. لم أتحدث إليها كثيراً. يبدو أنها أخبرت أحدهم بأنها كانت مسيحية. الكل يعتقد أن مناخ سنار لا يلائم الاحباش. في المساء حضر م. م. ثيبوت ونيكولا اوليفي من الخرطوم. كان ثيبوت في طريقه لسيادة الباشا ليخطره برد شيخ الشلك فيما يتعلق بالمعاهدة.

٢٠ يناير:

أتاني البوسطجي الذي قدم من جبال ريجريج (Regreig) بخطاب بدون تاريخ من ديمونت. أخبرني البوسطجي بأن الأتراك قد طردوا السود من جبلين وذهبوا إلى جبل تابى ليثأروا من السود الذين غزوا الروصيرص ونهبوا مخازن الحكومة هناك.

٢١ يناير:

جاءني أحد البرابرة ليخبرني بأن المرأة التي سخرت وضحكت أثناء موكب جنازة عزمية رأت ابنتها تسقط أمامها وتسبب لنفسها أذى جسيماً فلا أملك إلا أن أقول: الله الحمد لله.

٢٢ يناير:

غادر م.م ثيبوت واوليفي إلى سنار ظهراً. عاد سليمان كاشف لتوه من جولته في بلاد الشايقية. ولقد انتزع منهم مبلغ ألف كيس ويستعد الآن لإحضار ستمائة أخرى من الأهالي الذين يسكنون على ضفتي النيل الأبيض. بلغ العجز في حسابات نور الدين أفندي القبطي المرتد ألف كيس فاستدعاه الباشا الكبير لمقابلته في فازوغلي. واضح أن الناس بدأوا يكتشفون التلاعب في الحسابات الذي كان يحدث في عهد خورشيد باشا.

٢٤ يناير:

قمت بمعاونة زينب خادمة ديمونت السوداء ببناء حائط في الفناء الداخلي مقابلة لحائط آخر وركبنا به نافذتين صغيرتين لكي نستمتع بمنظر النيل. يخيم الظلام على منزلنا إذ أنك لا تستطيع أن تقرأ أو تكتب أو تخيط بعد الساعة الرابعة. فقدت الحماس لترجمة شيكسبير بعد موت عزمية الصغيرة.

٢٦ يناير:

توجد هنا حبوب الفاصوليا الضاربة إلى الحمرة وهي أكلة شهية وحتى الأوراق تطبخ بالويكة.

٢٧ يناير:

لقد اكتمل الفناء المبني من الطين ولم يبق إلا السقف وبعد ذلك نستطيع أن نجلس في الظل.

٢٨ يناير:

لقد أخذ لورنزو أجرتي زجاجة خمر من زينب وقال انه مريض ووعد بإرسال الثمن في الحال. ارسلت زينب مرتين في طلب المبلغ فقال للرسول لتذهب زينب وتأكل زبالة. ذهبت له وطلبت منه تسديد المبلغ فدفع عشرين قرشاً وهي أغلى من أي شيء بالنسبة له لبخله. سنجعله يدفع ثمن وقاحته.

تحضر إلينا اللبن كل يوم امرأة عربية بسيطة. دعوناها يوماً لدخول غرفة زينب فدهشت عندما رأت المرآة حتى ركعت وعندما أفاقت دعت لنا بطول العمر. تسمى هذه المرأة آمنة.

١ فبراير:

الآن يوجد بالسوق القرع والبطيخ ونوع نادر من الشمام.

٤ فبراير:

حمل كاتب قبطي خارج المنزل ووضع في الطريق كالكلب وذلك لإصابته بالجدري. لو كان مسلماً أو موسراً لأحسنت معاملته. يكره المسلمون المسيحيين من أعماقهم. قال كاتب آخر عن هذا القبطي: كانت له الخمر بمثابة الحشرة التي أهلكت صحته.

٥ فبراير:

نادراً ما تجد امرأة نوبية إلا وقد امتلأ جسمها بالجروح التي تصنع بالموسى من أجل الإثارة أو الفصادة أو الزينة. تقاسي النساء من هذه الجروح في جلد ولكنها تتسبب في تشويههن كما يمكنك أن تتخيل.

٧ فبراير:

اكتشفت أن بالسوق طماطم للبيع سعر الرطل قرش وعهدها في السودان قريب. لم يعتد الأهالي بعد على زراعتها ولكن الأتراك كانوا يزرعونها في بساتينهم وحسناً ما فعلوا.

٨ فبراير:

ابحث عن بعض الطيور، سيمر الباشا الكبير بهذا الطريق اليوم وقد سمعت اليوم

الطلقات النارية تحية له منذ الساعة الثالثة ظهراً. لم يظهر محمد علي باشا بل أخذ على ظهر سفينته غادرت في الحال بعد إجراء بعض الاحتياطات وأطلقت المدافع مرة أخرى وقامت الكتيبة باستعراض بمصاحبة الفرقة الموسيقية. لا أحد يدري ما جرى بفازوغلي إذ لا يسمح إلا للملاحين بالذهاب إلى الشاطىء.

١٠ فبراير:

وصل عدد من الرقيق من القضارف وقد كبلت رقابهم في مثلثات خشبية طويلة لمنعهم من الفرار. هذا الجهاز ثقيل وغير مريح ويمثل هؤلاء الأرقاء الضرائب النوعية وقد وسمت اذانهم للجيش.

١١ فبراير:

يساوي سعر القمح حالياً ثلاثة عشر قرشاً للبرمة وهي ثمن الأردب وبذلك يكون سعر الأردب مائة وأربعة وخمسون قرشاً وهو سعر معقول إذا ما قورن بالعام الماضي.

١٢ فبراير:

يقول القادمون من سنار أن أحمد باشا موجود هناك وعلى أهبة الاستعداد للمجيء إلى هنا. يستعمل الودع في التنبؤ بالمستقبل كما هو الحال في مصر.

١٧ فبراير:

برغم ما يقال فإن القوات لم تعد بعد من فازوغلي.

٢٢ فبراير:

محصول الذرة وافر وقد استفادت الحكومة من هذه الفرصة بأخذ جزء من الضرائب نوعية وجزء يسير منها نقداً.

٢٣ فبراير:

علمنا أن الباشا غادر السودان غاضباً وذلك لأنه خدع في كمية الذهب الموجودة في فازوغلي. الجنود منكبون في بناء منازل للذين سيعملون في المناجم وعند الفراغ سيذهب كل منهم إلى مركزه.

٢٤ فبراير:

ذهبت نساء الأهالي الليلة والبارحة في مجموعات وهن يغنين لنهر النيل وذلك للاستحمام وغسل ملابسهن بمناسبة عيد رمضان. وقد رقصن على الشاطىء كثيراً. ثلاث طلقات تحية للعيد.

وكذلك طلقات البنادق تسمع من كل الجهات وزغاريد النسوة التي كانت تشبه العويل.

٢٥ فبراير:

اطلقت المدافع تحية للعيد. وقرأت الخطب. شربنا أم بلبل وأكلنا الفطائر بالمنازل. جاءت راقصة عجوز كان رقصها بذئياً كأغانيها.

٢٧ فبراير:

يقيم كاتب مصري بالحكومة حفلاً بالراقصات والراقصين بمناسبة زواج ابنته تقدم القهوة ويقدم الدخان بإسراف والدعوة عامة.

٢٨ فبراير:

أقيم موكب بمناسبة ختان أحد المصريين كما هو الحال في مصر.

٣ مارس:

أقيم موكب بالخيول والطبول تتقدمه الفرقة العسكرية.

٤ مارس:

على الضفة اليمنى للنهر وفي مواجهة ودمدني توجد قرية يسكنها اعراب تسمى حنتوب. وعلى مسيرة يوم كامل من المدينة توجد قرية عبد الغني حيث يقيم القائمقام وحيث تنشل الماء من الآبار.

٦ مارس:

تزف البنت المخطوبة في موكب كما في القاهرة. لا يعرض دم البكارة عند النوبة كما في مصر. قبض على ثلاثة من الملحقين الطبيين الذين تركوا الخدمة وجلدوا وأرسلوا للقاهرة. ما زال البحث جارياً عن بعض الجنود الذين تركوا الخدمة في فازوغلي. مستوى الخدمات في سوريا أحسن بكثير منها هنا وهؤلاء الجنود يحاولون الرجوع لبلادهم.

٨ مارس:

عاد فضل الله من فازوغلي لتوه حيث كانوا يبنون مدينة. حرر محمد علي كل الارقاء الذين أسروا.

٩ مارس:

وجدت اليوم عنباً أسود طازجاً بالسوق.

١٠ مارس:

يدفع الراقصات ضريبة تقيم حسب سحرهن وبراعتهن. تدفع إحداهن ألف قرشاً للديوان.

١١ مارس:

غادر فازوغلي شيخ علي المحاسب ومعه دفاتر المالية ليمد الجنود بمرتب أربعة شهور. الأغنياء من الأهالي يمتلكون جاريات يعتقلونهن كعاهرات ويذهب الدخل لهم ويباع الأطفال إن وجدوا. يكون هؤلاء الأطفال طبقة تسمى المولدين(١٠) يمتلك قاضي ودمدني أربعاً من العاهرات وهذا في اعتقادي منتهى الاستقامة.

١٤ مارس:

أغاني العرب بذئية وغير صالحة للترجمة.

١٥ مارس:

يوجد شعراء الملحمة كما في الزمان السابق وهم يغنون بمصاحبة العزف على قيثارة ذات ـ ستة أوتار. توجد: آلات أخرى كالطبول المصنعة كبيرة وصغيرة.

١٦ مارس:

تأكل بعض قبائل العرب القطط والفئران.

١٧ مارس:

اليوم أخذ الأهالي ينظفون مطابخهم بأمر الحكومة وهو احتياط وقائي ضد كسلهم وقذارتهم المعتادة. تناولت اليوم المرارة لأول مرة وكانت مستساغة وهي عبارة عن الكبده والكرش والأمعاء مطبوخة ومتبلة بالملح والفلفل.

١٨ مارس:

أكلت اليوم السلطة الخضراء.

١٩ مارس:

عاد جنود المدفعية من فازوغلي في اعتقادهم أن الكتيبة عائده قريباً.

---

(١٠) المولد هو الهجين وتطلق هذه العبارة على السلالة الناتجة عن الزواج الشرعي للاتراك المصريين. بالسودانيات. قد كان دور المولدين في الحياة السودانية دوراً معتبراً ومهماً.

٢٠ مارس:

يوجد الدناقلة[١١] في كل مدينة في السودان. معظم الأهالي لا يستقرون في مكان واحد لمدة طويلة. زادت الرسوم الشهرية على احتكار البراندي وصارت ألفاً وخمسمائة قرش وكانت ألفاً.

٢١ مارس:

نحو من المائة قرية وكفر تقع تحت سلطة كاشف ودمدني.

٢٤ مارس:

ملاطفة العريس لا تخرج عن كونها تخديشاً بالأظافر. أخطرنا الخباز المصري الذي قدم عن طريق النهر بأن القوات عائدة.

٢٥ مارس:

الكلاب الضالة في المدن هي من نفس سلالة الكلاب في مصر. مع اختلاف بسيط هو أن الكلاب هنا رقيقة الأطراف.

٢٦ مارس:

عاد موجاني من الرصيرص حيث كان يصطاد قطط الزباد وأخبرني بأن الأحباش دمروا العطيش وكان الأهالي في كل قرية يمرون عليها يشتكون منهم لأنهم كانوا يستولون على الذرة والقماش.

٣٠ مارس:

بنى فرهد بك لنفسه منزلاً في حديقة خارج المدينة.

١ ابريل:

منذ أن غادر أحمد باشا إلى فازوغلي لم يمر يوم واحد بلا مناسبة سعيدة مثل ختان أو زواج. غاب القط فلعب الفأر. قيل ان الجنود مستمرون في هجر الخدمة بفازوغلي والأمراض منتشرة. توفى محمد آغا الادغم قائد سلاح الفرسان المغاربة النظاميين[١٢].

---

(١١) الدناقلة ومفردها (دنقلاوي) هم أهالي دنقلا ويتحدثون اللهجة النوبية.

(١٢) ذكر ويرن (Werne) أن محمد آغا لم يبلغ السابعة والعشرين في عام ١٨٤٠ وأنه ورث السلطة وأن مرتبه الشهري يساوي خمسة أكياس كما ويتقاضى ما يعادل هذا المبلغ من موارد أخرى. أضاف ويرن (Werne) بأنه لم يكن محل تقدير أحمد باشا والذي أمر بجلده قبل عامين **African Wanderings** **.pt. 2, p. 140**

٥ ابريل:

لا يمكن للرجل النوبي الدخول بعروسه كما هو الحال في مصر. وذلك لأن عملية الخفاض التي تجري للبنت تجعل الاتصال الجنسي صعباً ويحتاج الرجل إلى زمن طويل حتى تتم هذه العملية وعندما تتم تعطى العروس بعض الهدايا. والعروس لا تدعو زوجها بعبارات مثل «زوجي» أو «سيدي» أو حتى باسمه وإن أرادت نداءه من على البعد فهي تستعمل عبارة: هي يا أنت. وهي تعتقد أن مناداته باسمه عار. يمضغ كثير من الأهالي من الجنسين الصمغ المخلوط بالرماد.

٥ ابريل:

قمت بزيارة السوريبا وهي قرية تقع بين حقول الزرع وتبعد ساعة ونصف جنوب مدني. كان ذلك اليوم يوم السوق حيث تباع الروائح والدهن والمسابح وبصفة خاصة الدواجن. يوقي الأهالي أنفسهم حرارة الشمس برواكيب يصنعونها من سيقان الذرة وتستند على شعبة. يعيش أهل القرية في تكله وهي منازل ذات سقوف مخروطة. للسلطانه نصره قصر بني خصيصاً لها وهو يشبه المنازل بالقاهرة. يقال أنها تستبقي جارية جميلة لأحمد باشا الذي يزورها من حين لآخر معظم أهالي القرية هم من رقيق نصره ويوجد قليل من عرب الجعليين. تقع الإدارة الأهلية تحت إدارة ودمدني. المريسة وأم بلبل متوفرة والدجاج والحمام رخيص.

٩ أبريل:

افترشت الأرض فلدغتني عقرب في السبابة اليمنى. لم يكن الالم شديداً في البداية ولكنه سرعان ما اشتد وسرى في بقية جسدي كالنار. استلقيت زهاء ساعة أفكر وأتقلب في فراشي محاولاً النوم والراحة. بدأت أحس بغثيان. حاولت التقيؤ ولكن فشلت محاولاتي ونتج عنها ضيق في التنفس وألم في الصدر. نهضت كالمجنون ولم استطع أن أتمالك نفسي وأرسلت للدكتور سعيد أفندي الذي قام بفتح أصبعي مكان لدغة العقرب. لا يوجد أي نشادر فاعطاني جرعة من الأنودين خففت الألم لكنها جعلتني أهذي حتى الصبح. وفيما أنا أهذي حلمت بعزمية تعاتبني على عدم زيارة قبرها فاخبرتها بأن ذلك سوف لن يعيدها إلى الحياة وأكدت لها إني لن أنساها ودائماً أفكر فيها. وأني أريدها أن تزورني بعض الأحيان واني سأموت يوماً ما وسأكتفي بها مرة أخرى. زال الألم اليوم.

١٣ ابريل:

كان الجنود مستهترين في عهد خورشيد باشا. تعرض كثير من البنات للاغتصاب

والسرقة والبيع. وتقابل الشكوى من هذه المعاملة بالإساءة والضرب.

١٤ ابريل:

تستمر مراسم الزواج لمدة ثمانية أيام تبكي طوالها العروس. وكلما ازداد بكاؤها كان ذلك بشيراً بزواج سعيد. يقوم العروسان بمداعبة بعضهما أمام الناس من حين لآخر. للرجل أن يتزوج كثيراً من الخدم ولكن يجب ألا تتزوج البنت عبداً لأن ذلك يحط من قدرها.

١٥ ابريل:

قمت بزيارة السوق في السوريبا. دخلت منزل نصره خلف شيخ دفع الله وآخرين سجدوا كلهم أمام هذه السيدة ولم تتحرك هي من حصيرتها فجلسنا على الأرض ولم يقاطع حديثنا عن خورشيد باشا وأحمد باشا بتقديم القهوة أو الرقاق. يحسن الأتراك الضيافة والاستقبال بقدر ما كان هذا الاستقبال شحيحاً. تلبس السيدة نصرة قطعة من القماش ومنديلاً أبيض فوق رأسها ككل النوبيات وكان جسمها ممسحاً. هي ابنة ادريس عدلان قد كان ملكاً لسنار قبل وصول إسماعيل باشا[١٣]. وما زالت ثرية بالدرجة التي تكسبها احترام الناس بما فيهم الأتراك. يبلغ طول الحبل الذي تنشل به الماء من البئر في السوريبة ثمانية وثمانين قدماً. الماء عذب. النساء النوبيات لسن مطيعات لأزواجهن كالنساء المصريات.

١٦ ابريل:

صدر قانون يمنع الخروج بعد صلاة العشاء دون إضاءة مثل الذي صدر بالقاهرة. جاء الجنود القادمون من فازوغلي بنبأ عودة الجنود وأكدوا نبأ موت الادغم وتحرير الباشا للعبيد.

١٧ ابريل:

جاءني جيوفاني وكيل م. لڤيڤر لزيارتي. يشعر بوريني بالحرج بسبب أكاذيبه عن الذهب.

١٩ ابريل:

زارني جيوفاني لوبوكو (Giovanni Loboco) وهو تاجر يوناني وأعطاني بعض قطع الأثاث من القاهرة.

---

(١٣) لم يكن ادريس عدلان مكا والتي قصد بها الكاتب سلطان ولكنه كان القائم بالوصاية على السلطان بالوراثة.

٢١ ابريل:

أصيبت لطيفة الراقصة بالرمد فاحضرت لها زنك كغسيل للعيون. وقمت بربط عيونها بمنديل عندما لاحظت انها لم تربطها.

٢٤ ابريل:

زارتني لطيفة وقضينا النهار نغني ونلهو ونستمتع. عزفت والدتها على الرق.

٢٧ ابريل:

راجع مذكراتي حول سنار[١٤] للخرافة والساحرات.

٢٨ ابريل:

تسمى الشهور العربية: القصير ورمضان والفطر والاولانية والفطر الثاني والضحية الأولى والكرامة الأخيرة والسايق ورجب. وهي شهور قمرية لقد حزفت بعضها دون قصد[١٥].

٣٠ ابريل:

لا يستعمل الأهالي سمناً كثيراً في الطبخ. والطبيخ عندهم بسيط عبارة عن خضار يغلى مع اللحم بما في ذلك لحم الجمال.

١ مايو:

راجع مذكراتي حول سنار. محاكمة بالحديد الساخن[١٦].

٢ مايو:

عند وفاة شخص يغني الناس ويرقصون ويضع النساء الرماد على رؤوسهن وبعضهن ويقصصن شعرهن ويخلطنه بالذرة ويدفنه في الأرض.

٣ مايو:

معظم النساء قصيرات الشعر وهن يقصصنه عندما ينمو إلى أسفل الرقبة يصبغ الشعر إذا كان فاقع اللون لأنهم يعتقدون أن الشعر الفاقع نذير بالمرض.

---

(١٤) سيرد ذكرها .

(١٥) وعلى العكس فهو قد كتبها صحيحة.

(١٦) سيرد ذكرها .

٧ مايو:

هنا لا يمارسون عادة إزالة شعر الابطين والعانة كما في القاهرة.

٨ مايو:

وصل الجنود من فازوغلي. يقوم أحمد باشا بجولة بين القرى. بقي بفازوغلي ثمانمائة رجل من المشاة بالفرقة الأولى والثانية تحت قيادة بمباشي ومعهم طبيب خاص بهم. تضرب النقارة لإعلان الموت أو للرقص حول الجنازة.

٩ مايو:

وصل خادم جاسيير صباح اليوم بسبعة جمال وجمالين استغرقت الرحلة اثنين وعشرين يوماً من فازوغلي بالسير البطيء والوقوف من حين لآخر. عجزت بعض الجمال وكان على الرجال السير على الأقدام في طرق غير معبدة. لم يحضروا أي عبيد.

١٠ مايو:

من المعلومات التي تحصلت عليها يبدو أن سنار كانت موبوءة بالكوليرا قبل عامين. أعلن عن وصول أحمد باشا باثنتي عشرة طلقة.

١١ مايو:

رجع بعض الجنود إلى الخرطوم.

١٤ مايو:

سيعقد الشيخ اجتماعاً عاماً لمناقشة موضوع عدد السواقي وتقييم الضرائب فيما كان الباشا ماراً باحدى القرى لم يلاحظ أي اطفال يستقبلونه وعند سؤال الشيخ رد بأن النساء في هذه القرية جشعات لا يتزوجن إلا ممن يدفع مالاً كثيراً ولذلك القليل جداً منهن يجدن أزواجاً. قرر الباشا اصدار أمر يمكن أي رجل من الزواج بمهر عبارة عن لفة من القماش وشال أزرق وعشرين قرشاً نقداً.

١٥ مايو:

ركبت جملاً وذهبت إلى قنب لإعرف ما إذا كانت سفينة جاسيير وصلت. عندما لم أجد شيئاً يؤكل تظاهرت بأني كاتب من الحكومة وسألت شيخ القرية عن عدد سكانها فخاف الشيخ وأعد لي وجبة في الحال. رجعت إلى المدينة دون أن اتلقى أي أخبار عن جاسيير. مررنا بقريتين صغيرتين واحده بالقرب من ودمدني هي أم سنط. لاحظت وجود حصائر صفراء سميكة ومريحة عند الجلوس عليها. الطريق مليء بالغابات. مررنا بكثير من الدواجن. وفي الصباح جاءت مجموعات من النساء باللبن ليبعنه في المدينة. معظم

الأشجار من السنط ذي الشوك وهي صغيرة ومليئة بالجراد الكبير الحجم. والسواقي بين أم سنط وودمدني تسمى مارنجان.

١٧ مايو:

غادر أحمد باشا الخرطوم.

١٨ مايو:

يتمسح الناس هنا بالدهن المعطر بدلاً عن الاستحمام بالماء وهي طريقة فعالة لإزالة الوسخ.

٢٠ مايو:

وصلت مجموعة من الصيادلة والأطباء العرب من مدارس القصر العيني[١٧]. ومعهم عدد من المهندسين والعرب.

٢١ مايو:

لا يوجد أي خبز أو ذرة في السوق وذلك لهبوط سعر الخبز فقد فرضت ضريبة على الذرة: قرش على البرمة.

٢٢ مايو:

يشتكي الأتراك لأن أحمد باشا قد رقى العرب على حسابهم ولكن يجب أن يعلموا أنهم أنفسهم جهلة مغرورون لا يعرف معظمهم أن يقرأ أو يكتب.

٢٣ مايو:

ذهب نوبي مجروح القدم إلى فكي فنصحه الفكي بقطع القدم وما كان منه إلا أن لجأ إلى أحد أصحابه ليقوم بعملية قطع القدم دون استشارة الطبيب إذ كان لا يعتقد فيه. فقام صديقه بقطعها بالسيف من اعلى. لست في حاجة إلى أن أذكر أن المريض مات بعد فترة وجيزة. من العار أن يصرخ الرجل عندما يجلد. ويسمى الرجل الذي يتحمل آلام الجلد في صبر «أخو البنات» ويكون محل فخر بين أقرانه.

٢٥ مايو:

يوجد الآن بالخرطوم ثلاث كتائب من الفرقة الثامنة مشاة وبعض رجال المدفعية

---

(١٧) هي مدارس أنشأها أ. ب. كلوت (Clot) بك وقد قامت بتدريس المجندين المصريين للخدمات الطبية بالحكومة وقد كانت أقوى الوسائل المهنية الطبية الغربية في مصر. والسودان.

الأتراك في الحامية والكتيبة الرابعة مع إحدى كتائب الفرقة الأولى. وكتيبة أخرى من الفرقة الأولى موجودة بسنار بينما انتشرت الكتائب الأخرى بكردفان وفازوغلي.

٢٦ مايو:

اعطى الجنود مرتباتهم. يعطى الضباط أجر الجمال المستعملة في النقل وتخصم من المرتب القادم.

٢٧ مايو:

أمر أحمد باشا كل التجار والباعة بالحضور وأمرهم بإنشاء السواقي كل حسب استطاعته بعضهم أربع والبعض الآخر ثلاث. احتج التجار بأنهم لم يعتادوا حياة الاستقرار في مكان واحد وطبيعة عملهم تستدعي الترحال فما كان منه إلا أن زج بهم في السجن ليجبرهم على طاعته.

٣١ مايو:

وصل ديمونت وجاسيير صباح اليوم فغمرني الفرح بلقائهم والتحدث إليهم بلغتي.

٢ يونيو:

يحوي مخزن الحكومة واحداً وعشرين ألفاً اردباً من الذرة.

٦ يونيو:

أرسل الكولونيل لجاسيير وأخبره بتطعيم الجنود ضد الجدري فرد الدكتور بأنه لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل ما لم يتلق أوامر من رئيسه سليمان أفندي فغضب البك وقال انه هو الرجل الأول في الكتيبة وهو أعلى سلطة من سليمان أفندي وعندما أصر جاسيير على رفضه أخبره الكولونيل بأنه قد استغنى عنه ويمكنه الذهاب وممارسة عمله تحت رئاسة سليمان أفندي وأمر الحراس بعدم السماح له بدخول المستشفى وربما يقطع مرتبه.

٧ يونيو:

بعد تفكير سحب الكولونيل أمره بإيقاف جاسيير.

١٢ يونيو:

هناك إشاعة حول نداء الأهالي للجندية وبالفعل فقد أكتتب بعضهم قسراً. هرب السكان وصارت الحقول بلا عمال.

٢٠ يونيو:

عدد المجندين إجبارياً اثنان وتسعون كلهم من السود.

٢١ يونيو:

سجل سبعة عشر من السود هذا الصباح.

٢٢ يونيو:

ذهب الكولونيل إلى الخرطوم وعاد منها في خمسة أيام حاملاً معه الأمان(١٨) سرح كل النوبيين الذين أكرهوا على التجنيد. ترك اثنان من أهالي أبي حراز البلاد بعد أن احرقا قطيتيهما. بدأ الناس في كل مكان يهربون وأوشكت الثورة أن تقوم.

٢٣ يونيو:

روجعت دفاتر بكر كاشف ووجد أنه مدين للديوان بمائة واثنين وثمانين كيساً.

٢٤ يونيو:

كنا نجلس ليلاً بعربة جاسيير أنا وفضل الكريم جارية جاسيير عندما تحدث جاسيير عن إعطاء شهادة لفضل الكريم تثبت أنها حرة طليقة. فبكت في الحال وأوضحت ما تعانيه النساء اللائي يحررن. كنا نظن أنها خلية مرتاحة البال ولكنها ادهشتنا بمنطقها. بعد ذلك تحدثنا عن عزمية. فعاودتني نوبات الألم التي تنتابني كل شهر.

٢٩ يونيو:

بلغني أن ألف باقة من الأرز قد وصلت المستشفى وأشيع أن الصابون سيضاف للتعيين الشهري. سوء الظن صفة عامة بين النوبة وبين شيوخهم والدناقلة بصفة خاصة. اعطى أحد الشيوخ أحمد باشا مائة اوقية من الذهب ليضمن تحويلها إلى منطقة أخرى والحكام الأتراك يعرفون من أين تؤكل الكتف.

---

(١٨) الأمان أو (تعادل) يكره المسلمون من السودانيين الخدمة في الجيش النظامي وكان يجند له العرب الأجانب كالسوريين في فترة الاحتلال المصري لسوريا والفلاحين المصريين والزنوج الارقاء في الغالب في هذه الفترة. ومن العرب بالسودان الشايقية فقط هم الذين اقبلوا على الجندية وقد اكتتبوا في القوات غير النظامية. دوّن المؤرخ في تاريخ ملوك السودان «ص ٣٠ أن مجرد إشاعة أن بعض المسلمين الأحرار قد جندوا تجنيداً إلزامياً كافية لتسبيب الذعر بين مواطني مدينة الخرطوم ولكن مخاوفهم عندما أمروا بالاسهام بتسجيل الارقاء في الفرق النظامية بدلاً عن دفع الضرائب.

١ يوليو:

يستلم الجنود تعيينهم كأسبوغيين وهو إجراء مريح بالنسبة للخدمات الإدارية.

٤ يوليو:

أكد أن الجدري لم يكن بهذه الخطورة قبل مجيء الأتراك. لقد أحضر الأتراك معهم أمصالاً لم تكن معروفة من قبل وقد استعملت الآن على نطاق واسع.

٩ يوليو:

اشتريت جارية تسمى برلي.

١١ يوليو:

في بداية موسم الخريف يوجد عدد كبير من الضبوب التي تأكل الحشرات.

١٢ يوليو:

أوقف تعيين السمن هذا الشهر حتى بالنسبة لكبار الضباط. أدى عمل السخرة إلى ثورة عارمة ضرب الأهالي مأمور بربر مما اضطر الباشا للذهاب بنفسه لبربر ليقبض على الباشا الذي طبق السخرة دون أن يتلقى أمراً مكتوباً بذلك ولكنها كانت وسيلة لإرضاء الرؤساء ومنع الثورة. ومع ذلك فإن الحكومة تعطي الإنطباع بأنها ضعيفة وقصيرة النظر وضع كاشف سنار في الحجر لنفس الأسباب.

١٤ يوليو:

كان البك يرغب في منزل يجاور منزله. وفي أثناء غيابه بفازوغلي اشترى القائمقام سالم افندي المنزل ورحل فيه. عند عودته قرر طرد القائمقام والإقامة فيه ولكن القائمقام رفض وتمسك بحقه بصلابة. غضب البك وعرض القائمقام لكل أنواع الضغوط حتى دفعه أخيراً لطلب النقلية التي وافق عليها البك في الحال.

١٥ يوليو:

لا يكفي اللحم لجميع الجنود لذا اوقفت حصة الضباط. كان هناك ابتزاز في عهد خورشيد باشا ولكن لم يكن الفقر بهذه الصورة. ما زال الشيوخ يمتلكون الأموال ويدفعون إذا قبل الضباط. صارت التجارة عملاً غير مربح. رغم شروره فقد كان عباس آغا كريماً يسلف التجار النقود في عهد طاغية كأحمد باشا يخشى الرجال أن تبدو عليهم مظاهر الثراء.

١٨ يوليو:

كان معظم السود المكتتبين وكثير من المصريين غير مختونيين. أمر جاسيير بأن تجري لهم عملية ختان. وكانت الفرقة تعزف النشيد الوطني الفرنسي أثناء العملية.

١٩ يوليو:

حدد الديوان سعر اللحم بقرش وعشرين بارة للاقة.

٢٠ يوليو:

استقطع البك مبلغاً من مرتبات الضباط بما في ذلك مرتبه وذلك ليقيم حفلاً على شرف المختونيين.

٢٤ يوليو:

زارنا أوجست لنجوا (Auguste Lingua)(١٩) وهو طباخ مرتد من مارتيج (Martigue) قد قدم من فازوغلي وأخبرنا بأن المزارعين لم يزرعوا محاصيلهم وعلى استعداد للهرب وترك البلاد في أي وقت بسبب عمل السخرة. اعلنت الحكومة عن سعر الذرة بخمسة وعشرين قرشاً للاردب.

٢٥ يوليو:

ختان السود من الكتيبة الثانية. موكب عسكري ضخم في المدينة على انغام الفرقة بمصاحبة الراقصات في المساء شربت المريسة وأم بلبل بكميات كبيرة. كان البك كريماً جداً في صرف الذخيرة ولم يبخل على الجنود بالبنادق فكانت الضجة تصم الآذان.

٣٠ يوليو:

الخضروات نادرة جداً في هذا الموسم.

٣١ يوليو:

رطل السمن يصل إلى قرشين وعشرين بارة.

---

(١٩) وصف بأنه دليل متجول من رعايا سارديينيا من أهالي تيورن (Turin). أنبأ القنصل العام الساردينى بالاسكندرية عن موته في نفس السنة (ب كيروني P. Cerruti) أ السكرتير الأول لدولة تيرون ١٦ سبتمبر ١٨٤١. ارشيف **distuto Turin, Consolati nazionali: Aessandria l'Egitto, bundle no. 4, 1838-41.**

١ اغسطس:

اصبت بمرض تناسلي استمر معي طويلاً أجرى لي جاسيير عملية ختان كي اشفى. ختن الطبيب في نفس المساء ثمانين من السود. اقيمت نفس الاحتفالات.

٣ اغسطس:

غادر الكولونيل لجمع الضرائب. اطلقت الفي خرطوشة أثناء الاحتفالات ولكن لم يصب أحد بأذى.

٦ اغسطس:

أخبار سيئة جداً من جنوب النيل. اقترح الباشا فرض ضرائب على أرض الشايقية ولكنهم رفضوا الدفع بوصفهم جنود. هرب جزء منهم[٢٠] اخلى تسعة آلاف شخص مديرية دنقلا وتركوا دواجنهم لتأكل محاصيلهم تنبأ بهذا الحادث الذين يعرفون أحمد باشا جيداً من قبل ثمانية عشر شهراً.

٨ اغسطس:

لم يزرع المزارعون الذرة إلى الآن.

١١ اغسطس:

كان ضباط الكتيبة يأملون في إقامة مأدبة متواضعة بالمبلغ الذي جمع للاحتفال بالختان ولكن بمباشي إبراهيم أفندي حول المال لجيبه الخاص منتحلاً شخصية الباشا. يختن أبناء الأهالي بإدخال ساق الذرة في جلدة الذكر الخارجية والتي ترفع وتقطع بالموسى. أما خفاض البنات فيتم بقطع أطراف البظر ثم يضع العجين على الجرح النازف. يربط الوركين بعد ادخال ريشة نعام لتظل القناة البولية فاتحة. وعندما تريد البنت المسكينة التبول فإنها تقوم بفك ذلك الوثاق وربطه مرة أخرى.

١٢ اغسطس:

مات واحد من جمالنا فقمنا بدفنه بالقرب من نهر النيل. رغم تعفنه فقد أقبل عليه النوبة يقطعونه ويأكلون لحمه بنهم. كثيراً ما رأى مدير المخزن الأهالي وهم يجمعون دم الحيوانات المقتولة ويطبخونه للجنود. وهم يشربون الدم قبل أن يبرد. أمر أحمد باشا ببداية زراعة الذرة حول ودمدني وحدد سعراً إجبارياً للبيع هو ستة وثلاثون قرشاً للاردب. يذهب

---

(٢٠) راجع الجزء الأول.

جزء من رأس المال المنفق لتكاليف النقل إلى سوق الخرطوم. في الأيام الماضية كان الجو مليئاً بالنمل الطيار المسلح بابرة حادة الطعنة.

١٦ اغسطس:

يباع الأرز والصابون والسكر بسعر الرطل ستة إلى سبعة قروش. يكلف رطل البن أربعة قروش وعشرين بارة.

١٨ اغسطس:

رغب جاسيير في صنع غوايش فضية لفضل الكريم فطلب من أحد الصاغة المتجولين زيارتنا لأنه ليس لهؤلاء الحرفيين مكان ثابت. أخذ الضائغ قطعة فضة من الطبيب لكي يختبرها على النار. ووضعها في بوتقة قد صنعها من رماد عظام الحيوانات. ثم وضعها على نار الفحم. عندما ذابت الفضة وضع عليها بعض الرصاص وزاد وقود النار حتى صار المعدن صلباً. ثم صب عليها قطرات من الماء فأخذها وغطسها في ماء بارد.

يستعمل كلوريد الزئبق في اختبار الذهب كل أدوات الصاغة بدائية للغاية كما تخيلت وهي عبارة عن سندان ومنفاخين ومطرقة وصفيحة سحب ذات ثقوب مختلفة الأحجام ومجزات ومبارد. وليس للصائغ انبوبة نفخ وعندما يريد القيام بعملية لحام فإنه يبصق على السطح الذي يريد لحامه ثم يضع مسحوق البورق ومزيج من المعادن أو مادة اللحام ويترك الجزئيين على النار حتى يلتحما. واضح أن كمية من الذهب والفضة تنفقد أثناء العملية. لتنظيف الذهب فإنهم يضعونه في مشروب التمر هندي المغلي فيصير أبيض.

٢١ اغسطس:

جاءت خطابات مطبوعة من القاهرة تعلن وفاة سلطان محمود. التأم اليوم جرح ختاني.

٢٤ اغسطس:

ازمعت السفر إلى المسلمية فخرجت عند الظهر وسافرت عن طريق ود المجدوب هناك تعرضنا لعواصف ممطرة ولكن واصلنا السير وبعد مسير نصف ساعة صار الطريق كله طيناً وقد غرقت الحقول بفعل الأمطار التي هطلت ليلة البارحة.

الفصل الرابع

الرحلة الى بربر

٢٨ اغسطس:

ركبت السفينة إلى الخرطوم وبصحبتي أثاث المنزل. كنت أنوي الذهاب إلى القاهرة ومعي برلي الصغيرة وادريس الزنجي. مررنا بكل من ود المجدوب وأبي حراز وفقير الريح ووصلنا عبيد على الضفة اليسرى.

٣٠ اغسطس:

ابحرنا طوال الليل حتى وصلنا الخرطوم في الظهر. أقمت مع ثيبوت غادر ثمانمائة من المشاة إلى الشمال. من المعتقد أن الثورة قد قامت في التاكا(١). يقال ان أحمد باشا موجود بمحافظة بربر. ينوب عنه في الخرطوم أثناء غيابه فراج أفندي البمباشي النوبي(٢).

١ سبتمبر:

غرقت سفينة محملة بالصمغ في شلال الرويان. وهرب الريس وقبض على الملاحين وأجبروا على الدخول فوراً في الخدمة العسكرية وكونوا كتيبة. بعد الفراغ من ذلك جمع فراج أفندي قباطنة كل السفن الحكومية وأخبرهم بأن الحكومة يجب ألا تتحمل خسارة غرق السفينة وحدها وأعلن أنه سيقتطع من مرتباتهم مبلغ عشرين أو ثلاثين قرشاً من كل واحد ليعوض قيمة الصمغ.

وفي دنقلا وفي العام الماضي أخذ الباشا حمار سليمان آغا ضابط الجمارك فطلب

---

(١) التاكا (الجزء الجنوبي من محافظة كسلا الحالية) لم تخضع لإدارة منتظمة حتى عام ١٨٤٠ برغم أن الملك كمبال قد أخطر بكلرمسكو (Packler Muskau) في صيف ١٨٣٧ بأنه كان قادماً لتوه من التاكا حيث قاد حملة جمع الجزية والتي لا تجمع إلا بقوة السلاح (Egypt under Mehemet Ali ii, p. 344).

(٢) اذن كان فراج أفندي هو أول سوداني يشغل منصب نائب الحكمدار بالسودان.

سليمان آغا مبلغ عشرة أكياس مقابل حماره فاعطاه الباشا المبلغ ولكن بعد عدة أشهر اخضع حسابات سليمان آغا للمراجعة فوجد أنه مدين للحكومة بأكثر من مائتي كيس. يمتلك أحمد باشا دكاناً صغيراً جميلاً بناه لحسابه الخاص ليستأجره وقد بنى بطوب اثرى أحضر من سوبا(٣).

٧ سبتمبر:

قدمت التحايا باحدى عشرة طلقة اطلقت على شرف السلطان عبد الحميد.

٨ سبتمبر:

غادرت إلى بربر وبما أنه من الخطورة عبور الشلال بقارب صغير كقاربي فقد بعته وتركت الادوات المنزلية وصغيرتي برلي بمنزل ثيبوت. سأعود بعد بيع الذرة لجاسيير لأخذ أشيائي والذهاب إلى القاهرة بصحبة جاسيير.

٩ سبتمبر:

عبرت الشلال الذي غمرته مياه الفيضان.

١٠ سبتمبر:

وصلت المتمة في المساء.

١١ سبتمبر:

تناولت طعام العشاء خارج سندي مع فيجوروكس وهو مدرب بالجيش في خدمة الباشا وقد كان بكردفان حيث جمع أموالاً طائلة هنالك. ورجع إلى فرنسا وتزوج بباريسية وعاد ليخدم الباشا. يبلغ مرتبه الآن أربعة أكياس في الشهر.

١٣ سبتمبر:

ارتطمت سفينتنا بالأرض خارج بربر.

١٤ سبتمبر:

في الصباح تمكنا من الرجوع. ووصلنا الشاطىء قبل الظهر. ذهبت إلى السوق وأول شيء وقع عليه بصري كان أحد الاعراب الذين عوقبوا بالخازوق وكان هذا الاعرابي

(٣) كانت سوبا عاصمة آخر مملكة مسيحية في السودان وتوجد بقاياها على الضفة اليمنى للنيل الأزرق وتبعد ١٢ كيلو شمال الخرطوم ولقد مد هذا الركام الهائل من بقايا الحجارة العمال المصريين الذين بنوا الخرطوم بالطوب المحروق.

مرشداً لسليمان آغا شقيق عباس آغا. كان سليمان آغا في طريقه للقاهرة ومعه زوجات وممتلكات عباس آغا. قتل المرشد سليمان أثناء نومه وهرب بالنساء والثروة. ولكن خدعه أحد أبناء بلدته وتمكن من القبض عليه هـو واثنين من رفاقه وكانوا محتفلين. لم يكن سليمان باشا حكيماً إذ فاته أن يفرغ الذخيرة من سلاحه قبل النوم فذبح كالشاة(٤). كل من يفكر في عبور الصحراء كورسيكو يعرض نفسه للموت. قام البشاريون بثورة. أساء أحمد باشا لرئيسهم بركة(٥). لضمان سلامة بربر كان على الحكومة احضار حامية مكونة من مائتين من المشاة وبعض الخيالة والفرسان المغاربة.

١٥ سبتمبر:

فرض على كل اثنين من التجار القيام بإنشاء ساقية ويعني هذا دفع ضريبة جديدة كما وستعوق الزراعة الاجبارية شغلهم بالتجارة. اضف إلى ذلك انهم أجبروا على شراء الف وخمسة وأربعين أردباً من الذرة من الحكومة بسعر أربعين قرشاً للأردب. ومن الاسلم القول بأن أعلى سعر سائر هو ستة وثلاثون قرشاً للأردب ومحصول هذا العام غير وفير. شنق أحد قتلة سليمان آغا بجانب الآخر.

١٦ سبتمبر:

لا يوجد أي صابون في السوق ومن يجده بسعر ثمانية أو تسعة قروش يعتبر محظوظاً. أصبح كل شيء غالياً بسبب نقل الطريق إلى القاهرة.

١٧ سبتمبر:

اصبت بالحمى بسبب ابتلال ملابسي بالمطر أثناء الرحلة.

١٨ سبتمبر:

لا يوجد أي لحم بالسوق لأن معظمه يؤخذ إلى الجنود.

١٩ سبتمبر:

أصبت بنوبة حادة من الحمى وكان الذي يقوم برعايتي حلاق تركي. هرب شيخ قرية كنور بسبب الضرائب الباهظة فارسل المأمور في الحال بعض الخيالة فاشتبكوا مع

---

(٤) لقد هزأ الكاتب ويرن (Werne) به وبزوجته الباريسية واتهمها بالقسوة على رفيقهم الطواف في افريقيا. (African Wanderings, p. I, pp. 63 f 70 f).

(٥) لم يكن بركة بشاريا بل كان عبادياً. كرر الكاتب الخطأ في صفحة ١٩٦ في الجزء الأول من النص المترجم.

العرب نتج عن ذلك موت رجلين. لم يستطع الخفير أن يقبض أي شخص باستثناء نساء الشيخ.

٢١ سبتمبر:

رغم أن البلد على أهبة الاستعداد للثورة لا زال الرجال يجبرون على السخرة وحمل الناس قسراً للقيام بالأعمال الشاقة لا يحقق السلم.

يستعمل النساء روث البهائم الجاف في غسل ملابسهن.

٢٥ سبتمبر:

وصلت أخبار بموت ملك كمبال بن الملك شاغوس(٦). وصل خطاب يعلن مجيء أحمد باشا وذلك بلا شك بسبب الثورة في بركة. قيم العائد من الجمارك لمنطقة بربر باربعمائة وستة عشر كيساً شهرياً. اعترف بشقيق كمبال كملك(٧).

٤ اكتوبر:

وصل أحمد باشا مع أربعمائة من المشاة والبقية تأتي. اطلقت إحدى عشرة طلقة على شرف الباشا.

٥ اكتوبر:

قبض أحد الشيوخ الذي ترك منصبه بسبب الضرائب شنقه الباشا اليوم في السوق هو واحد الكتيبة الاقباط. خير القبطي بين الموت أو اعتناق الإسلام فيعفى فاختار الموت. مثل الكثيرين في عهد خورشيد باشا باع حافظ آغا بضائعه بكمبيالات يدفعها زبائنه لمدة اثنين أو ثلاث سنوات مقدماً. الرسوم مرتفعة ولكن قد يتعرض الدائن لخسارة في حالة وفاة المدين. يقدر أحمد باشا هذه الكمبيالات بنصف قيمتها الاسمية وهذا يعني ضياع نصف رأس المال المحجوز في المقايضة لأن الربح المتراكم خلال سنين عديدة سوف يستهلك. عرض التجار على الباشا استرجاع بضائعهم ولكنه ضحك عليهم. اصبت بحمى خفيفة.

٦ اكتوبر:

وصل مائتان من المشاة وفرسان الشايقية.

---

(٦) راجع صفحة ٧٣ في الجزء الأول من النص المترجم.

(٧) قاد الملك محمود فرقة الشايقية في حملة التاكا.

١١ اكتوبر:

غادر الباشا إلى الجنوب.

١٤ اكتوبر:

توفي أحد أقرباء جيراني بالخرطوم فامضوا ثلاثة أيام في الرقص حول النقارة وترديد المناحات.

١٧ اكتوبر:

سافر مأمور بربر إلى كورسوكو صباح اليوم بصحبة خمسين من الفرسان وذلك لتصحب قافلة الحكومة ومن ثم تبحث عن شيخ البشاريين.

انتهز الناس الذين يودون الذهاب لمصر فرصة هذه الرحلة الآمنة. يبدو أن الثورة في التاكا جد خطيرة إذ توقف أحمد باشا بشندي بدلاً من الذهاب إلى كورسوكو.

٢٧ اكتوبر:

لا يحلب النساء بشندي وبربر الحيوانات وذلك للمعتقدات الخرافية ويقوم بحلبها الرجال ويشوى الجراد بعد نزع أجنحته لكي يصير صالحاً للأكل.

٣١ اكتوبر:

رأيت أطفالاً يلعبون لعبة كلعبة الكلة.

١ نوفمبر:

فرغت من بيع الذرة لجاسيير وسأغادر إلى الخرطوم.

٢ نوفمبر:

أبحرنا عبر الداخلة على الضفة اليمنى إلى الشمال قليلاً من ملتقى النيلين بالمقرن. تصنع الحصائر من جريد شجر الدوم الموجودة هنا بكثرة.

٦ نوفمبر:

وصلنا المتمة هذا الصباح. سعر الذرة هنا ثمانية عشر قرشاً للاردب وتكلف سبع قبضات من القمح قرشاً واحداً. اشترى تاجر بعض الرقيق من أخيه الذي دفع الرسوم الجمركية عليهم هنا. طلب من التاجر أن يدفع الرسوم مرة أخرى بحجة أن الايصال يحمل اسم أخيه. جعلت الحكومة زراعة النيلة مفتوحة للجمهور. حدد سعر امتياز بيع الخمور بالقسم في المتمة بعشرة أكياس في السنة.

٩ نوفمبر:

مر بجانب قاربنا ليلاً فرس البحر وهو يزأر.

١٣ نوفمبر:

وصلنا الخرطوم هذا الصباح. تكثر الإصابة بالحمى هذا العام. استعدادات مكثفة لرحيل الاسطول الذي سيقل الحملة على النيل الأبيض. ستمائة من الجنود وأربعمائة خرطوشة والمؤ ن التي تكفي لثمانية شهور كلها على أهبة الاستعداد لركوب السفينة. هناك اثنتا عشرة سفينة. يوجد أيضاً كرم أفندي وهو دنقلاوي يعمل في الجمعية الجغرافية بلندن ولكن لسوء الحظ فهو جاهل مغرور كان ينوي القيام باكتشاف منابع النيل عن طريق كردفان ودارفور[٨].

١٦ نوفمبر:

غادر الاسطول الذي يقل الحملة إلى النيل الأبيض[٩] لقد حملوا السفن والمخازن كإنما هم في حالة حرب ولكنهم غير منضبطين. كان يقود الحملة سليمان كاشف وسالم أفندي وقد اعطى م. ثيبوت رتبة مساعد امباشي.

١٩ نوفمبر:

سأغادر الخرطوم إلى ودمدني بصحبة برلي التي صارت ضعيفة بدرجة مخيفة بسبب المرض. قمت ببيعها لشخص في هذه الظروف مقابل خمسين قرشاً وقد كنت مخموراً ولكن في لحظة استلام المبلغ استيقظ في الضمير فرميت بها لصاحبها وركبنا السفينة في الحال.

---

(٨) لم يعمل محمد عبد الكريم مع الجمعية الجغرافية الملكية بل كان يعمل مع لجنة غير رسمية مختصة باكتشاف منبع النيل الأبيض والتي اجتمعت في لندن كان يقرأ اللغة الإيطالية. وقد عاش في اوروبا لبضع سنين ولا يصلح لدور المكتشف. وحسب التخمينات الجغرافية السائدة في هذا الوقت فإن منبع النيل الأبيض هو جنوب أو غرب دارفور. ولقد اصدرت لجنة لندن نشرة لمجموعة بيرتون (Burton). **(Expedition to the Bahr-el-Abiad, 1839)** المتحف البريطاني ٦٥٢ و ٢٥ (Adilt Mss) خططت اللجنة بأن يمر المكتشف خفية عبر الأراضي المصرية تحوطاً لكيلا يعترض محمد علي باشا رحلته وقد أعلن أخيراً عن مجيء محمد عبد الكريم وكتب سليمَ قبطان في تقرير عن رحلته الأولى على النيل الأبيض لقد تلقى أمراً من معاليه في يوم ٣ شعبان عام ١٢٥٥ (١٣ من اكتوبر ١٨٣٩) بأخذ عبد الكريم أفندي وكيل الحكومة الانجليزية إذا أراد هو ذلك ولكن قبل رحيل الاسطول بيومين أخطر عبد الكريم سليم بأنه قرر الرحلة بالبر متنكراً في زي تكروري.

(٩) انضم تيبوت (Thibut) للاسطول كمهندس ولمعرفته بالنهر وبقبيلة الشلك التي عقد معاهدة مع رئها =

٢٠ نوفمبر:

يدعى أخو كمبال محمود.

٢١ نوفمبر:

عفى الباشا من شيخ أحمد المتمرد ورجع الآن إلى موطنه.

٢٤ نوفمبر:

وصلنا ودمدني عند المغيب.

٢٦ نوفمبر:

سيعود الباشا من معسكره في التاكا(١٠). يدور حديث عن وصول أحد الفرنجة والذي سيقرر إلى أين ترسل الجنود. البن غير متوفر في الخرطوم وند دفعت سبعة قروش للحصول على رطل منه والصابون قليل جداً ويكلف الأرز ثمانية إلى تسعة قروش للاقة. توفي كل السود الذين اجبروا على الدخول في الخدمة العسكرية ولم يقهم التطعيم شر الموت بالجدري. اعدم شخصان هنا أحدهما قاتل والآخر شيخ الهلالية وقد اتهم بإيواء شيخ أحمد المتمرد.

تلقى فرهد بك أمراً بشنق الشيخ ولكنه أهمل الأمر خوف الظلم وقد سمع كل الناس تثني على هذا الشيخ وتتحدث عن كرمه. فارسل البك للباشا الذي رد بإرسال أمر آخر بشنق الشيخ. أرجأ الكولونيل الأمر يوماً آخر ولكنه أخيراً أرسل الشيخ إلى المشنقة. وبين ذلك كله يعفي عن أحمد المتمرد ويثبت أنه لم يقم بالهلالية مع الشيخ وتعلن براءة الشيخ. ارسل الباشا بريداً مستعجلاً ولكنه وصل متأخراً بعد أن شنق الشيخ سيعطي الجنود مرتب ستة شهور.

٢٩ نوفمبر:

علمنا بموت م. لفيفر خبير المعادن الفرنسي من الخطابات التي وصلت من فازوغلي. أكل الجراد كمية كبيرة من المحصول في المناطق الجنوبية. هنا يباع اردب الذرة بستة عشر قرشاً وبرمة القمح بخمسة عشر قرشاً. لا زال العبيد يسلمون للحكومة

= نيابة عن الحكومة.

(١٠) حملة أحمد باشا على التاكا لم تحدث حتى عام ١٨٤٠ بعد أن غادر كاتبنا السودان. والحملة التي ذكرت هنا هي مطاردة حمد ود الملك إلى العطيش.

كضرائب فيسجلون في الخدمة العسكرية برغم عدم مقدرتهم على تحمل حياة الجيش وارتفاع نسبة الوفيات في أوساطهم. طلب البترول لإضاءة الثكنات ربما كان ذلك تحرزاً.

بما أن برلي شبه مخبولة ولا يمكنها تحمل مشاق الرحلة الطويلة للقاهرة فقد قدمتها كهدية لسعيد أفندي الطبيب. كانت بيضاء تقريباً وليست جميلة جداً ولم ينم صدرها بعد. كانت لطيفة المعشر ولم اسيء أنا معاملتها بالضرب أو الإهانة. كانت تخاف من المداعبة. لم أكن سعيد الحظ بالسودان أتمنى أن تشفى هذه البنت وتسعد سعيد أفندي. أصاب بالكآبة عند التفكير بكل ما حدث لي خلال العامين الماضيين مما يجعلني أتناول الخمر حتى الثمالة لاتجنب المرض.

٤ ديسمبر:

أعطى أحمد باشا الرسول الذي سلمه خطاباً خمسمائة قرش كبخشيش(١٢) مما يجعلنا نخمن أن شيخ بركة قد اسر. لم يأكل الجنود لحماً لبضعة أيام لأنه غير متوفر هنا. على الجنود أن يحملوا أوسمة من الذهب والفضة وفقاً لحجم مناطقهم. كانوا يلبسون الزي التركي ولا يسمح لهم بالمثول أمام الباشا إلا بهذا الزي بعد فترة سجن لأيام على المشاة الذهاب وإقامة معسكر بالحمير التي اشترتها الحكومة بسعر ستين إلى سبعين قرشاً للواحد رغم أن بعضها يكلف ثلاثمائة قرش. تقوم الحكومة ببيعها للضباط بمائة قرش للحمار ولكنها تقوم ببيع اردئها.

٥ ديسمبر:

ركب مائة وثلاثون جندياً الحمير أمس وغادروا. كان التعيين عبارة عن خبز مصنوع من الذرة خفيف ومجفف بأشعة الشمس (آبري) عند الشعور بالجوع كانوا يلجأون لأهالي القرى لمدهم بالطعام وتقول الحكومة «معليش ما في عوجه» إذا مات حمار فعلى الراكب شراء آخر عوضاً عنه. وإذا كسر اللجام يوقف مرتبه لشهور.

يباع الفلفل بثمانية عشر قرشاً للرطل.

---

(١١) أي حماد ود الملك الذي وصفت معركته بالحدود الحبشية في صفحة ٧٠ في الجزء الأول من النص المترجم.

(١٢) على سبيل التلاعب بلفظة باخشيش والتي تعني هدية بقصد الرشوة.

٧ ديسمبر:

سيصل م. فاسيير هذا الصباح وكذلك الدكتور بيلوني[١٣] الإيطالي الذي سيخلف جاسيير في الحملة. هل الهلال واعلنت نهاية رمضان بإحدى عشرة طلقة. أشرف الباشا على الصيام ولكنه لم يلزم الضباط بالصيام من باب التقليد.

٨ ديسمبر:

عيد رمضان تبودلت زيارات العيد.

١٠ ديسمبر:

قبض على بعض اللصوص الذين كانوا يحتمون بمنزل الشيخ دفع الله شيخ المدينة.

١١ ديسمبر:

اطلقت احدى عشرة طلقة احتفالاً بمغادرة الباشا الخرطوم.

---

(١٣) بيلوني (Bellotti) من أهالي بولونيا وقد اشترك في حملة التاكا عام ١٨٤٠. لقد رزق طفلاً بالخرطوم من امرأة تدعى فاطمة (Liber Baptizatorun) الكنيسة الكاثوليكية.

الفصل الخامس

العودة الى مصر

١٤ ديسمبر:

وصلنا إلى الخرطوم أنا وجاسبير على الجمال. وصلنا المسلمية في منتصف النهار مروراً بقرية الطيبة وحلة السليمانية بالمسلمية نزلنا بمنزل الحاج شمبول التاجر. اليوم الاربعاء وكذلك الثلاثاء هي أيام السوق ـ مرتان في الاسبوع ـ سعر الذرة ثمانية قروش للاردب.

١٥ ديسمبر:

اشتريت اليوم زنجية تسمى فاطمة وهي بنت من العطيش. غادرنا المسلمية ومررنا بحلتين صغيرتين كلاهما يسمى الفقرا. يساوي عمق ماء البئر في احداهما ستين قدماً تحت سطح الأرض. وصلنا هذا المساء حلة ود الفرو.

١٦ ديسمبر:

مررنا بابي عشر ووصلنا الكاملين. سلف أحمد باشا الناس مبلغ خمسة أكياس ومائة اردب من الذرة لبناء السواقي هنا. وفي أثناء تجهيز المباني طالب أحمد باشا باسترجاع النقود والذرة ولكي يدفع له لا بد من بيع العجول التي تحرك السواقي بدأوا يزرعون قمحاً كثيراً هنا.

١٧ ديسمبر:

على بعد ربع ساعة من الكاملين توجد السواقي التي تخص الباشا وهي الآن تحت رعاية نور الدين وهو قبطي مرتد[1]. تعرفنا على مسيو بور وهو الماني كان يعمل في خدمة المشرف. وصلنا البشاقرة بالقرب من هذه القرية ينمو كثير من نبات السنمكة.

(١) ورد ذكرها في ص ٢١ و ٢٣ في الجزء الأول من النص المترجم.

١٩ ديسمبر:

قضينا الليلة في قرية تجاه خرائب سوبا.

٢٠ ديسمبر:

وصلنا الخرطوم وصلت زوجة أحمد باشا بصحبة دكتور جاند[٢] (Gand) الفرنسي وهي خادم للباشا الكبير[٣]. سيرسل الجنود للتاكا الشهر القادم. يوجد ستون مريضاً بالمستشفى. سعر السمن هنا قرش وعشرون بارة للرطل. والصابون تسعة قروش والبن سبعة إلى ثمانية قروش. والذرة سبعة عشر قرشاً. للأردب والتبغ قرش للرطلين. شنق كاتب قبطي لسرقته أثناء إداء عمله واستطاع أن يوفر المبلغ المستحق ببيع أشيائه ولكنه رفض اعتناق الإسلام وبذا مات شهيداً للمسيح.

٢٥ ديسمبر:

ترددت إشاعة حول وصول اربعمائة فارس غير نظاميين ويسمون (ديلس) (Delis) إلى شندي. تعرفت على اثنين من الألمان أحدهما ويرن وهو ضابط صحة والآخر محامي. صار من الممكن حالياً الحصول على السلطة والكرنب والرمان هنا.

٢٨ ديسمبر:

توجد سفارة للحبشة هنا. تعرض بعض التجار للنهب أثناء عودتهم من تلك البلاد. يبدو أن شخصاً ما لا يريد تسليم المجرمين. عطلت حركة التجارة حالياً.

١٨٤٠

١ يناير:

تناول كل من الفرنجة بالخرطوم طعام الغداء بمنزل دكتور سليمان افندي احتفالاً بالعام الجديد. الأهالي يجففون جلود الحيوانات في الشمس ويسحنونها ويغلونها ثم يأكلونها كنوع من الحساء. هم أيضاً يغلـون الدم ويعرضونه للهواء في الحصائر ثم يسحنون الكتلة المتجلطة ويغلونها ويقدمونها للاكل.

٦ يناير:

هنا يزرعون الكثير من الفلفل الأخضر والفلفل الأحمر ويسمونه أم شطيطه.

---

(٢) هو صديق قديم لأحمد باشا. اشترك معه في الحملة ضد الوهابيين في الجزيرة العربية. توفي بابي حمد خلال أسابيع قليلة وهو في طريق العودة إلى مصر.

(٣) تصفها كل المصادر التي أعرفها بأنها ابنة محمد علي.

١١ يناير:

غادرنا الخرطوم وعبرنا النيل الأبيض وقضينا الليلة على الشاطىء أمام أم درمان. المكان هنا مليء بأحجار الكلس وتوجد الكثير من كماين الطوب.

١٢ يناير:

ذهب اثنان من خدمنا لشراء المؤ ن ولكنهما أخذا النقود واختفيا.

١٣ يناير:

رجعت إلى الخرطوم للبحث عن خدمي.

١٤ يناير:

رحلنا من أم درمان.

١٦ يناير:

وصلنا تل الريان بالقرب من اخدود قرى.

١٧ يناير:

وقفنا لتسترح الجمال.

١٨ يناير:

اليوم تركنا نهر النيل ودخلنا صحراء بيوضة.

٢٢ يناير:

قضينا الليلة مع عرب يسمون الهاهويا (الهواوير العوضية) خيامهم مربعة ومغطاة بغطاء من الصوف أو جلود الحيوانات وتفتح جنوباً.

١٣ يناير:

قضينا الليلة مع العرب الذين كانوا مزعجين ومتسولين.

٢٤ يناير:

قضينا الليلة مع رجال القبيلة من عرب الهاشاب (هوشاب شايقية). لقد ادهشهم جلد فرس البحر عند جاسيير. يوجد في هذه الصحراء الزراف والضباع والشياه الوحشية والغزلان والأرانب الوحشية والسحالي التي تلسع بذنبها والنمل والخنفس والحجل والعصافير.

٢٥ يناير:

جاءنا العرب بقليل من اللبن ولكنهم سرقوا منا رأس حربة وانبوبة متوسطة الحجم.

وصلنا أم بَكول على النيل. يندر الخشب هنا. يأتي النساء والأطفال لجمع روث الجمال لتجفيفه للوقود.

٢٦ يناير:

كاشف أم بكول شايقي الجنسية.

٢٧ يناير:

حدد احتكار بيع الخمور لكل منطقة بثلاثة وثلاثين كيساً واستمر هذا الامتياز لمدة ثلاثة أيام. والضريبة السنوية على ساقية تساوي ثلاثمائة وثلاثة وسبعين قرشاً تدفع نقداً ولفتين من القماش ونصف اردب من القمح.

٢٨ يناير:

المحاصيل التي تنمو هنا هي القطن والقمح والذرة والدخن والذرة الشامي والفاصوليا والبصل ومحصولات أخرى. نضج محصول القمح ولكن الأهالي لا يولونه أهمية كبيرة. لا توجد أسواق مسقوفة والسوق يومان في الأسبوع الثلاثاء والجمعة. ابتعنا ثلاثة ارطال لحم بقرش واحد. تكلف ثلاثة أرطال من القمح غير المحلوج قرشاً وارتفع سعر اردب الذرة من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر قرشاً.

٢٠ يناير:

توجد أربعة أنواع من الحبال تصنع في السودان: حبل من الصوف وآخر من الجلد وثالث من نبات الحلفا ورابع من جريد شجر الدوم. يقال أن هناك نوعاً من التراب في بربر يسمى تريبة[٤] يشرب بالماء يعالج مرض الزهري.

١ فبراير:

حددت رسوم الجمارك لدنقلا بسبعمائة وخمسة وعشرين كيساً لمدة ثلاث سنوات. اعفى كل من ريش النعام والعاج والنيلة من الاحتكار.

---

(٤) هي اللغة الدالة على التصغير. من تراب وهي نوع من التراب وإلى حد ما النطرون ولكنه ضارب إلى السواد ويحتوي على ايوديد الزئبق وتوجد في أماكن كثيرة في السودان ويستعملها السودانيون عادة في علاج مرض الزهري فهي اما أن تذاب في الماء ويشرب أو تنثر وهي جافة على مكان القروح.

٢ فبراير:

ذهبت اليوم الأحد إلى السوق في كورتي المدينة الرئيسية لدار الشايقية وهي تقع على بعد ساعة من أم بكول وتقع مثلها على الضفة اليسرى من النهر. السوق نشط.

٣ فبراير:

يساوي مرتب الكاشف مائة وخمسين قرشاً. توجد في الجبال مواد صلبة ضاربة إلى الحمرة يذيبها الأهالي في الماء وتكفي قطرات بسيطة منها لتطعيم طبق من الطعام.

٦ فبراير:

تركت أم بكول بالجمال وغادر جاسيير بالسفينة مع الأسرة الزنجية.

٧ فبراير:

وصلت الدبة مقر كاشف الشايقية وهي نقطة مهجورة على وجه التقريب لأن سكانها تركوا هذه الضفة وذهبوا إلى الضفة الأخرى. لا يوجد الآن إلا السوق وكميات هائلة من الطوب المحروق والمبعثر هنا وهناك والذي لا بد أن يكون قديماً جداً.

٩ فبراير:

مررنا بقرى كثيرة مهجورة وأراضي بور إلى أن وصلنا دنقلا والخندق حيث يوجد كاشف شايقي. توجد بين الدبة إلى دنقلا وإلى الشمال منها مخازن مليئة بسيقان الذرة والدخن التي تستعمل كعليفة للماشية في طريقها من كردفان إلى القاهرة.

١٠ فبراير:

خرجت عند طلوع الشمس. في منتصف الطريق توجد قرية حانك؟ المهجورة بقلعتها على ضفاف النيل. يوجد هنا ابريقان يملأهما فكي بالماء للمسافرين. يعقد سوق كل اربعاء في خرائب حانك. امضينا الليل في عرضي المنفوخ.

١١ فبراير:

وصلت دنقلا وهي تشبه مدينة صغيرة في الوجه القبلي بمصر. قمت بزيارة مستر براون ومترجمه المالطي جيفري بوني(٥) وقد اوفد هذا الرجل في مهمة من قبل الجمعية الحيوانية. بحوزته ثلاثة غزلان أحدها ذكر واثنان من الاناث. سعر القمح خمسة وأربعين

---

(٥) كلا الاسمين قد طمس في الكتابة. والجمعية الحيوانية الاميركية الوحيدة في ذلك الوقت كانت أكاديمية العلوم الطبيعية بفلادلفيا والتي لا يوجد أي أثر في سجلاتها لاسم براون (Brown) أو مهنته.

قرشاً للأردب والذرة من اثنى عشر إلى ثمانية عشر قرشاً والصابون خمسة قروش للرطل وسعر السكر الأبيض ثلاثة قروش وعشرون بارة والأرز أربعة قروش وعشرون بارة للاقة ولا يوجد بن على الاطلاق.

١٤ فبراير:

حل عيدرمضان، أغلقت كل الدكاكين.

١٩ فبراير:

البيّض والفول والقرع والبصل والعجور والعدس متوفر ويمكنك شراء ثلاثة أرطال ونصف من اللحم البقري أو رطلين ونصف الرطل من لحم الضأن أو أربعة من لحم الجمال بقرش واحد. تشتري الحكومة جلود الحيوانات مقابل عشر بارة للكبير وخمس للصغير.

٢١ فبراير:

مما يسبب الضيق الشديد هنا البعوض الكثير فهو يدخل العين والأنف والأذن[٦] وصل من كردفان أكثر من الف من الجمال محملة بالصمغ تستوقف الحكومة الجمال والقوارب للتحري عن مثل هذه السلع المحتكرة.

٢٣ فبراير:

غادرنا دنقلا.

٢٥ فبراير:

وضعت فضل الكريم طفل ثمانية أشهر ميتاً. لكي يجف اللبن فقد غطت حلمات ثدييها بالعجين المخلوط بالطين.

٢٦ فبراير:

عبرنا جزيرة بنه ونزلنا بجزيرة ارقو حيث مررنا بتمثالين من الجرانيت الضارب إلى البياض وكانا مقلوبين على ظهرهما كانا في حالة مشي. تحطمت ايديهما وبقيت أجزاء كاللحية والشعر والوجه. أحدهما قد شق من النصف ويوجد بين ساقيه تمثال في ارتفاع الرجل. يبلغ طولهما خمسة وعشرين إلى الثلاثين قدماً ومحيط البطن خمسة أقدام. يوجد تمثال آخر جالس متوسط الارتفاع من حجر الباسالت بدون راس ويكاد يكون مدفوناً بالرمل وبالقرب من المكان توجد هضبة صغيرة مكونة من قطع الفخار. طفنا على سوق

(٦) النمتي هي الحشرة الشهيرة الردئية التي يبغضها كل من يعيش أو يذهب إلى تلك المنطقة وهي مصدر ضيق للحيوان والإنسان على حد السواء.

الجزيرة الذي يعقد كل اربعاء. كما هو الحال في كل الاسواق، تجد أن الطلب شديد على الفول المغلي. في هذا الموسم تزهر أشجار البلح وتلقح. موسم البعوض مستمر سنوياً طوال شهور الشتاء الثلاثة ويختفي بنهايتها.

٢٧ يناير:

إلى جانب البلح يزرعون الذرة الشامية والقمح والذرة والدخن واللوبيا والفول والبسلة والخضراء والفول المصري والشعير والقطن. . . الخ.

٢٨ فبراير:

وصلنا إلى الحفير حيث يوجد كاشف دنقلاوي. هنا تنمو السنمكة البرية كما في انحاء سنار. سمعت أن هناك بعض المناجم تجاه هذا المكان وفي منطقة إلى الشمال تسمى الو فاطمة(٧).

٤ مارس:

زرنا معبد سوليت ذا الثمانية أعمدة وكان أحدها بلا رأس والكتابة فيه غير واضحة. وبنيت قاعدة المبنى بالأحجار المتنوعة. بعد أربع ساعات عبرنا صحراء صغيرة ووصلنا قبة سالم. وهنا في كومة حجار منحوتة يقف عمود مكسر. يقولون ان الأرض هنا لا تصلح لزراعة القمح والذرة لكنها تصلح جيداً للبسلة الخضراء والقطن والفول والعدس. يوجد بالقرب من معبد سوليت ترس دائري لبئر مصنوع من حجارة في شكل أوجه ولكنه مغطى بالرمله. هناك اعتقاد خرافي يمنع الرجل من قتل أي حيوان إذا كانت زوجته حبلى خوفاً عليها من الاجهاض.

٥ مارس:

وقفنا تجاه جزيرة صاي عبرت لاجد أربعة أعمدة من الحجارة الرمادية يبلغ محيطها قدماً واحداً وارتفاعها من عشرة إلى اثنى عشر قدماً. لها روؤس ولكن لا توجد بها أي زخارف أو كتابة هيروغليفية. تقف هذه الأعمدة أمام بقايا أعمدة أخرى من طوب أحمر. في داخل الجزيرة يوجد مكان يسمى حلة وردة يقال أن به بقايا أبنية من الطوب الأحمر. قال السكان ان هذه آبار عتيقة. سرنا لمدة ست ساعات على ضفة النيل حتى رأينا مبنى لا زال به بعض جزئيات أعمدة منقوشة. وصلنا الدال حيث يوجد مخزن حكومي للصمغ

---

(٧) قد تكون هذه المناجم خاصة بالذهب في تلك المنطقة أو محاجر الجرانيت الرمادي في تمبسي وكلاهما معروف منذ أيام قدماء المصريين.

الكاشف من الأهالي ولكن القائمقام مصري. لم نشاهد أي مكان خصص للسوق منذ أن تركنا حافر وهذا مؤشر واضح للفقر.

١٢ مارس:
وصلنا وادي حلفا. لا يوجد هنا أي شيء سوى مخزن الصمغ والعلف للحيوانات القادمة من كردفان. على الضفة اليمنى يوجد منزل الكاشف والحامية المكونة من كتيبة واحدة لم نتمكن من عبور النهر لعدم وجود أي مركب.

١٣ مارس:
قمنا بزيارة معبد سمنة وهو يقع على بعد نصف ساعة شمال القرية أصبت بالاحباط لأني كنت أتوقع أثراً كبيراً. صادفنا موجنايني واثنين من الأطباء الايطاليين وكانوا في طريقهم إلى سنار. تبلغ الضريبة على ساقية الماء في سنة مائة وستين وخمسين قرشاً نقداً ورطلين من السمن.

١٤ مارس:
نحن في الطريق لمدة ثلاث ساعات. وصلنا إلى ارقين وهي قرية كبيرة. يكلف الذرة والشعير هنا ستة عشر قرشاً للأردب والقمح اثنين وثلاثون قرشاً بينما نجد الشياه والطيور والبيض والبلح والفول وحبوب زيت الخروع.

٢١ مارس:
قمت في الصباح بزيارة أبي سمبل المعبد العظيم.

٢٣ مارس:
مررت بتوماس وهي مدينة يجد فيها المسافر كل ما يريد.

٢٤ مارس:
زرت معبد وادي سابوا (زار الكاتب بعض المواقع ولكن لم يعلن عنها)

٣٠ مارس:
دخلت اسوان في الصباح ووصل جاسيير في المساء.

مستر براون موجود هنا ومعه غزلانه. سمعت أن مسيو جانو قد توفي بأبي حمد.

٣١ مارس:

مات والي كاشف بقنا.

٩ ابريل:

تركت اسوان على جمل وغادر جاسيير بالقارب تبعت الضفة اليسرى.

١١ ابريل:

حددت الحكومة ضريبة البيع في قنا بمبلغ خمسة وعشرين كيساً سنوياً.

٢٤ ابريل:

وصل جاسيير بالمركب وباع جماله فركبت معه. غادرنا اسنا هذا الصباح...[٨].

٢٨ مايو:

وصلنا القاهرة ظهراً.

---

(٨) صارت الصحيفة في هذه المرحلة خالية من أي أهمية فاسقطت.

الفصل السادس

مذكرات حول سنار

صار السفر إلى سنار سهلاً منذ أن فتح إسماعيل باشا البلاد. إن قوز رجب[1] على نهر عطبرة ومندرة على مسيرة ثلاثة أيام شرق أبي حراز ونقاطاً كثيرة في الصحراء والنوبة هي الأماكن الوحيدة التي كان لها قيمة أثرية ولا زالت محاطة بنفس الغموض الذي خيم على مملكة كاندس على مدى الثلاثين سنة الماضية ولكن المسافر المغامر استطاع أن يتغلب على كل الصعاب ويزيح النقاب[2] وذلك بمساعدة الفرمان الرسمي الذي مكنه من تدبير الحراس والمرشدين.

لقد القى بروس (Bruce) الذي زار شبه جزيرة سنار دون أن يدرك أنها سنار، بعض الضوء على البلاد التي سافرت فيها[3]. ووقع بروس في الكثير من الأخطاء الرئيسية في الجغرافيا. ومثال لذلك الخلط بين نهري الرهد والدندر ولا زالت اخطاؤه ترد إلى اليوم في خرائط كثيرة.

ولكن يجب علينا الأخذ في الاعتبار بأن نوايا المسافر الاسكتلندي وأهدافه في استكشاف الحبشة قد تحققت وأن مجرد اكتشافه لمنابع النيل الأزرق وحدها تشفع لبعض

---

(١) لم استطع الحصول على معلومات كافية عن البقايا والخرائب في قوز رجب التي ذكرها بوركهارت (Burckardt) وأكد لي معظم الناس أنه لا توجد أي آثار لأماكن قديمة هناك (هوامش الكتاب).

(٢) ارسل بكلر مسكو (Puckler Muskae) ترجماته جيوفاني (Giovani) في حملة ليبحث عن الآثار في المندره (Egypt under Mehemet Ali, ii, pp. 362-367) وأحضر جيوفاني معه الأحواض القديمة وقطع حجرية وتمثالين ومحراب في ليبري (Libery) وهو موقع آخر في البطانة. وبث ويرن (Werne) في هذه المنطقة ١٨٤١ دون جدوى.

(٣) كتاب ج بروس **J. Bruece, Travels to discover the Source of (J. Bruce) the Nile (etc.) Edinburgh and London, 1790.**

الاخطاء التي وقع فيها جزافاً. ونحن مدينون لنجاردت بواحد من أجود الأعمال عن النوبة(٤). ولكن وصفه للبلاد إلى شندي ومن شندي إلى سواكن مع الملاحظة الدقيقة لعادات وتقاليد السكان تفوق بكثير ما ذكره عن النواحي الجغرافية. لقد كان عمله يفتقر إلى الوصف المفصل للأثار التي مر بها ولم يكن يتعرف عليها حيناً أو لا يستطيع الوصول إليها أحياناً. كان تعليقه عن المعالم الطبيعية أيضاً ناقصاً. أن تقارير هيبرودتس ديودورس عن صقلية لم تعد كافية لزماننا هذا. والتقدم الهائل الذي احرزته المعرفة يتطلب معلومات مفصلة وأكثر موضوعية وبخاصة المعلومات التي تعتبر أكثر دقة من أجود المقالات. وتعبر الطبيعة عن نفسها في شكل صور حية فقط وهذه الصور إذا ما عبر عنها شفاهة أو كتابة تكون أقل تعبيراً حتى من أي رسم. ولكن على أية حال لنعطي شخصية المغامر حقها ونأسى على أن الموت اختطفه وهو يخطط لمشاريع عظيمة وبما استطاع أن ينفذها بصورة أحسن من سابقتها.

يبدو أن كلود (Cailliaud استأثر لوحده بثمرة جهود السابقين وما جمعوا. لذلك نجد أنه بجانب وصفه الدقيق لحياة الناس في سنار وعاداتهم وتقاليدهم فقد قام بزيارة الأماكن الأثرية في آشور والنقعة والمصورات التي اغفلها من سبقوه من سواح قام برسم رسومات وخرائط ولكنه أهمل الهيروغلوفية وهي ظاهرة تعتبر الآن بالغة الأهمية. وفشل في استنطاق الصفات المقدسة لتلك اللغة موغلة في الغموض بالدقة التي يتطلبها علم الآثار كان عليه أن يدرك أن تصوير أدق التفاصيل عن أي أثر قديم من الأهمية بمكان ليس فقط للزمن الحاضر إنما للدراسة مستقبلاً. ما أكثر ما حفظ من صفحات الكتب القديمة من الحضارة الاثيوبية والمصرية للعلماء من السواح مستقبلاً.

ورغم هذه الغلطة الفظيعة فنحن مدينون له لبعض المعلومات البالغة الدقة: لقد حدد بصورة صحيحة المواقع الفلكية للمدن التي مر بها في طريقه لفازوغلي وأثرى علم النبات بأسماء كثير من النباتات والقى الضوء على بعض الموضوعات المتعلقة بعلم التعدين وأخيراً بكتابه الذي كان يذخر بالملاحظات الارصادية(٥) أنه هو الذي صحح الغلطة المتعلقة بموقع نهري الدندر والرهد التي سبق ذكرها.

بعد كلود فإن العمل لم يتعد الفحص الدقيق ونسخ الكتابة الهيروغلوفية التي ما

(٤) J. L. Burckhardit, Travels in Nubia, 1839.

(٥) F. Cailliaud, Voyage a Meroe (etc), 1826.

زالت موجودة بمروى ومعاينة الخرائب التي حظيت قريباً بانتباه المسافرين بمعاونة العمل الذي قام به شامبليون وروسليني وولكنن وذلك لحفظ الآثار التاريخية التي تركها القدماء على هذه الجزيرة[٦] لكي تمدنا بنقطة التحول في تاريخ الحضارة والقوانين والعلوم التي كانت تحكم مصر والتي انتقلت بواسطة الفلاسفة الاغريق بنشر تأثيرهم على كل العالم الكلاسيكي.

تلك كانت الخطة الواسعة المهمة التي اعتزم مستر هوسكن[٧] اتباعها ولكن يبدو أن قضاء عام في طيبة لا يكفي لفهم طبيعة هذه الكتابة المقدسة خاصة وأن الخبراء كانوا قد رفضوا الاجزاء التي نسخها كشيء مفهوم كان عليه زيارة معابد المصورات. وفيما يبدو لي فإن الأسباب التي أوردها لعجزه من الذهاب سخيفة. كان مستر هوسكن قاسياً جداً في حكمه على كالرد. فقد أخذ عليه نفس الأخطاء التي وقع فيها هو نفسه وهي عدم تحري الدقة في أسماء الأماكن والكلمات العربية. وقد أخذ على بيرخاردت كتابة كلمة عنقريب على هذا النحو: (augareig) بينما كتبها هو (angoareeb) والصحيح حسب النطق بالانجليزية (angareeb) وحسب النطق بالفرنسية (angareb).

وعلاوة على ذلك فإن المعلومات التي جمعها هوسكن على الفور من قبائل عربية مختلفة كانت غير دقيقة فهو لم يذكر الجعلية أو الجعليين[٨] وهي واحدة من أهم القبائل في مديرية بربر وقد ذكرهم كل من بيرخاردت وكالود أما معلوماته عن النيل الأبيض فكانت معلومات كالود غير دقيقة ولكن يجب أن أذكر نيابة عن المؤلفين كليهما أنه من الصعوبة بمكان لشخص في الخرطوم التأكد من حقائق عن هذا النهر الشهير. وقد حدث عن طريق المصادفة بسنار أن وقفت على ما كتبه كالود من منطقة العايس واردت التحقق من هذا الجزء من الرواية فكتبت لمسيو ثيبوت الذي قام برحلتين لبلاد الشلك وقد رد بما يلي:

«يعبر النيل الأبيض وهو صاعد من الخرطوم مناطق عديدة لقبائل عربية ولكل حدودها القبلية وأقوى تلك القبائل الحسناب والحسانية ويوجد إلى أعلى النهر الدينكا والشلك. ان القطعان الكبيرة التي يمتلكها الحسناب لاظهر دليل على أنهم ليسوا صيادين فقراء من المسلمين بل أصحاب مواشي أقوياء وبالإضافة إلى هذه الثروة فهم يستفيدون

(٦) أي شبه الجزيرة الواقعة بين النيل ونهر عطبرة.

(٧) كتاب. ج. أ. هوسكن G. A. Hoskins, Travels in Ethiopia about the Second Cataract of the Nile (etc), 1835.

(٨) هي «جعليون» بالعربية الفصحى وجعلين أو جعليين بالعامية مثل البشاريون والبشارين أو البشاريين.

من موسم الامطار بزراعة المناطق الداخلية وأما في موسم انخفاض النهر فهم يزرعون الجزر الخصبة جداً. إن مديرية العايز أو العز التي يتحدث عنها كالود هي عبارة عن منطقة رملية غير مزروعة حيث كانت توجد قرية تحمل نفس الاسم يسكنها عرب المسلمية وهي قبيلة كانت من القوة بحيث تقاوم هجمات القبائل المجاورة وقد أفاد شيخ القبيلة الذي كان على اتصال بالشلك أهله من التجارة التي استطاع أن يقيسها مع سكان الجزيرة. وسكان الجزيرة هم الذين يجب أن يوصفوا بأنهم صيادون فقراء لأنهم يعتمدون كلياً على الصيد في حياتهم ولا يستطيعون الاشتغال بالزراعة بأمر شيخ الشلك الكبير. وهم وثنيون وليس مسلمين.

دعنا نأمل أن مختلف الاوروبيين الذين سافروا صعوداً ونزولاً على هذا النهر الشهير خلال السنوات القليلة الماضية سوف يستطيعون أخيراً إلغاء بعض الضوء على الغموض الذي خيم على منابع النيل طوال القرون وسوف لا تدل القولة الشهيرة: (Caput Nili quaerer) على استحالة هذه المهمة.

لا أعتقد بعد كل هذا النقد أنك ستخطىء لو تناولت بعض ما كتب أثناء وجودي في سنار الذي كما يبدو لي جديرة بالاهتمام لأني لم استمدها من أي من المسافرين الذين ذكرتهم من قبل.

والشجاعة هي أعلى قيمة بين هؤلاء الأجلاق من الناس. وقد أظهر النوبيون رباطة الجأش في كثير من المواقف وهي صفة يمتاز بها الهنود الاميركان. جلد الكثيرون منهم حتى الموت أو صلبوا دون أن يبدوا أي حراك بل وكان بعضهم يسخرون من الاتراك ويطلقون النكات وهم يموتون على الخازوق المقاتل. وحكم على ثلاثة اخوان بالموت بهذه الطريقة إبان إدارة خورشيد باشا فبكت اختهم بأسفل العمود المشئوم ولكنهم سخروا منها فشعرت بالخزي من ضعفها وطلبت أن تموت إلى جانبهم وأخذت تسيء الحراس فلم يعيروها التفاتاً فلعنت الحاكم وبصقت في وجهه وذهبت لأكثر من ذلك حتى أطلق أحد الجنود الاتراك عليها النار فلم يحزن اخوتها عليها بل فرحوا.

وكثيراً ما تجد مواقف الشجاعة من يمجدها من الشعراء مثل أي موقف قتال أو موقف كرم. والشعر يخلد بعد وفاة الشاعر ويلهم هؤلاء الافظاظ ويثير فيهم روح الشجاعة وخاصة وأن الشعر والموسيقى كانت شيئاً رائعاً ومقدساً بالنسبة لهؤلاء الناس. وكان

(٩) تعني الكلمة العربية «صياد» صياد سمك وصياد حيوانات (هوامش الكتاب).

الشعراء يرتجلون فهم يغنون بعض قصائدهم بمصاحبة موسيقى القيثارة التي تصنع من اوتار جيدة مشدودة على قرعة خشبية. وكانت هذه النغمات تطرب مستمعيها. وتوجد مادة جيدة جداً في مجموعة أغانيهم عن تاريخ بلادهم ربما كان ذلك مؤشراً لوجود ملحمة قومية كاملة.

ومن الخرافات الشائعة التي يعتقد فيها أهل سنار ألا يقبل زوج المرأة الحبلى أي حيوان خوفاً من أن يموت الطفل في رحم أمه إن هو فعل والخرافة الأخرى هي اعتقادهم في وجود «السحاحير» وهم السحرة الذين يقال أن في مقدورهم التحول إلى أشياء فائقة الجمال أو تماسيح أو ضباع ويشربون دم الإنسان ويتسببون في موت الناس بأكل أعضائهم الحيوية ـ القلب والمخ ـ والكبد والأمعاء من الداخل دون أن يراهم أحد. إذا توفي إنسان فجأة يعتقد أن «السحار» قد قتله، وكثيراً ما اتهم بعض الأبرياء بأنهم «سحاحير» وصاروا ضحايا لانتقام أهل الميت. ويعتقد أيضاً في وجود الفكي ويسمى وهو يدعي بأن لديه المقدرة على معرفة السحاحير ويتهم بعض الأبرياء زوراً.

وسأسرد لكم عادة قديمة جداً في سنار والأقاليم المجاورة ولكنها تركت الآن ومنذ الفتح العثماني. إذا اتهمت امرأة أخرى بأنها عاهرة تطلب المتهمة في الحال المحاكمة بالنار إذ أرادت أن تبرىء نفسها. ويحضر كانون به نار وتوضع به ثلاثة فئوس تسخن حتى تصير حمراء وتأخذها المرأتان من النار بأيديهما تباعاً ومن تحرق النار أصابعها وكفة يدها تكون هي المدانة ويحكم عليها بالقتل دون إجراء أي محاكمة أخرى. أما التي لا تؤذيها النار فيعطيها أهل المذنبة الهدايا ثم يقومون بدفن الجانية دون أي مراسم جنازة إذ أنها تعتبر وصمة عار بشرفهم. وقد أوردت السجلات الدورية للقرون الوسطى عادتين أو ثلاث مثل هذه وهي العقاب بالسيخ الساخن والماء البارد وحساب الله أو القدر.

ويكون الخزي والعار على الشخص المتوفى وأسرته إذا لم يبك أهله عند موته. ولتنفيذ هذا الالتزام عندما يسمع الشخص بموت أحد الأقارب حتى وإن كان يبعد بثلاثمائة فرسخ يمتلىء بيت الميت بالصراخ والعويل لمدة أربعة أو خمسة شهور تحضر الطسوت وتملأ بالماء ويكفي بها القرع ويضرب عليه بعصى صغيرة في إيقاع حزين. يكون هذا بمثابة دعوة للجميع لحضور مراسم الجنازة ولكي يبكوا ويولولوا معهم.

إذا حملت الفتاة العذراء سفاحاً يقوم والدها واخوانها وفي حالة غيابهم يقوم أقاربها بتقطيع جسدها إلى أجزاء ثم يقومون بدفنها قبل أن ينتشر عارها.

أما عادة خفاض البنات فلم يكن يطبق على الأحرار من النساء مثل المملوكات على حد سواء كما أكد بيرخاردت والحقيقة هي أن المملوكات لا يجبرن على إجراء هذه العملية البشعة مّا لم يفرض عليهم أسيادهن. وكانت هذه العادة مقصورة على القبائل المسلمة التي تقر هذه العادة نتيجة لتفسيرها الخاطىء لتعاليم القرآن. تتعرض الفتيات المسلمات في سنار وبربر وكردفان وكل القبائل المجاورة التي تتبع لشريعة محمد لهذا التشويه الفظيع والذي يؤدي لموت بعضهن. وإذا رفضن إجراء هذه العملية فسوف يقتلن بوصفهن «كفاراً».

وتجري هذه العملية للبنات النوبيات في سن العاشرة تقريباً وتسبقها احتفالات فخمة مثل التي تسبق ختان الذكور. وترقص النساء في هذه الاحتفالات على نغمات النقارة وهي طبلة كبيرة وعلى نغمات الطمبور. وتنحر الثيران أو الجمال حسب مكانة صاحب المناسبة ودرجة ثرائه. والكل يشرب المريسة وأم بلبل في مرح والطبق المفضل في هذه المناسبة هو المرارة وهي عبارة عن الصفراء والكبد والكلى والكرش للضأن أو الماعز أو الجمال. وهي تغسل وتؤكل نيئة بعد أن تتبل بكثير من «الشطيطة» وهي الشطة الحارقة لكي تعطيها النكهة ولكي تجعل طعم اللحم مقبولاً.

ذكر كالود أن النساء شديدات الطاعة لازواجهن وهذا ليس بالحكم العام إذ أن الرجال في بربر وبخاصة في قبائل الجعليين يتمتعون بسلطة محدودة جداً على زوجاتهم وقد تتجرأ المرأة وتضرب زوجها بحذائها إذا ما سمعت منه ما لا يرضيها. وينحاز أهلها إلى جانبها إذا ما اشتد الخلاف بينهما ويؤنبونه ولا يحبذ النساء عموماً حلب اللبن ويتركنه للرجال.

وأثناء احتفالات الزواج التي تستمر لسبعة أيام تنتحب طوالها العروس بصفة مستديمة وكلما ازداد بكاؤها هنأ الناس العريس وتنبأوا له بحياة زوجية سعيدة. وليس كل هذا البكاء تقليداً فقط وإنما جزء منه بسبب مداعبة العريس الذي تترك أظافره آثاراً في كل أجزاء جسدها وذلك بحضور أولياء أمر العروس.

ولنتناول الآن موضوعات أهم من هذه. عبر قليل جداً من الاوروبيين الصحراء من بربر إلى سواكن، وبما أني قد عبرتها مرتين فاني أرى أن بعضَ الملاحظات التي دونتها قد تكون مشوقة بالنسبة لكم.

ويعد تجار سواكن أو الحداربة الصحراء عادة في خمسة عشر أو ستة عشر يوماً على

ظهور الجمال ولكنهم إذا جدوا في المسير فيمكنهم اختصار الرحلة في خمسة أو ستة أيام. أما أنا فقد استغرقت رحلتي اثنى عشر يوماً ذهاباً وعشرين يوماً إياباً. هذا الاختلاف في زمن الرحلة يكون نتيجة الاختلاف في المدة التي تأخذها القوافل في أماكن الشرب.

وخريطة حوض النيل التي اعدها و. ليك (W. LEAKE) لكتاب بيرخاردت وخريطة النوبة والحبشة لاروسمث توضح المقرن وهو ينساب من اتجاه سواكن لبربر بينما يسمى نهر عطبره نفسه «المقرن» عند مصبه[10]. صحح كل من كالود وروبيل «Ruppel» هذا الخطأ في كتبهما[11].

الطريق من بربر إلى سواكن خال إلى قرابة نصف المسافة من الماء إلا في فصل الإفطار حيث الأمطار معتدلة والخريف يزامن الصيف وجزء من الخريف. بعد سقوط الأعصار تصبح الرحلة ممتعة وأقل مشقة إذ تسافر عبر سهول جافة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام خارج بربر وبعدها تمر على الجزء الجبلي والذي يستمر إلى سواكن. توجد على سفوح الجبال آبار مرة المياه يروى عنها الأهالي قصة مسروعة: هي أن المياه كانت صالحة للشرب ولكنها صارت مرة بسبب ما سكب فيها من دماء القتلى في المعارك التي دارت حولها بين القبائل الأصلية التي تحرس الآبار والعرب البدو الذين يريدون السقيا لقطعانهم.

والجزء الذي يجري في منطقة جبلية من الرحله متنوع جداً فأنت تمر في كل لحظة عبر أخاديد صخرية ضيقة متصلة بأودية وخيران صغيرة مليئة بأشجار السنط والعشر وطبقة رقيقة من الحشيش. إنك هنا تمر بقطعان متعددة من الجمال والغنم والخراف وترى أحياناً شخصاً هو في الغالب هدندوي مسلحاً بحربة وعار إلا من قطعة قذرة من القماش يلفها حول وسطه. ويوجد بالآبار في الاودية ماء عذب يأتيها من الينابيع. يوجد حوالي ست آبار. وهناك عدد كبير من أماكن الماء التي شربت منها وهي عبارة عن حفائر وأحواض طبيعية تتجمع فيها أمطار العام الماضي. والتي تكون جافة أحياناً إذا كان الخريف فاشلاً.

وأحسن مكان للتعرف على اعراب الصحراء هو حول تلك الآبار حيث يأتون لورود الماء بقطعانهم من الجمال. والجمال ذات السنامين والثيران والحمير والخراف والاغنام قصيرة الشعر. تجيء النساء والفتيات لنشل المياه وهن يغنين. كن يحملن دلاءهن

(١٠) يقصد بالمقرن المثلث الأرضي بين نهر النيل ونهر عطبرة حيث يلتقيان.

(١١) كتاب W. P. E. S. Ruppel, Reisen in Nubien (etc), Frankfurt aM, 1829.

المصنوعة من جلد الماعز كما هو الحال في القاهرة (السقما). كن يلبسن تنورات من الجلد رديئة الصنع أو خرقاً تكفي لستر العورة فقط ويمسحن أجسامهن بالسمن أو الودك المذاب على النار، ويلبس بعضهن زمام الفضة في الأنف أو على حلمات الأذن. وهن لا يشعرن بالغيظ والخجل إذا نظرنا لهن. الوانهن مختلفة وهي درجات تتراوح بين الاسمر إلى الاسمر الغاني ومعظمهن جميلات الوجه. أما الرجال فدائماً طوال أقوياء. وللشيوخ والمسنين عامة قوام مهيب فهم يرسلون شعرهم ولحاهم طويلة رغم أنهم عرفوا الحلاقة فقد ادخلها بعض زعماء العشائر، وربما كان ذلك نتيجة لاتصالهم بالاتراك.

ومساكنهم متفرقة إذ يبعد المنزل عن الآخر مسيرة ربع ساعة. وتصنع تلك الخيام من الحصير وترتكز على أعمدة وهي مفتوحة من جانب واحد. وعند النظر داخل بعضها وجدتها تحتوي على آنية فخارية وأخرى من الخشب ومقعد يشبه الكنبة مصنوع من ثلاثة ألواح وهي تستعمل للنوم بعيداً عن الحشرات. وتتاجر هذه القبائل بالسمن والدواجن والجلود يبيعونها مقابل الذرة والتباكو والحصير والبضائع القطنية ورؤوس الحراب والأحذية والاكسسوارات الزجاجية للنساء. كانت أسواقهم الرئيسية هي سواكن والتاكا.

يمكن أن تعتبر هذه القبائل مستقلة بالرغم من أنها تقوم بدفع أتاوات بسيطة للأتراك ويدفعون أيضاً لشيخ التاكا ـ محمد الدين ـ ولكن سلطته كانت اسمية. ويسمى كل العرب في هذه المنطقة هدندوة ولكن كل شيخ يطلق اسمه على قبيلته مثل الهالوا والطاهر وعلى حسن وهم عادة يضيفون كلمة «ولد» مثل ولد الطاهر وود علي حسين. . . . . الخ ولا أدري لماذا يعتنقون الإسلام ولا يطبقونه هل لجهلهم أم ذاك عدم اكتراث وصلاتهم مقتضبة ويبدو أنهم لا يجيدون اللغة العربية. ولغتهم تبدو صعبة بالنسبة للاوروبيين وغريبة حتى على الأذن المصرية وهي قريبة الشبه بلهجة البشارين ولا يتحدث لغة الرسول إلا بعض شيوخهم الذين زاروا مكة أو كانوا على اتصال بالحكومة التركية.

هؤلاء الناس حسب حكمي الخاص عليهم ومما استطعت استخلاصه من المصريين والباعة من أهل النوبة، قساة وخونة بالفطرة. فهم يقتلونك وينهبونك إن لم تكن تحت حراسة مشددة ودائمة حتى وإن اقسموا على منحك «أمان الله». ولم نستطع الحفاظ على أرواحنا أنا وزميلي إلا بحرصنا وتأهبنا الدائم بأسلحتنا النارية، لأن هؤلاء الناس رغم تسلحهم فهم يعتقدون أن النهب وسيلة شريفة للحصول على الممتلكات،

وتمارس التجارة على نطاق ضيق جداً في منطقتهم ويمارسها بعض الحداربة[١٢] من سنار وهم يعبرون الصحراء في طريقهم لسنار وكردفان ودانور حيث يحضرون بضائع مختلفة من اليمن والهند مثل القماش والزيت والصندلية والتوابل والعطور وكانوا يستبدلونها بالرقيق وريش النعام والعاج.

والصحراء بين بربر وسواكن وحتى الجزء من صحراء بيوضة وكورسوكو تسمى صحراء فقط لعدم وجود الماء فيها. لأن التربة ليست جدباء في كل الأماكن ويمكن أن تستصلح وتستقر فيها بعض القبائل وذلك إذا ما اعتنى بها الإنسان بزراعة السهول والأراضي القفر. رأيت سيقان القمح التي قطعت حديثاً في منتصف الطريق بين بربر وسواكن وعند سؤال الدليل أجاب بأن القبائل أحياناً تنتج محاصيل وفيرة بعد هطول الأمطار الغزيرة. وبهذه الصحراء أماكن يمكن أن تنتج محاصيل وفيرة للناس والحيوانات إذا ما استقلت.

أما بين الصحراء والبحر فالأرض جرداء يتلهف المسافر فيها للاستمتاع برؤية بعض المرعى والعشب الأخضر قبل أن يواصل رحلته في هذا الطريق الشاق، وذلك لشدة المشقة التي يجبرها في عبور الصحراء من جفاف ورتابة.

وصف بيركهارت سواكن وصفاً ضافياً. وقد بنى جزءاً من هذه المدينة على جزيرة والجزء الآخر بالداخل يقع ديوان الحاكم بالجزيرة. يتكون سكان الجزيرة من بعض الموظفين والجنود وبعض المصريين والأجانب. معظم المباني محطمة وهي عبارة عن خرائب. كل المرافق العامة عبارة عن مقهيين ومسجدين.

والقيف وهو الجزء الذي يقع بالداخل به عدد لا بأس به من السكان. توجد سوق يومية من منتصف النهار إلى المغيب حيث تباع بضائع من الجزيرة العربية والهند وسنار. وهم لا يستبدلون بضائعهم بالذرة فقط كما كان الحال في عهد بيرخاردت. بل أنت تجد النقود المصرية متداولة. ودولارات ميري ثيرثيا وتسمى أبو نقطة كثيرة الطلب لكي تحول لحلى للنساء أو لاستعمالها في المقايضة مع الأحباش.

ومعظم سكان المدينة في سواكن يشتغلون بالنجارة اما عبر ساحل البحر الأحمر أو مع سنار. والمنتوجات الصناعية محدودة جداً وأهمها الحصائر وقراب الماء. ومما أعطى

(١٢) راجع ما سيقوله بوركهارت عن الحداربة في Travels in Nubia P7 391. ص ٣٩ (هوامش الكتاب في النسخة الانجليزية لعام ١٨١٩ والإشارة هنا لصفحة ٤٣٣.

المدينة طابعاً خاصاً مرور المسلمين من سنار وأواسط القارة الافريقية بها في طريقهم إلى الحج. ومعظم هؤلاء الحجاج من الفقراء والمتسولين ولكنهم يتسولون رغبة في ذلك وليس لاحتياجهم.»ويسمون التكرور ربما لأن معظمهم يأتي من بلاد تسمى تكارنة(١٣). ويقال عنهم أنهم اعتادوا قطع الطرق وأنهم أخطر عندما يكونون في مجموعات. ويتحدث الأهالي عن وجود خرائب من الطوب المحروق حيث توجد كتل من الحجارة الجيرية التي تحمل كتابة بالحروف العصفورية (الهيروغلوفية). ويقال أنه توجد مقبرة بها أعمدة منقوشة بالهيرغلوفية أيضاً وتقع على مسيرة يوم ونصف شمال سواكن وعلى بعد خمس ساعات إلى الداخل من الساحل وليس بعيداً من أكوام الحجارة المكسرة. يذكر أيضاً وجود كتابات في الصخور بين بربر وسواكن.

وسوف أختم صحيفتي هذه برواية اسطورة عربية حدثوني بها في الصحراء عن أصل تسمية سواكن(١٤) أو سواجن: عهد تاجر غني من القاهرة لوكيله بتأجير سفينة والإبحار بها إلى الحبشة لإحضار اربعين من الفتيات لرجال المدينة. وصلت السفينة إلى ميناء مصوع وقام الوكيل بشراء البنات وركب معهن السفينة وقفل راجعاً إلى مصر. وفي الطريق وعلى الساحل ترسو السفينة كل ليل لكي تتمكن البضاعة النفيسة من النوم بارتياح. وأخيراً وصل الوكيل إلى القاهرة ليجد التاجر أن جميع العذارى حاملات مما أغضبه. أقسم الوكيل أنه بريء وأكدت البنات ذلك وروت كل بنت منفردة أنها قد رأت حلماً جميلاً أثناء النوم عند الوقوف ليلاً بالجزيرة. فعفى التاجر عن وكيله عندما سمع هذه الرواية. واضح أن الجن هي المسئولة عما حدث. فأمر الوكيل بأخذهن جميعاً إلى نفس الجزيرة وتركهن هناك. تزوج عربان الصحراء من البنات الاربعين وقد كونت سلالتهم مدينة سواكن أو سواجن (سواه الجن) يقال أن السكان الحاليين ما زالوا يتصفون بالمكر والشر الذي ورثوه عن أسلافهم.

---

(١٣) قام بطبع الهامش الآتي متلقى الرسالة ايرس دافن E. Prisx d'Avennes النقش التاريخي البسيط بالقصر الذي شيد تخليداً لذكرى الفتوحات التي قام بها مينيفتاه الأول (Menephtah i) وتصور جمهرة من الاسرى الافارقة وقد حمل كل منهم ورقة كتب عليها اسم بلده. كان أحدهم يحمل اسم تكرور (Tekrror) والتي يبدو أنها اسم البلاد التي يطلق عليها الحجاج تكروري وكما يروي أحد شيوخ البشارين فإن بلاد التكارير تقع إلى الجنوب من دارفور وتسمى دار كنجارا .E. P (وتكروري وجمعها تكارير ونادراً ما تجمع على تكارنة) هنى اسم يطلق بالسودان على جميع المسلمين من ودناي إلى الاطلنطي).

(١٤) وفي رواية أخرى من الروايات المتعددة عن أصل الاسم سواكن هي الرواية التي دونتها مدام فيفيان أمينة ياجي وقد تلقتها من والد زوجها الشيخ أحمد محمد ياجي وهو راوية قصص (حجاي) مشهور بام درمان.

المراجع

قائمة المراجع العربية:

١ ـ من أدب الرباط الشعبي عبد الله علي إبراهيم ـ الخرطوم جامعة الخرطوم شعبة أبحاث السودان ١٩٦٨ الجزء ٤

(ـ تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. محمد بن عمر التونسي تحقيق دكتور خليل محمد عساكر ومصطفى محمد سعيد ـ القاهرة ١٩٦٥ .

٣ ـ رحلة محمد علي باشا للسودان ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ . كراسة رقم ١٥ معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ـ جامعة الخرطوم .

٤ ـ دفتر معين سنيه تركي ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤٤ بتاريخ ١٢ محرم ٢٣٨ .

قائمة المراجع الانجليزية:

1 - Egypt in the Sudan. Royal Institute of International Affairs 1959 By Richard Hill

2 - The Tuti Community. Khartoum 1963 By Richard.

3 - Sudan Transport London, Oxford University Press 1965. By Richard Hill

1 - «The Gordon Literature» Durham University Journal XL VII (1955) pp. 190 103

2 - «The Period of Egyptian occupatian» S. N. R. XL 1959 pp. 100-106

3 - «Historical Writing on the Sudan since 1820», in Historians of the middle East Edeted by Bernard Lewis and P. M. Holt (London) (1961) p. p. 367-66

الفهرس

رقم الإيداع: 2015/19905